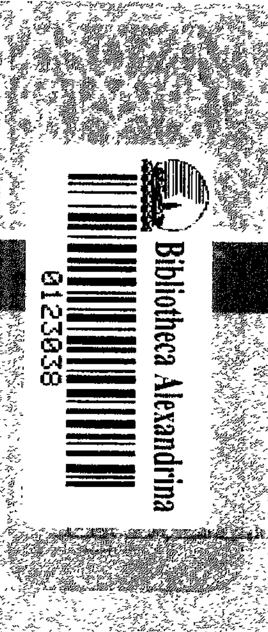
والسلوك الإنساني




Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

القرآن الكريم

والسلوك الإنساني



القرآن الكريم

والسلوك الإنسانى

محمد بهائى سليم



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٨٧

الإخراج الفنى : ماجدة البنا

الاشراف الفنى : عفاف توفيق

« بسم الله الرحمن الرحيم »

تقـــــديم

هذا الكتاب ليس تفسيراً للقرآن الكريم كما جرى عليه مفسروه الذين تناولوا آيات خاتم كتب الله آية آية ، ففسروا ألفاظها وأهدافها ، ليكون قارئه على بينة وفهم صحيح لمقاصد هذه الآيات والحكمة الإلهية من إنزالها .

ولكنّا فى وضعنا هذا الكتاب قد اتجهنا اتجاهاً جديداً ، إذ تناولنا فيـه جوانب السلوك الإنسانى كما يجب أن يكون ، وكما أمر به العزيز الحكيم ، ربُّ العالمين .

وقد استرشدنا فى ذلك بالمناسب من آيات الله البينات التى تضمنها خاتم كتب الله ، قرآنه الكريم .

وإننا فى عالمنا المعاصر ، حيث تعددت احتياجات الإنسان وتنوعت ، وحيث تشابكت المصالح بين أفراد المجتمع الإنسـانى وشعوبـه ، وتعقدت الوسائل والسبل والمسالك فى رحلتنا القصيرة فى هذه الحياة الدنيا لأحوَج إلى معرفة أنفسنا على حقيقتها .

لماذا خُلقنا ؟ وما نوازعنا ورغباتنا ؟ وما أهدافنا فى هذه الحياة ؟ ، وكيف نعيش حياة إنسانية كريمة ؟ ، وما أقوم الوسائل التى يجب أن نأخذ بهـا فى سلوكنا وعلاقاتنا بخالقنا وبأنفسنا وبغيرنا من بنى آدم ؟ .

كل هذا تنـاولناه فى هـذا الكتاب ، فبيّنـا فيه خَلْقَ الإنسـان وطبيعته البشرية ، كما تناولنا معنى الإيمان ووسائله وأهدافه فى جميع اتجاهات هـذا السلوك ومظاهره من حيث الفكر والقول والعمل ، كما أراده الله لخير من امن به وبكتبه ورسله وباليوم الآخر ، وكما بيّنها ، سَمَت حكمته ، أوضح بيان وأبلغ مقال فى خاتم كتبه .

فكل ما ينادى به البشر فى عالمنا المعاصر من مذاهب ومبادىء ومُثُل ولا يعملون بها ، قد سبق أن بيّنها العزيز الحكيم فى قرآنه الكريم . وما نَزّل هذا القرآن إلا لخير البشر ما سار بنهجه البشر وسلكوا صراط ربهم المستقيم . وما نُزِّل هذا القرآن إلا ليبين للناس كافة فى كل زمان ومكان ، معانى الكرامة الإنسانية والمساواة بين الناس ، وكيف يعيش الإنسان فى هذه الحياة الدنيا حراً كريماً خيّراً مؤمنا تقّياً عادلاً محبا للسلام ، بعيداً عن أهواء النفس الأمّارة بالسوء ، مهتدياً فى سلوكه بتلك التعاليم والمبادىء الربانية السامية التى أوردها الله فى محكم التنزيل ، فى القرآن الكريم .

« والله ولى التوفيق »

المؤلف

من آيات الله البينات

بسم الله الرحمن الرحيم

«وإذا قُرِىءَ القرآنُ فاسْتمِعوُا له وأنصتوُا ، لعلكم تُرْحَمُونَ»(١) .

«إنَّ هذا القرآنَ يهدى للتى هى أقومُ ويبشّرُ المؤمنينَ الذين يعمَلونَ الصالِحاتِ أنَّ لهم أجراً كبيراً»(٢) .

«وأنَّ هذا صراطى مستقيماً فاتَّبِعُوه ولا تَتّبعوُا السُّبُلَ فَتَفرَّقَ بكم عن سبيله ذلكم وصَّاكم به لعلكم تتقون»(٣) .

«نَزّل عليك الكتاب بالحق مصدّقاً لما بين يديه وأنْزَلَ التّوراةَ والإنجيلَ»(٤) .

«شَرَعَ لكم من الدّين ما وَصَّى به نوحاً والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيمَ وموسى وعيسى أن أقيموا الدِّينَ ولا تتفرقوا فيه كبُر على المشركين ما تدعوهم إليه اللهُ يجتبى إليه من يشاءُ ، ويهدى إليه من يُنيب»(٥) .

«إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذُكّروا بها خرُّوا سُجَّداً وسبَّحُوا بحمدِ ربِّهم ، وهم لا يستكبرون»(٦) .

«تتجافَى جنُوبهم عن المضَاجع يـدْعُون ربّهم خـوفـاً وطمعـاً وممـا رزقْنـاهم يُنفقون»(٧) .

« إنما المؤمنون الذين إذا ذُكر الله وجِلت قلوبهُم وإذا تُليت عليهم آياتُه زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون »(٨) .

« الله نزّل أحسن الحديث كتاباً متشابها مّثانِىَ تقْشعِرُّ منه جلودُ الذين يَخْشَوْنَ ربَّهم ثم تلينُ جلودُهم وقلوبُهم إلى ذِكْرِ الله ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ومن يُضلِلِ اللهُ فما له من هادٍ »(٩) .

« وما منع النـاس أن يؤمنوا إذْ جـاءهُمُ الهدى إلا أن قـالوا أَبَعَثَ اللهُ بشـراً رَّسولاً »(١٠)« قل لو كان فى الأرض ملائكةٌ يمشونَ مطمئنين لنزَّلْنا عليهم من السَّماء مَلَكاً رَّسولاً »(١١) « ولتكن منكم أمةٌ يدعون إلى الخير ويأمرونَ بالمعروفِ وينهَوْنَ عن المنكر وأولئك هُمُ المُفْلِحونَ»(١٢) .

صدق الله العظيم

« بسم الله الرحمن الرحيم »

« ن والقَلَمِ وما يَسْطُرونَ * ما أنت بنعمةِ ربِّكَ بمجنونٍ * وإنّ لك لَأَجْرًا غير ممنونٍ * وإنّك لَعَلى خُلُقٍ عظيمٍ * فستُبْصرُ ويُبْصِرُونَ * بأَيِّكُمُ المفتون * إنَّ ربك هو أعلمُ بمن ضَلَّ عَنْ سَبيلِهِ * وهو أعلمُ بالمهتَدينَ * فلا تُطع المكذِّبينَ * **وَدّوا لوْ** تُدْهِنُ فيُدْهِنونَ * ولاتُطِعْ كُلَّ حلاَّف مّهِينٍ * همَّازٍ مشَّاءٍ بِنَميمٍ * منَّاعٍ للخيرِ مُعْتدٍ أثيمٍ * عُتُلٍّ بعد ذلك زَنيمٍ »(٤) .

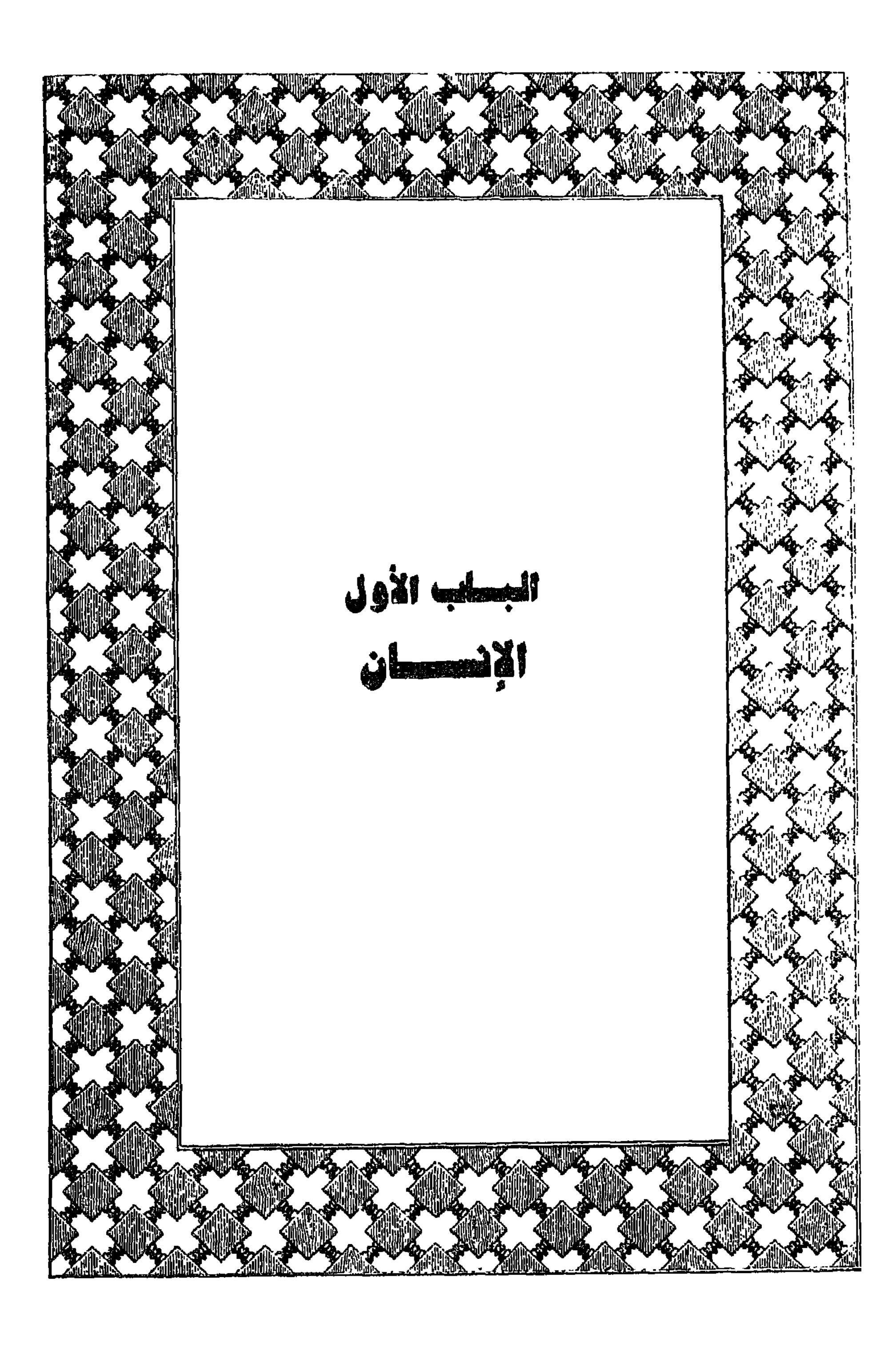
صدق الله العظيم

عن رسول الله ﷺ ، أنه قال :

(إنَّما بُعثتُ لأُتمِّمَ مكارمَ الأخْلاقِ) * (أَدَّبَنِي رَبِّي فَأَحْسَنَ تَأْدِيبِي) .

صدق رسول الله

وعن عائشة ، رضى الله عنها ، عندما سئلت عن أخلاق الرسول ، عليه الصلاة والسلام ، أنها قالت : (كان خُلُقُه القرآن) .



الباب الأول
الإنسان



كلمـة الإنسان لغـة من أَنَس ، وفعله أنِسَ أى اطمأن وهـدأ بالـه وفـرح ، فالإنسان إذن مصدر للإرتياح والفرح ، حتى أنه ليأنس ويطمئن بلقاء بنى جنسه .

فليعمل الإنسان بإسمه وصفته ، وليكن مصدر خير وفرح لغيره من البشر .

وليسبح باسم خالقه الذى خلقه وصوره فأحسن تصويره . وليشكر ربه إذْ زوده بالعقل الذى به يدرك ما يحس وبه يدبر أمره . وليحمد ربه الذى استخلفه على أرضه ولم يتركه عليها سدى ، بل رعاه ولحظه ورباه بما أنزل عليه من محكم التوجيه وسديد النصح فيما تضمنته كتبه السماوية وخاتمها القرآن الكريم ، وأوحى بها إلى رسله وخاتمهم سيدنا محمد ﷺ .

وليكن هذا الإنسان جديرا بخلافته على الأرض ، وليعمل على عمرانها بدلا من تخريبها والإصلاح فيها بدلا من الإفساد ، مسترشدا فى كل ما يفكـر أو يقول أو يعمل ، بما نزّل الله من آيات بينات .

هذا الإنسان !

الذى نسى نشأته الأولى إذْ لم يكن شيئا مذكورا ، ونسى أو تناسى الذى أنشأه ، سبحانه وتعالى ، وسواه رجلا ، وغفل عن حكمته من خلقه .

هذا الإنسان ! الذى لا يذكر من أنشأه وكيف أنشأه ونفخ فيه الروح التى بها يحيا على هذه الأرض وعليها يسعى وفيها يثوى ، ثم منها يُبعث بأمر ربه ليحشره مع الخلق أجمعين يوم الحساب العظيم .

هذا الإنسان ! الذى لا يزال يسلك من وعر المسالك ما تدفعه فيها غرائزه العمياء دفعا ، إنّ هذا الإنسان ما زال يطغى ويستكبر ويتجبر ، ويفسد فى الأرض التى استخلفه عليها خالقه ومصوره ليصلح فيها ، وينفذ فيها مشيئته التى شاءت له الخير والفلاح ، وللأرض العمران والإصلاح ، بعد أن زوّده العلى القدير ببصر يتبصر به الخير من الشر ، وبسمْع يميز به ثم يتدبر ، وفؤاد يحس به صراط ربه المستقيم ليتبعه والعوج السقيم فينأى بنفسه عنه .

هذا الإنسان !، الذى حاد عن صراط ربه المستقيم ، الذى رسمه له خالقه القدير ليسير عليه وفق تعاليم الحكيم العليم ، فعصى أمر ربه الذى :

« خَلَقَ الإنسان من نُطفةٍ فإذا هو خصيم مُّبينٌ »(١٤)

ما أحرى هذا الإنسان بذكر ربه وبالتوبة إليه وبالعودة إلى صراطه المستقيم ، بعد ذكره وشكر فضله عليه ، والسير عليه جادًّا مخلصا آمنا مؤ منا ، مستخدما فى كل هذا ما أنعم به الله عليه من سمع وبصر وفؤاد ، حتى لا تجرفه غواية إبليس اللعين عدوه المبين ، الذى يعيث فسادا فى قلب الإنسان الضعيف ، فيضل الصواب فى سيره وسريرته ويسىء إلى نفسه التى أراد الله بها الخير والفلاح للفرد وللمجتمع .

وها هى تعاليم الخالق المبدع ، البصير الخبير ، قد أودعها قرآنه المبين ، دستور البشرية الأزلى القويم ، أنزله الرحمن رحمة وهدى للناس كافة فى كل زمان ومكان ، حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، وهو خير الوارثين .

هذا الكتاب القيّم ! الذى لم يترك صغيرة ولا كبيرة من شئون الدنيا والآخرة إلا وأحاط بها وأحصاها ، ولم يتعرض لمشكلة إلا وأوجد لها الحل الحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

وهل أصدق مما جاء بآيات الخالق المبينات فى محكم تنزيله وخاتم كتبه ؟ فليرجع إليها الإنسان مؤمنا بحكمة الخالق ، ومخلصا له الدعاء ، فيتضاءل فى حضرة العلىّ الكبير ويخشع ويسلم الأمر كله له ، بدلا من المعاندة والمكابرة والتخبط ، والإمعان فى الضلال .

«إنّا هدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إمَّا شاكراً وإمَّا كفُوراً»[١٥] .

هذا الإنسان !

كيف خُلق ؟ وممّ خُلق ؟

لحكمة لا يعلمها إلا الخالق المبدع القدير العليم ، لم يخلق آدم ، أبا البشر ، من نور ولا من نار ، ولم يخلقه من صخر صلد ولا من معدن نفيس أو من حجر كريم ، بل خلقه مما هو أدنى من هذا وذاك ، خلقه من تراب وطين :

« قَالَ كَذَلَك قال ربُّك هُو عَلَيَّ هَيِّنٌ ، وقَدْ خَلَقتُك من قَبلُ ولم تَكُ شيئاً »[١٦] .

« إنّ مثلَ عيسى عند اللهِ كمَثَلِ آدمَ خَلَقَهُ من تُرابٍ ثُم قَالَ لَهُ كنْ ، فَيَكونُ »[١٧] .

« الذى أحْسَنَ كلَّ شىءٍ خَلَقَهُ وبدأ خَلْقَ الإنسانِ من طينٍ »[١٨] .

« إنا خَلقْناهُم منْ طينٍ لازبٍ »[١٩] .

« ولقد خلقنا الإنسان من صلصالٍ من حمإٍ مَّسْنُونٍ »[٢٠] .

« خَلَقَ الإنسانَ من صَلْصَالٍ كالفَخّار »[٢١] .

ولم يأبه ، سبحانه وتعالى ، لقول إبليس اللعين ، الذى أبى واستكبر حين أمره الله بالسجود لآدم :

« قال ما منعك ألاّ تسجدَ إذْ أمَرتُكَ قال أنا خيرٌ مّنْهُ خلقْتَنِى من نّارٍ وَخَلَقْتَهُ من طِينٍ »[٢٢] .

ومن آدم الذى لم يكن شيئا مذكورا قبل أن يخلقه رب العالمين ، ومن حواء ،

وهى قطعة من نفس نوع آدم ، نَسْل الإنسانُ ، ولا يزال وسيظل يَنسِل إلى يـوم الدين ، من ماء مهين :

« ألم نخلُقكُم مِّن ماءٍ مَّهينٍ »(٢٣) .

« ألم يكُ نُطْفةً مِّن منىٍّ يُمنَى »(٢٤) .

وفى هذه النطفة أوجد العلى القدير أبسط صور الحياة وهو الحيوان المنوى الوحيد الخلية الذى يندمج فى بويضة الأنثى فيكونان العلقة :

« خَلَقَ الإنسانَ من عَلَقٍ »(٢٥) .

فإذا علمنا أن أبسط ما يتحرك على الأرض من حيوان هى الدودة التى تعيش على الأرض وتتحرك بكامل جسمها وراء طعامها ، وأنها إذا ما عثرت عـلى ما يصلح لغذائها التقمته بفمها وأدخلته فى جوفها حيث تتم عملية هضمه .

وإذا علمنا أن أبسط أنواع هذه الدودة وأدناها وأقلهـا حيلة هى العَلَقَة التى لا تجهد نفسها فى السعى بحثا عن طعامها ، بل تتطفل وتعلق بغيرها من الحيوانات وتلتصق بها لتمتص منها عصارة الحياة تامة الهضم .

إذا علمنا هذا ، تبين لنا مدى ضآلة هذا الإنسان ، وهوانه على خالقه ، ما لم **يذكره ويَتقِه** .

ويبين الخالق ، سبحانه وتعالى ، فى محكم تنزيله ، كيف يتدرج الخالق فى تخليق هذه العلقة شيئا فشيئا حتى يتمها إنسانا كامل الخلقة :

« ولقد خَلَقْنَا الانسَان من سُلاَلَةٍ مِّن طينٍ ، ثم جَعَلْناه نُطفةً فى قَرارٍ مَّكينٍ ، ثم خَلَقْنَا النُّطفةَ عَلَقَة ، فخَلقْنَا العَلَقَةَ مضغةً ، فخلقْنَا المُضغةَ عظَاماً ، فكَسَوْنا العِظَامَ لحماً ثم أنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخرَ فتباركَ اللهُ أَحْسنُ الخالقين »(٢٦)

وهذا ما توصل إليه العلم الحديث بعد مرور أكثر من ثلاثة عشر قرنا من نزول القرآن ، فالنطفة هى السائل المنوى الذى ينزل من صلب الرجل إلى رحم المرأة ثم يندفع من الرحم خلال دهليز ضيق فى نهايته مبيض المرأة الذى يفرز بويضات حية

يتكون كل منها من خلية واحدة فيلتصق واحد من الحيوانات المنوية بإحدى هذه البويضات ويندمج فيها فيتم ما يسمى باللقاح ثم تعود هذه البويضة الملقحة من هذا الدهليز إلى الرحم وهى تنمو وتكبر خلال هذه العودة مكونة ما يسمى بالعلقة وتلتصق هذه العلقة بجدار الرحم وتُثبّت عليه بواسطة شعيرات دقيقة تنغرس فى هذا الجدار ويتكون ما يشبه جذور النبات ، لأنها تُثّبت هذه العلقة فى جدار الرحم وتمدها بالغذاء الذى تمتصه من دماء المرأة . والعلقة فى أول أمرها لا شكل لها بل تشبه إلى حد كبير جسما هلاميا يكبر شيئا فشيئا فيتحول إلى عظام لينة (غضروفية) ثم تكسى باللحم ثم تبرز من هذا الجسم زوائد مكونة الرأس والأطراف ثم يتخلق الجسم وتتكون ملامح الجنين حتى إذا ما استكمل نموه خرج إلى نور الدنيا بشرا سويا ، والمدة بين عملية التلقيح إلى الحمل إلى الولادة حوالى تسعة أشهر فى المتوسط :

« فَتَبارَكَ الله أحسنُ الخالِقِين » .

لا شك أن فى خلق الإنسان على هذا النحو ، حكمة إلهية سامية :

فهل كان من حكمة الخالق أن يبصّر الإنسان بأنه لم يكن شيئا مذكورا ، فيتضاءل بنفسه أمام قدرة خالقه وعظمته فيؤمن إيمانا مطلقا بهذه القدرة ويتقيها فيتجه إلى ربه بالعمل الصالح ويسبّح بحمده ؟ أو هل كان من حكمته ، سبحانه وتعالى ، أن يبين للإنسان كيف أن الله قد خلق آدم أبا البشر من أدنى المواد ، وخلق بنى آدم من أدنى الحيوانات ، ثم أكرم آدم ونسله فأحسن صورهم وجعلهم أرقى الكائنات التى تعيش على الأرض ، فيذكروا نعمة ربهم ويشكروا للخالق فضله ، وهو سبحانه الغنى عن العالمين ؟

لا شك أن هذا وذاك كان إعدادا للإنسان ، الذى اختاره الله من بين خلقه واستخلفه فى الأرض ، ليؤدى فيها وظيفة سامية هى تعمير الأرض بالحق والعدل ، وفق مشيئة العليم الخبير ومحكم توجيهه ، فيحمل الأمانة مخلصا ومؤمنا بقدرة خالقه ، سائرا فى فكره وقوله وعمله وفق تعاليمه التى أنزلها لخير البشر أجمعين .

« مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فلنفْسِه ومن أسَاءَ فعلَيْها وما ربُّك بظلاَّمٍ للعَبيدِ »(٢٧)

« هو الذى جعلكم خلائفَ فى الأرضِ فمن كَفَر فَعَلَيْهِ كفرهُ ولا يَزيدُ الكافرينَ كفرُهُم عند ربهم إلا مَقْتاً ولا يَزيدُ الكافرين كُفرهُم إلا خَسَاراً »(٢٨) .

ولو شاء الخالق ، جلت قدرته ، لجعل من الملائكة خلائفه على الأرض ، ولكنه سبحانه وتعالى ، ولحكمة لا يعلمها إلا هو ، قد شرّف الإنسان فاستخلفه فى الأرض لإجراء أحكامه وتنفيذ مشيئته فى عمارتها ونشْر الخير فيها :

« وإذْ قال ربُّك للملائكةِ إنّى جاعلٌ فى الأرضِ خليفةً قالوا أتجعل فيها من يُفْسِدُ فيها ويَسفِكُ الدِّمَاءَ ونحن نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ ونقدِّسُ لَكَ قال إنى أعلمُ ما لا تعلمونَ »(٢٩)

وإذْ سوَّى الله بين الناس فى خَلقهم واستخلافهم فى أرضه ، ما زال سبحانه وتعالى ، يمتحنهم بالبسط والمنع ، فيجعلهم درجات بعضهم فوق بعض فى القوة أو فى المال أو فى العلم ، ليرى بعد ذلك سلوكهم بما قسَمَ لهم ، ثم يجزى كل نفس بما كسبت وقدّمت :

« وهو الذى جعلكم خلائفَ الأرضِ ورفع بعضَكم فوق بعضٍ درجاتٍ ليَبْلُوَكم فيما آتاكم إن ربَّك سريعُ العِقابِ وإنه لغفورٌ رحيمٌ »(٣٠) .

فمنهم من اتّقى ربه واهتدى بنوره ، ومنهم من مسه الشيطان بالغرور بما آتاه الله من مال وولد وسلطان فنسى ربه وأنكر نعمته ، وظن أن ما أوتيه من نِعَم لا فضل لأحد غيره فى إتيانه ، وأن ما أوتيه دائم وخالص له لا يقدر أحد أن ينزعه منه فيتعالى على الناس ويثير حقدهم ويفسد فيهم ، فيمد الله له فى الرزق ليزداد غرورا وعتوًا وفسادا وإفسادا ، ثم يأخذه ربه أخذ عزيز مقتدر بكفره وظلمه ، وأى انتقام أشد على الإنسان من الفقر بعد الغنى ، وأى عذاب أقسى من الهوان بعد العزة والضعف بعد القوة .

فهذا قارون الذى آتاه الله من المال والسلطان ما لم يؤتِ أحدا من البشر ، جعله مثلا فى القرآن وعبرة لمن يعتبر ، إذْ أخذه الله بغروره واستعلائه وكفره بنعمة ربه .

« إنَّ قارونَ كان من قوم موسى فبغَى عليهم وآتيناهُ مِن الكنوز ما إنَّ مفاتِحَهُ لتنوءُ بالعُصْبةِ أُولِى القوة إذْ قال له قومُهُ لا تفرحْ إنَّ الله لا يحبُّ الفَرِحِينَ »(٣١) .

« وابْتغِ فيما آتاك الله الدَّارَ الآخرةَ ولا تنسَ نصيبَكَ من الدّنيا وأحْسِنْ كما أحسَنَ الله اليك ولا تَبْغِ الفسادَ فى الأرض إنّ الله لا يحبُّ المفسِدين »(٣٢) .

« قال إنما أُوتيتهُ على عِلمٍ عندى أوَلَم يعلمْ أنَّ الله قد أهلك مِن قَبْلِهِ من القُرونِ مَنْ هو أشدُّ منه قوةً وأكثرُ جَمْعاً ولايُسألُ عن ذنوبهمُ المجرمونَ »(٣٣) .

« فخسَفْنا به وبداره الأرضَ فما كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ ينصرونَهُ مِن دُونِ اللهِ وما كانَ مِنَ المنتَصِرينَ »(٣٤) .

وليس المقصود بعدم فرح الإنسان حرمانه من السرور والسعادة أو أن يظل حزيناً مكتئباً ، بل المقصود به ذلك الفرح الذى يستخف صاحبه إلى عدم ذكر ربه وشكره على نعمه وتقواه ، ومظاهر هذا الشكر والحمد أن يحسن إلى الناس كما أحسن الله إليه وأن يعطى للغير بعضاً مما آتاه ربه من فضل ، وألا يتخذ مما أنعم الله عليه به وسيلة للفساد والإفساد .

والمقصود بعدم سؤال المجرمين ومناقشتهم الحساب يوم القيامة ، أنهم قد أمعنوا فى الإجرام وانغمسوا فى ذنوبهم وهم على وعى تام بما يفسدون ثم لم يستغفروا ربهم ولم يتوبوا إليه ، فلا جدوى من مناقشتهم أو حسابهم يوم القيامة لأن جرائمهم وذنوبهم آخذة برقابهم ومحيطة بهم من كل جانب ، فهؤلاء سيحشرون حشراً أكيداً مع أمثالهم فى جهنم وبئس المصير .

ومَن غضب الله عليه ، صب عليه جام غضبه فى دنياه أيضا قبل آخرته ، ليكون عبرة لغيره فى الحياة الدنيا ، وهو سبحانه يأخذه أَخْذَةً لا دافع لها إلا هو العلى القدير ، وهل يستطيع مخلوقٌ أن يدفع قَدَرَ الخالق ؟

فعلى المؤمن أن يتقى ربه فيما أنعم عليه به فيقابل نِعَمَهُ بحمده وشكره والعمل بأوامره .

وعلى المؤمن التقى ألا يستخفه الفرح بما آتاه الله ويفقده رشده فيطغى بماَ لِه ويفسد .

فالمؤمن التقى من ظل على ثباتـه وإيمانـه وتقوى ربـه فى السراء والضـراء ، ولايصرفه سروره ولا يهزه فرحه عن ذكر الله وشكره ، ولا ينأى به الحزن والأسى عن حمده والرضا بقَدَرِه وإسلام الأمر كله له وحده..

وما يجرى على الفرد بفساده أو تقواه بما آتاه الله من بسط أو قبْض ، يجرى على الأمم ، فالأمة مجموع الأفراد على اختلاف درجاتهم ومستوياتهم ، إن صلح حال كل فرد فيها صلح حالها ، وإن فسد فسدت وذهبت ريحها .

وقد يمتحن الله الأمة بفرد يؤتيه القوة والسلطان ثم يؤَمِرّه عليها ، ليرى سبحانه وتعالى مدى إيمان الأمة وثباتها على صراطه المستقيم ، وليرى هل تنجرف الأمة فى تيار فساد حاكم وطغيان معتد أو تثبت على إيمانها وتقواها فتعيد المفسد إلى جادَّة الحق والصواب ، فيأخذها الله بما سلكت .

« وإذا أردنا أن نُهلكَ قريةً أمَرنا مُترَفيها فَفَسَقُوا فيها فحقَّ عليها القولُ فدمَّرناها تدْميراً »[٣٥] .

والأمة إذا استسلمت لمعتد أثيم ، عاث فيها فساداً وأذلها وسامها الهوان :

« قالت إنَّ الملوكَ إذا دخلوا قريةً أفسدوها وجعلوا أعزَّةَ أهلهـا أذِلَّةً وكـذلك يفعلون »[٣٦] .

وضعف الأمة النفسى واستسلامها للأراجيف والشائعات الباطلة التى ينفثها أعداؤ ها بين صفوفها حسداً وحقداً وطمعاً ، من عوامل تخذيل الأمـة وانحلالهـا ونهايتها .

وانحـلال أفراد من الأمـة خُلُقياً يفشىِّ الانحـلال فى الأمة كلهـا ، فيصيبها الضعف والتفكك ، فتصبح فريسة سهلة ولقمة سائغة لأعدائها المتربصـين بها ، وينتهى أمرها إلى الفناء .

وتقليد الأمة الأعمى لمظاهر وعادات وتقاليد وطرق معيشة الأمم الأخرى ، من عوامل ضعف الأمة وانحلالها ، فلا هى ثبتت على حالها الذى أملته عليها ظروفها وإمكاناتها وتقاليدها ، ولا هى أحسنت اختيار الصالح المفيد من غيرها من الأمم .

فتظل مهتزة متأرجحة بين هذه وتلك حتى تسقط فى الهاوية وتصبح كأن لم تكن بالأمس .

وفى القصص القرآنى الواقعى عبر وصور صادقة لمثل هذه الأمم التى آتاها الله فضلا من الغنى والسلطان مازادت به كفراً وبطراً وطغياناً ، فذهبت ريحها بما قدمت وأفسدت وخرّبت .

وها هو نوح عليه السلام ، جاء قومه بالحق من ربه ، فنأوا عن الحق وأمعنوا فى الفساد ، فأخذهم الله بكفرهم ونَجيّ من بينهم نوحاً ومن تبعه من الصالحين .

« فكذَّبوه فنجَّيْناه ومنْ معَه فى الفُلْكِ وجعلناهم خلائفَ وأغرقنا الذين كذَّبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذَرينَ »[٣٧] .

« أو عجِبْتم أنْ جَاءَكُم ذِكرٌ من ربِّكم عـلى رجل منكم ليُنْـذِرَكُم واذكروا إذْ جعلكم خلفاء من بعدِ قومِ نوحٍ وزادكم فى الخَلْقِ بَصْطَةً فاذكروا آلاءَ اللهِ لعلكم تُفلِحون »[٣٨]

وهو سبحانه الذى ذهب بقوم عاد حين طغوا وأفسدوا فى الأرض :

« كذَّبَت عادٌ فكيف كان عذابى ونُذُر »[٣٩] .

« إنّا أرسلنا عليهم ريحاً صَرْصَرًا فى يوم نحسٍ مستمرٍ »[٤٠] .

« تَنْزِعُ النَّاس كأنهم أعْجازُ نخلٍ مُنْقَعِرٍ »[٤١] .

ولما ذهب الله بقوم عاد بما كفروا ، استخلف من بعدهم قوم ثمود ، وأرسل فيهم نبيه صالحاً عليه السلام ، يختبر مدى إيمانهم بالله وتسليمهم له وطاعتهم أوامره وحمده على نعمائه بطاعة الله والعمل الصالح ، فلما عصوا أمر ربهم وكفروا به استحقوا من ربهم سوء العذاب .

« وإلى ثمودَ أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلهٍ غيرُهُ قد جاءتكم بيِّنة من ربكم هذه ناقةُ اللهِ لكم آيةً فذروها تأكلْ فى أرضِ الله ولاتَمَسُّوها بسوءٍ فيأخذكم عذابٌ أليمٌ »[٤٢] .

« واذكروا إذْ جعلَكُم خلفاءَ من بعدِ عاد وبوَّأكم فى الأرض تتَّخِذُونَ من سهولها قصوراً وتنحِتُون الجبالَ بيُوتًا فاذكروا آلاءَ الله ولا تعْثَوا فى الأرض مفسدين »[٤٣] .

ولكنهم تحدَّوا أمر الله ، سبحانه وتعالى ، واستهانوا بالنذير :

« فعقرُوا النّاقة وعتوْا عن أمرِ ربِّهم وقَالُوا يا صَالح ائتنا بما تَعدنا إن كنتَ من المرسلين »[٤٤] .

« فأخذَتْهم الرجفة فأصبحُوا فى دَارهم جاثمين »[٤٥] .

«أفَأَمِنَ أهل القرى أنْ يأتيهم بأسُنا بياتاً وهم نائمُون »[٤٦] .

فلا أمن لمن عصى أمر ربه ، ولا أمان لمن كابر وكذب بالحق ، فالله قادر على أخذه من مأمنه .

ومن بعد ثمود ، استخلف الله قوم موسى ، وأرسله إلى فرعون هاديا ومبشرا ونذيرا ، وجاءه من آيات الله المبينات ومعجزاته ما تخر له الجبال ، ولكن فرعون وبعضا من ملئه كذبوا ولم يؤمنوا ، فاستحقوا لعنة الله وغضبه ، وعذبهم العزيز القدير عذابا مهينا .

« فأرسلنا عليهم الطُّوفانَ والجرادَ والقُمَّلَ والضفادِعَ والدَّمَ آياتٍ مفصلاتٍ فاستَكْبَروا وكانوا قوماً مجرمينَ »[٤٧] .

« فانْتَقَمْنَا منهم فأغْرقْنَاهُمْ فى اليَمِّ بِأنَّهم كذَّبوا بآياتِنا وكانوا عنها غافِلينَ »[٤٨]

ولما ذهبت ريح فرعون ، ومن تبعه فى الكفر والاستكبار ، نَجىَّ الله نبيه موسى ومن معه من المؤمنين والمستضعفين من بنى إسرائيل ، وأورثهم الأرض :

« وأَوْرثْنا القومَ الذين كانوا يُسْتَضْعَفونَ مَشَارِقَ الأرضِ ومغارِبَها التى باركنا فيها وتمت كلمةُ ربِّكَ الحُسْنَى على بنى إسرائيلَ بما صَبَروا ودمَّرنا ما كان يصنعُ فرعونُ وقومُه وما كانوا يَعْرِشُونَ »[٤٩] .

ولكن بنى إسرائيل الذين أنكروا الحق بعد أن تبين ، بعد أن نصرهم الله بعد ضعف وهوان ، ما أن آتاهم الله القوة والعزة استجابة منه لذكرهم ودعائهم له ما لبثوا ، وقد زال عنهم الخوف ، أن كفروا بربهم وزادوا غرورا واستعلاء وعدوانا على أنبياء الله ورسله ، وحاجّوهم وكذّبوهم وقتلوهم وأنكروا وجود الخالق المبدع الذى يُبصر ولا يُبصَر واتخذوا من دون الله عجْلا أعجم يعبدونه ، فباءوا من الله بغضب

أبدى ، إذ كتب عليهم التشتت والتيه بلا أرض يستقرون فيها ولا وطن يلم شتاتهم كما ضرب عليهم الذلة والمسكنة والاحتقار من الخلق أجمعين .

« والذين كَذَّبوا بآياتِنَا ولِقَاءِ الآخِرَةِ حَبِطَتْ أعمَالُهُمْ هل يُجزَوْنَ إلا ما كانـوا يَعْمَلُونَ »(٥٠)

« واتَّخذَ قَوْمُ موسَى مِنْ بَعْدِهِ من حُلِيِّهم عِجْلا جَسَدا له خُوارٌ أَلَم يَرَوْا أنه لا يكلمُهُم ولا يَهديهم سبيلا اتخذوه وكانوا ظالمين »(٥١) .

« إنَّ الذين اتخذوا العِجْل سينالهُمْ غضبٌ مِنْ ربِّهم وذِلَّةٌ فى الحياة الدُّنيا وكذلك نَجْزِى المفتَرِينَ »(٥٢) .

« فلما نسُوا ما ذُكِّروا به أنجَيْنا الذين يَنْهَوْن عن السُّوءِ وأخَذْنا الـذين ظَلَموا بعذابٍ بئيس بما كانوا يفسُقُونَ »(٥٣) .

« فلما عَتَوْا عما نُهُوا عنه قلنا لهم كونوا قِرَدَةً خاسئِينَ »(٥٤) .

وهم بنو إسرائيل الذين قطعوا بكفرهم ما وصلهم بالله ، وهم بنو إسـرائيل الذين قطعوا بظلمهم ما وصلهم بالناس فضرب عليهم الله الذلة والمسكنة ، وهم بنو إسرائيل الذين قتلوا رسل الله إليهم فاستحقوا لعنته فى الدنيا والآخرة :

« ضُرِبَت علَيهِمُ الذِّلَّةُ أينما ثُقِفوا إلا بحبلٍ من اللهِ وحبلٍ من الناسِ وباءوا بغضبٍ من الله وضُرِبَتْ عليهِمُ المَسْكَنَةُ ذلك بأنَّهم كانوا يكفُرُونَ بآياتِ اللهِ ويقتلونَ الأنبياءَ بغير حقٍّ ذلك بما عَصَوْا وكانوا يَعْتَدُونَ »(٥٥)

وما أشبه بنى إسرائيل ، فى خداعهم وتدليسهم ، بأهل مدين الذين أكلوا أموال الناس بالباطل ، واحترفوا التجارة ، ولكنهم لم يسيروا فيها بشرف ولم يرعوا فيها ذمة ، بل اتخـذوا من التجارة وسيلة لغش النـاس وخداعهم وهضم حقـوقهم ، واتخذوا فى سبيل تحقيق أغراضهم الدنيئة الإخلال بالميزان والعبث بـالكيل ، إذا اشتروا من الناس زادوا فى هذا وذاك ، وإذا باعوا لهم نقصوهما ، ولم يُجْد معهم ما جاء به نبى الله شعيب من الحق والموعظة الحسنة ، فباءوا بلعنة من الله وخسروا دنياهم وآخرتهم .

« وإلى مَدْيَنَ أخاهم شُعَيْباً قال يا قوم اعبدوا الله مالكمْ مِنْ إلهٍ غيرُهُ قد جاءتكم بيِّنة من ربكم ، فأوفوا الكيلَ والميزانَ ولاتَبْخَسوا النَّاسَ أشياءَهمُ ولا تُفسِدوا فى الأرض بعدَ إصْلاحِها ذَلِكم خيرٌ لكم إن كنتم مؤ منينَ »(٥٦) .

وجعل الحق تعالى لمن يسلك مسلك أهل مدين فى أكل أموال الناس بالغش والتدليس مثل ما ينالهم من عذاب :

« ويلٌ للمطفِّفين * الذين إذا اكْتالوا على الناس يستَوْفون * وإذا كالُوهُم أو وَزَنُوهمْ يُخسِرونَ * ألا يظُنُّ أولئك أنهم مَبْعُوثونَ * لِيَومٍ عظيمٍ * يومَ يقومُ النَّاسُ لربِّ العالَمِينَ »(٥٧)

هذه عبر من لدن الحكيم الخبير ، ومن تاريخ البشرية الواقعى أفرادا وجماعات لم يعتبر بها الناس للآن ، ولا يزال الناس فى تيههم وتخبطهم وضلالهم فى سلوكهم الدنيوى .

وها هى أمتنا الاسلامية منذ جاء محمد ﷺ بدعوة الحق بتاريخها الطويل مثلا حيا تتقلب فيه الأمة بين قوة وضعف وسمو وهبوط وغنى وفقر ما تمسكت بدينها أو نأت عنه .

لنرجع إلى خَلْق الإنسان وقد عرفنا المادة التى صنع منها أبو البشر والمادة التى صنع منها بنو آدم .

هذا الإنسان المتجسد أمام أعيننا ويتحرك على هذه الأرض ، مركب من جسم ظاهر ملموس ، وفى داخل هذا الظاهر المادى قُوَى أخرى غير مرئية تحرك ظاهر الإنسان المادى وتحدد سلوكه مع نفسه ومع غيره ، هذه القوى هى المسئولُ الأولُ عن نوع السلوك الإنسانى ، مستقيماً كان هذا السلوك أو مُعْوَجاً .

وإن مايصيب الإنسان من خير أو شر نابع منه ، ومن صنع هذه القوى الخفية الكامنة فى داخله ، وكذلك الحال فى الأمة ، فما أصابها من خير أو شر كان نابعا من داخلها ، فالأمة مجموع الأفراد ، اذا ما استقام كل فرد استقام أمرها وبقدر نسبة المستقيمين الصالحين فى الأمة بقدر ما يكون صلاحها أو فسادها .

فسلوك الإنسان إذن نوعان : سلوك مادى ظاهرى وسلوك معنوى باطنى .

والسلوك الظاهرى مجاله جسم الإنسان وأعضاؤه ويظهر لنا هذا السلوك واضحا ملموسا فى حركة جسمه أو عضو من أعضائه .

والسلوك الباطنى مجاله الغرائز والعقل والضمير وهى عوامل دائمة النشاط والحركة داخل الجسم لايحس بها سوى صاحبها .

وما السلوك الظاهرى إلا انعكاس مادى للسلوك الباطنى وبقدر سلامة الثانى وصلاحه بقدر ما تكون سلامة الأول وصلاحه .

وكما أن للجسم المادى وأعضائه وظائف حددها الخالق ، كذلك الأمر بالنسبة للعوامل الباطنية فلكل منها هدف حدده له الخالق وهى أهداف أراد بها الله خير الإنسان وسعادته فى دنياه وآخرته إذا ما هداه الله إلى تحقيق هذه الأهداف ولا يهدى الله إلا من آمن به واتقاه وسار فى حياته الدنيا وفق تعاليمه سبحانه وتعالى :

١ - فالغرائز أودعت الجسد (إنسانيا كان أو حيوانيا) لحفظ نوعه من الانقراض وهذا الحفظ منوط بنشاط الغرائز مجتمعة .

ومن هذه الغرائز غريزة حب البقاء وغريزة الجنس وغريزة حب التملك وغريزة السيطرة وغريزة اثبات الذات وهى كلها متفرعة من غريزة حب البقاء والرغبة فى الخلود .

فغريزة حب البقاء تتطلب من الإنسان أن يخلفه من صلبه من يضمن لاسمه الاستمرار ، ولكى يولد له ولد لابد له من أنثى تنجب له هذا الولد ، وطريقه إلى ذلك هو الزواج بجميع طقوسه وضوابطه .

ويقال إن الغرائز عمياء إذا عملت بذاتها دون ضابط أو رابط فالغريزة كامنة فى جسم الإنسان ولايمكن مشاهدتها ولا معرفة مكانها ولكى تنشط لابد لها من مثير تنفعل به ، هذا الانفعال لايزال كامنا لايحس به إلا صاحبه ، فإذا قوى هذا الانفعال انطلق من جسم الإنسان فى شكل أعمال وحركات ظاهرة وهذا ما يسمى بالنزوع أو السلوك وهذا ما يحصل من جميع الحيوانات العجماوات .

أما الإنسان الذى صوره الله وأحسن تصويره فقد أكرمه خالقه فزوده بالعقل والضمير ، بالعقل يتدبر طريقة تنفيذ متطلبات الغرائز وبالضمير يوجه هذا النزوع أو السلوك إلى عمل صالح يفيد صاحبه ومجتمعه فائدة حقيقية جديرة بإنسانيته .

٢ - والعقل هو تلك الأداة التى أكرم بها الله بنى آدم ليكون عونهم فى تدبير متطلبات الغرائز وتنفيذها ويقوم هذا التدبير على عدة خطوات متتالية متصل بعضها ببعض وهى ماتعرف بالعمليات العقلية ، وقد تنتهى هذه العمليات إلى التنفيذ الفعلى لمتطلبات الغريزة بما يفيد صاحبها فحسب ولو كان فيها إضرار بمصلحة المجتمع ، لولا تدخل الضمير .

٣ - والضمير هو مايسمى فى القرآن الكريم بالقلب أو الفؤاد أو النية ، وهو الذى يوجه الله سبحانه وتعالى إليه الحكمة والموعظة الحسنة ، فمن كان ضميره حيا ويقظا تعاون مع العقل فى تلبية متطلبات الغرائز بالتى هى أحسن ، والضمير الحى هو الذى يهدى الانسان بنور الهداية الربانية يميز به بين الخير والشر وبين الحق والباطل فيأخذ من هذا وذاك أحسنه ، مما يرضى الخالق والخلق ويصلح به حال صاحب هذا الضمير وحال المجتمع الإنسانى .

والإنسان الكامل من وهبه الله جسما سويا وعقلا سليما وضميرا حيا .

والضمير النقى الصافى هو قمة الكمال الإنسانى ، وهو الحارس الأمين الذى يقف أمام أهواء النفس البشرية ونوازعها ، يردها إلى الحق والصراط المستقيم إذا ما نزغ فيها الشيطان بالغواية والمعصية ، والضمير الحى هو الملهم والمرشد للعقل إلى اختيار أمثل الوسائل للسلوك السليم ، ومن تحكم ضميره فى فكره وقوله وعمله كان مركز إشعاع الخير للبشر أجمعين .

« وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا »[٥٨] .

« يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ »[٥٩] .

ولولا هذا الضمير لزالت عن الإنسان كل الصفات الإنسانية الجديرة به ولظل الإنسان ملكا لغرائزه بدلا من أن يكون هو مالكها والغرائز هى أضعف نواحى النفس البشرية وأسرعها استسلاما لغواية الشيطان ، ورغم محاولات العقل كبح جماح هذه الغرائز وتوجيهها وجهة الخير لصاحبه وللمجتمع ، فإنه قد ينجح حينا ولكنه يفشل أحيانا بل قد يبلغ بالعقل القصور والضعف أمام إلحاح الغرائز لدرجة أنها قد تكون هى المنشطة والموجهة له فيساعدها على تحريك الجسم لإحداث ردود أفعالها حيال مثيراتها ويصبح العقل أداة الغرائز لا الموجه لها فيضل طريقه ويسلك بصاحبه سلوكا شاذا لايرضاه الله ولايرضاه المجتمع وهنا مجال الحرب بين الشيطان وبين ضمير الإنسان ، وبقدر صفاء هذا الضمير ونقائه واستجابته لأوامر ربه بقدر ما تكون له الغلبة بإذن الله وبإرادته .

« وَقُلْ لِعِبَادِى يَقُولُوا التى هِىَ أَحْسَنُ إنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا »(٦٠) .

فما أضعف هذا الإنسان الذى يعجز عن كبح جماح أهواء نفسه الأمارة بالسوء ! وما أكفره إذْ يعرض عن ذكر ربه فلا يشكر له نعمه !

وما أشد ضلاله إذْ ينأى عن الاستجابة لدعوة الحق والإيمان بالله وحده وتقواه !

وما أتعسه إذ يظل كالريشة فى مهب ريحى الخير والشر !

إلا من أتى ربه بقلب سليم ، فيذكر نعمته عليه ويلهج لسانه بالحمد والشكر له ، لابالقول فحسب بل بالعمل الصالح ، وأن يكون مع خالقه فى حربه للشيطان ، مهتديا فى سلوكه بما أنزل الله من محكم آياته .

« إنَّ الإنسانَ خُلِقَ هَلوعاً * إذا مسّهُ الشرُّ جَزُوعاً ، وإذَا مسّه الخيرُ مَنُوعاً * إلا المصلِّين * الذين هم على صَلاَتِهِم دائمونَ * والذين فى أموالهم حقٌ معلومٌ * للسَّائِلِ والمحرومِ »(٦١) .

فلا يزال الإنسان هلوعا قلقا ، مرتعبا بين توقع الخير وتوقع الشر ، مترددا بين فعل الخير وفعل الشر لأن نفسه منزع النقيضين ، ولايزال الإنسان يائسا قانطا إذا ما

حل به سوء وهو لا يدرى ولا يريد أن يدرى ، أن ما لحقه من سوءٍ إنما بفعله وسلوكه هو وحده ، وأنه قد كسب بما قدمت يداه :

« فأصابهم سَيِّئَاتُ ما كَسَبُوا والَّذينَ ظَلَمُـوا مِن هَؤُلاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئاتُ مـا كَسَبُوا وما هُم بِمُعْجِزِينَ »(٦٢) .

ومن الناس من ضعفت تقواه وخبا إيمانه فكفر بنعمة ربه وفضله حيث يجب شكره وحمده ، فلا يلجأ إليه ولا يذكره إلا عندما تحل به مصيبة وعندئذ يجأر بدعاء ربه ، ملتمساً منه العون والغوث :

« وإذا أنعمناَ على الإنسانِ أعْرَضَ ونـأى بجانِبـه واذا مسهُ الشَّرُّ فذو دعـاءٍ عَرِيضٍ »(٦٣) .

« واذا أنعَمْنـا عـلى الإنسـانِ أعـرَضَ ونـأى بجـانِبـه وإذا مسَّـه الشَّـرُّ كـان يَئُوساً »(٦٤) .

بل إن ضعف النفس البشريـة قد يـذهب بصاحبهـا إلى أبعد صـور الغرور والجحود والكفر اذا ما آتاه الرحمن فضلا أو نعمة ، فيصور له خياله السقيم وضميره المريض أن ما به من نعم وسعة ورزق إنما هو من صنع يديه وبتدبير منه ، ولا فضل لأحد عليه ، فتأخذه العزة بالإثم ، ويزداد بنفسه غرورا وعلى الناس استعلاء وفى الأ[illegible] فساداً :

[illegible] مسّ الإنسانَ ضُرٌّ دعانا ثم إذا خوّلناه نعمةً مناً قال إنما أوتيتُهُ على عِلمٍ بل [illegible]نّ أكثَرَهُم لايعلمُونَ »(٦٥) .

« لاتَحْسَبَنَّ الذين يفرحونَ بما أَتَوا ويحبون أن يُحمَدوا بما لم يَفعلوا فلا تحسَبَنّهم بمفازةٍ من العذاب ولهم عذابٌ أليمٌ »(٦٦) .

« قُتِلَ الإنسانُ ما أكفَرَهُ » (٦٧) .

ومن الغرائز المركبة فى النفس البشرية ، غريزة حب السيطرة ، تلك الغريزة التى أودعها الله فى الإنسان لحكمة إلهية هى أن يوجهها الإنسان إلى السيطرة على موارد الأرض الطبيعية ليستخدمها كأدوات ومواد لتعمير الأرض التى أراد الله لها

العمران لمصلحة البشر أجمعين ، لا لفرد واحد ولا لأمة بعينها ، لذا أمد الله الإنسان بالعقل المدبر وأنزل إليه آيات مبينات لطرق هذا الاستغلال وأهدافه النبيلة ، ثم حذره من الإفساد فى الأرض باتخاذ خيراتها وسيلة للتسلط والاستبداد والتعالى والإفساد فليس الهدف من السيطرة على موارد الطبيعة هو التعمير والاستمتاع فى الحياة الدنيا فحسب بل العمل والتمهيد أيضا لحياةٍ أفضل وأبقى ، وهى الحياة الآخرة وما فيها من نعم أعدها العلى القدير لعباده الصالحين .

« وما هذه الحياةُ الدنيا إلاّ لهوٌ ولعبٌ وإن الدارَ الآخِرَةَ لهى الحيوانُ لو كانوا يَعلمونَ »[٦٨] .

« زُيِّنَ للناس حبُّ الشهوات من النساءِ والبنينَ والقناطير المقنطرةِ من الذهب والفضةِ والخيْلِ المُسَوَّمةِ والأنعامِ والحرثِ ذلك متاعُ الحياة الدنيا والله عنده حُسْنُ المآب »[٦٩] .

« وتأكلونَ التُّراثَ أكلاً لمّاً * وتحبونَ المالَ حباً جماً »[٧٠]

« كلاَّ إنَّ الإنسانَ لَيَطْغَى * أن رآه استغْنَى »[٧١] .

ومن الناس من تنحرف به غريزة حب السيطرة فتأخذه العزة بالاثم ، ويتناسى ضعفه أمام القوى القهار ويزداد بنفسه غرورا ، فيفسد فى الأرض حيث ظن سوءاً أنه من المصلحين :

« وإذا قيلَ لهم لا تُفْسدوا فى الأرض قالوا إنَّما نحن مُصلحون * ألاَ إنهم هُم المفسدونَ ولكن لاَيشعُرون »[٧٢] .

ومن الناس من يمدهم الله بما يشتهون من متاع الدنيا ، ليفتتن بها ضعاف الإيمان افتتانا قد يصرفهم عن ذكر ربهم وتقواه ، ويزيدهم غرورا وعتوا وفسادا وإمعانا فى الضلال ، حتى يأخذهم القوى الجبار بذنوبهم أخذ عزيز مقتدر ، ويا له من عذاب :

« واعْلموا أنما أموالُكم وأولادُكم فِتنةٌ وأنَّ الله عندهُ أجرٌ عظيمٌ »[٧٣]

« ولا يحْسَبَنَّ الذين كفروا أنَّما نُملِي لهم خيرٌ لأنفُسِهِمْ إنما نُملِي لهم ليزدادوا إثْماً ولهم عذابٌ مُهينٌ »(٧٤) .

« نُمَتِّعُهُم قليلاً ثم نضطرُّهمْ إلى عذابٍ غليظٍ »(٧٥) .

« مَن يُضْلِلِ اللهُ فلا هادىَ لهُ ويذَرُهُمْ فى طُغْيانِهم يعْمَهُون »(٧٦) .

« قُل اللَّهُمَّ مالكَ المُلك تؤْتى المُلْكَ من تشاءُ وتنزِعُ المُلْكَ ممن تشاءُ وتُعِزُّ مَن تشاءُ وتذِلُّ من تشاءُ ، بيدكَ الخَيْرُ ، إنك على كل شىءٍ قديرٌ »(٧٧) .

ومن أحسن عملا ممن إذا آتاه ربه الجاه والسلطان ازداد تـواضعا مـع الناس وخشوعا لربه وتقواه بالصلاة والعمل الصالح ، وهؤلاء هم :

« الذين إنْ مكَّنَّاهُمْ فى الأرض أقاموا الصلاةَ وآتوُا الزكاةَ وأمروا بالمعروفِ ونَهَوْا عن المُنكر ولله عاقبةُ الأمورِ »(٧٨) .

ومن مظاهر حب السيطرة تلك الرغبة الجامحة التى تتسلط على ضعيف النفس قليل الإيمان فتدفعه إلى الرغبة فى إثبات ذاته ووجوده بمظاهر مصطنعة كاذبة ، يتظاهر بها أمام الناس ظنا منه أنه بهذا السلوك إنما يبرز شخصيته ويضخمها أمام الغير ، وكأنه باصطناع هذا السلوك يشعر فى قرارة نفسه بتفاهته وقلة حيلته وقصور تفكيره ، وغير ذلك من نواحى شعوره بما فيه من نقص خِلْقِى أو خُلُقى ، أو لمجرد استجابة لا واعية لما يلبسه شيطانه من غرور أجوف بأهميته وهو بهذا السلوك الأعوج لا يعرف ولا يريد أن يعرف أن من البشر من هم أهم منه وأعظم شأنا وإلى ربهم أحب وأقرب ، فيتخبط فى سلوكه ويبدى من الأقوال والأفعال مـالا يقصد بـه وجه الله ولا خـير الناس ، وقد يجد مثل هذا المغرور من المنافقين والوصوليين من يتظاهر له بالإعجاب أو التعظيم طلبا لمنفعة أو مصلحة يتقاضونها منه أو خوفا منه ودفعا لأذاه ، وهذا وذاك إنما يحتقرانه فى دخيلة نفوسهم ويضحكان منه ، فيبوء هذا الدعى بسلوكه المزيف بهوان شأنه أمام الله وأمام الناس :

١ - فمن هذا اللون من الناس من يلبس ثوبا فضفاضا من الكبرياء المزيفة فى سيره أمام الناس . . فيتمايل مختالا فى مشيته ذات اليمين وذات الشمال ويدب على الأرض بقدميه عامداً ليلفت الأنظار إليه ، ويميل برأسه جانباً إذا ما تحدث إلى أحد ،

إمعانا منه فى التعالى على الغير ولا يدرى هذا المغرور أنه بسلوكه هذا إنما يثير كراهية الناس ويفقد حب الله له ، وينهى العلىّ المتعالى عن مثل هذا السلوك :

« ولا تصعّر خدَّكَ للناس ولا تمشِ فى الأرضِ مَرَحاً إنَّ اللهَ لايحبُّ كلَّ مُختالٍ فَخورٍ »(٧٩) .

« ولا تمشِ فى الأرضِ مَـرَحـاً إنـك لن تَخْـرِقَ الأرضَ ولن تبلغَ الجبـالَ طولاً »(٨٠) .

٢ - ومنهم من إذا تحدث جار بصوته وزعق ، حيث لا موضع ولا مناسبة للزعق ، إنما هو حب السيطرة وإثبات الذات ، أوحيا إليه ودفعاه إلى هذا المسْلك الشاذ ليلفت به الأنظار إلى شخصه التافه ويشد آذان الناس للاستماع إلى صـوته المنكر ، ويأخذ القرآن الكريم بأُذن هذا الدعىّ ليلقى إليه النصح بأسلوبه اللاذع المبين :

« واقصِـدْ فى مَشيِـك واغْضُضْ من صِـوتِـكَ إنَّ أنكَـرَ الأصْـوَاتِ لصَـوْتُ الحَمِير »(٨١) .

٣ - ومنهم من يحاول إثبات ذاته بغير حق وتأكيد وجوده فى غير موضعه فيتخذ دوراً إيجابياً فى المجتمع ، لا ليعمل صالحاً ، بل بالعدوان أو بالتطاول على من هو أكبر منه سناً أو أعلى مقاماً أو أكثر علماً ، فيحاول هذا المغرور تصدُّر المجالس وإقحام نفسه على رأس زمرة من الناس ، قد يكون هو أقلهم شأناً ومقاماً ، وكأنه يريد بهذا السلوك المضحك أن يثبت أنه أعلاهم مقاماً وأكثرهم علماً ، ليلفت إليـه الأنظار ولينتزع من الناس على غير رغبة منهم ، اعترافاً بوجوده ، بينما الجمع لا ينظر إليه ولا يحس به ، فيفسد بهذا التصرف الصبيانى نظام هذا الجمع ، ويبث فيـه الفوضى والهرج . ورحم الله امرأً عرف قدر نفسه ، فوضعها حيث يجب أن تكون : فما أجدر الكثير من هؤلاء الأدعياء بالتمعن فى هذه الآية الكريمة والامتثال لحكمتها :

« ياأيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تَفَسَّحُوا فى المجـالس فافسَحـوا يفسَحِ اللهُ لكم ، وإذا قيل انْشزُوا فانشزُوا يرفع الله الذين آمنوا منكم ، والذين أوتوا العلم درجاتٍ والله بما تعملون خبيرٌ »(٨٢) .

٤ - أما هذا الذى يناقش غيره واضعاً فى تفكيره وفى ضميره ، بادىء ذى بدء ، أن يفرض رأيه على غيره فرضاً وبغير حق ، فأمره أعجب ومسلكه أضل ، فهو يرفض أى رأى مهما كان حقاً بيّنا ، فهو لا يقصد بمناقشته الوصول إلى الحق أو تبين الصواب للوصول بها إلى حل سليم ، ورغم علم هذا المتطفل المغرور ويقينه بتفاهة رأيه وسقم تفكيره ، فإنه يغمض عينيه ويصم أذنيه ويغلق عقله ، عامداً متعمداً ، عن الحق البين والقول الفصل فى موضوع المناقشة ، إنما هى الكبرياء الجوفاء وحب الظهور الذى يملى على صاحبه الوقوف موقف العناد الصبيانى ، فلا يعترف بالحق رغم وضوحه ورغم اقتناعه به فى قرارة نفسه ، ولا يدرى هذا المسكين أنه بغروره هذا وبإنكاره للحق البين ، إنما يضيع الحقيقة ويميعها ، ويخمد الرأى الصائب فى موضوع معين قد يتوقف عليه مصيره ومصير مجتمعه **فيصيبهما بالدمار**، وفى مجتمعنا المعاصر الكثير من هذه المشاهد المؤسفة ، فكم من رأى صائب قد أخمد وكم من حق بيّن قد أهدر ، لا لسبب إلا لأن صاحب هذا الرأى موظف صغير يأبى رئيسه الأخذ برأيه رغم وضوحه ، وكيف يأخذ برأى مرءوسه رغم صدقه ووضوحه ؟ كيف يأخذ برأى من هو أقل منه مركزاً ، وهو الذى يظن ، تعالياً وغروراً بمركزه ، أن كلمته هى الكلمة الفاصلة بين الحق والباطل ، وأن رأيه هو الحل الذهبى لأية مشكلة ، فيضيع على هذا المكابر المتعالى وعلى مجتمعه الكثير من الخير والنفع ويصيبها بالدمار والضياع :

« يجادلونك فى الحق بعد ما تبينَ كأنما يُساقون إلى الموت وهم ينظرونَ »[٨٣] .

« ولا تَلْبِسُوا الحقَّ بالباطل وتكتُمُوا الحقَّ وأنتم تعلمونَ »[٨٤] .

« وإنْ تَـدْعُوهُم إلى الهُـدَى لا يتَّبِعوكُم ، سـواءٌ عليكم أدَعَـوْتُمُـوهم أمْ أنتم صامتون »[٨٥] .

٥ - ومنهم من مات ضميره وخبا إيمانه بربه ، وانحطت ذاته فى دخيلة نفسه ، وهو على الله والناس أهون ، فيحاول بالباطل وبالسّفه ، إعلاء شأنه بغير حق أمام غيره ، فيدفعه تفكيره السقيم وخبث طويته إلى سلوك أعوج ، إذ يعمد إلى الحطّ من شأن غيره بالسّخرية منه وبالتعريض به بنابى الألفاظ والألقاب بل قد يذهب به كفره وغواية شيطانه إلى نهش أعراض الناس كذباً وافتراء ، وكشف ما أمر الله بستره ،

ظناً منه أنه بقدر ما يحط من شأن الغير ، بقدر ما يعلى من شأن نفسه فى أعين الناس . فياله من ضلال ما بعده ضلال ! وياله من فساد ما بعده فساد ! وعلى شخص هذا خلقه وسلوكه تدور دائرة السوء ، فيبوء باستهجان الناس له ، وبغضب الله عليه

« يأأيها الذين آمنوا لا يسْخَر قومٌ من قومٍ عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساءٌ من نساءٍ عسى أن يكنَّ خيراً منهنَّ ولا تَلْمِزُوا أنفسَكم ولا تَنابَزُوا بالألقاب بئس الاسمُ الفُسوقُ بعدَ الإيمانِ ، ومن لم يتبْ فأولئك هُمُ الظالمون »[٨٦] .

« إن الذين يرمون المُحْصَنَاتِ الغافلاتِ المؤمناتِ لُعِنوا فى الدنيا والآخرةِ ولهم عذابٌ عظيمٌ »[٨٧] .

٦ - ومن محبى السيطرة وعشاق الظهور فى المجتمع من يلجأ إلى وسائل الإعلان عن نفسه بما أعطى للناس مما أعطاه الله : ويتخذ مما أحسن به إلى الناس وسيلة لهذا الإعلان ولهذه الشهرة ، ويرمى بذلك إلى اكتساب شهرة دنيوية عاجلة تظهره أمام الملأ بمظهر الرجل السخى النافع ، بل انه قد يتعمد العطاء أمام أكبر عدد ممكن من الناس . إمعانا فى توسيع دائرة ظهوره وشهرته ، لا ابتغاء مرضاة الله فحسب ، ولا يدرى هذا المسكين أنه بهذا النوع من العطاء قد أذل من ظن أنه قد أحسن إليه . وقد يدفع حب الشهرة بصاحبها إلى الإعلان عن كرمه واحسانه بالكلمة والصورة على صفحات الصحف والمجلات ، إن مثل هذا الاحسان لايقبله الله ، لأن صاحبه قد بذله لغرض غير مرضاة الله ، ويكفى صاحب هذا الإحسان جزاءً ما ناله من شهرة دنيوية موهومة :

« والذين ينْفقون أموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ومن يكن الشيطانُ له قرينا فساء قرينا »[٨٨] .

٧ - ومنهم من يخادع الناس بالقول دون العمل ، ويحاول الظهور عليهم بالتباهى بعلمه ، وحكمته فيلقى إليهم بالنصائح والمواعظ ذات اليمين وذات اليسار وينسى أن يبدأ بنفسه ليعظها بالعمل بالتى هى أحسن وأقوم ، أو قد ينسب لنفسه عملاً عظيماً نافعاً ، وهو لم يمارسه ولم ينجزه ، إنما هو يريد بكل هذا أن يظهر على المجتمع ويثبت وجوده وهو القليل الحيلة ، كل بضاعته فى الدنيا كلام مزوق هو أبعد الناس عن الأخذ به ، فلا يكسب من سلوكه هذا إلا غضباً من الله ومقتاً .

« ياأيها الذين آمنوا لِمَ تقولون مالا تفعلونَ * كَبُر مَقْتاً عند اللهِ أن تقولوا مالا تفعلونَ »(٨٩) .

وبعد ، فتلك مقدمة لابد منها لكشف جوهر الكائن الإنسانى ودوافع سلوكه يقف منها القارىء على حقيقة الإنسان عارية لا لبس فيها ولا غموض ، ويتبصر فيها ويتأمل خلقه ونشأته إذْ لم يكن شيئاً مذكوراً ، وليكون على بينة وبصيرة . . . بخفايا نفسه ونزعاتها ، وليدرك منها الحكمة الإلهية من خلقه واستخلافه على هذه الأرض ، ويهتدى بها إلى كوامن نفسه وأهوائها ونزعاتها ، ويدرك منها دوافع سلوكه وأهدافه فيختار من هذه الأهداف أحسنها وأصلحها ويتجنب من المسالك ما يؤدى به إلى التلف والفساد ، وليدرك منهـا أقوم السبـل لتهذيب هـذا السلوك ليرتقى بـه إلى المستوى الذى حددته تعاليم الخالق الحكيم فيما نزل على خاتم رسله فى خاتم كُتُبِه سبحانه وتعالى ، هذا القرآن الكريم الذى جاء مصدّقاً لما سبق من كتب الله المنزلة ، هدى وتبصرة لقوم يتفكرون ويؤمنون ، حتى لايكون للناس على الله حجة بعد كتبه ورسله ، يوم يقف الإنسان بين يدى خالقه سافراً عارياً ، لاحـول له ولا قـوة ، يحاسبه ربه حساباً عسيراً على ما قدمت يداه فى حياته الدنيا ، ومَنْ أحسَنَ عمـلا فلنفسه ومن أساء فعليها ، وما ربك بظلام للعبيد .

تلك مقدمة لابد منها لما يلى من فصُول هذا البحث ، كى يقف منها موقفاً واعياً من آمن بالله وباليـوم الآخر ، فيتجـه إلى الخالق جـل وعلا بقلب خـالص ذاكراً متذكراً ، ملتمساً منه الهداية إلى أقوم المسالك فى رحلته القصيرة فى حياته الدنيـا وليتزود منها ويتجهز فيها لآخرته حتى يقف أمام ربه راضياً مرضياً فى هذه الحياة الدنيا وفى يوم البعث والحساب المحتوم .

وليس هناك أصدق من آيات الله البينات فى قرآنه الكريم مرجعا ، يرجع إليه المؤمن فى حركته وسكونه يتلمس فى نصوصها ومعـانيها وتـوجيهاتهـا صراط ربـه المستقيم ، ويهتدى بها فى حياته الدنيا فكراً وقولاً وعملاً ، فينظم علاقته بربه وبنفسه ومجتمعه على أسس سليمة من الحق والعدل ، فيكون بذلك قد أدى الأمانة التى من أجلها خلقه الخالق وسواه ثم استخلفه على هذه الأرض .

وأى مرشد إلى الحق والعدل خير من آيـات الفرقـان لمن خلص قلبه وَصَفَـا ضميره ؟ وأى هاد إلى الصواب والرشاد خير من آيات القرآن لمن شرح الله صدره للإيمان بخالقه الأحد وبكتبه وبرسله وباليوم الآخر ؟ تلك هى الآيات القرآنية التى وجهها العزيز الحكيم للناس كافة ، فى كل زمان ومكان .

هوامــش البــاب الأول

(١) الأعراف ٢٠٤ .
(٢) الإسراء ٩ .
(٣) الأنعام ١٥٣ .
(٤) آل عمران ٣ .
(٥) الشورى ١٣ .
(٦) السجدة ١٥ .
(٧) السجدة ١٦ .
(٨) الأنفال ٢ .
(٩) الزمر ٢٣ .
(١٠) الإسراء ٩٤ .
(١١) الإسراء ٩٥ .
(١٢) آل عمران ١٠٤ .
(١٣) من سورة القلم ١-١٣ .
(١٤) النحل ٤ .
(١٥) الإنسان ٣ .
(١٦) مريم ٩ .
(١٧) آل عمران ٥٩ .
(١٨) السجدة ٧ .
(١٩) الصافات ١١ .
(٢٠) الحِجْر ٢٦ .
(٢١) الرحمن ١٤ .
(٢٢) الأعراف ١٢ .
(٢٣) المرسلات ٢٠ .
(٢٤) القيامة ٣٧ .
(٢٥) العَلَق ٢ .
(٢٦) المؤمنون ١٢-١٤ .
(٢٧) فصّلت ٤٦ .
(٢٨) فاطر ٣٩ .
(٢٩) البقرة ٣٠ .
(٣٠) الأنعام ١٦٥ .
(٣١) القصص ٧٦ .
(٣٢) القصص ٧٧ .
(٣٣) القصص ٧٨ .

(٣٤) القصص ٨١ .
(٣٥) الإسراء ١٦ .
(٣٦) النمل ٣٤ .
(٣٧) يونس ٧٣ .
(٣٨) الأعراف ٦٩ .
(٣٩) القمر ١٨ .
(٤٠) القمر ١٩ .
(٤١) القمر ٢٠ .
(٤٢) الأعراف ٧٣ .
(٤٣) الأعراف ٧٤ .
(٤٤) الأعراف ٧٧ .
(٤٥) الأعراف ٧٨ .
(٤٦) الأعراف ٩٧ .
(٤٧) الأعراف ١٣٣ .
(٤٨) الأعراف ١٣٦ .
(٤٩) الأعراف ١٣٧ .
(٥٠) الأعراف ١٤٧ .
(٥١) الأعراف ١٤٨ .
(٥٢) الأعراف ١٥٢ .
(٥٣) الأعراف ١٦٥ .
(٥٤) الأعراف ١٦٦ .
(٥٥) آل عمران ١١٢ .
(٥٦) الأعراف ٨٥ .
(٥٧) المطففين ١-٦ .
(٥٨) الشمس ٧-١٠ .
(٥٩) البقرة ٢٦٩ .
(٦٠) الإسراء ٥٣ .
(٦١) المعارج ١٩-٢٥ .
(٦٢) الزمر ٥١ .
(٦٣) فصلت ٥١ .
(٦٤) الإسراء ٨٣ .
(٦٥) الزمر ٤٩ .
(٦٦) آل عمران ١٨٨ .
(٦٧) عبس ١٧ .
(٦٨) العنكبوت ٦٤ .
(٦٩) آل عمران ١٤ .
(٧٠) الفجر ١٩ ، ٢٠ .
(٧١) العلق ٦ ، ٧ .
(٧٢) البقرة ١١ ، ١٢ .
(٧٣) الأنفال ٢٨ .

(٧٤) ال عمران ١٧٨ .
(٧٥) لقمان ٢٤ .
(٧٦) الأعراف ١٨٦ .
(٧٧) آل عمران ٢٦ .
(٧٨) الحج ٤١ .
(٧٩) لقمان ١٨ .
(٨٠) الإسراء ٣٧ .
(٨١) لقمان ١٩ .
(٨٢) المجادلة ١١ .
(٨٣) الأنفال ٦ .
(٨٤) البقرة ٤٢ .
(٨٥) الأعراف ١٩٣ .
(٨٦) الحجرات ١١ .
(٨٧) النور ٢٣ .
(٨٨) النساء ٣٨ .
(٨٩) الصف ٢ ، ٣ .



الباب الثانى
الإيمان



معنى الإيمـــان :

الإيمان لغوياً من أمن بمعنى لم يخف ولم يتردد ، بل اطمأن وهدأ باله واستقرت نفسه ، لأنه أمن من أن يلحقه شيء يؤذى ضميره أو فكره أو جسده ، هو ومن يحب .

والشخص الآمن هو المطمئن ، ومنها الأمين هو من كان موضع الثقة والأمان والاطمئنان على ما يودع عنده من أمانات ، مادية كانت أو معنوية .

وآمن الشخص بشيء أو شخص آخر بمعنى صدق وأذعن لهما عن فهم واقتناع ويقين ، بعيداً عن الوقوع تحت أى ضغط من أى نوع ، ترهيبا كان هذا الضغط أو ترغيبا .

واسم فاعلها مؤمن وهو المذعن المصدق بلا حدود وبدون أى قيد أو شرط ومصدرها إيمان .

والإيمان بالمعنى الدينى هو التصديق والإذعان والخضوع المطلق لإله واحد ، والاستسلام لمشيئته عن اقتناع تام وبغير تحفظ أو تحت أى ضغط من أى نوع كان .

والإيمان الراسخ بالله هو عهد وميثاق يقطعه العبد طواعية لربه ، ويهدى صاحبه دائماً إلى الصواب فى سكونه وحركته ، ويلهمه الحق فى كل ما يحس به أو يفكر أو ينطق أو يعمل ، وبقدر ما يكون المؤمن من قوة يقين بربه ، وبقدر ما يكون على علم به من صفات نفسه ونزعاتها ، وبقدر ما يتأمل فى آيات الله البينات فيما يقع عليه بصره أو حسه من أسرار هذا الكون ، وبقدر بعده عن هوى النفس وغرورها بمظاهر الدنيا البراقة ، وبقدر عدم المغالاة فى حب هذه المظاهر والاستمتاع بها بما فيها من مال وجاه وزخرف . بقدر هذا كله أو بعضه ، بقدر ما يكون قرب المؤمن أو بعده عن ربه ، وقوة إيمانه أو ضعفه .

والمؤمن المسلم هو من سار على هذا المعنى فكراً وقولاً وعملاً ، ففى الإسلام لله العزيز الحكيم ، والإيمان بكتابه الكريم ، وأداء فرائض دينه القويم فى العبادات والمعاملات ، فى كل هذا الخير كل الخير للمسلم وللمجتمع الإسلامى وتسديد خطاهما واطمئنانهما وسلامة بناء المجتمع الإسلامى كله وترابطه ، لتكون من هذا المجتمع بحق ، خير أمة أخرجت للناس ، أمة تدعو إلى الحق وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر .

والمؤمن المسلم هو من آمن بالله الواحد الأحد الذى لم يلد ولم يولد ، والمؤمن المسلم هو من أسلم وجهه وأمره لربه وخالقه ومنشئه ومسيره ورازقه وهاديه ، والمؤمن المسلم هو من آمن بما أنزل الله من كتب وخاتمها قرآنه الكريم واتخذ منه دستوره فى حياته الدنيا ليكون فى آخرته من الصالحين ، والمؤمن المسلم هو من آمن برُسُلِ ربه الذين اصطفاهم من بين خلقه ليبلغوا الرسالة وخاتمهم الرسول الأمى الأمين محمد بن عبد الله ﷺ ، الذى لاينطق عن الهوى بل يبلغ ما أوحى إليه من ربه . . والمؤمن المسلم هو من آمن باليوم الآخر ، يوم حساب الخالق لخلقه على ما قدموا فى حياتهم الدنيا ويجزى كل إنسان بما كسب .

الفصل الأول

موضع الإسلام من الأديان السماوية

إن كلمة الإسلام تعنى لغوياً التسليم والاستسلام وتعنى بالمعنى الدينى إسلام الانسان نفسه ، جسدا وفكرا وقولا وعملا وكل كيانه لله عز وجل ، وصفته مسلم ، وهو من يعمل بتعاليم الله الواحد الأحد وأوامره الواردة فى خاتم كتبه ، القرآن الكريم وكلها أوامر وتعاليم وشرائع لصالح الإنسان فى دنياه ، وزاد له فى آخرته . . وهى تعاليم وشرائع وأوامر أنزلها الله ، سبحانه وتعالى فى كل كتبه على كل رسله .

ومتى أسلم الإنسان لرب العالمين ، حصن نفسه من غواية الشيطان الذى يوسوس له بفعل الشر الذى يقوده هو ومجتمعه إلى التعاسة والبوار فى حياته الدنيا ، وسوء المصير فى الحياة الآخرة .

إن الأديان السماوية جميعها تهدف لخير الانسان وتطهيره من وسوسة الشيطان الذى تربص لابن آدم بالغواية والسوء حقدا وحسدا منه على هذا المخلوق الذى انحدر ممن خُلِق من طين الذى أبى إبليس أن يسجد له كما أمره الخالق . فباء هذا العاصى المارق ومن تبعه بلعنة الله وغضبه :

« قالَ لَم أكُن لأسجُدَ لبَشَرٍ خلقتَهُ من صلصال من حمإٍ مّسنون » (١)

فزجره الله ولعنه ، إذْ :

« قال فاخرجْ منها فإنك رَجيم » * « وإنَّ عليك اللعنةَ إلى يومِ الدين »[٢]

ويتمادى إبليس اللعين فى عصيانه وضلاله ، إذْ :

« قال ربِّ بما أغوَيْتَنِي لأزَيِّنَنَّ لهم فى الأرض ولأغوِينّهم أجمعين »[٣]

ومن ثم رعى الله القوى القدير بنى آدم الذين استخلفهم فى الأرض وأمدهم بأوامر ونواهٍ ربانية ، وقاية لهم من كيد إبليس وغوايته لهم ، فأنزل كتبه على رسل منهم وحمّلهم أمانة تبليغها للناس كافة هَدْيا لهم إلى صراطه المستقيم ، مبشرين ومنذرين :

منذرين بعذاب مهين من خالف أمر ربه واتبع خطوات الشيطان ، ومبشرين بالخير العميم فى الدنيا والآخرة من خضع وأسلم لله .

فمصدر الكتب السماوية كلها واحد ، هو لوح الله المحفوظ لدن العليم الخبير ، الواحد الأحد الذى لا إله غيره ، يُعبد ويُتقى ، وليس من سواه يُؤمَن به وبكتبه ، وهو الله الأزلى المطلق الذى لا يحده مكان ، ولا يشتمل عليه زمان ، وهو سبحانه القوى المعز ، وبذاته من لم يلد ولم يولد ، ولا شريك له ولا شىء مثله يعبد . فالخالق واحد والمبدىء واحد والمدبر واحد ، والذى خلق وقدر الحياة والموت والبعث والحساب هو الله وحده ، وهو وحده المحيط علما بكل خلقه فى كونه الواسع الذى لا يعلم حدوده إلا هو ، وهو الأول وهو الآخر وهو وحده الذى له الملك وإليه المصير ، هو وحده له الذكر وله الحمد والشكر فى كل زمان وفى كل مكان وفى جميع الأحوال . . . هو وحده القادر على أن يقول لما يريد كن فيكون .

هو الذى أنزل على البشر كتبه بالدعوة إلى المعروف وبالنهى عن المنكر ، ومن سار على هدى كتبه المنزلة اهتدى للحق ، ومن نأى عنها وكابر ضل فاستحق الحساب والمساءلة يوم البعث العصيب . وما صرّف بعض أهل الكتاب عن الإيمان بخاتم كتب الله وبخاتم رسله إلا الغرور بما آتاهم الله من عز وسلطان وإلا الحسد لمن أنزل لهم خاتم كتبه وأرسل إليهم خاتم رسله .

ولقد كان بعض أهل الكتاب قبل الرسالة المحمدية فى شقاق فيما بينهم ، كل منهم يدعى أنه شعب الله المختار وأن كتابه هو خاتم كتب الله وأن دينه هو الأحق بأن يتبع . وكأن كلا منهم قد أحاط علما بحكمة الله وحُكمِه وقَدَرِه :

« وقالتِ اليهودُ ليستِ النَّصارَى على شىءٍ وقالت النصارى ليستِ اليهودُ على شىء وهم يتْلون الكتابَ كذلك قال الذينَ لا يعْلمُون مِثلَ قولِهم ، فاللهُ يحكمُ بينهمْ يوم القيامةِ فيما كانوا فيه يختلفون » (٤)

فلما جاء القرآن مصدقا لما بين أيديهم من كتب الله ، اتحد عليه المتخاصمان وكذباه :

« وقالوا لن يدخلَ الجنة إلاَّ مَنْ كان هُوداً أو نَصَارَى تلك أمانيُّهم ، قل هاتوا برهانَكم إنْ كنتم صادقين »(٥) .

ويؤكد العليم الخبير دعوة الحق ، فيقول :-

« بَلى من أسلَمَ وجهَهُ لله وهو مُحسِنٌ فَلَهُ أجرُهُ عِند رَبِه ولا خوفٌ عليهمْ ولاهُم يحْزنونَ »(٦) .

ويحذر الله رسوله الأمين من كيد بعض أهل الكتاب الذين كانوا له أشد عداء من المشركين ، فيقول :-

« ولنْ ترضَى عنك اليهودُ ولا النَّصَارَى حتى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قل إن هُدَى الله هو الهُدَى ولئن اتَّبَعْتَ أهْواءَهُم بعد الذى جاءَكَ من العِلْمِ مالَكَ مِنَ الله من ولىٍّ ولا نَصيرٍ »(٧)» .

وما نَزّل الله قرآنه الكريم إلا ليسلك بمن انحرف من أهل الكتاب وضل عن أمر الله ، إلى صراطه المستقيم الذى بينه فى كل كتبه . . وقد رأى العليم الخبير بنفوس البشر وأهوائهم مدى انحراف بعض أهل الكتاب عما نزّل الله ، فكان ، سبحانه وتعالى ، ينزل من لدنه الكتاب تلو الكتاب ليعيدهم إلى صراطه المستقيم ، وكلها قصدها واحد ومبدؤها واحد ، وهو بث الخير والحق فى نفوس البشر وانتشالهم مما كانوا فيه من ضلال ، حتى كان آخر كتبه المنزلة هذا الكتاب القيم الذى لا يأتيه

الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ومؤكدا به مانزل من كتب ومصدقا به ما أوحى من آيات ومفصلا فيه ما أجمل ، وموضحا ماغمض ، ومصححا مازُيف فى هـذه الكتب وما حُذف منها .

ومن ذا الذى يكذب خاتم رسل الله ، وقد بشر به رسول من قبل ؟

« وإذْ قال عيسى ابْنُ مَرْيَمَ ، يابنى إسْرائيلَ إنِّى رسولُ الله إليكم مُصدِّقا لما بين يَدَىَّ من التوراة ومُبشِّراً برسولٍ يأتى مِنْ بَعْدى اسْمُهُ أحمدُ فلما جاءَهُم بالبيِّنات قالوا هذا سحرٌ مبينٌ »[٨]

وقد أنزل الحكيم الخبير كل كتاب بلغة القـوم الذين أنـزل إليهـم ، ليفهموه ويعقلوه ومن ثم يسيرون على هداه عن بيِّنة وإيمان ، وحتى لا يكون للناس بعد ذلك حجة :

« وماأرْسَلْنا مِنْ رسولٍ إلا بلسانِ قومِهِ ليبينَّ لهم فَيُضِلُّ اللهُ من يشاءُ ويَهْدى مَن يشاءُ وهو العزيزُ الحكيمُ »[٩] .

ولاتبديل ولاتغيير لكلمات أنزلت من عند الله ، فأصلها واحد وهدفها واحد ، إنما جاء التبديل والتغيير ممن ضل من البشر ، ممن أغواهم شيطانهم بتحريف ما أنزل الله وبتغييره بالحذف والإضافة فى النص ، وبالالتواء فى شرح المعانى عما أراد العزيز الحكيم . ومن ثم تتابعت كتب الله المنزلة على البشر ، لا لتأتى بجديد بل للتذكرة لمن نسى والتصويب لمن غيّر وبدَّلَ وهو على علم :

« ولقد بَعَثْنا فى كل أمةٍ رسولاً أنِ اعبدُوا اللهَ واجتنبوا الطَّاغوتَ فمنهم مَنْ هَدَى اللهُ ومنهم مَنْ حَقَّت عليه الضَّلالةُ فسيروا فى الأرضِ فانظروا كيف كـان عاقبةُ المكذِّبينَ »[١٠] .

وقد أنزل الله قرآنه الكريم مصدقا لما سبق أن أنزله من كتب ، ومؤكدا فيه ما سبق أن شرعه من شرائعه ودينه :

« شَرَعَ لكم مِنَ الدِّين ماوصَّى به نوحاً والذى أَوْحَيْنا إليكَ وما وصَّيْنا به إبراهيمَ وموسَى وعيسَى أنْ أقيموا الدِّينَ ولا تَتَفرَّقُوا فيه كَبُرَ على المشركينَ ماتدعوهم إليه اللهُ يَجْتَبِى إليه من يشاءُ ويهْدى إليه من يُنيبُ »[١١]

« وإذْ يَرْفَعُ إبراهيمُ القواعدَ مِن البيتِ وإسماعيلُ ربنا تقبَّل منا إنَّـك أنت السميعُ العليمُ »[١٢] .

« ربَّنا واجْعلنا مُسلمَين لك ومن ذُرِّيَّتِنا أُمةً مسلمةً لكِ وأرِنا مناسِكنَا وتُبْ علينا إنَّك أنتَ التَّوابُ الرَّحيمُ »[١٣] .

« ومَن يرغبُ عن مِلَّةِ إبراهيمَ إلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَد اصْطَفَيْنَاهُ فِى الدُّنْيَا وإنَّه فى الآخِرةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * إذْ قَالَ لَه ربُّه أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ العَالَمِينَ * وَوَصَّى بِهَا إبْراهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إن الله اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إلا وَأَنتُم مُسْلِمُونَ »[١٤] .

ومن بعد إبراهيم نزل الله التوراة على بنى إسرائيل ، يهديهم فيها إلى ما سبق أن هدى الله فيه إبراهيم :

« إنَّا أنزلنا التَّوراةَ فيها هُدًى ونورٌ يَحْكُمُ بِها النَّبِيُّونَ الَّذِيَن أَسْلَموا لِلَّذِينَ هَادُوا والرَّبَّانيُّونَ والأَحْبارُ بما اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتابِ الله وَكانُوا عَلَيْهِ شهداءَ فَلاَ تَخْشَوُا النَّاسَ واخشَـوْنِ وَلاَتَشْتَرُوا بِـآيَاتِى ثَمَنًـا قليـلاً ومَن لَّمْ يَحْكُم بمَـا أَنْـزَلَ اللهُ فَـأُولئِـكَ هُمُ الكَافِرُونَ »[١٥] .

ثم أرسل الله إلى بنى إسرائيل رسوله عيسى بن مريم وآتاه الإنجيل مصدقا للتوراة :

« وقفَّيْنا على آثارهم بعيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّواراةِ وآتيناهُ الإنْجيلَ فيه هُـدًى ونُورٌ وَمُصـدِّقاً لِمَـا بَيْنَ يـدَيْـه مِنَ التَّـورَاةِ وَهُـدًى ومَـوْعِـظَةً لِلْمُتَّقِينَ »[١٦] .

وإذا ذكر القرآن الإنجيل فى كثير من آياته الكريمة ، فإنما يقصد به ذلك الكتاب المقدس الذى أنزله الله على رسوله عيسى ابن مريم ، وهو ذلك الكتاب الذى بشّر به المسيح عليه السلام ـ الناس هَديًا لهم وإصلاحا وتذكيرًا لهم بوجود إله واحد لا إله غيره ، إله موسى وعيسى ومحمد .

فإذا كان بعض ما ينسب إلى المسيحية من زيف فإن المسيحية لا تعترف به وتحاربه .

ولاتختلف المسيحية عن الإسلام فى صفة مريم ، فهى فى نظر الدينين عبد من عباد الله ، بل إن مريم نفسها تقول فى الإنجيل إنها « أَمَة الرب » .

وكما ينفى القرآن وجود صاحبة لله الواحد الأحد ، كذلك المسيحية تنزه الخالق جل وعلا عن أن تكون له صاحبة .

وكما ينفى الإسلام تعدد الآلهة ووجود التثليث ، كذلك تقول المسيحية إنها تنكر التعدد والشرك ، كما تنكر أن يكون لله ولد من صاحبة بتناسل جسدى .

وما أكثر آيات الإنجيل الذى نزله الله على رسوله عيسى عليه السلام ، التى تؤكد هذه الحقيقة الأبدية ، حقيقة وحدانية الله الخالق لكل شىء :

ففى إنجيل متى ٤ : ١٠ (حينئذ قال يسوع ، اذهب ياشيطان لأنه مكتوب للرب إلهك تسجد ، وإياه وحده تعبد) .

وفى إنجيل يوحنا ١٧ : ٣٠ (وهذه هى الحياة الأبدية ، أن يعرفوك أنت الإله الحقيقى وحدك ، ويسوع المسيح الذى أرسلته) .

وفى إنجيل يوحنا ٥ : ٤٤ (كيف تقدرون أن تؤمنوا ، وأنتم تقبلون مجدا بعضكم من بعض ، والمجد الذى من الإله الواحد لستم تطلبون) .

وفى إنجيل يوحنا ٦ : ٣٨ (وأنا إنسان كلمكم بالحق الذى سمعه من الله) .

وكما أن لب الدين المسيحى هو الإقرار بوجود إله واحد لا شريك له وأن المسيح عيسى بن مريم إنسان أرسله الله للتبشير بهذا الدين ، كذلك اليهودية تقر بوحدانية الخالق جل وعلا :

ففى سفر التثنية ١ : ٥ (ابتدأ موسى يشرح هذه الشريعة قائلا ، الرب إلهنا ، كلمنا فى حوريب قائلا : كفاكم قعودا فى هذا الجبل) .

وفى سفر الأمثال ١٩ : ١٧ (من يرحم الفقير يقرض الرب وعن معروفه يجازيه) .

وفى سفر الخروج ١٩ : ٢١ (فقال الرب لموسى ، انحدر حذر الشعب لئلا يقتحموا إلى الرب لينظروا فيسقط منهم كثيرون ، وليتقدس أيضا الكهنة الذين يقتربون إلى الرب لئلا يبطش بهم الرب) .

ثم أنزل خاتم كتبه على رسوله النبى الأمى ، خاتم رسله ﷺ مصدقا لكتب الله ومهيمنا ، وقد لخص الحكيم الخبير فى خاتم كتبه جوهر الإيمان والدين الذى ارتضاه لعباده المؤمنين :

« نَزَّلَ عليك الكتابَ بالحقِّ مصدِّقا لِما بين يَدَيْه وأَنْزَلَ التَّوراةَ والإنجيلَ * مِن قَبْل هدًى للناسِ وأنزل الفُرْقَانَ إن الَّذين كفروا بآياتِ الله لهمْ عذابٌ شديدٌ ، والله عزيزٌ ذو انتقامٍ »[١٧] .

« آمَنَ الرسولُ بما أُنْزِلَ إليهِ من ربِّهِ والمؤمنون كُلٌّ آمنَ بالله وملائكتِهِ وكُتُبِه وَرُسِلهِ لانفرِّقُ بين أحدٍ من رسلهِ وقالوا سمعنا وأطعنا غُفرانَك ربَّنا وإليكَ المصيرُ »[١٨] .

ويكشف لنا العليم الخبير المحيط بكل شىء علما ، انحراف بعض أهل الكتاب عن الأخذ بما جاء فيه من الحق ، إما عن سوء فهم للمتشابه من آيات القرآن الكريم فيسيئون تأويله ، وإما عن التواء مقصود بمحكمها ، يشوهون قصده ويحرفون كلام الله ويحولون ماجاء به من الحق طلبا لمنفعة دنيوية عاجلة ، وهم جميعاً لو أتوا القرآن بقلب مفتوح ونية خالصة ، لهداهم الله إلى المعنى الحق للمحكم من آياته ولأرجع المتشككين بما اشتبه عليهم إلى المحكم ولكنهم أصروا على العصيان واستكبروا استكباراً :

« مِنَ الذينَ هادُوا يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ عن مواضعه ويقولون سمعنا وعَصَيْنا واسمَعْ غيرَ مُسْمَع ورَاعنَا ، ليًّا بألسِنَتِهِمْ وطَعْنًا فى الدِّينِ ولو أنهمْ قالوا سَمِعْنا وأطعْنا واسْمَعْ وانظُرنا لكان خيراً لهم وأَقْوَمَ ولكِن لَعنهم اللهُ بكُفْرِهمْ فلا يؤمنون إلاَّ قليلاً »[١٩] .

« وإنَّ منهم لفَريقًا يَلوُون ألسنَتَهُم بالكتابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الكتابِ وما هُوَ مِنَ الكتابِ ويقولون هو مِن عندِ الله وما هو مِنْ عندِ الله ويقولونَ على الله الكَذِبَ وهم يعْلَمونَ »[٢٠] .

« فبما نَقْضِهِم ميثاقَهُمْ وكُفْرهمْ بآيات الله وقَتْلِهِم الأنبياءَ بغير حقٍّ وقَوْلِهِمْ قُلوبُنا غُلْفٌ بل طَبَعَ اللهُ عليها بكفرهم فلا يُؤمنون إلاّ قليلاً[٢١] * وبكُفْرِهمْ وقَوْلِهِمْ على مَرْيَمَ بُهْتاناً عظيماً[٢٢] * وقَوْلِهم إنَّا قتلنا المسِيح عيسَى ابنَ مرْيمَ رَسولَ اللهِ وما قتلوه وما صَلَبوه ولكن شُبِّهَ لهم وإنَّ الذين اختلفوا فيه لَفِى شكٍّ مِنْهُ مَالَهُم بِهِ مِنْ عِلمٍ إلا اتِّباعَ الظَّنِّ وما قتلوهُ يَقِينًا »[٢٣] .

« هو الذى أنـزلَ عليكَ الكتـابَ منه آيـاتٌ محكماتٌ هُنّ أمُّ الكتـابِ وأُخَرُ مُتشابهاتٌ فأما الذين فى قلوبهم زَيْغٌ فيتَّبعونَ ما تشابَهَ منه ابتِغاءَ الفتنةِ وابتغاءَ تأويله وما يعلم تأويلَه إلا الله والراسخون فى العلمِ يقولون آمنّا به كلٌّ من عندِ ربنا وما يذّكّرُ إلا أولوا الألبابِ »[٢٣][٢٤]

ويتناول القرآن الكريم بالتصحيح والتصويب ما أنزل الله من القول الحق فيما اختلف فيه بعض أهل الكتاب وفيما غيّروا فى كتابه بما لم ينزل :

« ما المَسيحُ ابنُ مريمَ إلاَّ رسولٌ قد خَلَتْ من قَبْلِهِ الرُّسُلُ وأُمهُ صِدِّيقةٌ كـانا يأكلان الطعام انظُر كيف نُبينُّ همُ الآياتِ ثم انظرْ أنَّى يُؤفَكونَ »[٢٥] .

« ياأهلَ الكتابِ لاتغلوا فى دِينكُم ولا تقولوا على الله إلاَّ الحقَّ إنَّما المَسيحُ عيسى ابنُ مريمَ رسولُ اللهِ وكلمتُهُ ألقاها إلى مريَمَ ورُوحٌ مِنْهُ فآمِنوا باللهِ ورُسُلِهِ ولا تقولوا ثلاثةٌ انتهُوا خيراً لكم إنمّا اللهُ إلَهٌ واحدٌ سُبحانَهُ أن يكونَ له وَلدٌ له ما فى السمواتِ وما فى الأرضِ وكَفَى باللهِ وكيلاً[٢٦] * لن يَسْتنكِفَ المسيحُ أنْ يكونَ عبدًا للهِ ولا الملائكةُ المقرَّبُون ومَنْ يستنْكِفْ عنْ عِبادتِه ويستكْبِرْ فسيحْشُرُهُمْ إليهِ جميعاً »[٢٧] .

« وَلْيَحْكُمْ أهلُ الإنجيلِ بما أَنزَل اللهُ فيهِ ومَنْ لم يحكمْ بما أنزلَ اللهُ فأولئكَ هُمُ الفاسقون »[٢٨] .

ويحذر الله أهل الكتاب من عاقبة تكذيبهم بما أنزل الله من آيات ، وينصحهم بألا يتخذوا من العبث بكتب الله سلعة يتاجرون بها ، ويخدعون بها البسطاء ممن أولوهم كل ثقتهم ، وألاَّ يحمّلوا أنفسهم مالا يطيقون من أوزار يحاسبهم الله عليها يومَ الحشر الأكيد :

« إنَّ الذين يكْتُمونَ ما أَنْزلَ اللهُ من الكتابِ ويَشتَرونَ به ثمناً قليلاً أولئك ما يأكلون فى بُطونِهم إلاَّ النَّارَ ولا يكَلِّمُهُمُ اللهُ يومَ القيامَةِ ولا يـزكِّيهم ولهم عذابٌ أليمٌ »(٢٩) .

« وَلوْ أنَّهم أَقاموا التوراة والإنجيلَ وما أُنزِلَ إليهم من ربِّهم لأكلوا من فوقِهِم ومن تحتِ أرجُلِهِم منهم أُمَّةٌ مقتصِدةٌ وكثيرٌ مِنهم ساءَ ماَ يَعْمَلونَ(٣٠) » .

« قُلْ يا أهلَ الكتابِ لستم على شيءٍ حتى تُقيمُوا التَّوراةَ والإنْجيلَ وما أُنْزِلَ إليكم من ربِّكم ولَيَزِيدَنَّ كثيرا منهم ما أُنْزِلَ إليك من ربِّكَ طُغْيَاناً وكُفْراً فلا تأسَ على القومِ الكافرين »(٣١)

ثم يذكّر العليم الخبير أهل الكتاب بخلاصة مختصرة وبليغة بمعنى إقامة كتب الله كما أراد الله :

« إنّ الذين آمنوا والذين هادُوا والصَّابِئون والنَّصارى مَنْ آمَنَ باللّهِ واليومِ الآخرِ وعَمِلَ صالحًا فلا خوفٌ عليهم ولا هم يَحزنُونَ »(٣٢) .

ثم يشبهُ الله أهل الكتاب الذين لا يعملون بما جاء فيه ، بما يأبى كل إنسان عاقل أن يكون به شبيها :

« مَثَلُ الّذين حُمِّلوا التَّوراةَ ثُم لمْ يَحملِوُها كمَثَلِ الحِمارِ يحْمِلُ أسفارًا بِئْسَ مَثَلُ القوْمِ الذين كَذَّبوا بآياتِ اللهِ واللهُ لايَهْدِى القَوْم الظّالمينَ»(٣٣) .

ويمثل الله من اختلفوا فى تأويل آيات الله البينات وكلامه الحق ، بطائفة أعماها الله عن الحق فتنازعت فيما بينها وأصبحوا فيما بينهم أعداء يكنّ البعض منهم البغض والكراهية للبعض الآخر ، وما هى إلا فتنة يرمى بها الله من كذّب بآياته :

« ومِنَ الذين قالوا إنّا نصارَى أَخَذْنا مِيثاقَهمُ فَنَسُوا حظًّا مّما ذُكرُّوا بِهِ فأغْرَيْنا بينهُمُ العَداوةَ والبَغْضاءَ إلى يومِ القيامةِ وسوف ينبئُهُمُ اللهَ بما كانوا يَصْنَعونَ »(٣٤) .

ثم ينزل الله خاتم كتبه ، قرآنه الكريم ، يكشف به ما أخفى أهل الكتاب ما أنزل اليهم وليوضح ما التبس عليهم وما اختلفوا فى تأويله :

« يا أهلَ الكتابِ قد جاءكم رسُولُنا يُبَيِّنُ لكم كثيراً مما كنتم تُخفونَ مِنَ الكتابِ ، ويعفُو عن كثيرٍ ، قد جاءكمْ مِن اللهِ نورٌ وكتابٌ مبينٌ »(٣٥) .

« وما أنزلنا عليكَ الكتاب إلاَّ لِتُبيِّنَ لهم الذى اختلفوا فيهِ وَهُدًى ورحمةً لِقوم يؤمنونَ »(٣٦) .

ومن نعم الرحمن على أهل القرآن المبين ، أن بقى هذا الكتاب كما هو لم يتبدل فيه حرف أو كلمة ، ولم تتقدم آية عن آية أخرى أنزلها الله قبلها بل بقى القرآن بآياته كما نزّلها الله نصا ومعنى وترتيبا لأن الله قد صدق وعده بحفظه ، وهو خير الحافظين ، من أى عبث وأبعده عن أى هوى ، لأنه خاتم كتبه إلى يوم الدين ، أنزله على صفيه ونبيه الأمين سيدنا محمد ﷺ ليبين ما أسىء فهمه مما سبقه من كتب سماوية ، وليصحح ما حُرِّف من كلام الله سبحانه وتعالى :

« إنَّا نحنُ نَزَّلْنا الذِّكْرَ وإنَّا له لَحَافِظون»(٣٧) .

« بَلْ هو قرآنٌ مَجيدٌ فى لَوْحٍ محفوظٍ »(٣٨) .

« تَبَارَكَ الذى نَزَّلَ الفُرْقانَ على عبْدِهِ لِيكُونَ لِلْعَالمينَ نَذِيرًا »(٣٩) .

ولا يزال القرآن الكريم على ما أنزله العزيز الحكيم لم يتغير ولم يتبدل ، ولا يزال على إعجازه وسموه فوق أى عبث ، فلا يأتيه الباطل من أى جهة ولا يقدر على أخذه بالتحريف أى مخلوق مهما أوتى من علم أو مكر أو خبث :

« فَلْيأتوا بحديثٍ مِّثله إنْ كانوا صادِقِينَ »(٤٠)

« قلْ لَئنِ اجتمعت الإنسُ والجنُّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآنِ لا يأتونَ بِمِثْلِهِ ولو كان بعضُهُمْ لبعضٍ ظَهيرا »(٤١) .

هذا هو القرآن الكريم خاتم كتب الله ، أنزل للبشر كافة بدين الحق وهو دنيا ودين ، لا يحرّم على الناس من متاع الدنيا الا ما خالفوا به الحق ، وشرع الله فيه للناس كافة ما هو أحسن فى علاقة الفرد بربه وعلاقته بنفسه وعلاقته بغيره من الناس .

بل هو دستور البشرية الأزلى وسيظل بصدقه وبإحاطته وشموله ، خير ما يلجأ إليه البشر فى حل مشكلاتهم للأخذ بالتى هى أقوم ، فيظل بالسلام الأرض ويبث فى الناس المحبة والوئام .

« وأَنّ هذا صِراطِى مستقيمًا فاتَّبعوهُ ولاتتبعوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بكُم عن سبيلِه ذَلِكم وصَّاكم بِهِ لعلكم تَتَّقُونَ »[٤٢] .

ألا يحق لنا بعد هذا أن ننادى بخاتم كتب الله دستورا لمن آمن بالله واليوم الآخر فى العالم أجمع ، فيدين البشر بدين الحق الذى شرعه الله للناس كافة فى قرآنه الكريم ؟ أما آن الوقت لندعو لدين الله القيّم ، بالحق وبالحوار الهادىء والإقناع بالنص والتفسير والمنطق السليم حتى تكون هذه الأمة ، بحق ، خير أمة أخرجت للناس منذ أن كان الناس ، أمة تدعو للمعروف وتنهى عن المنكر ؟ وهلا بدأنا بأنفسنا نحن والتزمنا بهذا القرآن الكريم ؟ فنعمل بهذا الدستور السماوى ، نصا وروحا ؟ .

ألاَ إنّ هذا هو أمل كل من آمن بالله واتقاه حق تقواه ، إيمانه برسله وكتبه وبالآخرة ويوم الحساب ، ولينصرن الله من نصره ونصر دينه :

« إنَّ الدِّينَ عندَ اللهِ الإسلامُ وما اختلف الذين أوتوا الكتابَ إلاَّ مِنْ بَعْدِ ما جاءهم العِلمُ بغياً بينهم ومَنْ يكفُرْ بآياتِ اللهِ فإنَّ اللهَ سريعُ الحِسَابِ »[٤٣] .

« فإن حاجّوك فَقُل أسلَمْتُ وجهِىَ لِلّهِ ومَنِ اتَّبَعَنِ وقل لِلَّذِينَ أُوتوا الكتابَ والأُمِّيِّنَ أأسْلَمْتُمْ فإنْ أسلَموا فقد اهتَدوا وإن تَوَلَّوْا فإنما عليك البلاغُ والله بصيرٌ بالعِبَادِ »[٤٤] .

« ومن يَبْتَغِ غيرَ الإسلام دِينًا فلن يُقبَلَ منهُ وهو فى الآخِرَةِ مِن الخاسرينَ »[٤٥]

« كيف يَهدى اللهُ قوماً كفروا بعدَ إيمانِهِمْ وشَهِدُوا أنّ الرسولَ حقٌّ وجاءَهُمُ البيِّناتُ ، والله لاَ يَهْدِى القومَ الظالمِينَ »[٤٦] .

« وإنَّ منْ أَهْلِ الكْتَابِ لَمَنْ يؤْمِنُ باللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ للهِ لا يشترون بِآياتِ الله ثمناً قليلاً أولئك لَهُمْ أجرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إنّ الله سَرِيعُ الحِسَابِ»[٤٧] .

الفصل الثانـــى

الإيمان وشعائر الاســـلام

المؤمن المسلم هو من أسلم وجهه وأمره لله تعالى ورضى بقضائه وقدره والمؤمن المسلم من اتقى ربه وصدق فكره وقوله وعمله ، فلا يعمل إلا صالحـا ولا يقول إلا حقاً .

والمؤمن المسلم من سَلِم الناس من يده ولسانه ، وعامل النـاس بما يُحبُّ أن يعاملوه به .

والمؤمن المسلم من سعى إلى طلب الرزق بعد توكله على الله وحده .

والمؤمن المسلم من جاهد بنفسه وبماله فى سبيل نصرة عقيدته والدفاع عن الحق ومحق الظلم والعدوان .

والمؤمن المسلم من صبر فى السراء والضراء ، فلا يغره بنفسه مال أو سلطان ولا يجزع ولا يهتز أمام النوازل والأحداث .

وليس مؤمناً ذلك القاعد المتخاذل الجزوع الهلوع ولا المتردد المتعالى المغرور .
والمؤمن المسلم هـو قبل كـل هذا من آمن بـالله وحده ، وبكتبـه وخاتمهـا القرآن

الكريم ، وبرسله وخاتمهم سيد الخلق أجمعين سيدنا محمد ﷺ ثم أقام إيمانه على أركان الإسلام الخمسة وهى :

١ - شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله .
٢ - إقام الصلاة لله تعالى وحده ، وبأركانها التى حددت فى القرآن والسنة .
٣ - إيتاء الزكاة .
٤ - صوم شهر رمضان .
٥ - حج البيت لمن استطاع إليه سبيلا .

وذلك عملا بالحديث الشريف .

(بنى الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا) .
صدق رسول الله .

وقد شرع الحكيم الخبير هذه الفرائض لدينه الذى ارتضاه للناس كافة فى قوله : «إن الدين عند الله الإسلام» لما فى هذا الدين وشرائعه من خير وصلاح للبشر أجمعين ، وهو سبحانه وتعالى الغنى بذاته عن العالمين .

هذه الشعائر الإسلامية الخمس التى يقوم عليها دين الحق وخاتم الأديان السماوية ، هى عبادة لله وتذكرة للمؤمن بخالقه إذا ما أقيمت على الإخلاص والتقوى . وهى فى جوهرها تربية للإنسان على صفات وأخلاق تنعكس على سلوكه أمام الله ومع نفسه ومع الناس ، فيخشع لخالقه ويصدق مع نفسه ومع غيره من الناس .

ومن ثم رأينا لزاما علينا أن نبين فى كتابنا هذا شروط كل فريضة من هذه . . الفرائض وحكمة الخالق فى فرضها . . حتى يؤديها المؤمن المسلم على وجهها الصحيح فيفيد ويستفيد ، يفيد الناس بالعمل الصالح والقدوة الحسنة ويستفيد رضوان ربه فى الدنيا والآخرة .

أولا - شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله :

وهى البداية التى لابد منها لكل من شرح الله صدره للإسلام ، يقولها عن إيمان صادق ونية خالصة وبقلبه قبل لسانه ، يقولها طواعية وعن اقتناع تام ، لا تحت تأثير أى ضغط ، ترهيباً كان هذا الضغط أو ترغيباً .

فليس من الإيمان إعلان الشهادتين باللسان طمعاً فى منفعة دنيوية عاجلة أو دفعاً لخطر متوقع ، وإلا كان مثله كمثل الكثير من المنافقين أيام الرسول ﷺ ، وهم الذين جاء فيهم قول الحق سبحانه وتعالى :

«ومِنَ النَّاسِ مَن يقولُ آمناً باللهِ وباليوم الآخِرِ ، وما هُم بمُؤمِنِين * يُخادِعُونَ اللهَ والذين آمنوا وما يَخْدَعونَ إلاَّ أنفُسَهُمْ وما يشعُرُون[2] * «فى قُلوبِهِمْ مَّرَضٌ فزادهُم الله مَرَضاً ولهمْ عذابٌ أليمٌ بما كانوا يكْذِبونَ»[3]

«وإذا لَقُوا الذَّينَ آمنوا قالوا آمَنَّا وإذَا خَلَوْا إلىَ شياطينِهِمْ قالوا إنّا معكم إنَّماَ نحن مُسْتَهْزِءُونَ»[4] .

إن مثل هذا الإيمان الذى جرى به اللسان ولا أثر له فى قلب صاحبه ، ليس إيماناً ولا إعلانا للشهادة كما أرادها المولى جل وعلا ، ولا أثر له ولا تأثير فيما يصدر من صاحبه من أقوال أو أفعال .

أما الشهادة بوحدانية الخالق وبصدق الرسالة وأمانة الرسول ، فهى جوهر وليست مظهراً ، هى شهادة وعهد صادق بين العبد وربه ، تصدر من القلب قبل أن يجرى بها اللسان ، هى عهد بين العبد وربه على الإيمان الراسخ بأن خالق الكون ومدبره هو إله واحد لا إله إلا هو . هى عهد من المؤمن بإسلام أمره لله وحده والتوجه إليه بالعمل الصالح كسباً لرضوانه واتقاء لغضبه ، واللجوء إليه وحده طلباً للعون والتوفيق ، والرضا بقضائه وقَدَرِه ، وشكره وحده فى السراء والضراء ، فهو سبحانه وحده خالق الكون والقائم عليه ومدبره ومسيره بالحكمة والعدل والعلم :

«شَهِدَ الله أنهُ لا إلهَ إلا هوَ والملائكةُ وأولوا العِلْمِ قائماً بالقِسْطِ لا إله إلا هو العزيزُ الحكيمُ[5]» .

«وإلهكم إلهٌ واحدٌ لا إلهَ إلا هو الرَّحمنُ الرَّحيمُ[٦]» .

هذه أولى الشهادتين ، شهادة وإقرار وعهد وميثاق .

أما ثانية الشهادتين فهى الشهادة بأن سيدنا محمداً عبد الله ورسوله ، وهى إقرار من المؤمن وعهده لمحمد الصادق الأمين بصدق ما يقول من وحى ربه وشهادة بتصديقه والعمل بما جاء به من عند الله .

«قُلْ يا أيُّها النَّاسُ إنِّى رَسُولُ اللهِ إليكُمْ جَميعاً الذى لَهُ مُلْكُ السَّمواتِ والأرْضِ لا إلَهَ الاَّ هُوَ يُحْيِى ويُمِيتُ فآمِنوا باللهِ ورسولِهِ النَّبِىِّ الأُمِّىِّ الذى يؤمِنُ باللهِ وكلِماتِه واتَّبِعُوهُ لعلَّكم تَهْتَدونَ[٧]» .

«فآمِنوا باللهِ وَرَسولِهِ والنورِ الذى أنْزَلنَا ، والله بما تعْمَلونَ خبيرٌ[٨]»

«كيفَ يهدِى اللهُ قوماً كفروا بعدَ إيمانِهم وشَهِدُوا أنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وجَاءَهُمُ البيِّنَاتُ واللهُ لا يَهْدِى القَوْمَ الظَّالمينَ»[٩] .

«والَّذِين آمنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ وآمنوابما نُزِّلَ على مُحمدٍ وهو الحق من ربِّهم كفَّرَ عنهم سَيِّئاتِهِم وأصْلَحَ بَالَهُم[١٠]» .

الحكمة الإلهية فى فرض الشهادتين :

١ - فى شهادة أن لا اله إلا الله شهادة بالتوحيد ، وحدانية الخالق المبدع ، الواحد الأحد الذى لم يلد ولم يولد ، وهى شهادة بوحدة الكون الذى خلقه الله وحده ، والإيمان بوحدة الكون ووحدة الخالق إيمان بعظمة الخالق ومحكم تدبيره ورعايته لما خلق ، إيمان برحمة الخالق بخلقه وعونه ورعايته لهم بما ذلل لهم ما فى الأرض وما فوقها من نعم كلها خير ومنفعة للإنسان ، وفى ذلك إيحاء للإنسان بعمل الخير والإحسان لغيره لأن الخالق خيّر ولا يصدر منه إلا كل خير للناس ما ساروا على صراطه المستقيم فى فكرهم وقولهم وعملهم ، والإيمان بأن الله خيّر إيحاء للمخلوق بأن ما يجيئه من خيْر إنما هو من عند خالقه ، فيتوجه إليه وحده بالحمد والشكر ، وأن ما يلحق المخلوق من شر إنما هو نابع من نفسه فيعود عليها باللوم وبالموعظة والضبط ، ويتجه قبل هذا إلى ربه يستغفره ويتوب إليه ، وفى هذا وذلك حث للمؤمن على فعل الخير وتجنب الشر وقاية لنفسه ووقاية لمجتمعه .

وفى شهادة أن لا إله إلا الله هداية للمشركين بالله بما ابتدعوا من آلهة لا تنفع ولا تضر ، إنما اختلقوها بفكرهم السقيم الذى ذهب بنفوسهم شعاعاً فى مهاوى الضلال والرذيلة والفساد ، إلى أن هداهم الله وأرسل إليهم رسولا منهم يحدثهم بلغتهم ويدعو إلى الإيمان بوحدانية الخالق ، فاطمأنت قلوبهم وهدأت نفوسهم واستقرت أفكارهم واتحدت كلمتهم فى وحدانية الوجود فى إله واحد هو الخالق المبدع لأول الخلق وإليه مرجعهم . وبإحساسهم بحكمة الخالق فيما خلق وإحاطته بخلقه وهم ليسوا له بمبصرين ، إيحاء للناس بالخشوع لتلك القوة القادرة الخفية وتقواها ورهبتها وإسلام الأمر كله لله وحده ، فيطيعوا أوامره بالمعروف ونواهيه عن المنكر ويتقوا الله فى سرهم وعلانيتهم فتصفوا نفوسهم وتْنَقّى ضمائرهم ، ولا يصدر عنهم إلا كل طيب كريم .

٢ - وفى شهادة المؤمنين بأن محمداً رسول الله ، شهادة منهم بتصديق النبى المصطفى فى كل ما يبلغهم من وحى ربه مما نزل به عليه جبريل عليه السلام ، وأنه الرسول الذى اختاره الله واصطفاه لتبليغ الحق للناس كافة ، لا ينطق عن الهوى وأنه الرسول الأمين الذى يبلغهم بكلام الله بلا تحريف أو سهو ، وهو عليه الصلاة والسلام الذى وصفه الله بالهداية والاستقامة والصدق .

«والنَّجْمِ إذا هَوَى * ماضَلَّ صاحِبُكُم وما غَوَى * وما يَنْطِقُ عَنِ الهَوَى * إنْ هوَ إلاَّ وَحْىٌ يُوحَى ، علَّمَهُ شديدُ القُوَى»(١١) .

فلا مشاقة مع رسول الله الأمين ، ولا تكذيب لمحكم التنزيل ، ولا جدال ولامجادلة مع هذا النبى الأمى فيما يتلو من تلك الآيات البينات ، وبذلك الأسلوب القرآنى المعجز المحيط بكل مافى الكون ، ما دق فيه وما كبر ، وما ظهر وما بطن ، أنزله الخالق جل وعلا وبيّن فيه ما عرفوا ومالم يعرفوا من قبل وما يكشف الخالق للخلق عنه ما شاء لهم معرفته من أسرار كونه اللانهائى ، وفى شهادة المؤمن بأن محمداً رسولُ الله ، ميثاق معه على الإيمان بما آتاهم من الحق وعهد له بالتعاون لإعلاء كلمة الحق وشد أزره فى الدفاع عن دين الحق .

ثانيا : الصلاة :

بعد أن يسلم المؤمن لله تعالى ويعلن الشهادتين يكون قد التزم بعهد الله على أن يؤدى حقه عليه بإقامة شعائر الإسلام ، والمظاهر العملية لهذا العهد هو أداء العبادات التى فرضها الخالق جل وعلا ، هذه الشعائر هى الصلاة ، والصوم والزكاة ، والحج إلى بيت الله الحرام لمن استطاع إليه سبيلا .

وتأتى الصلاة فى المرتبة الأولى بين هذه العبادات .

ولأهمية هذه الشعيرة عند الله ، لم يعف منها مسلم ولا مسلمة مهما كانت ظروفهما ، فلا يحول دون أدائها فقر ولا ضعف ولا مرض ولا سفر ، بل لم يعف منها المسلم وقت الحرب ، كما سنبين فيما بعد ، ولهذا فقد يسّر الرحمن للمسلم أداءها بما يستطيع من قدرة ووسائل ، وهذا دليل قاطع على منزلة الصلاة عند الله ، لما فيها من عبر وفوائد تعود على مؤديها بالخير والصلاح فى دنياه وآخرته .

١ - ففى الصلاة والعبادة لله وحده ، خالق الكون ومدبّره ومسيّره ، المنعم على خلقه وراعيهم وهاديهم إلى صراطه المستقيم ، تذكرة ما بعدها تذكِرة للعبد بربه ، وهو إذْ لا يرى من يصلى له إنما يشعر ويحس بوُجودِه فى كِيان نفسه وفى كل شىء فى الوجود ، وهو سبحانه الذى يُبصِر ولا يُبْصَر ، وفى أداءِ هذه الشّعِيرة فى أوقاتها المعلومة كل يوم يقف أثناءها المخلوق أمام الخالق طائعاً مختاراً مسلماً له ، إذْ يركع لخالِقِه ويسجد ويضرع متزلفا متطهراً خاشعاً ، فى كل هذا تأكيد لإيمان المؤمن بربوبية خالقه وعظمته وقوته وتسبيح بحمده وشكره على أنعمه ، وهو سبحانه وتعالى غنى عن كل هذا، إذْ يسبح له كل شىء فى السموات والأرض ، إنما هى وسيلة فرضها الله على المؤمنين لتطهرهم روحاً وجسداً وتربيهم التربية الإسلامية التى أرادها الله للمسلم .

تلك التربية التى لا تهدف لصلاح المسلم روحيا ووجدانيا فحسب بل لإصلاح بدنه أيضا :

(أ) ففوائد الصلاة لصحة البدن فسيولوجيا تكمن فى تلك الحركات البدنية التى يمارسها المصلى فى ركوعه وسجوده ثم وقوفه عدة مرات متتالية تقوية لعضلاته

وزيادة احتراق المواد الغذائية فتمنع تراكم الدهنيات التى تؤدى إلى تصلب الشرايين وضيقها وخاصة شرايين القلب التاجية وشرايين المخ ، وبذلك تكون الصلاة سبيلا إلى القوة الحقة لروح الإنسان وجسده .

(ب) والوضوء وهو ملازم للصلاة تطهير للبدن ووقايته من الأمراض ، بل إن لفظة الوضوء نفسها مشتقة من الوضاءة أى النظافة والحسن .

فيبدأ المتوضىء بغسل اليدين ومابين أصابعهما فيزيل ماقد يكون قد علق بهما من أتربة وميكروبات ويهيئهما لتنظيف بقية أجزاء الجسم ، ثم يغسل الفم لإزالة ماقد يكون قد علق به أو تراكم فيه من الميكروبات والتخمرات التى قد تتسرب من الفم إلى داخل البدن ، ثم يغسل الأنف ليزيل ماعلق به من غبار وقاذورات أثناء عملية التنفس كما يزيل إفرازاته فى حالات الزكام والجيوب الأنفية ، ثم يأتى بعد ذلك غسل الوجه والعينين فيقيهما من أمراض العيون وبعض الأمراض الجلدية ، ويغسل الأذنين يمنع تراكم المادة الشمعية التى قد تؤدى إلى ضعف السمع واضطراب توازن الجسم ، وبمسح الرأس بالماء يزيل ماقد يعلق به أو يتخلل شعره من أتربة وميكروبات . وأخيرا تغسل القدمان وأصابعهما وهما من أكثر أجزاء الجسم تعرضا لتكاثر الجراثيم التى تحتمى وتنشط بين الأصابع وتحت مايلبسه الإنسان من أحذية وجوارب .

أما الهدف الروحى لفرض الوضوء فهو تطهير وتحصين لأدوات الحركة والحس فى الإنسان وتجنيبها ماقد يمس تقوى الإنسان والبعد بهما عن الزلل فى مهاوى الخطأ فغسل اليدين إيحاء بأن تظلا طاهرتين فى العمل والأخذ والعطاء فلا يدنسهما بإيذاء الغير بالعدوان بغير حق أو اغتصاب حقوق الناس عن طريق السرقة أو الرشوة بل تكونان أداتين للعطاء وعونا للغير ، وغسل الوجه تصفية له من شوائب الغضب والانفعال فيظل هادئا وضيئا ، وغسل العينين تطهير لهما من نظرات الحقد والحسد والفجور ، وغسل الأذنين وتطهيرهما إيحاء بعدم إصغائهما إلى اللغو الفارغ أو الاستماع إلى قول السوء والنفاق ، وغسل الفم تطهير له من الكذب والغيبة والتفاخر والسب والصياح الأهوج .

وغسل القدمين تطهير لأداة حركة وانتقال الإنسان من مكان إلى آخر فلا يسعى بهما إلا من أجل العمل الصالح له ولأفراد مجتمعه .

وما أبلغ كتاب الله فى بيانه لكل فضائل الوضوء فى تلك الآية المحكمة :

« ياأَيُّها الّذين آمَنوا إذَا قُمْتُمْ إلى الصَّلاةِ فاغْسِلوا وجوهَكُمْ وأَيْدِيَكُمْ إلى المَرافِقِ وامسَحوا بِرؤوسِكُمْ وأَرجُلَكُم إلى الكعْبَيْنِ وإن كُنتم جُنُباً فاطَّهَروا وإن كنتم مَرضَى أو على سَفَر أو جاء أحَدٌ مِنكم من الغائطِ أو لامَسْتُمُ النِّساءَ فلم تجدوا ماءً فتَيَمَّمُوا صَعِيدا طَيِّباً فامسَحوا بِوُجُوهِكم وأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مايُريدُ اللهُ لِيَجعلَ عليكُم مِن حَرَجٍ ولكِنْ يريدُ لِيُطَهِّرَكُمْ ولِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيكمْ لعلَّكمْ تَشْكُرونَ »[١٢] (المائدة ٦)

٢ - وفى توجه المسلمين جميعا فى مشارق الأرض ومغاربها ، وعلى اختلاف أوطانهم نحو قبلة واحدة يتجهون إليها فى صلاتهم ، وهى الكعبة المشرفة ، تكريم لهذا المكان الطاهر الذى أقيم فيه أول بيت يعبد فيه الله وحده ، بأمر من الله إلى نبيه وخليله إبراهيم عليه السلام ، وتوحيد لقصد المسلمين وهدفهم :

« إنَّ أوَّلَ بَيتٍ وُضِعَ لِلنّاسِ لَلذى بِبكَّةَ مبارَكاً وهُدًى للعالَمِينَ »[١٣]

وهو ذلك المكان الذى أمر الله نبيه الكريم ومن آمنوا برسالته بالتوجه إليه واستقباله فى صلاتهم ، بعد أن كانوا يتوجهون فى صلاتهم وجهة بيت المقدس ، ولكى يرضى رسوله ويخرجه من حيرته :

« قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وجْهِكَ فى السّماءِ فلَنُولِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرضاها فَوَلِّ وجهكَ شَطْرَ المسجِدِ الحَرَامِ وحيثُما كُنتم فَوَلُّوا وجُوهَكُم شَطْرَهُ وإنَّ الَّذين أوتُوا الكتابَ لَيَعْلَمونَ أنه الحَقُّ مِنْ ربِّهِم ومَا الله بِغَافلٍ عمّا يعمَلونَ »[١٤]

وتغيير قبلة المسلمين من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة بمكة يتضمن كثيرا من المعانى . منها : اختبار مدى إيمان المؤمنين وتقواهم وطاعتهم لله ولرسوله ، وكشف مايصنع ضعاف الإيمان وترددهم :

« وما جَعَلْنا القِبْلَةَ التى كُنْتَ عليها إلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرّسولَ مِمَّن يَنقلبُ على عَقِبَيْهِ »[١٥] .

ومنها إفحام أهل الكتاب من يهود ونصارى الذين تباهوا على المسلمين وتفاخروا ، إذْ هم يخالفون دينهم ولكنهم يتخذون من أماكنهم المقدسة قبلة لهم :

« سَيَقُولُ السُّفَهاءُ مِنَ النّاسِ ما ولاّهم عن قِبْلَتِهِم التى كانوا عليها قُلْ لله المَشْرِقُ والمَغْرِبُ يَهْدِى مَنْ يشاءُ إلى صِراطٍ مستقيمٍ »[١٦]

٣ - تذكير المؤمن بربه فى جميع ظروف حياته ، وترسيخا لهذا الإيمان وتأكيده فى قلب المؤمن مهما صادفه من متاعب الحياة وقسوتها ، ومهما حل به من مصائب قد تهز ضعاف الإيمان هزا عنيفا فتصرفهم عن ذكر الله والرجوع إليه والتماس عونه والاستسلام لقدره ، ففى جميع الأحوال يجب على المؤمن ان يتجمل بالصبر الذى هو قمة الإيمان بالله وإسلام الأمر لمشيئته إيمانا من المؤمن بحكمة ربه وعدله ورحمته ، هذا الصبر الذى أمر الله عباده المؤمنين بأخذ أنفسهم به ليزدادوا به قوة وصمودا أمام أحداث الدنيا ، حلوها ومرها :

« يابُنَىَّ أقِمِ الصَّلاةَ وأْمُرْ بالمعْروفِ وانْهَ عَنِ المُنْكَرِ واصبِرْ على ماأصابكَ إنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمورِ »[١٧] .

« والذينَ صَبَروا ابْتغاءَ وجهِ ربِّهم وأقاموا الصَّلاةَ و أَنْفَقُوا مِمّاً رَزَقناهُم سِرًّا وعَلانِيَةً ، ويَدْرَءُونَ بِالحَسَنةِ السَّيِّئَةَ أَولَئِكَ لَهُمْ عُقْبىَ الدَّارِ »[١٨] .

٤ - الصلاة تنأى بالمؤمن عن الغرور بمتاع الدنيا والاستعلاء على غيره من خلق الله وظلمهم والطغيان فيهم ، حين يقف بين يدى الواحد الديان ، خاشعا مكبرا متزلفا ، ومتجردا ومنصرفا عن كل متاع الدنيا وزخرفها ، إيمانا منه بعظمة الله وجلاله وقدرته وفضله على العالمين ، وإيمانا بأنَّ العزة كلها لله وهو سبحانه الغنى المغنى .

« يا أَيُّها الذِّينَ آمَنوا لاتُلهِكُمْ أَمْوالُكُمْ ولا أَوْلادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فأولئك هُمُ الخاسِرونَ »[١٩] .

« قد أَفْلَحَ الْمُؤمِنُونَ * الَّذينَ هُمْ فى صَلاتِهم خاشِعون »[٢٠]

« الَّذين إنْ مكَّنَّاهُم فى الأرضِ أقاموا الصَّلاةَ وآتَوُا الزكاةَ وأمروا بالمعـروفِ ونَهَوْا عنِ الْمُنكَرِ وللهِ عاقبةُ الأُمور »[٢١] .

« الَّذين يُقيمونَ الصّلاةَ ومِمَّا رزقناهم يُنْفِقونَ »[*] « أولئك هُمُ المؤمنونَ حقًّا لَّهُمْ درجاتٌ عندَ رَبِّهم وَمغْفِرَةٌ ورِزْقٌ كَريمٌ »[٢٢] .

٥ - الصلاة إذا ما أديت بصدق وابتغاء مرضاة الله وحده وتقواه ، تـطهير للنفس وتحصين لها من وسوسة الشيطان ، وحين يقف المرء فى صلاته ، خمس مرات كل يوم ، بين يدى خالقه خاشعا مستسلما ومتوجها إليه بالذكر والعبادة إنما يجنب نفسه ماحرّم الله من فواحش ومنكرات :

« اتْلُ ما أُوحِيَ إليكَ مِنَ الكِتابِ وأَقمِ الصَّلاةَ إنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ والْمُنكَرِ وَلَذِكْرِ اللهِ أكْبَرُ واللهُ يعلمُ ماتَصْنَعُونَ »[٢٣] .

٦ - الصلاة ليست مجرد حركات ظاهرية تؤدَّى فيصبح المصلى مؤمنا ومسلما لله حقا أو حائزا لرضائه وغفرانه ، وهو سبحانه فى غنى عن العالمين .

إنما الصلاة جوهر ، هى تذكرة لمن يذكر للقيام بصالح الأعمال والبر بالناس والبعد عما نهى الله ، لذلك نجد من محكم التنزيل ، أن أمر الله للمؤمنين بالصلاة يأتى دائما مقرونا بالأمر بصالح الأعمال ، فرضا الخالق على المؤمن لايتأتى بمجـرد العبادات الحركية ، بل أوجب الله على المؤمن الصلاح فى سلوكه مع الناس وهذا ما يأخذ به الله المصلين الذين يخشعون فى صلاتهم ويتقون ربهم ويتجردون من هوى النفس ومن يذكر ربه بالصلاة فى أوقاتها كل يوم لابد أن يذكره فى تعامله مع الغير فى حياته اليومية وينفذ ما أمر ربه به وينتهى عما نهى عنه ، وإلا كانت الصلاة تظاهرا بالتقوى والصلاح فحسب ، يخدع بها صاحبها الناس وهو خادع نفسه والله بصير بما يعمل الناس .

« إنَّ الَّذينَ يَتْلُونَ كتابَ اللهِ وأقاموا الصَّلاةَ وأَنْفقُوا مِمَّا رزقناهم سِرًّا وعَلانيةً يَرْجُونَ تِجارةً لنْ تَبُورَ »[٢٤] .

« ليسَ البرَّ أنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ ولكِنَّ البِرَّ مَنْ آمَنَ بـالله واليَوْمِ الآخِرِ والملائِكَةِ والكِتابِ والنَّبِيِّينَ وآتى المَالَ على حُبِّهِ ذَوِى القُرْبَى واليَتَامَى والمَسَاكِينَ وابْنَ السَّبِيلِ والسَّائِلِينَ وفى الرِّقابِ وأقامَ الصَّلاةَ وآتَى الزَّكاةَ والمُـوفُونَ بِعَهْدِهِم إذا عَاهَدوا والصَّابِرينَ فى البَأْسَاءِ والضَّرَّاءِ وحِـينَ البَأْسِ أولئِـكَ الَّذِين صَدَقُوا وأولئِكَ هُمُ المُتَّقُونَ (٢٥) .

«بسم الله الرحمن الرحيم»

« أرأَيْتَ الذى يُكذِّبُ بالدِّينِ * فَذَلكَ الَّذى يَدُعُّ اليَتيمَ * ولا يَحُضُّ على طَعَامِ المِسْكِينِ * فَوَيْلٌ لِلمُصَلِّينَ * الَّذينَ هُمْ عن صَلاتِهِم سَاهونَ * الَّذِينَ هُمْ يُراءُونَ * ويمنعونَ الماعُونَ(٢٦) . (صدق الله العظيم)

٧ - فى صلاة الجمعة وفى صلاة الجماعة ، حيث يقف المسلمون فى صلاتهم صفوفا منتظمة متراصة وفى خشوع واستسلام وعلى قدم المساواة أمام خالقهم تدعيم لقوة المسلمين وتوثيق لترابطهم ومساواة بين أفراد الأمة الإسلامية حيث لا مقام لطبقة ولا تعال وبغير تفضيل لأحد منهم على غيره إلا بالتقوى والصلاح .

وفى اجتماع المسلمين فى موعد محدد كل أسبوع هو ظُهْر يوم الجمعة مايشبه اجتماعا بين الإخوة على المحبة والتآخى والتشاور فيما يعود عليهم جميعا بالنفع ، وفى خطبة الجمعة مجال طيب للوعظ والإرشاد وتناول مشاكل الساعة بالشرح والتعليق بما يبصّر المسلمين بشئونهم وشئون من حولهم .

« والَّذين استجابوا لربِّهم وأقاموا الصَّلاةَ وأمْرُهُم شورى بَيْنَهم ومِمَّا رَزَقْناهم يُنْفقونَ »(٢٧) .

« ياأيُّها الَّذين آمنَوا إذَا نُودىَ للصَّلاةِ مِن يَوْمِ الجُمُعَةِ فاسْعَوْا إلى ذِكْرِ الله وذَرُوا البَيْعَ ، ذَلكُم خَيْرلكم إنْ كُنتم تَعْلمُونَ »(٢٨) .

« فإذا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فانْتَشِروا فى الأرضِ وابتَغُوا مِن فَضْلِ اللهِ واذْكُرُوا الله كثيراً لعلَّكم تُفْلِحونَ »(٢٩) .

ثالثا : الصوم :

الصوم فى اللغة هو الإمساك أى الامتناع عن عمل شىء ، ومنها الصوم عن الكلام : « فَكُلِى واشْرَبِى وقَرِّى عَيْناً فإمَّا تَرِيِنَّ مِنَ البَشَرِ أحَداً فقولى إنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً فَلَنْ أكلِّم اليوم إنْسِيًّا »(٣٠) .

والصوم كفريضة دينية إسلامية ، فرضها الله ، على كل مسلم ومسلمة يزاولانها فى شهر معلوم هو شهر رمضان من كل عام وحدد فيه الصيام من فجر كل يوم من أيام هذا الشهر إلى غروب شمسه ، يمسك فيه الصائم نفسه أى يمتنع عن كل مايدخل جوفه من طعام أو شراب والامتناع عن الرفث إلى النساء .

والصيام بهذا المعنى الدينى لم يؤمر به المسلمون وحدهم ، بل أمر الله به أمماً أخرى من أهل الكتاب .

« يا أيُّها الّذين آمنوا كُتب عليْكمُ الصِّيامُ كما كُتِبَ على الَّذينَ من قبلِكُمْ لعلّكُمْ تَتَّقُونَ »(٣١) .

بل إن الصيام قد زاوله غير أهل الكتاب إذْ زاوله بعض قدماء المصريين واليونان والهنود ، ولكنه كان فى نظامه وطقوسه وأهدافه غير هذا الصوم الذى فرضه الله على المسلمين ، بل كان نوعا من الرياضة النفسية والروحية التى نادى بها قدماء الفلاسفة والزهاد .

إن الصوم فى الإسلام يختلف عن صوم السابقين من أهل الكتاب وغيرهم من حيث مواقيته ومدته ونظامه وموانعه ومبطلاته ومبيحات الإعفاء منه .

فقد حدد الله لصوم المسلمين شهر رمضان من كل عام هجرى لأنه الشهر الذى باركه الله بإنزال قرآنه الكريم فيه على نبيه محمد ﷺ نورا للناس وهداية ، فهو بذلك شهر النور وأكرم شهور السنة ، وفى صيامه تذكرة للمؤمنين بربهم وَتَقَرُّبٌ إليه بالعمل الصالح والتقوى .

وكان فرض صوم رمضان فى العام الثانى من الهجرة النبوية .

« شَهْرُ رَمضان الّذى أُنْزِلَ فيه القُرآنُ هُدًى للنّاس وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الهُدَى والفُرْقَان فَمَنْ شَهِدَ منكم الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كان مَريضا أوْعلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أيّام أخَرَ يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ اليُسْرَ ولا يُرِيدُ بِكُمُ العُسْرَ ولِتُكْمِلُوا العِدَّةَ ولِتُكَبِّرُوا اللهَ على ما هداكم ، ولَعلّكم تَشْكُرون »(٣٢) .

وهو ليس صياما طول اليوم بل فى وقت منه معلوم ، حدده الله فى محكم تنزيله بما لا يدع مجالا لأى تأويل أو تفسير ، وفيما عدا هذه المدة المحددة فى كل يوم من شهر رمضان ، أباح الله للصائم مزاولة حياته العادية من طعام وشراب ، ورفث ، من غروب شمس هذا اليوم إلى مطلع فجر اليوم التالى .

« أُحِلَّ لَكُم لَيْلَةَ الصِّيامِ الرَّفَثُ إلى نسائِكُم هُنَّ لباسٌ لكم وأنتم لباسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللهُ أنَّكُم كُنْتُم تَخْتانونَ أَنْفُسَكُم فتابَ عليكُم وعفَا عَنْكُم فالآن باشروهُنَّ وابْتَغُوا ما كتبَ اللهُ لكُم وكُلُوا واشربوا حتى يتبين لكم الخَيْطُ الأبْيضُ منَ الخَيْطِ الأسْوَدِ مِنَ الفَجْرِ ثُمّ أَتِمُّوا الصِّيامَ إلى الليل ولا تُباشِرُوهُنَّ وأنتم عاكفون فى المساجد تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فلاتَقْرَبوها كذَلِكَ يبين الله آياتِهِ للناسِ لعلَّهُم يَتَّقُونَ »[٣٣] .

والدين الإسلامى دين يسر لا عسر ، فرضه الله سبحانه وتعالى لنفع الناس وسعادتهم فى الدنيا والآخرة ، ومن ثم ترفق الرحمن بعباده المؤمنين ، فأعفى من الصيام المريض والمسافر إعفاء موقوتا بوقت العجز عن تحمل مشاق الصيام مع مشاق المرض ومشاق السفر ، مع بقاء الصيام دينا يوفيه المفطر لربه فى أى وقت آخر من أوقات السنة ، بل زاد الرحمن بعباده رحمة وتيسيرا فأعفى منه إعفاء دائما من قدر على الصيام ولكن فى صيامه خطر على حياته مع التكفير عن الإفطار بإطعام المسكين المحتاج ، ومن لم يستطع لهذا التكفير سبيلا بسبب شدة فقره وعوزه فإن الله غفور رحيم .

« أياماً مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كانَ منكم مريضاً أو علَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أيّام أُخَرَ وعلى الّذين يطيقونه فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فهو خَيْرٌ لهُ ، وأن تصوموا خَيرٌ لَكُم إنْ كنتم تَعْلَمونَ »[٣٤] .

حكمة الصـــوم :

١- الصوم كغيره من أنواع العبادات التى فرضها الله على المسلمين ، يؤدى به الصائم حق العبودية لله والخضوع لأوامره والانتهاء عن نواهيه . ولذلك فإن الصوم يربى فى الصائم إرادته ويقويها ويشحذها . وله أثره فى نفس الصائم ، فهو يصفيها ويوجهها إلى الخير يبذله الصائم إلى إخوانه فى الدين اعترافا بفضل ربه وابتغاء رضوانه ، لا انتظارا لجزاء مادى ولا طلبا لشكر ، وبذلك تتآلف قلوب المسلمين وتصفو نفوسهم ، والصائم فى شهر رمضان إذْ يتعبد لربه ويتقرب إليه وينفذ مشيئته بالصوم ، عليه أن يكثر من تلاوة ماتيسر من آيات القرآن الكريم تذكرة وعظة ، فقراءة القرآن أثناء الصيام والزهد فى ملاذ الدنيا وصفاء النفس أنفذ إلى قلب قارئه وعقله ، تملأ قلبه بالإيمان وتضىء عقله بفهم آيات الله البينات واستجلاء مقاصدها وتذوق حلاوتها ، ومن ثم يسير على هديها فى حياته العامة والخاصة .

٢- الصوم امتحان لتقوى المؤمن ومدى إخلاصه لربه ودينه لأنه من العبادات التى ، لايعلم حقيقتها إلا الله ، وهو عبادة غير ظاهرة ، فالصائم ينوى الصيام ويمتثل لأحكامه وينفذ ما أمر الله به بعيدا عن أعين الناس ، ولا رقيب عليه سوى ربه وضميره ، فصيام الصائم طواعية وبإرادة نابعة من نفسه ، وفى ذلك تنقية للضمير وصفاء للنفس وهما من أهم مقومات الإيمان .

٣- وللصوم مظاهر خارجية تلازمه فى علاقة الصائم بغيره من الناس يجب على الصائم مراعاتها وأخذ نفسه بها فى علاقاته الاجتماعية ، حتى يكون صيامه كاملا ومقبولا من الله عز وجل .

ويصور رسول الله ﷺ ما يجب أن تكون عليه علاقة الصائم بالناس فى قوله :

(إذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب ، فإن سابَّهُ أحد فليقل إنى صائم ، إنى صائم)

(من صام رمضان إيمانا واحتسابا ، غُفر له ما تقدم من ذنبه) .

فعلى الصائم تجنب الغضب والصياح وفحش القول ، وعليه كبح جماح غضبه على من يعتدى عليه بالرجوع إلى نفسه وتذكر صيامه ، فلا يدنسه ولايبطله بمقابلة السوء بالسوء . أما إيمان الصائم واحتسابه فهو أن يصوم الإنسان موقنا بحكمة الله تعالى من فرضه ، وأن يستقبل شهر الصيام مستبشرا متهللا مغتبطا . فيتجنب من الأقوال والأفعال ما يتنافى مع هذا الرضا والاستبشار فيتجنب اللغو فى القول والسب وضيق الصدر ، كما يتجنب الإهمال والكسل متعللا بالصيام وأن ينأى بنفسه عن عمل ما يغضب الله - كالغيبة والعدوان والظلم ، بل عليه تزكية صيامه وتطهير نفسه بالكلمة الطيبة وحُسْنِ العشرة والإنفاق والبذل مما رزقه الله لإغاثة الملهوف والمحتاج والإقبال على العمل المنوط به بتفاؤ ل ونشاط وإتقان .

٤- وفى الصوم فوائد مباشرة تعود على صاحبه بالنفع والخير ، فيربى نفسه على الدقة فى المواعيد وتنظيم أوقات طعامه وشرابه مع الاعتدال فيها يأكل ويشرب ولايسرف فيها لتعويض ما لاقاه أثناء صيامه من جوع وحرمان ومن ثم لاتتخم معدته ولاتعتل صحته بفعله هو وليس للصيام دخل فى هذا ولاذاك .

رابعا - الزكـــاة :

الزكاة ، لغةً النماء من زكىَّ أى طهر وأصلح ، والزكاة تطهير وإصلاح ، والشخص الزكىّ هو الشخص الطاهر الصالح .

والزكاة من الناحية الدينية الإسلامية إصلاح لنفس المسلم وتطهير لماله (عينا كان هذا المال أو نقدا) .

والطريق العملى لأداء هذه الفريضة الإسلامية هو إخراج جزء مما يملك ليعطيه طواعية ، لأخيه المسلم الذى لايملك .

والزكاة كفريضة إسلامية تأتى فى المرتبة الثانية بعد فريضة الصلاة أمر بها الله سبحانه المسلمين ، وقرنها بالصلاة وجعلها مثلها دين القيامة يحاسب بها الناس .

« وما أُمِرُوا إلاَّ لِيَعْبُدوا الله مخلصينَ له الدِّينَ حُنَفَاءَ ويُقِيموا الصَّلاةَ ويؤْتُوا الزَّكاةَ وَذَلِكَ دِينُ القَيِّمَةِ »[٣٥] .

وقد ورد ذكر الزكاة مقرونة بالصلاة فى كثير من الآيات القرآنية ، منها الآيات : ١٣ ، ١١٠ ، ٢٧٧ من سورة البقرة ، ٥٥ من سورة المائدة ، ٦ ، ١٨ ، ٧٠ من سورة التوبة ، ٤١ من سورة الحج ، ٣ من سورة النمل ، ٤ من سورة لقمان ، ١٩ من سورة الذاريات .

فالزكاة إذَنْ فريضة حتمية على كل مسلم ، شأنها كشأن الصلاة لايعفى من إيتائها عائق جسمانى أو قلة فى المال . فعلى المسلم إخراج الزكاة مما فاض عنده عن قوت يومه وقوت عياله ، عملا بقول الرسول ﷺ :

(الزكاة واجبة على من يملك قوت يومه له ولعياله ، لمن لايملك قوت يومه له ولعياله) .

الزكاة فريضة محددة بالقرآن الكريم والسّنّة الصحيحة وإجماع المسلمين على شروطها ومقاديرها ومصارفها ، وهى مبسوطة فى كتب الفقه واضحة محدودة بأنواعها وفروعها .

والهدف الإلّهى من هذه وتلك تأكيد لمعنى التكافل والأخوة والمحبة والتعاطف فى المجتمع الإسلامى ، والطريقة العملية للتعاون بين أفراده .

ولأهمية الزكاة ، سخا العليم الكريم فى ثواب مؤتيها :

«إنَّ الّذين آمنُوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ وأقَاموا الصَّلاةَ وآتوا الزَّكاةَ لَهُمْ أجْرُهُم عِنْدَ ربِّهِم ولا خَوْفٌ عليْهِم ولا هُمْ يَحْزَنُونَ»[٣٦] .

ثم توعّد العلى القدير ما نِعى الزكاة مع قدرتهم على إيتائها بأشد أنواع العقاب .

« ولا يَحْسَبَنَّ الّذينَ يَبْخَلونَ بما آتاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ هو خَيْراً لهم بل هو شَر لهم ، سَيُطَوَّقونَ مـا بَخِلُوا بِهِ يـومَ القِيامـةِ ولله ميراثُ السَّمـوات والأرْضِ والله بمـا تَعْمَلُون خَبيرٌ »[٣٧] .

« والذين يكْنِزونَ الذَّهَبَ والفِضَّةَ ولا يُنْفِقونَها فى سَبيل الله فَبَشِّرْهُم بعذابٍ أليم * ، يَوْمَ يُحْمَى عليها فى نارِ جَهَنَّمَ فتُكْوَى بها جِبَاهُهُم وَجُنُوبُهُم وظُهُورُهم هذا ما كَنَزْتُم لأنْفُسِكُمْ فَذُوقوا ما كنتم تَكْنِزُونَ »[٣٨] .

« وَمِنْهم مَّنْ عاهدَ الله لَئِنْ آتانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ ولَنَكونَنَّ من الصالحِينَ * فلما آتاهُم مِن فَضْلِه بَخلوا به وتَوَلَّوْا وهُم مُعْرِضونَ » .

« فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فى قُلُوبِهِمْ إلى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَاوَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (٣٩) .

حكمة الزكاة : فرض الحكيم الخبير على كل مؤمن مسلم أنواع الفرائض والعبادات لتأكيد طاعته لربه وتزكية لنفسه وتقربا لله الغنى الحميد بالشكر والحمد على نعمائه ، وتؤدّى كل عبادة بوسيلة معينة تزكية وتطهيرا لهذه الوسيلة ، فالعبادات البدنية كالصلاة والصوم والحج تزكية للبدن والروح بالتقرب إلى الله سبحانه وتعالى بأفعال وحركات بدنية تعود على البدن بنعمة الصحة والعافية ، كما يتلو المتعبد أقوالا تعود على روحه بنعمة الصفاء أما الزكاة فهى عبادة مالية قوامها الضمير والشكر لله والتقرب منه كسبا لرضاه على نعمة المال فيبارك الله فيه ، فمن الحكم الربانية فى فرض الزكاة :

١- أن المال مطلب كل إنسان ومعشوقه فى كل زمان ومكان ، ولا حدود يقف عندها الإنسان فى طلبه ، سواء كان هذا المال نقديا أو عينيا ، وفى ذلك يقول سبحانه وتعالى :

« وتَأْكُلُونَ التُّراثَ أكْلاً لَمًّا * وتُحِبُّونَ المَالَ حُبًّا جَمًّا »(٤٠) .

ويقول رسول الله ﷺ :

(منهومان لايشبعان ، طالب علم وطالب مال) .

لذلك أراد العليم الخبير أن يختبر مدى عمق إيمان عباده به باختبار مدى طاعتهم له وامتثالهم لأوامره وطلبهم للآخرة قبل طلبهم للدنيا ، وليرى هل المال أحب إلى قلوبهم من الله أم هم يؤثرون طاعته ومحبته ورضوانه ، ليجزى كل نفس بما آمنت وما كسبت :

« قُلْ إن كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فاتَّبِعونِى ، يُحْبِبْكُمُ اللهُ ويَغْفِرْ لَكم ذُنُوبَكُمْ واللهُ غفورٌ رَّحِيمٌ »(٤١) .

« ومَنْ يُطِعِ اللهَ ورسولَه فقَدْ فَازَ فَوْزاً عظيماً »(٤٢) .

٢- الزكاة علاج يشفى النفس ويطهرها من مرض البخل والشح والأثَرَةِ ويخلصها من الإسراف فى جمع المال واكتنازه حبا فيه . كما تشفى من مضاعفات هذا المرض وآثاره الوخيمة كأكل مال الغير واغتصابه بغير وجه حق ، وإثارة الحقد والضغائن فى أمة تدعو للخير والسلام والمحبة وتعاطف الغنى مع الفقير المحروم . لذلك كان البخل والشح فى بذل المال فى سبيل الله ولخير الناس من أبغض الكبائر التى حذر منها الله ورسولهُ .

« والَّذِينَ تبوءوا الدَّارَ والإيمانَ من قَبلِهم يحبُّونَ من هَاجَرَ إليْهم ولايجدُونَ فى صدُورِهِم حاجةً مِمَّا أُوتُوا ويُؤْثِرونَ على أنْفُسِهِمْ ولو كانَ بهِمْ خصَاصَةٌ ومَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فأولئِكَ هُمُ المفْلِحُونَ »(٤٣) .

(إياكم والشح ، فإنه أهلك من كان قبلكم) صدق رسول الله .

٣ - الزكاة تربية للمسلم على السخاء والكرم وحب الخير واصطناع المعروف ، وكلها صفات المؤمن بالله وباليوم الآخر ، وتدريب للمؤمن على أخذ هذه الحياة الدنيا متاعا لآخرته فينجو بنفسه من غرور الدنيا والافتتان بزخرفها عن ذكر الله ، ويسعى مخلصا لكسب رضا ربه وتطهير نفسه ، وذلك عملا بقول الرسول الصادق .

(إن السخى قريب من الله تعالى قريب من الناس قريب من الجنة ، وإن البخيل بعيد عن الله بعيد عن الناس بعيد عن الجنة ، قريب من النار ، وجاهل سخى أحب إلى الله من عالم بخيل) صدق رسول الله .

٤- الزكاة تدريب للإنسان على قهر نفسه وقمع شهواتها ، إذْ يخرج المزكى كل عام مال الزكاة طائعا مختارا وراضيا مرضيا ومنفقا فى سبيل الله من ماله ، على حبه ليغيث محروما أو ملهوفا من إخوانه المؤمنين ويفرج كربهم ويفرح قلوبهم ابتغاء وجه الله وإعلانا لطاعته وطمعا فى بركته .

« ويُطعِمونَ الطَّعامَ على حُبِّهِ مِسْكيناً ويتيماً وأسيراً »(٤٤) .

« إنَّما نُطْعِمُكُمْ لوَجْهِ اللهِ لانُريد منكُم جَزَاءً ولا شُكُوراً »(٤٥) .

٥- فى الزكاة تأليف بين قلوب المسلمين ، ومنع للحقد والحسد فالمزكى بزكاته لايطهر ماله ويزكيه فحسب ، إنما هو أيضا يطهر قلوب المحتاجين من فقراء المسلمين من الحسد وشروره ، ويقارب بين قلوب المؤمنين فيحل التحاب محل البغضاء والشكر محل الحسد ، والتعاون محل التنافر والتناحر ، وفى الزكاة تحقيق للتكافل والتضامن بين أبناء الأمة الإسلامية ، فتصبح مجتمعا سليما متماسكا قويا .

«والمؤْمِنونَ والمؤْمِناتُ بَعْضُهُمْ أوْلياءُ بَعْضٍ يأْمرونَ بالمعروفِ وينْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ويُقيمونَ الصلاة ويُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ويطيعُونَ اللهَ ورَسولَهُ أولئكَ سَيَرْحَمُهُمُ الله إنَّ اللهَ عَزيزٌ حَكيمٌ »(٤٦) .

٦- الزكاة تزكية المال أى تطهيره فى حالة جمعه وفى حالة إنفاقه ، ففى أمر الله المسلم بزكاة ماله إيحاء له بتحرى السبل الشريفة فى جمعه وتحصيله ، ثم إنفاقه بما يرضى الله والناس عن طريق الزكاة ومن تحرى الحلال فى جمع ماله واتقى الله فى بذله ، زاد الله فى ماله وزكاه ، فيربيه من فضله أضعافا مضاعفة من حيث لايحتسب صاحبه .

«يَمْحَقُ اللَّهُ الربا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ واللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كفَّارٍ أَثِيمٍ» [٤٧]

الزكاة نوعان : زكاة مال ، وزكاة فطر .

- فزكاة المال على المال نفسه ، إذا بلغ النصاب وحل عليه الحول .

- أما زكاة الفطر فهى تزكية للبدن وتطهير له .

على من فرضت الزكاة ؟ الزكاة فريضة إلهية على كل مسلم حر قادر ، يخرجها عن نفسه وعمن يعول شرعا كأولاده وخدمه وأقاربه ، وعن زوجته أيضا فى بعض المذاهب .

لمن فرضت الزكاة ؟ تعطى الزكاة وقت حلول موعدها لصاحب الحق فيها ، وهو المعدم المحتاج اليها من المسلمين ، كالفقراء والمساكين وابن السبيل والمسلم المحارب فى سبيل الله وللعاملين فى جمعها ، وغيرهم ممن حددهم الحكيم الخبير فى محكم تنزيله :

«وفِى أَمْوالِهِم حَقٌّ للسَّائِلِ والَمحْرُومِ [٤٨]»

«إِنَّمَا الصَّدَقاتُ لِلْفُقَرَاءِ والَمسَاكِينِ والعامِلِينَ عليها والُمؤَلَّفةِ قُلُوبُهم وفى الرِّقابِ والغارِمِينَ وفى سبيلِ اللهِ وابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضةً مِنَ اللهِ ، واللهُ عليمٌ حَكيمٌ [٤٩]» .

والمقصود بالعاملين على الزكاة أولئك الذين كانوا يجمعون الزكـاة ويأخـذون العشور من المارة فى الطرق العامة لإ يداعها بيت المال فى صدر الإسلام .

والصدقة فى الرقاب تعطى عن الرقيق الذى كاتبه سيده على عتقه إذا ما دفع مبلغا معينا من المال .

والمؤلفة قلوبهم هم الذين كانوا حديثى عهد بالإسلام .

وابن السبيل هو المسافر الذى فقد ماله أثناء سفره ، واحتاج لمعونة يستعين بها على مواصلته .

وفى سبيل الله ، أى للمسلمين المحاربين فى سبيل الله وإعلاء كلمته والدفاع عن دين الله ضد كل معتدٍ ، وكذلك المجاهدون الذين عجزوا عن تجهيز أنفسهم واللحاق بجيوش المسلمين ، لشدّةِ فقرهم .

ـ آداب الزكاة : لا يكفى المزكى إيتاءُ الزكاة المفروضة عليه للفقير والمحتاج ، رغم ما فى هذا السلوك من مظاهر التعاطف والتعاون بين المسلمين ، بل لقد بيّن لنا القرآن أيضا الأسلوب الذى يتم فيه العطاء ليكون أقوم وأكثر قبولا عند الله ، وفى آياته البينات توضيح وتبصير للمزكى بالآداب التى يجب التحلى بها عند العطاء ، ومن هذه الأساليب :

١ - الاستخفاء فى العطاء وعدم الجهر به ، فلا يعطى المزكى ما له للفقير أمام الملأ من الناس حفاظا على كرامة هذا المحتاج وإنسانيته وماء وجهه ، فليس آلم على النفس الكريمة من مد اليد للناس طلبا للإحسان والظهور أمام الناس بمظهر المتطفل على الغير ، ويكفى المحسن عناية الله به وكرمه عليه أن جعله هو المعطى لا الآخذ . ومظهر الشكر لله على نِعمهِ أن يكون المعطى فى عطائه ملتمسا رضا ربه وحده وليس طالبا إعجاب الناس ، ويكفى المعطى راحة ضميره ورضا نفسه أن يحفظ للفقير ماء وجهه ولا يكشف ستره أمام الناس ، وما أحكم الآية :

«إنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِىَ وإنْ تُخْفُوها وتُؤْتُوها الفُقَراءَ فهو خيرٌ لكم وَيُكَفِّر عَنْكُمْ مِّن سَيِّئاتِكُم ، والله بما تَعْمَلونَ خَبيرٌ»(٥١) .

وإذا علمنا أنّ من بين الفقراء المحتاجين من يمنعه تعفّفه واعتزازه بإنسانيته سؤال صدقة أو مد يده للغير طلبا لمعونة هو فى مسيس الحاجة اليها ، لزاد تعاطفنا معه واحترامنا له ، فلا أقل من أن نحفظ له هذا الشعور الإنسانى بل ونعمقه ، وعلى المعطى فى هذه الحالة ألا ينتظر منه سؤالا أو مد يده طلبا لصدقة بل عليه أن يسارع بالعطاء قبل السؤال ، وهنا يكون جزاء المعطى مضاعفا عند ربه فيجزيه عن عطائه ويجزيه عن جبْر خاطر المحروم وحفظ كرامته وسترعيبه .

«لِلْفُقَرَاءِ الّذينِ أُحْصِرُوا فى سَبيلِ اللهِ لا يَسْتَطِيعونَ ضَرْباً فى الأرْضِ يَحْسَبُهُم الجَاهِلُ أغْنِياءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْألُونَ النَّاسَ إلْحَافاً ، وما تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإنَّ الله بِهِ عَلِيمٌ»(٥٢) .

ألا ما أنبله وأعظمه أجرا عند الله ، ذلك المحسن المزكى الذى ينفق من ماله ابتغاء وجه الله وحده ، إذا ما سعى بنفسه بحثا عن هؤلاء المحتاجين المتعففين الذين

يمنعهم من السؤال حياؤهم وعزة أنفسهم فيعطيهم حقهم مما رزقه الله من مال ، بعيدا عن أعين الناس وزهدا فى الشهرة وحب الظهور .

وما أحرانا نحن العرب ، وقد أُخرج إخوة لنا من ديارهم ظلما ، ونهبت أموالهم ، وأبدلهم عدو غاصب ذلاً وعَوَزاً من بعد عز ورفاهية . ما أحرانا بالتأدب بهذا الأدب القرآنى بمد يد العون لهم وتسليمهم حقهم فى أموالنا ، ما أحرانا بالسعى إليهم أينما كانوا لإعطائهم حقاً لهم فرضه الله علينا ، ولا فضل لنا ولا منّ عليهم فى رد حقهم اليهم .

٢ - صدق النية ونبل الهدف فى العطاء ، ابتغاء مرضاة الله وحده وانصياعا منا لأوامره ، لا سعيا وراء كسب مادى أو معنوى نطلبه من المحتاج مقابل هذا العطاء . فلا يجوز شرعا ولا أدبا أن يتصدق مؤمن مقابل شهرة أو حبا فى الظهور أمام الناس بمظهر السخى الكريم ليشار إليه بالبنان ، ولا يجوز الإعلان فى الصحف عن اسم المعطى ومقدار ما تصدق به من مال لإخوة له فى الدين والإنسانية ، ولا يجوز للمعطى أن يطلب من صاحب الحاجة خدمة أو عملا مقابل ما تصدق به عليه من مال ، ومن يفعل ذلك فإنما يتخذ من هذه الفريضة الواجبة على كل مؤمن سلعة وتجارة ينفقها مؤتيها فى سبيل منفعة دنيوية عاجلة ، لا ابتغاء مرضاة ربه وحسن الجزاء فى الآخرة .

ومناط صحة الزكاة وقبولها لدى الله قبولا حسنا هو خلوص نية معطيها فى العطاء من حيث نوع العطاء وطريقته ، فلا ننتقى من أموالنا أخبثه فنعطى منه ، فهذا ما حرمه الله :

«ياأَيُّها الَّذين آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّباتِ ماكَسَبْتُم ومِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ ولا تَيَمَّمُوا الخَبيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيه إلاَّ أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ واعْلَموا أَنَّ الله غَنِيٌّ حَمِيدٌ[٥٣]» .

ويحدد العليم اللطيف السلوك القويم فى إيتاء الزكاة وفى الإنفاق بأن يكون القصد هو خدمة الدين وتعاليمه ومرضاة الله طمعا فى ثوابه ، فلا تباهى ولا منا ولا استعلاء .

«مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أموَالهم فى سَبِيلِ الله كَمَثَل حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سنَابِلَ فى كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ ، والله يُضاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ والله وَاسعٌ عَليم(٥٣)» .

«ومثلُ الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاةِ الله وتثبيتا من أنفسِهم كمثلِ جنة بربوةٍ أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابـل فطل والله بمـا تعملون بصير(٥٤)» .

«الَّذين يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ فى سَبِيلِ الله ثُمَّ لايُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقـوا مَناً وَلا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ ربِّهِمْ ولا خَوْفٌ عليهم ولا هم يحزنون(٥٥)» .

فمن ابتغى من وراء زكاته غير رضا الله ووجهه ، لا يقبل الله زكاته ولا خير يرتجى من ورائها :

«يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلوا صدقاتِكم بالمنِّ والأذى كالَّذى يُنْفِقُ مـالَهُ رِئـاءَ النَّاسِ ولاَ يُؤْمِنُ باللهِ واليَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ علَيْهِ تُرَابٌ ، فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا والله لا يَهدِى الْقَوْمَ الكافِرِينَ»(٥٦) .

وخير من اتخاذ الزكاة وسيلة للمن على الفقير المحتاج وإيذائه ، وإذلاله ، كلمة طيبة وقول حسن يجبر بهما خاطره ويزيل كربه :

«قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى واللهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ»(٥٧) .

أنواع الزكاة : الزكاة نوعان – زكاة المال ، وزكاة الفطر .

(ا) زكاة المال : والمقصود هنا بالمال ما يملك الشخص وله حرية التصرف فيه ، سواء أكان هذا المال نقدا أم عينا ، ومن ثم تتناول زكاة المال ، إخراج نسبة مما يمتلك الشخص من ذهب وفضة أو زرع وثمار أو حيوانات سائمة ، أو بضاعة يتاجر فيها أو ركاز مما فى الأرض من معادن :

١ – زكاة النقدين أى الذهب والفضة سواء خامة أو مصنعة ، إذْ لا زكاة فيما عداهما من الجواهر كالماس واللؤلؤ وغيرها من الأحجار الكريمة ، ولعل عدم فرض الزكاة على الأحجار الكريمة أن الإنقاص منها بالاستقطاع يقلل من قيمتها بنسبة أكبر من نسبة الزكاة التى فرضت على النقدين ، هذا فضلا عن أن الأحجار الكريمة لا

تكتنز لذاتها وبحالتها الطبيعية ولا تستثمر بل تتخذ كمادة تصنع منها الحلى للزينة التى احلها الله للمؤمن والمؤمنة .

والقرآن الكريم صريح فى بيان النقدين ووجوب الزكاة فيهما ، فبيّنها فى الآية ٣٥ من سورة التوبة .

وقد بيّن الرسول نصاب الزكاة فى الذهب والفضة فى قوله ﷺ :

(ليس فى أقل من عشرين دينارا شىء ، وفى عشرين نصف دينـار) أى ربع العشر مما يملك الشخص من ذهب أو فضة أو ما يقوم مقامهما مقدّرًا بالنقد المتداول فى بلد المزكى .

وزكاة الذهب والفضة فريضة أيضا على ودائع المسلم لـدى شخص أو هيئة (البنوك مثلا) ما دام قد مضى عليها الحول ، وكذلك على ما يمتلك المسلم من قيمة الأسهم والسندات يستثمرها المسلم فى مشروعات انتاجية كالمؤسسات الصناعية او الزراعية او التجارية .

٢ - زكاة الدَّيْن : والدَّيْن هُو ما لشخص لدى شخص آخر بصفة دين يعود إلى صاحبه فى موعد يتفق عليه الدائن والمدين ، هذا النوع من المال لا تفرض عليه الزكاة من الدائن ، لأنه ليس فى حوزته، وبالتالى لا يستطيع أن يخرج منه زكاة . بل إن الزكاة فى هذه الحالة فرض على المدين الذى تسلم هذا المال ولو كان مفلسا وعليه أن يخرج عنه الزكاة اذا مضى عليه الحول عند استلامه له ، بشرط أن يبلغ هذا الدين المقبوض نصابا أو بضمه إلى ما عند المدين من مال أصلى . ولا زكاة فى الديون إذا لم تكن ثابتة فى ذمة المدين .

٣ - زكاة النبات : وتسمى زكاة الزرع والثمار :

قال تعالى : «وَهُوَ الَّذِى أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ والنَّخْلَ والزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ والزَّيْتُونَ والرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً وغيرَ مُتَشابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِه إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ولا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ المُسْرِفِين»(٥٨) .

أى أن الزكاة فى الزرع والثمار فريضة على كل مسلم لديه أرض زرعها وأثمرت ثمرا ، فللمسلم أن يأكل من ثمار أرضه دون إسراف ، حتى لا يحرم الفقير حقه فى ثمار الأرض .

وقدر الرسول ﷺ نصاب الزكاة فى الثمار ، بقوله :

(ليس فيما دون خمسة أوساق من تمر ولا حب ، صدقة)

والوَسَقُ مقداره ستون صاعا ، والصاعُ مقداره قدح وثلث بالكيل المصرى .

أى أن النصاب خمسون كيلة إذا حصل عليها صاحب الأرض من ثمار أرضه وجبت فيها الزكاة . وفرَّق رسول الله ﷺ فى مقدار زكاة الزروع بين ثمار الأرض التى تروى بالراحة وتلك التى تروى بالآلات .

(فيما سقتْ الماء والعيون أو كان عثريا العُشْرُ ، وفيما سقى بالنضح نصف العشر) .

والعثرى هو النبات الذى تصل جذوره إلى مستوى المياه التى فى باطن الأرض فتمتصه ومعنى ذلك ان مقدار الزكاة فى النصاب ، ٥ كيلات فى الحالة الأولى ، ٢,٥ كيلة فى الحالة الثانية .

وضرائب الأطيان التى يدفعها زارع الأرض للحكومة لا تعفيه من إخراج زكاة الزروع لأن ضريبة الحكومة تفرض على الأرض أما الزكاة ففرض على الزرع والثمر .

٤ - زكاة الحيوان : وتعرف بزكاة النَّعَم أو السوائم أى الحيوانات ، ويطلق العرب كلمة الأنعام على الإبل والبقر والغنم .

قال تعالى : «وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُم فِيهَا دِفْءٌ ومَنَافِعُ وَمِنْها تَأْكُلُونَ»(٥٩) ، «والخَيْلَ والبِغَالَ والحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ويَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ»(٦٠) .

ففرق إذَنْ بَيْنَ الأنعام وبين الخيل والبغال والحمير .

والزكاة واجبة على الأنعام فحسب ، وهى المقصودة بزكاة الحيوان ، ويشترط فى زكاة الحيوان :

١ - أن تكون سائمة ، وتعتمد فى غذائها كله أو معظمه على المراعى الطبيعية المباحة ولا تخص أحدا ولا يدفع مقابلها ثمن ، بخلاف ما يعيش على العلف الذى يشترى فهو لا زكاة فيه .

٢ - أن تكون مُعَلَّفةً للنسل والإنتاج فحسْب ، فإذا خصصت للركوب أو الحمل أو الأعمال الزراعية أو الصناعية (كالمعاصر والطواحين) فلا زكاة فيها .

٣ - أن تبلغ نصاب الزكاة ، وهوفى الإبل خمسة رءوس ، وفى البقرِ ثلاثون وفى الغنم أربعون .

٤ - أن يمر عام كامل على ملكية النصاب .

وفى الحاصلات (أى المنتجات) الحيوانية كاللبن والصوف والجلود ، إن كانت للاستهلاك الشخصى فلا زكاة فيها ، أما إذا كانت للتجارة أو الصناعة جرت فيها الزكاة مجرى زكاة التجارة والصناعة .

٥ - زكاة التجارة ، وهى ما تُخرَجُ عن البضاعة موضوع التجارة .

وكان النبى ﷺ يأمر بأن تُخرَج صدقةٌ عن كل ما هو معد للبيع وفى ذلك قال :

(فى الإبل صدقة وفى الغنم صدقة ، وفى البَزِّ صدقة) والبز هو الثياب فالزكاة إذن واجبة فى كل ما يعرض للبيع ، ولوكان من الأنواع التى لا تجب فيها الزكاة بذاتها كالخيول التى يستخدمها صاحبها لركوبه والألبان والبز التى هى أصلا للاستهلاك والاستعمال الشخصى ، بشرط مرور الحول ووجود النصاب قبل بيعها .

ونظامها : حصر أموال التجارة فى آخر الحول ، وتقويمها بحيث يكون التقويم بالسعر الحاضر لا بسعر الشراء ، فإذا بلغت النصاب وقدره ٥٢٩ قرشا وثلثا القرش ، ومر عليها الحول ، أخرجت فيها الزكاة .

ومقدار زكاة هذه الأثمان هو ربع العشر أى جزء من أربعين ، وتخرج زكاتها نقداً لا من نفس ما يتجر فيه ، مع ملاحظة ما قد يكون للتاجر من ديون لدى الغير ، وله أن يؤخر إخراج الزكاة الخاصة بالديون حتى يقبضها بشرط مرور الحول على هذا الدَّين قبل استرداده .

وإذا امتلك شخص شيئا بغير نية التجارة ، كأن يكون قد اشتراه للاقتناء أو ورثه أو وهب له ، ثم رأى الاتجار فيه فيبتدىء حوله من وقت نية التجارة لا من وقت حيازته . ويلاحظ أن الربح المستفاد فى أثناء السنة يجب اضافته لأصل رأس المال . ويزكى عن الجميع فى آخر الحول ، لأنه صار تابعا للأصول فى الحول .

٦ - زكاة المعدن أو الرّكاز : المعدن هو ما أودعه الله فى باطن الأرض من ذهب أو فضة أو ماس أو نحاس أو كبريت أو بترول وغيرها مما يستخرج من باطن الأرض وكما هو موجود خاما فى مناجمه .

أما الركاز فهو ما يوجد مركوزاً فى الأرض مما دفنه أهل الجاهلية لإخفائه عن أعين الناس .

ومقدار زكاة المعدن ربع العُشْر لأن استخراجه من مناجمه يحتاج إلى جهد ونفقات . أما الركاز فيجب فى زكاته الخُمْس لأنه عثر عليه بدون مجهود أو مشقة . ولا يشترط فى المعدن أو الركاز مرور الحول بل تجب فيهما الزكاة بمجرد العثور عليهما لأنهما أصبحا فى حوزة واجدهما .

والرّكاز يكون لمالك الأرض إذا كانت مملوكة ، فإن كان فى أرض عامة أو غير مملوكة لشخص معين ، كالصحراء مثلا أو قاع البحار كانت من حق واجدها .

وإذا عثر على كنز من دفائن المسلمين تحت الأرض ، فهو لصاحبه إن عُرف وإلا اعتبر (لقطة) كالذى يوجد على وجه الأرض ، ووجب على واجده أن يعلن عنه إعلانا عاما للتعرف عليه ، ثم يكون لواجده إذا لم يظهر صاحبه الأصلى ، وحكم الزكاة فيها كالركاز هى الخمس إذا بلغت النصاب .

(ب) زكاة الفطر : وتسمى زكاة الأبدان ، لأنها تطهر البدن وتصلحه ، أو صدقة الرءوس لأنها تُخرج عن الشخص ومن يعولهم شرعا ، أو زكاة الصوم لأنها شكر لله على ما وهبه للصائم من القدرة على أداء فريضة الصوم وتطهير لهذا الصوم فيتقبله الله قبولا حسنا . أو زكاة رمضان لأنها تزكية لشهر القرآن أو زكاة الفطر لوجوبها بالفطر بعد إتمام صيام شهر رمضان .

وقد فرضت زكاة الفطر طهرة للصائم مما قد يكون قد جرى منه من اللغو والرفث ، وطعمة للمساكين .

موعدها : من أداها قبل صلاة عيد الفطر فهى زكاة مقبولة ، ومن أداها بعد هذه الصلاة فهى صدقة من الصدقات . ويمكن التعجيل بإخراجها قبل وقت صلاة عيد الفطر بيوم أو يومين ليقضى بها الفقير لوازم العيد له ولعياله .

على من تفرض زكاة الفطر ؟ فرضت على القادر على قوت يومه له ولعياله ومن يعول شرعا وما فاض بعد ذلك يزكّى عنه .

لمن تجب زكاة الفطر ؟

تجب لمن لا يملك قوت يومه له ولعياله .

مقدارها : ربع كيلة قمح (أو قيمتها نقدا) بسعرها الحاضر ، عن كل شخص تخرج عنه الزكاة .

شروط صحتها : صدق النية وخلوصها لوجه الله ولا تعطى مقابل منفعة مادية أو معنوية .

خامسا : الحج :

الحج فى الإسلام فريضة على كل مسلم قادر يقوم بمقتضاها بـزيارة بيت الله الحرام فى مكة المكرمة حيث توجد الكعبة المشرفة ، وإقامة مناسكه عندها وفيما حولها من مقدسّات إسلامية .

والبيت الحرام هو ذلك البيت الذى أمر الله خليله إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام ببنائه ليعبد فيه الله وحده ويذكر فيه اسمه وحده . وهو بذلك أول مسجد بنى على سطح الأرض لعبادة الخالق سبحانه وتعالى . وقد أحاط الله بيته الحرام بكل ما يليق به من بركة وطهارة وحرمة وتقديس فجعله ، سبحانه وتعالى ، مكانا مباركا .

«إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِلعالَمِينَ»[٦١]

وجعله دار أمن وسلام ، ومن دخله كان آمنا على نفسه وما له ولا يجوز عنده قتال إلا دفاعا عن النفس :

«وإِذْ جَعَلْنا البَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا واتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وإِسْمَاعِيلَ أن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّائِفِينَ والْعَاكِفِينَ والرُّكَّعِ السُّجُودِ»[٦٢] .

كما بين رب البيت الحرام مناسك الحج إلى هذا المكان الطاهر ، استجابة لدعاء إبراهيم عليه السلام ، وفيه يقبل الله توبة التائب .

وقد حفظ الله لبيته قدسيته وطهارته من دنس الشرك به فى هذا البيت المقدس :

«وإذْ بَوَّأْنا لإبْرَاهِيمَ مكَانَ البَيْتِ ، أن لاَّ تُشْرِكْ بِى شَيْئًا وَطهِّـرْ بَيْتِىَ لِلطَّائِفِينَ والقَائِمِينَ والرُّكَّعِ السُّجُودِ»(٦٤) .

لكل هذا جعل الله سبحانه وتعالى الحج إلى بيته الحرام فريضة على كل مسلم قادر ماليا وبدنيا .

«فَيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إبْراهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ البَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ العَالَمِينَ»(٦٥) .

وقد فرضت هذه العبادة فى السنة التاسعة من الهجرة .

والحج فريضة على كل مسلم قادر يؤديها مرة على الأقل طول حياته ، ولذا فهو فرض على التراخى ، أى تؤدى فى أية سنة من سنى حياة المسلم بعـد بلوغه سن الرشد ويحسن أن يؤديها متى بلغ سن البلوغ حتى لا يتعذر عليه عندما تتقدم به السن ويعجز عن تحمل مشاقه ونفقاته . وقد جاء فى الحديث النبوى الشريف :

(حجوا قبل ألاَّتحجوا ، فقد يمرض المريض وتعرض الحاجة) .

حكمة الحج : فرض الله الحج ، كما فرض بقية الفرائض الإسلامية على كل مسلم لأهداف فيها الخير كل الخير لمن آمن بالله وباليوم الآخر من حيث تصفية روحه وتعلية سلوكه بما يناسب الفريضة حتى ينعكس هذا السلوك فيما بعد على تصرفات من يقيم شعائر الدين ويؤدى عباداته نحو خالقه ، وهو سبحانـه وتعالى غنى عن العالمين ، ومن آثار تأدية فريضة الحج اكتساب مؤديها لقيم جديدة تنفعه فى حياته الدنيا ولها ثوابها فى الحياة الآخرة ، ومن هذه القيم :

١ - القيم الروحية : تتجلى فى تلبية المؤمن نداء ربه وتنفيذ أوامره طواعية ، وبنفس راضية مما يعمق إيمانه ويدعم تقواه ، ورؤ ية الحاج لتلك البقاع المقدسة التى باركها الله وما حولها والتى تتجه إليها قلوب ملايين المسلمين ووجوههم أثناء الصلاة وذكر الله والدعاء إليه ، تهز الحاج هزاً عنيفا وتكسبه شعورا جديدا بالصفاء الروحى والهدوء النفسى ، ومشاهدة الحاج لأول بيت أقيم لعبادة الله الواحد الأحد ولما حوله

من أماكن مقدسة حيث نزل الوحى وحيث جاهد الرسول ورعيله الأول الذى آمن بالله ورسوله وأوذى وصمد فى سبيل تبليغ الرسالة وأداء الأمانة ، كل هذا زاد ما بعده زاد يتزود به الحاج بنور الهداية الربانية وينسى معها ما قد يكون قد صادفه من مشاق فى سبيل تحقيق هذه الفريضة ، ومن ثم يكون الحج عبادة يطهر بها الحاج نفسه ويصفى روحه حين يترك داره وأهله ومتاعه فى سبيل التزود من منابع هذا النور الإلهى الذى يستضىء به فى حياته الدنيا ويبصر به أقوم المسالك التى يصل من خلالها إلى رضا الله وغفرانه وثوابه فى حياته الآخرة ، والحاج إذْ يتجرد من كل مشاغل الدنيا ومتاعها ويتجه إلى ربه ملتمساً مرضاته إنما يتطهر من ذنوبه ويغفر له ربه .

وفى الحديث الشريف عن ثواب الحج :

«مَنْ حَجَّ فَلَمْ يَرْفُثْ ولَمْ يَفْسُقْ ، رَجع مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَوْم وَلَدَتْهُ أُمُّه» .
«حجو فإن الحج يغسل الذنوب كما يغسل الماء البدن» .

والحاج إذْ طهرت نفسه وصفيت روحه وأحبه ربه ، يتقبل الله منه التوبة كما يتقبل شفاعته فى أهله ، وفى ذلك يقول النبى ﷺ .

«يشفع الحاج فى أربعمائة من أهل بيته ، ويخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه» .

(٢) القيم الأخلاقية :

يكتسب الحاج عدة صفات أخلاقية حميدة وأنواعا من السلوك القويم من خلال أداء هذه الفريضة ، منذ أن ينوى ويسافر إلى هذه الأماكن المقدسة حتى عودته إلى أهله ، واستقراره فى بيته حيث يحس بأنه قد خُلِق شخصاً جديداً روحياً وأخلاقياً كله صلاح وتقوى ، فالنية الخالصة على أداء فريضة الحج دليل صدقه مع نفسه وقوة إيمانه بربه وبما أمر به ، ومن ثم يصبح الوفاء بالعهد خُلقاً حميداً اكتسبه الحاج بادىء ذى بدء . والحاجُّ إذْ يعد عدته لأداءِ فريضة الله عليه ، وهو إذْ يدبر ما يلزم لهذا العمل من نفقات ولوازم ذاكراً ربه ، يتحرى طهر ماله من أى دنس ويتحرى الخير والتقوى فى عمله حتى يقبل الله منه حجه . وفى مشاق السفر إلى الأراضى المقدسة ذهاباً وإياباً وأداء مناسك الحج يكتسب الحاج صلابة فى الحق وصبراً على المشاق مع سمو القصد . والحج كفريضة يؤديها الحاج نحو ربه وخالقه ، يستوجب أداءه فى جو

من طهر النفس وصلاح فى القول والعمل ، فلا لغو ولا قول فاحش ولا حقد ولا غضب ، بل لا يصدر من الحاج الا الاستغفار وذكر الله وتقواه يتقرب بهما إلى ربه ومن ثم يتحلى بالتقوى التى تنير له الطريق القويم فى الفكر والقول والعمل ، وذلك عملا بقوله سبحانه وتعالى :

« الْحَجُّ أَشهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فيهن الحَجَّ فَلاَ رَفَثَ ولا فُسُوقَ ولاَ جِدَالَ فى الحَجِّ ومَا تَفْعلوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللهُ وَتَزَوَّدُوا فإن خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى واتَّقُونِ يا أُولِى الأَلْبَاب»(٦٦) .

(٣) القيم الاجتماعية :

إن فى اجتماع ألوف الحجيج فى مكان واحد وهو الأرض المقدسة وفى وقت واحد هو شهر ذى الحجة يحدوهم هدف واحد وإحساس واحد هو التماس الغفران من الله سبحانه وتعالى والتوبة إليه والتطهر من الذنوب ، والتعاون وعطف الغنى على الفقير ومساعدة القوى للضعيف . وفى تجرُّد الحاج من زخرف الملبس والزينة واكتفائه بالبسيط من الملبس ، إشعار له بالمساواة بين أبناء الدين الواحدوتطهيرا له من نقائص التعالى والزهو على حساب كرامة أخيه فى العقيدة ، وبذلك يكتسب الحاج سلوكاً اجتماعياً قويماً أساسه التواضع وتحرى العدل والصدق مع الغير .

(٤) القيم السياسية :

إن فى اجتماع الحجيج المسلمين على اختلاف أوطانهم وأجناسهم ولغاتهم ، جمعا لأمة الإسلام فى صعيد واحد وعلى نية واحدة ، هى تلبية أمر ربهم وتأكيد لعقيدتهم ، فمثل هذا الجمع الصالح فى ذلك المكان الطاهر ما هو إلا مؤتمر دولى إسلامى يتعارف فيه المسلمون من مشارق الأرض ومغاربها ويتدارسون أحوالهم ويتعرفون على مشاكلهم ويتعاونون على حلها بالحق والعدل ، وفى ذلك تقريب بين الشعوب الإسلامية والتحام يجعل منهم صفاً واحداً وبنيانا قوياً راسخاً أمام أى عدو لدينهم أو عدوان حاقد عليهم ، وفى هذا التقارب والتعاون إزالة للخلافات التى كثيراً ما تنشب بين أخوة فى أسرة واحدة هى أخوة العقيدة وأسرة الإسلام ، حتى تكون هذه الأمة بحق خير أمة أُخرجت للناس ، أمة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، أمة تنادى بالسلام وتقاوم العدوان على الحق .

شروط الحج :

الحج فريضة فرضها الله على كل مسلم قادر ، وهى مثل بقية الفرائض ، لم يفرضها الله ثم ترك المسلمين كل منهم يؤديها ويزاولها وفق هواه وتفسيره ، بل شرع لها من النظم والضوابط ما يجعلها مقبولة عند الله ولكى تتحقق الحكمة من فرضها ؛ وشروط صحة الحج هى :

(١) الإسلام : إن الحج فريضة إسلامية فرضها الله مع بقية الفرائض التى يجب أن يأخذ بها كل مسلم ليصح إسلامه ، ولذا فهى لا تقبل من كافر ، أو من أحد من أهل الكتاب من غير المسلمين ، إذْ لا يعقل أن يقوم فرد بفريضة واحدة من فرائض الإسلام لكى يصبح مسلماً ، فالفرائض الإسلامية كلٌ لا يتجزأ ، وهى متكاملة إذْ لكل فريضة حكمة تكملها وتعززها حِكَمُ بقية الفرائض ، وهى مع فرضها وإلزام كل مسلم بإتيانها ، ليس فيها ما يُعجز عن الامتثال لها والأخذ بها ، وقد سبق أن بينا كافة التيسيرات التى منَّ الله بها على المسلمين فى أداء فرائض الإسلام ، فلا عذر بعد ذلك ولا حرية لأن يختار الفرد فرضاً من هذه الفرائض دون غيره ، ويأخذ به نفسه ، وإلا كان إسلامه ناقصاً أو بالأحرى لا يمكن أن يكون مسلماً .

(٢) سلامة العقل : فلا يصح لمجنون أداء هذه الفريضة رغم أنه يدين أصلا بالإسلام ، إذْ لا يصح لمجنون إنفاق ، ولا يطالب من لا يملك زمام نفسه أو عقله أن يقوم بتكاليف الحج من نية صادقة صادرة عن وعى ووزن للأمور ، ولا يؤمَنُ سفره أو إقامته أو مناسكه ، وحكمه حكم غير القادر .

(٣) البلوغ ، لأن الحج فريضة على كل مسلم راشد ، فالحج ليس فرضاً على صبى لم يبلغ سن الحلم ولو كان قادراً عليه صحياً ومالياً .

(٤) الاستطاعة : أى قدرة من نوى الحج على حيازة ما يلزمه من زاد وراحلة ، أى القدرة على التزود بما يكفل تكاليف معاشه وإقامته وسفره وعودته ، ويشترط للقدرة على الزاد ، أن يكون لدى الحاج ما يكفيه أثناء حجه وما يكفى من يعولهم حتى يرجع ، ومن الاستطاعة أيضاً ألا يكون به مرض يعجزه عن الحج أو ذا

شيخوخة موهنة أو ذا عاهة مانعة من السير والرؤ ية ، كما يمنع المرأة من الحج عدم انتهاء عدتها أو عدم وجود زوج أو محرم معها أثناء الحج ، كما يحول دون الحج عدم توفر الأمن فى الطريق إلى مكة .

(٥) أعمال الحج الضرورية هى :

١ - الوقوف بعرفة (ووقته من ظهر اليوم التاسع من ذى الحجة إلى فجر يوم العيد) .

٢ - الطواف بالبيت الحرام : ووقته بعد عرفة .

٣ - ثم السعى ، ووقته بعد الطواف .

(٦) توافر الحرية لمن ينوى الحج ، فلا يفرض على من كان أمره بيد سواه ممن لا يستطيع السفر بغير اذن منه .

(٧) صدق النية أى أن تكون النية على الحج خالصة لوجه الله وحقيقية للسفر إلى الأراضى المقدسة وتحمل مشاقه من أجل أداء هـذه الفريضـة دون سواهـا . فلا يجب أن يشوب هذه النية مقاصد أخرى كالتجارة ، أو كسب شهرة بالظهور أمام الناس بمظهر التقوى والورع .

أركان الحج :

وتشمل الإحرام والوقوف بعرفة وطواف الركن ، والسعى بين الصفا والمروة :

١ - الإحرام أى صدق النية ، ثم النظافة عن طريق قص الأظافر وحلق العانة ونتف شعر الإبط ، ثم الوضوء أو الغُسل ، حتى ولو كانت المرأة حائضـا أو نفساء لأن الغسل للنظافة وليس للطهارة ، والغسل أفضل من الوضوء والغسل لازم أيضاً عند دخول مكة وعند الوقوف بعرفة ، ويستحب لرمى جمرة العقبة عند النحر .

ومن السُّنـة أن يلبس المحرم إزاراً من الـوسط ، ويلبس رداء على الكتف ، ويحسن أن يكون الإزار والرداء نظيفين أو جديدين وأن يكونا أبيضين لا مصبوغين ويحسن التطيب .

ومكان الإحرام للحاج بالنسبة لأهل مصر والشام التى لا يجوز لهم مجاوزته بلا إحرام هو الجحْفَةُ وهى مكان على ساحل البحر الأحمر الشرقى ، ولا وجود لها الآن ، لذلك صار حجاج مصر والشام يحرمون فى رابغ وهى مدينـة صغيرة تقـع شمال الجحفة .

ومن السنّة اتصال التلبية بالإحرام ونصها وارد عن النبى ﷺ ، هو :

(لبّيك اللهم لبّيك ، لبيك لا شريك لك لبّيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك لبّيك) .

ويقوم مقام التلبية ما فى معناها من التسبيح والتحميد والتهليل .

ويجوز للمحْرم شم الرياحين ، وشد الهيمان (الكمَر أو الحزام) الذى به نقوده على وسطه ، وأن ينظر فى المرآة عند الضرورة ، ويحرَّم عليه قتل الحيوان إلا الخطر الضار منها مثل الغراب والحدأة والفأر والحيوان السام أو المفترس ولا يجوز للمحرم الجماع ودوافعه ، أو لبس المخيط وإزالة الشعر وتقليم الأظافر والطيب وتغطية الوجه أو الرأس ، وصيد البر ، وقطع الشجر والنبات فى الحَرَم ، ولبس المصبوغ والتخضب ، وقد بين الله تعالى ناقضات الإحرام ، بقوله :

« ولا تَحْلِقوا رءوسَكم حتى يَبْلُغَ الهَدْىُ مَحِلَّهُ » (٦٧) .

« يا أيُّها الَّذِينَ آمنوا لا تَقْتلوا الصَّيْدَ وأنتم حُرُمٌ (٦٨) » .

٢ - الوقوف بعرفة (عرفة هضبة فسيحة فى شرقى مكة بعد المزدلفة ومنى) . والوقوف بها يتحقق فى أى جزء من أجزائها مُحْرِماً ، واقفاً أو راكباً أو مضطجعاً .

وعن أبى هريرة عن النبى ﷺ ، حين سئل وهو واقف بعرفة ، أنه قال :

(الحج عرفة ، فمن جاء قبل صلاة الفجر من ليلة جَمْع ، فقد تم حجه) ، وجَمْع هى المزدلفة .

ومن آداب الوقوف بعرفة : الغُسْل ، وأن يقف الحاج راكباً عند الصخرة مستقبلا القبلة ، رافعاً يديه بالدعاء ، حامداً مهللاً ، مكَبِّراً ملبياً ، مصلِّياً على النبى ، داعياً لأهله ، ويحسن أن يدعو كما دعا النبى ﷺ .

(لا إله إلا الله وحده ، لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، يحيى ويميت وهو على كل شىء قدير ، اللهم اجعل فى قلبى نوراً ، وفى صدرى نوراً ، وفى سمعى نوراً ، وفى بصرى نوراً ، اللهم اشرح لى صدرى ، ويسر لى أمرى ، أعوذ بك من وساوس الصدر وشتات الأمر وفتنة القبر ، اللهم إنى أعوذ بك من شر ما يلج فى الليل ومن شرما يلج فى النهار) .

ويستحب أن يخفض الحاج صوته عند الدعاء ، وأن يكون كل دعاء ثلاثاً ، ويكثر من التلبية رافعاً صوته ، ويدعو لوالديه ولمشايخه ، وأقاربه وأصدقائه ولكل من أحسن إليه ، وسائر المسلمين .

٣ - طواف الركن : قال تعالى :

« ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ ولْيُوفُوا نُذُورَهُم ولْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ »(٦٩) .

فالطواف حول الكعبة ركن من أركان الحج ومن واجباته ، ويكون الطواف بالمشى أو بالركوب لعذر ، والصلاة ركعتين عند مقام إبراهيم عليه السلام تنفيذاً لأمر الله :

« وإذْ جَعَلْنا البَيْتَ مثَابةً للنَّاس وأمْناً واتَّخِذُوا مِن مَّقامِ إبْراهِيمَ مُصَلًّى وعَهِدْنا إلى إبْراهِيمَ وإسماعيلَ أنْ طَهِّرا بَيتى لِلطَّائِفينَ والعَاكِفِينَ والرُّكَّعِ السُّجُودِ(٧١) » .

وتصح الصلاة حيث يتيسر للحاج فى المسجد الحرام بعد كل طواف ويستحب منه الدعاء عقب صلاة الطواف خلف المقام لنفسه ولأهله .

ويُسنّ فى بدء طواف الحاج استقبال الحجر الأسود ، مهللا مكبراً رافعاً يديه كما فى الصلاة ، وينبغى ألا يزاحم غيره عند استلام الحجر الأسود ، وخير من التزاحم الاستقبال والتكبير ، كما يحسن استلام أو استقبال الحجر الأسود من ركنه اليمانى .

هوامش الباب الثاني

(١) الحجر ٣٣ .
(٢) الحجر ٣٤ ، ٣٥ .
(٣) الحجر ٣٩ .
(٤) البقرة ١١٣ .
(٥) البقرة ١١١ .
(٦) البقرة ١١٢ .
(٧) البقرة ١٢٠ .
(٨) الصف ٦ .
(٩) إبراهيم ٤ .
(١٠) النحل ٣٦ .
(١١) الشورى ١٣ .
(١٢) البقرة ١٢٧ .
(١٣) البقرة ١٢٨ .
(١٤) البقرة ١٣٠-١٣٢ .
(١٥) المائدة ٤٤ .
(١٦) المائدة ٤٦ .
(١٧) آل عمران ٣ - ٤ .
(١٨) البقرة ١٨٥ .
(١٩) النساء ٤٦ .
(٢٠) آل عمران ٧٨ .
(٢١) النساء ١٥٥ .
(٢٢) النساء ١٥٦ .
(٢٣) النساء ١٥٧ .
(٢٤) آل عمران ٧ .
(٢٥) المائدة ٧٥ .
(٢٦) النساء ١٧١ .
(٢٧) النساء ١٧٢ .
(٢٨) المائدة ٤٧ .
(٢٩) البقرة ١٧٤ .
(٣٠) المائدة ٦٦ .
(٣١) المائدة ٦٨ .
(٣٢) المائدة ٦٩ .
(٣٣) الجمعة ٥ .

(٣٤) المائدة ٤

(٣٥) المائدة ١٥

(٣٦) النحل ٦٤

(٣٧) الحجر ٩

(٣٨) البروج ٢١ ، ٢٢ .

(٣٩) الفرقان ١ .

(٤٠) الطور ٣٤ .

(٤١) الإسراء ٨٨ .

(٤٢) الأنعام ١٥٣ .

(٤٣) آل عمران ١٩ .

(٤٤) آل عمران ٢٠ .

(٤٥) آل عمران ٨٥ .

(٤٦) آل عمران ٨٦ .

(٤٧) آل عمران ١٩٩ .

الفصل الثالث

مقومـات الإيمـان

للإيمان أسس وأصول يجب توافرها حتى يكون إيمانا كما أراده الله فيكون إيمانا مقبولا فلا تكفى الشهادتان ولا يكفى أداء شعائر الإسلام وفرائضه ، مالم يقم هذا الإيمان على دعامتين قويتين راسختين من التقوى والبر :

(أولا) التقـوى :

والتقوى من الوقاية ، وفعلها وقى بمعنى حمى الشيء ودفع عنه ما يلحق به من ضرر ، ويكون ذلك إما بدفع هذا الضرر عند اقترابه أو باتخاذ الوسـائل الكفيلة بإبعاده وإبعاد آثاره عنه ، فيكون الإنسان بتقواه أى بحماية نفسه فى مأمن من حدوث الضرر ، والمتقى هو المحصن الآمن من وقوع الضرر عليـه ، بما أعـد لنفسه من حصانة ووسائل للدفاع والحماية من أى أذى يلحق به ، ومصدرها التقوى أى الأمن من الضرر .

والمؤمن التقى هو من أعد نفسه وقوّاها وحصنها من أى ضرر أو أذى فيصبح آمنا وفى مأمن منه ، والتقوى انما تكون وقاية النفس من ضرر قد يقع عليها ممن للمتقى بهم صلة :

وأوْلى ما فى الوجود بخشية المؤمن واتقـاء غضبه وعـذابه هـو القوى القـادر المطلع ، هو الله سبحانه وتعالى ، وذلك باتخاذ الوسائل لنيل رضاه واتقاء غضبه .

وقد لخص الحكيم الخبير وسيلة تقواه ونيل رضـوانه بـالأمر بـالمعروف والنهى عن المنكر ، أى يأخذ التقى نفسه بعمل المعروف وينصح غيره بعمله ، وأن ينتهى عن المنكر وينهى غيره عن إتيانه .

وبعد تقوى المؤمن ربه يجب عليه تقوى نفسه أى اتقاء جموح هواها ويكون ذلك بكبح جماح أهوائها والاستعاذة بالله مما تأمر به من سوء .

وعلى المؤمن أن يتقى الناس ، أى وقاية نفسه ممن يحاولون إلحاق ضرر به ، فالمؤمن التقى هو من اتقى ربه واتقى نفسه واتقى عدْوان الناس عليه .

وسلاح تقوى المؤمن فى جميع هذه الحالات هو الصلاح والإصلاح .
صلاح النفس بتطهيرها من وسوسة الشيطان الرجيم ، وتزكيتها بذكر الله .
وإصلاح الناس بالعمل الصالح والموعظة الحسنة .
والله سبحانه وتعالى ، إذْ خلق الإنسان ضعيفا بنزعات نفسه ، قد زوده بأداتى الصلاح والإصلاح وهما ركنا التقوى ، وهاتان الأداتان هما العقل والإيمان .

العقل الذى به يعقل الأشياء ويتدبر أمرها ، والإيمان الذى يذكره بربه فيهديه إلى تقواه فيما يفكر وفيما يعمل ، هيأ العزيز الحكيم للإنسان ميدان التعقل والتدبير وهى تلك الأرض التى يعيش عليها إذ هيأ له فيها سبل العمل بـالحق ومكنه من وسـائل الكمـال ، والعمل بـالسعى فى طلب الرزق الحـلال والإيمان بقـدرة الله وحكمته .

وهو سبحانه وتعالى ، إذْ وهب الإنسان العقل ليميزه عن سائر حيوان الأرض وليتدبر به أمره ومعاشه ، لم يتركه وشأنه ، بل والاه بالنظر والرعاية ووجهه أسلم توجيه برسالاته السماوية التى بعث بها أنبياءه الأمناء وأنزل بها كتبه البينات ، كل ذلك ليبلغ الإنسان ، خليفته فى الأرض ، بعقله وإيمانه ذلك الكمال الذى أراده له خالقه ، ذلك الكمال البشرى الذى يلائم حياة بشرية صالحة وليس ذلك الكمال المطلق الذى هو من صفات الله وحده ، جل وعلا .

وهو سبحانه وتعالى الذى أنزل الفرقان بالحق ، هداية للبشر ودستور عملهم فى الطريق المستقيم الذى حدده العليم الخبير ، ومن سار على صراط ربه المستقيم فى

إخلاص وصدق وإيمان ، اتسم بالعلم الصحيح والعمل النافع والسلوك القـويم والقوّة والمنعة بإذن الله .

وهو سبحانه وتعالى أنزل قرآنه الكريم ليعمل البشر بمقتضى آياته البينات أمرا ونهيا ، لما فيه من محكم الهدى الإلهى وتحقيق الكمال البشرى .

وتعنى التقوى التى أرادها الله للمؤمن تقواه سبحانه وتعالى ، وتقوى نفسه ، وتقوى الناس :

(١) تقوى اللـــــه :

أول ما يأخذ به المؤمن نفسه فى تقواه تقوى خالقه العزيز رب العالمين ، وطريقها اتباع تعاليمه الإلهية التى أنزلها فى قرآنه الكريم .

وتقوى الله تتمثل فى العبادات المفروضة على المؤمن نحو ربه تزكية لنفسه وهديها وتهذيبها ، كما تتمثل تقوى المؤمن ربه فى البعد عن المعاصى التى نهى عنها محكم تنزيله ، لأنها تدنس روحه وتنعكس على أفعاله وسلوكه ، فعلى المؤمن وقد اتقى ربه والتمس رضوانه أن يتبين المسببات والأسباب التى ترتبط بها ، ثم عليه بعد ذلك اصطناع الأسباب الطيبة لتحصل المسببات الطيبة ، فيكون فعل الإنسان هذا النوع من الأسباب تقوى إذْ أنه يأخذ من الأسباب ما يرضى بها ربه ويتقى غضبه ونقمته وليس خيرا من سنن الله ، التى تضمنها قرآنه الكريم ، ما يتخذ المؤمن منها نبراسا يتلمس به خير الأسباب للحصول على خير المسببات ومن ثم يتسم سلوك المؤمن بتقوى ربه فيما يقوم به من أقوال وأفعال أخذاً بهذه السنن الربانية فى اتباع المعروف والانتهاء عن المنكر .

ومن ثمرات تقوى الله حصول الفُرْقان ، وهو ما يفرق به المؤمن بين الصواب والخطأ ، ويميز بين الحق والباطل ، ويتبين الخير من الشر ، فالعلم الصحيح والقوة الموجَّهَةُ توجيها سليما والعمل الصالح والخلق الكريم والسلوك القويم ، كلها من آثار التقوى ويجلى الله بعلمه معنى الفرقان بقوله :

« يَا أَيُّهَا الَّذِين آمَنُوا إنْ تَتَّقوا اللّهَ يَجْعَل لَّكُم فُرْقَاناً ويُكَفِّرْ عَنْكُم سَيِّئَاتِكُمْ ويَغْفِرْ لَكُمْ واللَّهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ »[1] .

ولما كان القرآن الكريم قد بين فى محكم آياته معنى الحق ومعنى الباطل ، وأسباب هذا وذاك ، سمى بالفرقان :

« تَبَارَكَ الذى نَزَّلَ الفرقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً »[٢]

وجاء أمر الله المؤمنين بالتقوى فى أكثر من آية وبشتى الأساليب ومختلف المناسبات ، من تذكير بنعمة الخالق على خلقه ، وحق الأخوّة البشرية ، وصلة الرحم التى تربط بين بنى آدم جميعا :

« يا أَيُّها النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الذّى خَلَقَكُم مِّنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ وخَلَقَ منها زَوْجَها ، وَبثَّ مِنْهُما رِجَالاً كَثيراً وَنسَاءً واتَّقُوا اللَّهَ الذّى تَسَاءلُونَ به والأَرْحَامَ إنَّ اللَّهَ كانَ عَلَيْكُم رَقِيباً »[٣] .

« إنَّ المُتَّقِينَ فى ظِلاَلٍ وعُيُونٍ * وفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهونَ * كُلُوا واشْرَبُوا هَنِيئاً بما كُنْتُم تَعْمَلون * إنَّا كَذَلكِ نَجْزى المُحْسِنِينَ »[٤] .

والله الرحمن الرحيم إذْ ينصح بالحسنى ويبين للمؤمنين صراطه المستقيم ، قادر أيضا على أخذ العصاة الضالين بسوء العذاب بما قدمت أيديهم ، فى يومه المشهود يوم الحساب العسير لكل من ضل وعصى واتخذ الأعوج من السلوك :

« يا أَيُّها النَّاسُ اتَّقوا رَبَّكُمْ واخْشَوْا يَوْمًا لاَ يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ ولا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن والده شَيْئاً إنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الحياةُ الدُّنْيا ولا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّه الغَرُورُ »[٥]

« يَا أَيُّها الناسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَىْءٌ عظِيمٌ »[٦] * يَوْمَ تَرَوْنَها تَذْهَلُ كُلُّ مُرضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَات حَمْلٍ حَمْلَها وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وما هُمْ بِسُكَارَى ولَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ »[٧] .

(٢) وعلى من اتقى الله أن يطيع أيضاً حبيب الله ومصطفاه ورسوله سيدنا محمدا ﷺ ، وأن يمارس هذه الطاعة ممارسة عملية بتصديق الرسول الأمين فيما جاء به من وحى إلهى ومن ثم طاعته ، ولهذه الطاعة جانبان :

جانب المبلغ لرسالة ربه المبينة فيما أوحى إليه من آيات الله البينات ، وتتمثل طاعةُ المؤمن رسول الله الأمين فى إيمانه بما أنزل الله عليه ، وهو الرسول الأمين الذى

اختاره العليم الخبير من بين البشر أجمعين وحمَّله أمانة البلاغ المبين ، كما لا يجوز لمن اتقى ربه مناقشة نصوص السُّنّة متى صح سندها وثبتت روايتها ، لأنه ﷺ الرسول الأمين الذى اتقى ربه حق تقاته ولذلك فهو لا ينطق عن الهوى ، علما بأن التصديق بآيات الله وسنة رسوله والتسليم بهما وعدم مناقشتهما لا يمنع مؤمن تقى من الاجتهاد فى دراستها ، لا عن شك فى النص ، بل من أجل الفهم والتبين والتبصر والاعتبار .

هذا جانب ، والجانب الآخر فى طاعة المؤمن للرسول ، هو جانب الإمامة والقيادة العامة الرشيدة للمسلمين فى تنظيم شئونهم ، وفى هذا حفظ للنظام العام واتقاء الفوضى بين المسلمين ، وهل هناك ماهو أرشد من إمامة رسول الله الأمين إلى الخلق أجمعين ؟ وهل هناك من البشر من هو أحكم من الرسول فى قيادته لهم ، هذا الذى لا يصدر منه فكر أو قول أو عمل عن هوى نفس ؟ إنما ينطق ويعظ الناس بما أوحى الله إليه ، ويبلغه للبشر بأمانة المبتغى مرضاة ربه وتقواه وحب الخير لإخوانه فى الدين وفى البشرية .

وما أصدق آيات الله فى وصف تقوى رسوله ﷺ :

« قُل إنَّما أعِظُكُمْ بواحِدَةٍ أنْ تَقُومُوا لله مَثْنَى وفُرَادَى ثُم تَتَفَكَّروا ما بِصَاحِبِكُم مِنْ جِنَّةٍ إنْ هُو إلاَّ نَذِيرٌ لكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ »[٨] .

«ما ضَلَّ صاحِبكُم وما غَوَى * وما يَنْطِقُ عَنِ الهَوَى * إنْ هُو إلاَّ وَحْىٌ يُوحَى * علَّمَهُ شَدِيدُ القُوَى »[٩] .

« إنَّهُ لَقَولُ رسولٍ كَرِيمٍ * ذِى قُوَّةٍ عِنْدَ ذِى العَرْشِ مكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أمِينٍ * وما صَاحِبُكم بمَجْنُونٍ »[١٠] .

(٣) وتقوى المؤمن نفسه هى أن يقى ذاته من شهوات نفسه ، والمؤمن التقى هو من اتقى نفسه الأمارة بالسوء فيتقى أهواءها التى قد تزعزع إيمانه وتعبث بضميره إذا ما أوتى مالا أو سلطانا ، ويحكّم عقله ودينه وإيمانه فى كبح جماحها إذا ما أوحت إليه بما يخالف ما أمره الله به ، ويعيدها إلى جانب الرشد ، ويطهرها بالمحافظة على العبادات التى تنهى عن الفحشاء والمنكر فتتطهر نفسه وتصفو ، وتصبح نفسا طيبة صالحة فلا يصدر منها إلا ما كان طيبا وصالحا ، وهذا هو الفوز المبين الذى يؤتيه الله عباده الذين آمنوا واتقوا شهوات النفس وأهواءها الضالة المضللة .

(٤) والمؤمن التقى من اتقى كيد الناس وما قد يلحقونه به من شر وضرر ، وذلك بالوفاق والتعاون والإيثار والتكافل والتعاطف بينه وبين غيره من الناس ، ومناط تحقيق هذه الآمال هى التقوى والعمل على إصلاح ذات البين بين ذوى الأهواء المتعارضة والأغراض المتنافرة ، وأن يكون عنصر سلام ووئام بين أخوته فى الدين وأن يصلح الناس بالعمل الصالح والموعظة الحسنة :

١ - فالوفاق فى الحياة الزوجية الذى يقوم على العمل بالتى هى أصلح ، والدفع بالتى هى أحسن ، هى بعُد المؤمن عن سلوك المسالك التى تؤدى إلى أسوأ النتائج ، ويبين رب العالمين خير سبل حل المشكلات الزوجية ، إذا ما استحكمت وتعذر على الزوجين حلها ، إذْ عليهم فى هذه الحالة التماس وسائل إحلال الوفاق محل الشقاق ، فينادوا من أهل الصلاح والتقوى من يصلح بينهما :

« وإنْ خِفْتُمْ شِقاقَ بَيْنِهِمَا فَابعَثُوا حَكَماً مِّنْ أهْلِه وَحَكَماً مِّنْ أهْلِهَا إن يُرِيدَا إصْلاَحاً يُوفِّق اللّهُ بَيْنَهُمَا إنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً »(١١) .

٢ - كما أَمَرَ الله سبحانه وتعالى بأن يتقى المؤمنون وقوع شقاق فيما بينهم ، وأن يعملوا ، جاهدين مخلصين على الوفاق بين الطوائف والأحزاب بفض ما قد ينشب بينهما من خلافات ومشاحنات قد تشتد فتفرق بينهم وتذهب ريحهم جميعاً :

« وإنْ طائِفَتَانِ مِنَ المؤْمنينَ اقْتَتَلوا فأصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإن بَغَتْ إحْدَاهُما على الأُخْرَى فقَاتِلوا التِى تَبْغِي حتى تَفِىءَ إلىَ أمْرِ اللّهِ فَإنْ فاءَتْ فأصْلِحُوا بينَهُمَا بِالعَدْلِ وأقْسِطوا إنَّ اللّهَ يُحِبُّ المُقْسِطِينَ(١٢) * إنَّمَا المُؤْمِنونَ إخْوَةٌ فَأصْلِحُوا بَيْنَ أخَوَيْكُمْ واتَّقوا اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ»(١٣) .

ومن ثم يجب أن تكون التقوى هى الجو الذى يسود جماعة المؤمنين إذا ما اجتمعوا وتناجوا أو تحدثوا ، فيجب أن تكون نجواهم وحديثهم على الخير وحل المشكلات والتقارب والتحاب ، وإصلاح حالهم ، وفيما عدا ذلك من نجوى أو حديث عبثٌ لا طائل من ورائه .

« لا خَيْرَ فى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُم إلاَّ مَنْ أمَرَ بِصَدَقَةٍ أوْ مَعْرُوفٍ أوْ إصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يفعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أجْراً عَظِيماً »(١٤) .

والمؤمن التقى لا يتوانى عن الإصلاح فى أى وقت وفى أى مكان يحل فيه ، ولا يقف من الأحداث موقف المتفرج الصامت ، وهو قادر على العمل ، ولا يقعد عن اتخاذ موقف إيجابى عملى فى الأحداث لاتقاء تفاقم الخلافات والمشاحنات بين أخوته فى الدين قبل أن تستفحل ويستعصى حلها بالتى هى أحسن ، ومن يفعل غير ذلك إنما يرتكب ، من حيث لا يشعر ، إثماً كبيراً ، وما الله بغافل عما يعملون ، وهو سبحانه وتعالى الذى يجزى هؤلاء الغافلين الجزاء الحق لأنهم بسلبيتهم مناعون للخير لأمة الإسلام ، والساكت عن الإثم ، مع قدرته على إزالته إنما هو آثم ، آثم فى حق الله وآثم فى حق نفسه وآثم فى حق أمته ، وما الساكت عن الحق إلا شيطان أخرس .

والأشد إثماً من الغافل الساكت ، هم من يوقدون نار الفتنة والعداوة والبغضاء بين الناس ، بدافع من غل يأكل قلوبهم واستسلاماً لحسد يقضُّ عليهم مضاجعهم .

ومن يظن خيراً آتيه من الوقيعة والدس بين المؤمنين طمعاً فى غنم يناله من هذا التباغض والتشاحن ما هو إلا أخ للشيطان وأداته الطيّعة فى ارتكاب الآثام وشق عصا الطاعة للخالق الجبار وإفساد فى الأرض ، وله من ربه أشد العذاب :

« تَبَّتْ يَدَا أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ * ما أَغْنَىَ عَنْه مَالُهُ وما كَسَبَ * سَيصلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ * وامْرأَتُهُ حَمَّالَةَ الحَطَبِ * فى جِيدِهَا حَبْلٌ مِن مَّسَدٍ »(١٥) .

ثانياً : البِرُّ :

البر معناه الوصل الطيب أى الإحسان فى العمل والتعامل بين الناس ، والمؤمن حق الإيمان هو كل من كان بارّا فى اتصالاته وفى قوله وفى عمله أى من كانت علاقته بغيره طيبة صالحة ومن كان فى سلوكه محسناً ، وإنما الدين المعاملة .

قال تعالى فى معنى البر :

« لَيْسَ البِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ ولَكِنَّ البِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ واليَوْمِ الآخِرِ والمَلائِكَةِ والكِتابِ والنَّبِيِّينَ وآتَى المالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِى القُرْبَى واليَتَامَى والمَسَاكِينَ وابنَ السَّبيلِ والسَّائِلينَ وَفِى الرِّقابِ وأَقَامَ الصَّلاةَ وآتَى الزَّكَاةَ والمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إذا عاهَدُوا والصَّابِرينَ فى البَأْسَاءِ والضَّرَّاءِ وحِينَ البَأْسِ أولئكَ الَّذين صَدَقُوا ، وأُولَئِكَ هُمُ المُتَّقُون»(١٦) .

« أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ »[17]

فليس من البر أن تطالب الناس بحسن العشرة وطيب التعامل ، ولست أنت على شيء منهما .

والإيمان في الإسلام لا يقوم على ظاهر العبادات وصورها وأشكالها ، دون العمل بالقصد الحكيم من فرضها والبر فى الإسلام لا يقوم على مجرد أداء فرائض الدين فى الشكل دون الجوهر إنما الإيمان الحق هو ما قام على الاسترشاد بما أمر الله المؤمن بعمله وصدق المؤمن فى فِكْرِهِ وقوله وعمله فالبر ضمير وإحساس وعمل ، ضمير حى وإحساس مرهف وعمل صالح وهو بذلك شديد الصلة بلب الأمور وحقائقها وبروح التكاليف الإلٓهية مع ظواهرها .

والبر بهذا المعنى ، وكما جاء فى آيات الله البينات ، يتناول البر مع الله ومع النفس ومع الناس :

١ - البر فى العقيدة : أى الإيمان بالله وباليوم الآخر وبملائكته ورسله وكتبه إيماناً صادقاً ومطلقاً ، إيماناً ينعكس فى السلوك بما أمر الله ، لا مجرد حركات تمارس أو كلمات تقال ، والبر فى العقيدة هو الإيمان الراسخ بوحدانية الخالق جل وعلا ، الرافع الخافض ، المعز المذل ، القابض الباسط ، وهو الله سبحانه وتعالى من لاتعنو الوجوه إلا له ولا تتجه القلوب إلا إليه ، ولا يستعان إلا به .

هذا الإيمان بالله الواحد القهار ، وبعظمته ، وبعدم الإشراك به ، وإسلام الأمر كله له ، هو الذى يرفع مكانة المؤمن إلى مكان التكريم والسمو الذى أراده الله للإنسان ليكون جديراً بإنسانيته .

« إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ المَلاَئِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا ولا تَحْزَنُوا وأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِى كُنْتُمْ تُوعَدُونَ»[18] .

هذا الإيمان يؤمّن صاحبه من الذل والاستكانة لغير الله ، والله وحده هو القادر على أن يعصم عبده المؤمن من التورط والزلل ، وهو الذى يجعل من نفس المؤمن رقيباً عليه ، هذا الإيمان هو نبراس هداية المؤمن وتسديد خطاه ، به يهتدى إلى الحق فى فكره وقوله وعمله وتعامله ، والإيمان بوحدانية الله يستوجب عدم الشرك به ،

والالتزام بأوامره وحده لأنها وصايا العليم الخبير الذى لا يأمر إلا بالحق ولا يشاء للبشر إلا الخير والسعادة ، ومن يشرك بالله إنما يظلم نفسه وعليه وحده يعود شركه ، والله غنى عن العالمين :

« واعْبُدُوا اللهَ ، ولا تُشْركُوا بهِ شَيْئًا وبالْوالِدَيْنِ إحْسَاناً وَبِذِى القُرْبَى واليَتَامَى والمَسَاكِينِ والجَارِ ذِى القُربَى والجَارِ الجُنُبِ والصَّاحِبِ بالجَنبِ وابْنِ السَّبِيل وَما مَلَكَتْ أيمانُكُم إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً »[١٩] .

« يا بُنَىَّ لا تُشْرِكْ باللهِ إنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ »[٢٠] .

ومن آمن بالله وحده لا يذل لمخلوق فيحفظ له الله عزة نفسه وكرامتها .

ومن أسلم أمره لخالقه وحده لا يسأل غيره .

ومن أطاع الله ونفذ أوامره ، لا يخضع لمخلوق ولا يطيعه فى معصية .

وهذا هو الإيمان الحق الذى أراد به الله للمؤمن حفظ كرامته وإنسانيته وصلاحه وتقواه ، فهو الله وحده وبذاته :

« لا شَرِيكَ لَهُ وبِذَلِكَ أُمِرْتُ وأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ »[٢١] .

والشرك بالله سبحانه وتعالى يؤدى بالمشرك إلى الذبذبة وعدم الاستقرار والعجز عن أن يقطع بشىء من شئون حياته فيصبح نهباً لوسوسة الشيطان فيبوء بالكفر والخسران والبوار فى حياته الدنيا والعذاب الأليم فى حياته الآخرة :

« وَلَقد أُوحِىَ إلَيْكَ وإلى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ »[٢٢] .

« إنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أنْ يُشْرَكَ بِهِ ويَغْفِرُ مادُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ باللهِ فَقَدْ افْتَرَى إثْماً عَظِيماً »[٢٣] .

ولا يقبل الله عذر من يشرك به ولا يشفع له قوله أنه إنما نشأ على دين أبويه :

« أَوْ تَقُولُوا إنَّمَا أَشْرَكَ آباؤُنَا مِن قَبْلُ وكُنَّا ذُرِّيَّةً مِن بَعْدِهِم أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ »[٢٤] .

ولا ينجيهم من غضب الله وعذابه ، قولهم :

« لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا ولاَ آباؤُ نَا »[٢٥] .

حقا ان الله لا يهدى من مرض قلبه ومن جعل الشيطان له وليا .

ومن البر فى العقيدة ، بعد الإيمان بوحدانية الخالق ، الإيمان باليوم الآخر :

يوم البعث والحساب والجزاء على ما قدم الإنسان فى حياته الدنيا ، ما ظهر منها وما بطن ، والله سبحانه هو وحده المحيط بكل شىء مهما كبر هذا الشىء ومهما صغر ، ما ظهر وما بطن ، يوم تجزى كل نفس بما قدمت إما نعيم مقيم وإما عذاب أليم ، يحكم بهما أعدل الحاكمين ، والبعث والحساب والجزاء معان تغرس فى نفوس المؤمنين الأبرار حب الخير وبَذْلِهِ للناس ، وكراهة الشر وتجنب الأذى .

وقد عنى القرآن الكريم عناية كبيرة بتقرير واجب الإيمان باليوم الآخر وناقش فيه ، وأقام لحتميته الحجج والبراهين ، وضرب الأمثال ، وسفه أحلام منكريه وتوعدهم بعذاب مهين :

«وَقَالُوا أَءِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُون خَلْقاً جَدِيداً * قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً * أَوْ خَلْقاً مِمَّا يَكْبُرُ فى صُدُورِكُم فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الذى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهم وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً * يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وتَظُنُّونَ إن لَبِثْتُمْ إلاَّ قَلِيلاً »[٢٦] .

والإيمان بوحدانية الخالق مع الإيمان باليوم الآخر هما قمة البر فى العقيدة ، فهما إيمان بالمبدأ والمَعادِ ، والبداية والنهاية ، وهما من غيب الخالق ، لا يحيط بهما العقل البشرى القاصر أمام تدبير الله وحكمته ، فضلا عن أن الفكر البشرى قلما يخلو من الهوى والشهوة ولذلك كثيراً ما يضل عن الحقيقة لأنه كثيراً ما ينحرف عن تبين الحق . فلابد من هداية هذا العقل المحدود من مصدر مطلق لا يُحدّ علمه ، ولا ترقى إليه الأهواء والنزعات ، وهو الله المحيط بكل شىء علماً مما نرى ومما لا نرى ، لا يعرب عن علمه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، دق هذا الشىء أو ضخم ، وهو سبحانه الذى استوى على عرشه الأعلى ، ومن تحته الكون بسمواته وأرضه .

فما الذى إذن يصل بين الأعلى والأدنى ؟ لابد إذن من واسطة بين المصدر المطلق وبين خلقه أجمعين ، هذه الواسطة هى طريق معرفة الخلق لواجبات الإيمان بالخالق ومستلزماتها وباليوم الآخر ووسائل التجهز له ، وهذه المعرفة تأتى عن طريق ملائكة أطهار خلقهم رب العالمين ونزلهم بكتبه السماوية يوحى بها إلى من اصطفى العليم الخبير من بين خلقه وهم الأنبياء والرسل الذين بعثهم الله فى قومهم بنفس لغتهم ، حتى لا يكون للناس بعد ذلك حجة على الله ، سبحانه وتعالى ، بعد من أرسل إليهم من رسل .

فلا يمكن إذن الفصل فى الإيمان ، بين الإيمان بالله وبين الإيمان بملائكته وبين الإيمان بكتبه وبين الإيمان برسله ، فالإيمان بهذا كله هو البر فى العقيدة .

فليس من البر فى شىء القول بأن لا إله إلا الله فحسب بل البر هو أيضا فى الإيمان والتصديق بما يقوله الرسل الأمناء مما أوحى إليهم ربهم من كتبه السماوية عن طريق ملائكته الأطهار .

وليس من البر فى الإيمان أن ينطق الإنسان بكلمة الإيمان بشفتيه وقلبه خواء منه .

وليس من البر فى الإيمان التظاهر به أمام الناس ابتغاء منفعة دنيوية عاجلة أو خوفاً من أذاهم :

« وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بالله وباليَوْمِ الآخِرِ ومَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ * يُخَادِعُونَ الله والَّذِينَ آمَنوا ومَا يَخْدَعُونَ إلاَّ أَنْفُسَهُمْ ومَا يَشْعُرُونَ * فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ الله مَرَضاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ »(٢٧)

وقد يزيد الله قلوبهم مرضا على مرض جزاء وفاقاً لخداعهم والتوائهم ، حتى يفقدوا شعورهم بما يفعلون ويتبلد إحساسهم فلا يفقهون ما يعملون ، فيمعنون فى الفساد والإفساد باسم الإيمان ، والإيمان برىء منهم .

« وإذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُوا فِى الأَرْضِ قَالُوا إنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * ألا إنَّهُمْ هم المُفْسِدونَ ولكن لاَّ يَشْعُرُونَ »(٢٨) .

٢ - البر فى العمل :

وهو الناحية العملية فى بر المؤمن ، ومرآة صادقة لما فى قلبه من إيمان بالله وباليوم الآخر وبما أنزل من كتب وبما أرسل من رسل ، وإذْ أمر الله بالإيمان بهذا كله إنما يأمر المؤمنين بالعمل بما يؤمنون ، وأن يجعلوا من إيمانهم دافعاً قوياً ووسيلة ونبراساً للعمل الصالح فى هذه الحياة الدنيا ، وأن الجدير بالمؤمن حقاً العمل بأوامر ربه التى أوردها فى كتابه الكريم ، وأن يصدق ويطيع الرسول فيما أوحى إليه من الله ، فلا يقول إلا صدقاً ولا يعمل إلا صالحاً ، وفى هذا وذاك - الخير كل الخير للمؤمن ولمجتمعه ، وأن يتزود المؤمن بعمله فى الدنيا لآخرته ، فيقابل ربه أبيض الوجه صافى القلب نقى الضمير ، فيجزيه الله ثواب ما قدم فى دنياه .

وأدوات البر فى العمل هى بذل النفس والمال فى سبيل الله ابتغاء مرضاته وإعلاء كلمته .

والعقيدة بغير عمل إنما تكون عقيدة جامدة ، لا نفع فيها ولا غناء ، بل تكون معنى تنطوى عليه جوانب صاحبها دون أن تنعكس فى عمل صالح يشيع الخير والصلاح الذى أراده الله للمؤمنين .

والعمل الصالح هو الثمرة الطيبة للعقيدة الراسخة ، وهو الذى يحفظها ويعمقها وينميها ، وينمّ عنها :

١ - فالصلاة ، وهى أول مظهر عملى من مظاهر العقيدة ، وهى المظهر لمناجاة العبد لربه ، تنهى أيضا عن الفحشاء والمنكر وتوحى إليه بصالح الأعمال ، وهى العاصمة للمؤمن من الخوف والفزع ، وهى أداة فلاح المؤمن وصلاحه فى دنياه وآخرته .

« إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً * إِلاَّ الْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ دَائِمونَ »(٢٩) .

« قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ »(٣٠) .

فالصلاة الخاشعة هى الفارق بين الإيمان العميق والإيمان السطحى فالمصلى الخاشع فى صلاته لله وحده ، إنما يقف بين يدى ربه متجردا من مشاغل الدنيا

ومتجها ببدنه وقلبه ولسانه إلى خالقه مبتدئا «الله أكبر» فتصغر فى نفسه كل مظاهر الدنيا من متاع وزينة فلا تأخذه فتنة هذه الدنيا بالعدوان على الغير أو إهدار حقوق الناس أو التعالى عليهم ، ولا يسعى بينهم إلا بصالح العمل وحب الخير ، وهو فى صلاته الخاشعة تصفو نفسه وتعلو على ما يلاقيه من متاعب فيزاول عمله صابرا مستبشرا .

٢ - ومن أنبل مظاهر العمل الصالح وآثاره ، قتال المؤمن فى سبيل الله وبذله نفسه وماله للفداء والاستشهاد فى سبيل إعلاء كلمة الحق ومحاربة أعداء الله وأعداء العقيدة ، هذا العمل الصالح فى سبيل الله يتقبله الله أحسن قبول ، وينزل صاحبه عنده منازل الصالحين الأبرار .

٣ - البِرُّ فى الخُلُق :

وهى تحلى المؤمن بالأخلاق الكريمة والسلوك بما رسمه الله تعالى فى صراطه المستقيم ، ذلك السلوك الذى ينعكس فى صلاح المؤمن ظاهرا وباطنا ، صلاح فكره وقوله وعمله فى علاقته بربه وبنفسه وبمجتمعه ، فيرضى عنه ربه ويرضى عنه الناس ، ويفوز بمحبة الله وحب الناس ، وهذا هو الفوز العظيم فى الدنيا وفى الدار الآخرة :

« والَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِنَ الجَنَّةِ غُرفاً تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فيها نِعْمَ أجرُ العَامِلِينَ »[٣١] .

« وَالَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ »[٣٢] .

« والَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لا نُكَلِّفُ نَفْساً إلاَّ وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الجَنَّةِ هُمْ فِيها خَالِدُونَ »[٣٣] .

ومناط البر فى الخلق القيام بالواجب والمقاومة :

ووسيلة المؤمن فى قيامه بواجبه الامتثال لأوامر ربه والعمل بما أنزل فى قرآنه الكريم ، وسلاح المقاومة هو الصبر ، الصبر على أهواء النفس وإلحاحها ، والصبر على معاناة مشاغل الحياة وأخطاء الناس .

١ - فالقيام بالواجب يكون عن طريق تنفيذ أوامر الله والبعد عن نواهيه ، سواء في تعامله مع ربه أو تعامله مع نفسه أو تعامله مع الناس ، وأوجب واجبات المؤمن حفظه كلمته ، والوفاء بعهده إذا ما عاهد ، لأن الوفاء بالعهد دعامة من دعائم الجماعة وتماسكها ، وبث الخير وتعميقه وتعميمه ، واستقامة الحياة داخل المجتمع واستمرارها وارتقائها .

وعهد الله إلى المؤمنين هو عهد الخالق إلى المخلوق وتكليف منه سبحانه وتعالى للمؤمنين بطاعته والتوجه إليه وحده وطاعة أوامره وإسلام الأمر كله له ، وعلى المؤمن الصادق الإيمان أن يفي بعهد الله ، وهو عهد بألا يعمل الإنسان إلا صالحا ، وبألا يقتفي الإنسان خطوات الشيطان أو يخرج عن طاعة الله ، وأن يفي بعهده ، فيهديه إلى صراطه المستقيم :

« أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ »(٣٤)

وقد عهد الله إلى أهل الكتاب بأن يقرُّوا ويصدقوا ويؤمنوا بما أنزل على رسوله ، خاتم رسله ، وأن يعملوا بما جاء في قرآنه الكريم ، آخر كتبه للناس أجمعين ، وحملهم مسئولية الوفاء بهذا العهد :

« وإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ ولَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوْا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ»(٣٥) .

ويأمر العلي القدير المؤمنين ، الذين عاهدوه على الإيمان بوحدانيته وقدرته ، بتصديق ما جاء به من عند الله رسوله الكريم ، وبحفاظهم على هذا العهد ، وألا يجعلوا للشيطان عليهم سلطانا ، فلا يخونوا أماناتهم ولا ينقضوا عهدهم :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَخُونُوا اللَّهَ والرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ »(٣٦) .

كما أمر العزيز الحكيم عباده المؤمنين بالمحافظة على العهد ، وأنْ يؤمنوا بقلوبهم

وأن يعملوا بما يقولـون ، وإنّ فى حفظ المؤمن عهده وأمـانته ، فـلاحه فى الـدنيا والآخرة :

« يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تقولونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ »[٣٧] .

« قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُون » ، « والذِّينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ »[٣٨] .

وقد وصف ، سبحانه وتعالى ، الوفاء بالعهد بالتقوى ، أى أن من يوفى بعهد الله إنما يتقى غضب ربه ويتوب إليه ، وأن من لا يوفى بعهده طمعا فى منفعة عاجلة إنما يخسر كثيرا ، إذْ يخسر عفو ربه ولا ينال منه مغفرة ، ويخسر ثقة الناس به ، ويجلب على نفسه أكبر خسارة من حيث ظن أنه قد كسب .

« بَلَى مَنْ أَوفَى بِعَهْدِهِ واتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ »[٣٩] .

« إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُولَئِكَ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ فِى الآخِرَةِ ولاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ ولاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ القِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ »[٤٠] .

فأين هم اليوم أولئك المتعاهدون الموفون بما عاهدوا ؟

أين هذا الذى عاهد ربه على البر والتقوى فى تعامله مع الغير ، ثم أوفى بعهده ؟

أين ذلك العهد الوثيق الذى يربط بين المصلحين أو بين العلماء ، إذا ما وهبهم الله ما شاء لهم من خير أو علم أو سلطان ، ثم شكر ربه ووفى بما عاهد أو تعهد ؟

أين ما تعاهدوا عليه من إعلاء كلمة الحق والبر بالنـاس وإصلاح حـالهم ، متعاونين ومؤثرين غيرهم على أنفسهم ؟

أين هؤلاء المصلحون الذين يمهد سابقهم للاحق بهم ، ثم يعترف اللاحقون بحق السابقين فيزيدونهم ويكملون ما بدءوا به ؟

أين منهم من لا يعمل جاهدا على هدم غيره تصغيرا أو تشكيكا بغير حق ، إعلاءً لشأنه بغير حق ، وجاعلا من نفسه نسيجا وحده أو أمة فى نفسه وحزبا برأسه بغير حق ؟

ألا إن منهم من يفسد ظنا منه ظن سوء بأنه يُصلح ، ويخذّل ويضلّل بدلا من أن يهدي ويرشد .

أما عهود الناس بعضهم لبعض ، أو دولة لدولة ، فهى تتمثل فيها يحدث بينهم من اتصالات ومعاملات دنيوية كالعقود والالتزامات المالية وغير المالية ، وكلها واجبة الوفاء ما لم تكن فى معصية الله تضيع معها الحقوق وتستتبع أذى وفسادا .

وقد شبه الحكيم الخبير ، ناكثى العهد بالمرأة الخرقاء التى « نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا » . كما أمر المؤمنين بأن تكون عهودهم قائمة على الصراحة والوضوح ، وأن تكون فى نصها وروحها صدقا فى الكلمة لا تلاعبا بالألفاظ ، وألا يلبسوا الحق بالباطل متخذين من الإيمان شعارا زائفا .

« وَلاَ تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُم فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ »(٤١) .

كما حرم العزيز القادر استغلال قوى قلةَ حيلة ضعيف عاجز ، سواء على المستوى الفردى أو على المستوى الاجتماعى أو فى المجال الدولى ، وهو ما يعرف فى التعبير الحديث باسم المعاهدات غير المتكافئة :

« وَلاَ تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هى أربىَ من أمةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ الله بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُم يَوْمَ القِيَامَةِ ما كُنْتُم فِيهِ تَخْتَلِفُونَ »(٤٢) .

أى أن تكون دولة منهما أكثر عددا وعدة .

٢ – أما مبدأ المقاومة ، فيقصد به قدرة الإنسان على التصدى والصمود والدفع لكل طارىء ضار بضميره أو بفكره أو بجسده ، وسلاح المقاومة الأول لكل طارىء من هذه الطوارىء هو الصبر ، ولذا أمر الله المؤمنين بالصبر فى جميع الأحوال بل لقد جعل ، سبحانه وتعالى ، من الصبر على المكاره قوة خارقة تعين صاحبها على التصدى والصمود للشدائد ومقاومتها بعزم وإصرار حتى يخرج منها بالفوز المبين .

فعلى المؤمن أن يكون بارا فى خلقه فيزوده ويدعمه بسلاح الصبر فى جميع المواقف ، لا تفتنه نعمة ولا تهزه نازلة ، فبالصبر يفسد المؤمن وسوسة الشيطان ، وبه يقاوم هوى النفس ، وعليه بالصبر والتمسك بالإيمان وتقوى الله أمام مغريات الحياة الدنيا فيتعقل ويتبصر قيمة هذه المغريات ومدى فائدتها وكيفية التصرف بالحق فيما آتاه الله من نعمة نحو نفسه ونحو غيره من المؤمنين ، وعليه بالصبر والثبات والاستعانة بالله فى مقاومة الشدائد .

والصبر هو عدة نجاح المؤمن وسلاحه الروحى فى هذه الحياة الدنيا ومفاجآتها ، وهو مصدر جميع الفضائل الإنسانية ، وأداة النفس المؤمنة التقية فى كفاحها الأهواء وإلحاح مطالب الحياة ، وفى رد العدوان وقمع الظلم فى رباطة جأش وثقة بالله فى حسن العاقبة ، ونتيجة كل هذا تعميق هذه الفضائل فى نفس المؤمن وتقوية خُلقه وزيادة صلابته ، ما خشع لربه واستعان به :

« واسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وإنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إلاَّ عَلَى الخَاشِعِينَ »(٤٣)

« والصَّابِرِينَ فِى البَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وحِينَ البَأْسِ »(٤٤)

« وَالْعَصْرِ * إنَّ الإنْسَانَ لَفِى خُسْرٍ ، إلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ »(٤٥) .

وقد ذكر الله تعالى فى محكم تنزيله قيمة الصبر فى امتحان المؤمن الصابر فى ثلاث حالات هى البأساء ، والضراء ، والبأس :

فالبأساء هى البؤس وهو شدة الفقر وضغط الفاقة التى قد تستبد بالإنسان لدرجة يعجز معها عن حصوله على خبز يومه ، خاصة إذا ما حلت به نازلة فبدلته من الغنى إلى الفقر ، ومن الاستغناء إلى العوز ، وهذه حالات لا يثبت أمامها إلا من وهبه الله نعمة الصبر .

والضرّاء هى ما يضر الإنسان بانتزاع ما يعتز به ، كالمرض أو فقد محبوب من ولد وأهل وصاحب .

والبأس هو معاناة شدة الحرب وقسوتها ، حيث يضع المقاتل رأسه على كفه ، فإما أن يَقتل أو يُقتل .

وقد حث الله المؤمنين على الصبر فى هذه الحالات الثلاث ، بل لقد بلغ من أهمية الصبر أن قرنه الله بالصلاة فى كثير من آياته الكريمة ، كنوع من ذكره سبحانه وعبادته عن طريق الصبر والإيمان بقدرة الله وتلمس العون منه وتوكله عليه ، لأن الصبر هو أهم مظاهر تقوى المؤمن وقوة عزيمته ، وثباته على الإيمان بالله وقدرته وعونه على تفريج كربته وإزالة همه وإخراجه من حيرته فى السراء والضراء .

« الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِى السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ والكَاظِمِينَ الغَيْظَ والعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ المُحْسِنِينَ »[٤٦] .

« لَتُبلَوُنَّ فى أَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ولَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ، وإِنْ تَصْبِرُوا وتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ »[٤٧] .

« والَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وأَقَامُوا الصَّلاةَ ، وأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُم سِرًّا وعَلانِيَةً ، وَيَدْرَءُونَ بِالحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ »[٤٨] .

فما أسمى هذا الصابر وأقواه ، إذ يكبح جماح نفسه ويكظم غيظه وينتصر على نفسه ، إذْ هو يقابل السيئة بالحسنة فيحسن إلى من أساء إليه .

والصابرون حقا ، لا ينبع صبرهم عن جبن أو ضعف أو تخاذل ، إنما هى تقوى الله وابتغاء وجهه والتقرب إليه هى التى تجمله بالصبر الجميل وسيؤتيه الله بما صبر فوزا مبينا .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وصَابِرُوا ورَابِطُوا واتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ »[٤٩] .

هذا هو البر والصلاح والإصلاح والإحسان ، الذى أراده الله تعالى للمؤمنين وأمرهم بالأخذ به : بر فى العقيدة وبر فى الخلق وبر فى العمل ، فالبر فى كل هذا دستور الخُلق القويم ، يسمو بالفرد وبالمجتمع إلى أوج العزة والكرامة والمنعة ، وينأى بالأمة إذا ما تمسكت به ، عن الشر والفساد اللذين يحيقان بها ، وهى جماع السعادة والهدوء النفسى والطمأنينة فى هذه الحياة الدنيا ومشاكلها ، ولصاحبها الجزاء الأوفى فى حياة الخلود ، حياة الآخرة الباقية .

هوامش الباب الثالث

١) البقرة ٨ .
(٢) البقرة ٩ .
(٣) البقرة ١٠ .
(٤) البقرة ١٤ .
(٥) آل عمران ١٨ .
(٦) البقرة ١٦٣ .
(٧) الأعراف ١٥٨ .
(٨) التغابن ٨ .
(٩) آل عمران ٨٦ .
(١٠) محمد ٢ .
(١١) النجم ١-٥ .
(١٢) المائدة ٦ .
(١٣) آل عمران ٩٦ .
(١٤) البقرة ١٤٤ .
(١٥) البقرة ١٤٣ .
(١٦) البقرة ١٤٢ .
(١٧) لقمان ١٧ .
(١٨) الرعد ٢٢ .
(١٩) المنافقون ٩ .
(٢٠) المؤمنون ١ ، ٢ .
(٢١) الحج ٤١ .
(٢٢) الأنفال ٣ - ٤ .
(٢٣) العنكبوت ٤٥ .
(٢٤) فاطر ٢٩ .
(٢٥) البقرة ١٧٧ .
(٢٦) سورة الماعون .
(٢٧) الشورى ٣٨ .
(٢٨) الجمعة ٩ .
(٢٩) الجمعة ١٠ .
(٣٠) مريم ٢٦ .
(٣١) البقرة ١٨٣ .
(٣٢) البقرة ١٨٥ .
(٣٣) البقرة ١٨٧ .

(٣٤) البقرة ١٨٤ .
(٣٥) البينة ٥ .
(٣٦) البقرة ٢٧٧ .
(٣٧) آل عمران ١٨٠ .
(٣٨) التوبة ٣٤ ، ٣٥ .
(٣٩) التوبة ٧٥ ٧٦ .
(٤٠) الفجر ١٩ ، ٢٠ .
(٤١) آل عمران ٣١ .
(٤٢) الأحزاب ٧١ .
(٤٣) الحشر ٩ .
(٤٤) الإنسان ٨ .
(٤٥) الإنسان ٩ .
(٤٦) التوبة ٧١ .
(٤٧) البقرة ٢٧٦ .
(٤٨) الذاريات ١٩ .
(٤٩) التوبة ٦٠ .
(٥٠) البقرة ٢٧١ .
(٥١) البقرة ٢٧٣ .
(٥٢) البقرة ٢٦٧ .
(٥٣) البقرة ٢٦١ .
(٥٤) البقرة ٢٦٥ .
(٥٥) البقرة ٢٦٢ .
(٥٦) البقرة ٢٦٤ .
(٥٧) البقرة ٢٦٣ .
(٥٨) الأنعام ١٤١ .
(٥٩) النحل ٥ .
(٦٠) النحل ٨ .
(٦١) آل عمران ٩٦ .
(٦٢) البقرة ١٢٥ .
(٦٣) البقرة ١٢٨ .
(٦٤) الحج ٢٦ .
(٦٥) آل عمران ٩٧ .
(٦٦) البقرة . اظ .
(٦٧) البقرة ١٩٦ .
(٦٨) المائدة ٩٥ .
(٦٩) الحج ٢٩ .
(٧٠) البقرة ١٢٥ .

(١) الأنفال ٢٩ .
(٢) الفرقان ١ .
(٣) النساء ١ .
(٤) المرسلات ٤١-٤٤ .
(٥) لقمان ٣٣ .
(٦) الحج ١ ، ٢ .
(٧) الحج ٢ .
(٨) سبأ ٤٦ .
(٩) النجم ٢-٥ .
(١٠) التكوير ١٩-٢٢ .
(١١) النساء ٣٥ .
(١٢) الحجرات ٩ .
(١٣) الحجرات ١٠ .
(١٤) النساء ١١٤ .
(١٥) المسد ١-٥ .
(١٦) البقرة ١٧٧ .
(١٧) البقرة ٤٤ .
(١٨) فصلت ٣٠ .
(١٩) النساء ٣٦ .
(٢٠) لقمان ١٣ .
(٢١) الأنعام ١٦٣ .
(٢٢) الزمر ٦٥ .
(٢٣) النساء ٤٨ .
(٢٤) الأعراف ١٧٣ .
(٢٥) الأنعام ١٤٨ .
(٢٦) الإسراء ٤٩-٥٢ .
(٢٧) البقرة ٨ ـ ١٠ .
(٢٨) البقرة ١١ - ١٢ .
(٢٩) المعارج ١٩-٢٣ .
(٣٠) المؤمنون ١-٢ .
(٣١) العنكبوت ٥٨ .
(٣٢) البقرة ٨٢ .
(٣٣) الأعراف ٤٢ .
(٣٤) يس ٦٠ .
(٣٥) آل عمران ٨١ .
(٣٦) الأنفال ٢٧ .
(٣٧) الصف ٢ ، ٣ .
(٣٨) المؤمنون ١ - ٨
(٣٩) آل عمران ٧٦ .
(٤٠) آل عمران ٧٧ .

(٤١) النحل ٩٤ .
(٤٢) النحل ٩٢ .
(٤٣) البقرة ٤٥ .
(٤٤) البقرة ١٧٧ .
(٤٥) العصر ١-٣ .
(٤٦) آل عمران ١٣٤
(٤٧) آل عمران ١٨٦ .
(٤٨) الرعد ٢٢
(٤٩) آل عمران ٢٠٠ .

الفصل الرابع

صفات المؤمن وسماته

بعد أن بينا معانى الإيمان الكامل المقبول عند الله والذى ينال به صاحبه أوفى الجزاء وأعلى درجات التقرب من ربه السميع العليم ، وغير ذلك مما ورد فى القرآن الكريم مبينا وموضحا لهذه المعانى ووسائل تحقيقها ، علينا أن نستبين أحوال صاحب هذا النوع السامى من الإيمان وما يتحلى به من حميد الصفات ، وما ألبسه الله من سمات تجعل منه القدوة الحسنة والمثل الطيب الذى يجب أن يحتذيه كل مسلم آمن بالله ورسوله وكتابه الكريم :

أولا : صفات المؤمن :

يبين الله ، فى محكم تنزيله ، تلك الصفات ، سواء ظهرت فى العبادات أو المعاملات أو بَطَنَت فى القلوب التى لا يعلم مكنوناتها سوى علام الغيوب والخفايا :

١ - فالصفة الأولى للمؤمن : وجل القلب .

فمن خصائص المؤمن الذى عمق إيمانه ورسخ ، وَجَلُهُ أو خوفه عند ذكر الله جل وعلا ، فالمؤمن بقدرة الله وعزته وجلاله لا يخشى مخلوقا ، إنما يخشى الخالق إيمانا منه بقدرته ، وإحاطته بمخلوقاته من كل جانب بالبسط والقبض وبالمغفرة والحساب العسير ، ولاراد لإرادته سبحانه وتعالى ، وهو ، جلت قدرته ، إنما يقول

للشيء كن فيكون . وهو سبحانه وتعالى الذى يقف المخلوق بين يديه لا حول له ولا قوة أمام عظمته وجلاله ، إيمانا منه بأن الله غنى معطٍ وهو بين يديه فقير محتاج ، وبأنه سبحانه وتعالى قوى قادر يقف أمامه المخلوق عاجزا بلا حول ولا قوة ، ولأنه هو وحده العالم المطلع على خفايا القلوب وأهواء النفوس والمخلوق جاهل بها ولا يحيط بذرة من علمه ، فبذكر المؤمن ربه كشف لما فى نفسه من فقر وحاجة وضعف وعجز وجهل أمام صاحب الغنى المطلق والقوة المطلقة والعلم المطلق ، فيتضاءل المؤمن الراسخ الإيمان أمام ربه ويمتلىء قلبه بين يديه وجلا ورهبة ويخشع قلبه من هيبته وجلاله وعظمته وجميل صنعه ، سواء أكان فى ذكره ربه تذكرة لعصيان يخشى عقابه عليه أو طاعة يلتمس ثوابه عليها .

بهذا الوجل وهذه الرهبة التى تملأ قلب المؤمن الكامل الإيمان يصل إلى حالة الاطمئنان إلى قبول ربه له ورضاه عنه ، ومن نال رضا ربه فقد فاز فى الدارين فوزا عظيما ، ومن ثم فالوجل أمام الله ثم الاطمئنان إلى رحمته ورضاه شعوران متلازمان فى قلب كل مؤمن صدق إيمانه ، وهما من صفات المؤمن الذى يذكر ربه ويتقيه فى سره وعلنه ، وفى ذلك يقول القوى الرحمن :

« اللهُ نَزَّلَ أَحسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُّتَشابِهاً مَّثَانِيَ تَقشَعِرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِى بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ»[1] .

« الَّذِينَ آمنُوا وَتَطْمئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللهِ ألاَ بِذِكْرِ الله تَطْمئِنُّ القُلُوبُ »[2] .

٢ - والصفة الثانية : زيادة الإيمان .

أى تعميق وتثبيت دعائمه فى قلب المؤمن .

فالإيمان قد يكون مجرد تصديق فحسب :

« وَقَالَ رَجُل مُّؤْمِن مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ»[3]

أما الإيمان الكامل ، فهو الذى يجمع فى صاحبه جميع عناصر الإيمان من تصديق وإقرار وعمل .

تصديق ما أنزل الله على نبيه من آيات مبينات ، وإقرار بحكمتها ، وعمل على هَدْيها .

والتصديق قد ينقص أو يزيد من ثلاث جهات :

١ - توفُّرُ الأدلة وتأثر نفس المصدق بها ، فكلما تكاثرت الأدلة كان العلم أشد رسوخا فى نفسه وأعمق أثرا فى قلبه . فلا تزلزله الشبهات ولا تزعزعه العوارض الطارئة فالإيمان يقوى بالبرهان ، ويرتفع بصاحبه إلى درجة الاطمئنان ، وأصدق دليل على هذا قوله تعالى :

« وإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْيِى الْمَوتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِى قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنْ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يأتِينَكَ سَعْياً واعْلمْ أَنَّ الله عزيزٌ حَكِيمٌ »(٤) .

٢ - أما متعلقه ، وهى القضايا المصدَّق بها ، أى ما تناولته الآيات القرآنية من القضايا ، والمسائل التى تناولت هذه القضايا بالتفصيل ، فالإيمان عن طريق الإجمال لا يساوى الإيمان بها عن طريق التفصيل ، فالإجمال لا يتناول الجزئيات والثانى يتناول هذه الجزئيات التى تزيد الإجمال عمقا ورسوخا .

ومن ثم تكون قوة الإيمان بمفصَّل القواعد العامة فوق الإيمان بها مجملة .

وطريقنا فى تقوية الإيمان وتسليم أمورنا لله تعالى هو قراءة القرآن الكريم قراءة واعية متدبرة .

ومن الآيات التى تعبر عن زيادة الإيمان قوله تعالى :

« الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيماناً وَقَالُوا حَسْبُنَا الله ونِعْمَ الوَكِيلُ(٥)» .

« وَلَمَّا رَأَى المُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَمَازَادَهُمْ إلاَّ إِيمَاناً وَتَسْلِيماً »(٦) .

فالمؤمن الذى زاده الله إيمانا على إيمان ، هو الذى يعتمد على القوى القادر ويخشاه وحده ، ولا توجد قوة فى الأرض تهزه أو تزعزع إيمانه مهما عظمت هذه القوة

والمؤمن الذى زاده الله إيمانا يصَدّق ما قاله الله ورسوله ولا يجد فيها يصادفه من أحداث إلا برهانا ودليلا حيا لما سبق أن صدق وآمن به .

٣ - أما من جهة أثر التصديق وثمرته أى العمل بما صدق به ، فان عمل المؤمن بما آمن ، ووفق ما صدق من آيات الله البينات ، وتكرار العمل بما آمن وبالفكرة التى صدق بها ، مما يثّبت الفكرة ويزيدها رسوخا فى نفسه ، بينما يكون إجمال العمل بما صدق يضعف الفكرة وأثرها فى نفسه لدرجة قد تؤدى بالفكرة إلى زعزعتها أو محوها :

وفى الحالة الأولى يصبح السلوك الطيب عادة تلازم المؤمن وخلقا يلتزم به ، أما فى الحالة الثانية فيكون السلوك الطيب عارضا وخاضعا للتغير ، فلا يثبت على حال .

٣ - والصفة الثالثة للمؤمن هى توكّله على الله :

والتوكل أعلى مقامات التوحيد والإيمان بأن الله وحده هو المدبر ، والتوكل على الله سبحانه وتعالى فى كل ما يحتاج إليه مما هو وراء تقديره وفوق قوته .

وليس معنى التوكّل على الله هو التواكل أى التكاسل وعدم العمل والتوقف عن السعى ، انتظارا لما قسم الله له . بل يجب على المؤمن حق إيمانه أن يتدبر أمره ويعمل بصدق وأمانة وعزم ، وعلى هدى من أمر ربه ، وعليه أن يعزم على العمل ويعمل ثم يتوكل على الله ويسلم أمره له وحده بعد ذلك ، ويرضى بما قسمه الله له من عواقب سعيه ، إيمانا من المؤمن بأن ما يعطيه ربه هو الخير كل الخير ولو بدا له شراً .

ولا يعقل أن يقف الجندى المؤمن بلا حراك ولا سلاح ، متوكلا على الله ، أمام عدو غادر يهاجمه بالعتاد والسلاح ، ثم يتوقع النصر الذى وعد الله به المؤمنين ، إنما ينصر الله من جاهد وحارب فعلا فى سبيل العقيدة ويؤيده بقوة من عنده ، وكم قاتلت أمم فى سبيل الدفاع عما اعتقدت به ، والقتال سنّة الحياة البشرية ما اختلف البشر فى العقائد والمذاهب والمبادىء .

« كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِتَالُ وَهُوَ كُرهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ والله يَعْلَمُ وأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ »(٧) .

وليس من الإيمان ولا من المعقول ، أن يقعد المؤمن فى داره متوكلا على الله إستنادا إلى فهمه الخاطىء لمقصود الآية .

« إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً »(٨) .

ثم ينتظر أنْ يأتيه طعامه وطعام عياله وهو قابع فى بيته بلا حراك ، وإلا قتل نفسه وعياله جوعا ويظلم نفسه ويظلمهم ، والله لا يحب الظالمين . ولو تأمل فى مدلول الآية وعقل هدفها لعلم أن المقصود هو بيان قدرة الخالق سبحانه وتعالى وأنه قادر على البسط والقبض ، يعطى للمؤمن العامل ويقتر على المؤمن القاعد .

فلينظر ذلك القاعد المتواكل إلى ما يفسر مدلول الآية وقصدها ، فى كثير من آيات الله البينات ، ثم ليعمل بما جاء فيها .

« إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً »(٩) .

فهنا قرن الله الإيمان بالعمل ، ثم يجزى من أحسن عمله خير الجزاء ، والعمل الصالح يجزى عنه صاحبه بالأجر الحسن . وما الجزاء إلا من جنس العمل .

« والَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ ، إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ »(١٠) .

فالمؤمن هو من جعل القرآن دستور عمله فى حياته الدنيا ، يهتدى بمحكم آياته فى عمله وسعيه فلا يعمل إلا صالحا ولا يسعى فى هذه الدنيا إلا بالحق .

« وأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ والله لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ »(١١) .

« فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِّن بَعْضٍ ، فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وأُوذُوا فى سَبِيلِى ، وَقَاتَلُوا وقُتِلُوا لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِم ولأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَاباً مِّنْ عِنْدِ الله والله عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ »(١٢) .

فقمة العمل الصالح والسعى الجاد فى هذه الحياة الدنيا هو العمل والتضحية بالنفس فى سَبيل الدفاع عن العقيدة ، والله ناصر المؤمن الذى تحمل الطرد والحرمان ولم يستكن للظلم بل عمل وجاهد لدفع هذا الظلم وإعلاء كلمة الحق .

فالتوكل على الله إذن ، لم يقصد به القعود ، بل المقصود به أن يستعين المؤمن بربه فى عمله ويتقيه ، فيعمل عملا صالحا يرضى عنه الله فيكتب له الفلاح وبلوغ القصد .

٤ - والصفة الرابعة للمؤمن هى المواظبة على أداء فريضة الصلاة :

وليست الصلاة هى مجرد حركات ظاهرية تؤدَّى دون إدراك المصلى لحكمتها ، وإلا كانت عملا آليا يتم فى وقت محدد ثم لا يكون له أثر بعد ذلك فى قلب المؤمن ولا فى سلوكه .

إنما الصلاة ظاهر وباطن ، فظاهرها القيام والركوع والسجود ، وباطنها الخشوع والتدبر والمراقبة ، وهذه هى الصلاة المقومة الإيمان ظاهراً وباطناً وهى المقبولة عند الله الذى جعل من ثمرتها طهارة المؤمن من الفحشاء والمنكر وغيرهما من نوازع الشر :

« اتلُ مَا أُوحِى إلَيْكَ مِنَ الكِتَابِ وأقِمِ الصَّلاَةَ إنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ والمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللهُ أكْبَرُ ، واللهُ يَعْلَمُ مَاتَصْنَعُونَ »(١٣) .

والمقصود بالتلاوة هى تلاوة القرآن حق تلاوته أى قراءته وتبصر معانيه وتدبر أهدافه والعمل بهديه ، فتجىء الصلاة بعد ذلك عملا صالحا قائما على فهم صادق لآيات الله البينات وتذكرة لحكمة الخالق وخشيته وتقواه ، وتجنب إتيان مانهى الله عنه من فواحش ومنكرات ، والله أعلم بمن يؤدى صلاته فى ظاهرها فحسب ومن يؤديها مظهرا وجوهرا .

٥ - والصفة الخامسة للمؤمن ، إنفاقه مما رزقه الله .

فالمؤمن هو من آمن بأن كل ما يأتيه من خير ورزق هو من عند الله وبرهان على رضاه سبحانه وتعالى عن أسلوب عمله فى تحصيل رزقه . والمؤمن هو من هداه ربه إلى الحكمة الإلهية فى هذا العطاء ، فمن حكمة الله تقسيمه الأرزاق على المؤمنين ، عطاء أو قبضا ، ليختبر مدى عمق إيمانهم وتسليمهم بقضائه وحكمه فى البسط والقبض . فمن المؤمنين من بسط الله لهم الرزق ليرى فيم هل ينفقون ومدى أثر

الغنى فى أنفسهم وإيمانهم ، ومنهم الفقير الذى ابتلاه ربه بشىء من الحرمان والضيق ليرى هل لازال على إيمانه ، وتسليمه بقضاء ربه بنفس راضية مطمئنة ، ثم يأمر الله عباده المؤمنين بما يجب أن تكون عليه العلاقة بين الغنى والفقير ، فجعل الزكاة فرضا على كل مؤمن قادر ، وجعل الإنفاق فى سبيل الله قربانا له ، وجعل سد حاجة المحتاج زلفى إليه ، وفى ذلك يقول العليم الخبير :

« الَّذِين يُؤْمِنُونَ بِالْغَيبِ وَيُقيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفقُونَ »[14]

« وفِى أَمْوالِهِمْ حَقٌ لِلسَّائِلِ والْمَحْرُوم »[15] .

أى أن عطاء الغنى للفقير فرض واجب عليه ، وهو حق للفقير .

كما جعل الله من أنفق ماله فى محاربة أعداء الدين ، مجاهدا فى سبيل الله وأقرب إلى ربه من الممسك ماله :

« لاَ يَسْتَوِى الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ الله بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى ، وَفَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً »[16] .

ومن هذا يتضح أن المال لدى المؤمن وسيلة لا غاية ، وسيلة لتحقيق التعاون والتكافل بين المؤمنين تطهيرا لقلوبهم وتقوية لإيمانهم وتصفية نفوسهم من الجشع والحقد والحسد ، كما جعله الله أداة فى يد المؤمن يحارب بها أعداء الحق والعقيدة .

وإذْ أمر الله المؤمنين بالإنفاق ، قد بيّن لهم أيضا أسلوب هذا الإنفاق ، فأمرهم بالتوسط فيه . فلا إسراف يولد الفقر والندم لصاحبه ، ولا تقتير يستتبع حقد الناس ، وفى ذلك يقول :

« إنَّ الْمُبذِّرِين كانُوا إخْوانَ الشَّياطِين وَكَانَ الشَّيطانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً »[17] .

فالذى يبذر ماله وينفقه فيما نهى الله عنه هو تابع للشيطان ويسير وفق هواه .

« وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ البَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً »[18] .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ثانيا سمات المؤمن :

« مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ والَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُم رُكَّعًا سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنْ اللهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فى وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فى التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فى الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الكُفَّارَ ، وَعَدَ اللهُ الذينَ آمَنواوَعَمِلوُا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَّغْفِرَةً وأَجْرًا عَظِيماً »(١٩) .

إن المؤمن حق الإيمان ، والتقى حق التقوى مرآة صافية تنعكس تقواه على وجهه فيضىء إشراقا وعلى نفسه اطمئنانا وصفاء كما تنعكس تقواه وإيمانه على أسلوبه فى الحياة ماظهر منه وما بطن ، وعلى سلوكه فى فكره وقوله وعمله . كل هذه الآثار والظواهر يشهدها فى هذا المؤمن كل ذى عينين مبصرتين ويحس بها فيما يرى ويسمع منه أو عندما يتعامل معه .

فمن سمات المؤمن ، الذى صدق إيمانه فزاده الله إيمانا :

١ - اطمئنان نفسه وهدوؤها : هذا الاطمئنان الذى يرجع إلى اقتناع هذا المؤمن بعمق إيمانه وصدق إحساسه برضا الله تعالى عنه ، واطمئنانه مرجعه إلى سيره فى فكره وقوله وعمله على صراط ربه المستقيم .

فترى فى قسمات وجهه وفى عينيه هدوءا وصفاء يبعثان فيمن يراه الاطمئنان إليه والرغبة فى التقرب منه والتحدث معه . إن هذا الاطمئنان وهذا الهدوء يبعثان فى المؤمن ثباتا وثقة فى النفس يعصمانه من حالات القلق والتوتر العصبى ومضاعفاتهما كالصخب والجلبة والرياء والغرور . ومن أوتى نعمة اطمئنان القلب وهدوء النفس فقد أوتى خيراً كثيراً ، فهما من أكبر نعم الله على عباده المخلصين ، نِعم صفاء النفس وطهارة الروح وصحة الجسد والتوفيق فى العمل . ومن اكتسب صفتى اطمئنان النفس وهدوئها ، اكتسب رضاء ربه فى الدنيا والآخرة :

« يا أَيَّتُها النَّفْسُ الْمُطمَئِنَّةُ * ارْجِعِى إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً »(٢٠) .

« هُوَ الذِى أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فى قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَّعَ إِيمَانِهِمْ وللهِ جُنُودُ السَّمواتِ والأَرْضِ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيماً(٢١)» .

٢ - ذكر الله واستغفاره والتوبة إليه : فالمؤمن بالله حقا وبأنه سبحانه وتعالى محيط بالخلق والكون من كل جانب يَرى ولا يُرى ، وإيمانه بقدرة الخالق والإسلام لقَدَرِه ، وبأنه سبحانه وتعالى خيْرُ رقيب على حركات الخلق وسكناتهم ، وهو وحده الذى يحاسبهم على سيرتهم وسريرتهم ، هذا المؤمن يذكر ربه بقلبه وشفتيه ويتقيه فى عمله وتعامله مع الغير ، رهبة منه ورجاء ، فيتسم بتقوى وورع ظاهرين لكل ذى عينين ، فيصبح موضع تقدير الناس ويفوز برضا ربه ، وهذا ماينصح به السميع البصير ، سبحانه وتعالى :

« ادعوا ربكم تضرُّعا وخُفْيَةً إنه لا يحب المعتدين »[٢٢] .

« الَّـذِينَ آمنُـوا وَتَـطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِـذِكْـرِ اللهِ . أَلاَ بِـذِكْـرِ اللهِ تَـطْمَئِنُّ القُلُوبُ »[٢٣] .

« وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ يَجِدِ الله غَفُوراً رَّحِيماً »[٢٤] .

« واذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وخِيفَةً وَدُونَ الجَهْرِ مِنَ القَوْلِ بِالغُدُوِّ والآصَالِ ولاَ تَكُنْ مِنَ الغَافِلِينَ »[٢٥] .

وليس المؤمن من استغفر الله ثم لم يتب ، بل المؤمن هو من يتخير الاستغفار وسيلة للتوبة وأن يعاهد ربه اذا ما ارتكب معصية بألا يعود لمثلها أبدا ، ويتلمس منه أن يتوب عليه ويعاونه على عدم ارتكاب المعاصى ، وشرط قبول هذه التوبة أن يطلبها صاحب المعصية فور إتيانها :

« إنَّما التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثم يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً »[٢٦] .

ولاتقبل توبة التائب الذى يتوب بعد تكرار المعاصى وهو على علم ، ولا تقبل توبته إذا لم يتب إلا من بعد أن تحل به الكوارث والمصائب ، لأنه إنما يطلب من الله أن يتوب عليه ويرضى عنه خوفا ورهبة فحسب ، حتى إذا ما أزال الله كربته عاد إلى ما كان عليه من ارتكاب المعاصى والإمعان فيها وكأنه لم يتب من قبل :

« وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلذينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ، حَتَّى إذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ المَوْتُ قَالَ إنِّى تُبْتُ الآنَ . ولا الذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ، أُولئِكَ اعتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً »[٢٧] .

٣ - ومن سمات المؤمن التعفف والاحتفاظ بالكرامة : فمن الناس من بسط الله لهم من الرزق ما يغنيهم عن ذل سؤال غيرهم مالا أوعونا من أى لون ، ومع ذلك فهم لا يكفون عن طلب المزيد ، ولا يجدون فى ذل سؤالهم الناس والتوجه إليهم بمطالب ، هم فى غنى عنها ، غضاضة على نفوسهم الضعيفة ، ولا يتعففون عن إراقة ماء وجوههم لدى ذوى المال والسلطان بل يلحفون فى السؤال والطلب مع مافى هذا الإلحاف من مهانة لهم ومضايقة لغيرهم ، ومع ما قد يلقى السائل من إعراض واحتقار من المسئول ، ولكنه الطمع وخور النفس والاستهانة بالكرامة الشخصية وقلة الحياء ، يفعل صاحبها ما شاء ، هذا لون من الناس .

وعلى النقيض من هؤلاء ، نجد من المؤمنين بالله الغنى الرحيم والمسلمين بقدره من يتردد بل قد يتعفف ويعلو بنفسه فوق معاناة العوز والفاقة ، فلا يسأل الغير ، حفظاً لكرامته وتنزيها لإيمانه وتقواه عن التوجه لغير الله . فيبدو هذا المتعفف للناظر إليه أنه غنى وهو الفقير وأنه القوى وهو الضعيف ، وأنه الشامخ وهو الضئيل ، هذا هو المؤمن حقا الذى أكرمه ربه فأغناه فى فقره وشد من أزره فى ضعفه ورفع من شأنه فى حاجته وعوزه ، وهذا هو الفوز المبين . وصدق فى مثل هذا المؤمن قوله تعالى :

« لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ ولاَ ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحابُ الجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ »(٢٨) .

« لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فى سَبِيلِ اللهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فى الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ ، تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُم ، لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافَاً ، ومَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ به عَلِيمٌ »(٢٩) .

وهنا المصرف الصالح لمن أراد أن ينفق من ماله فى سبيل الله ، فعليه بهؤلاء ، يمد لهم يد العون ويسد حاجتهم ولا ينتظر منهم سؤالا هم غير سائليه ، وفى ذلك المصرف الخير كل الخير للمؤمن القادر يسد به عوز أخيه فى الدين ويغنى نفسه الكريمة عن ذل السؤال .

٤ - والحياء وغض البصر من السمات التى يتحلى بها كل مؤمن قبل الله إيمانه وقربه منه .

ولقد كان رسول الله ﷺ ، وهو سيد الخلق الذى اصطفاه الحكيم العليم مبشراً للناس ونذيراً ، من أشد خلق الله حياءً ، حتى إنه كان إذا ما زاره زائر من المسلمين وأطال من زيارته وأثقل عليه ، منعه حياؤه من أن يظهر تضايقه أو تبرمه . وكان عليه الصلاة والسلام ، إذا ما ألم به مرض أو إجهاد يلزمه بالإخلاد إلى الهدوء والراحة يستحى أن يفصح عما به من ألم أو ضيق أمام من زاره فى بيته ، وقد لاقى النبى وتحمل من حيائه الكثير من العنت والمعاناة ، ورغم ذلك كان يهش فى وجه زائره ويؤانسه ويظهر له ارتياحه لزيارته واستئناسه به ، وحتى لا يشعر زائره بما هو فيه من هم وضيق قد يحرجه أو يخجله .

فما أجدرنا بالتحلى بخلق الرسول عليه الصلاة والسلام ، خُلُق القرآن .

فحياء المؤمن التقى يلازمه فى كل حركاته ، حياء فى الزيارة ، حياء فى الحديث ، حياء فى إشارته ونظراته ، حياء من سرعة الانفعال بما يثير غضبه أو شهواته ، فهو لا ينظر لما فى يد غيره من نعم الله ولا ينظر إلى المرأة تلك النظرات الفاحشة الماجنة التى قد تنزلق به وبها إلى مهاوى الرذيلة ، ومن ثم فهو بحيائه إنما يتقى نفسه ويتقى الناس :

« ولا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إلى مامَتَّعْنَا بِهِ أَزْواجاً مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الحَيَاةِ الدُّنْيا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وأَبْقَى(٣٠) » .

« قُلْ لِّلمؤْمِنِين يغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِم وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إنَّ الله خَبِيرٌ بِما يَصْنَعُونَ(٣١) » .

ويأمر الخبير العليم النساء خاصة بغض البصر والحياء ، ويحذرهن من بث الفتنة بين المؤمنين بما يبدين من مظاهر الزينة الصارخة والتبرج وإظهار المفاتن ، ويبين لهن حدود هذا وذاك حفاظا لطهرهن وتزكية لإيمانهن :

« وَقُلْ لِّلْمؤْمِناتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلاَ يُبدِينَ زِينَتَهُنَّ إلاَّ ما ظَهَرَ مِنْها وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ ، وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبائِهِنَّ أَوْ آباءِ بُعُولَتِهِنَّ ، أَو أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْناءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوانِهِنَّ أَو بَنِى إخْوانِهِنَّ أَو بنِى أَخَوَاتِهِنّ أَوْ نَسائِهِنَّ أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التابِعِينَ غَيْرِ أولِى الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الطِّفْلِ الذينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلاَ يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ ما يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ ، وتُوبُوا إلَى اللهِ جَمِيعاً أَيُّها المُؤْمِنون لَعلَّكُم تُفْلِحُونَ(٣٢) » .

ففى الآية الكريمة دستور حشمة المرأة واحتشامها ، ومن يحلّ لها إظهار زينتها من الرجال وهم الزوج والمحارم من الذكور ، وما ملكت المرأة من عبيد ، وكانت نساء الجاهلية يزين أيديهن وأرجلهن بالحلى المعدنية التى تحدث رنينا أثناء سيرهن ، وكن يتعمدن الضرب بأرجلهن على الأرض حتى يرتفع رنين هذه الحلى ، وكأن هذا الرنين دعوة للفت أنظار الرجال إليهن ، لقد حرم الله كل هذا حتى لا يكون هناك مجال للفتنة بين المؤمنين . ويأمر الله المؤمنات بعدم كشف صدورهن وبعدم ضم الثياب إلى الجسد ضما شديداً أى عدم لبس الضيق منها حتى لا تتثنى المرأة فى سيرها أمام الرجال ، وأحل الله للمؤمنات فى إظهار الزينة لغير الأزواج والمحارم ، تزيين ما يظهرن به أمام الرجال من أجزاء أجسامهن كالوجه واليدين ، فأحل الكحل والخضاب ، وجعل الله من الاحتشام والتحشم وسيلة لفلاح الأمة الإسلامية .

فأين الناس اليوم من هذا النداء الإلهى الحكيم ؟

أين هذا من روح التبرج والتعرى السائدين بين كثير من بنات الأمة الإسلامية ونسائها ؟

تلك الروح الشيطانية الخبيثة التى تثير فى الجنسين أحط الشهوات البهيمية ، فتدفعهم إلى ارتكاب ما حرم الله على المؤمنين والمؤمنات من مظاهر الفجور ولايرعون إلا ولا ذمة فى ارتكاب ما حرمه الله .

وكيف يبرر مؤمن أو مؤمنة هذا التبرج وذلك التعرى بحجة المدنية الحديثة وروح العصر ؟

إن ديننا القويم لا يحرم ولا يعوق التطور بالإنسان فى مدارج الرقى ، إنما يأخذ الإسلام بمبدأ حتمية تطور الإنسان وارتقائه إلى ماهو أحسن وأصلح فديننا يدعو إلى الكمال الإنسانى فى حدود ما أباحه الله ويحذر من الانتقاص من هذا الكمال بمظاهر تبعده عن أى صفة من صفات الكمال ، والله سبحانه وتعالى بما يأمر وينهى إنما يأمر بما يعود على بنى آدم بالخير وينهى عما يأتيهم بالأذى والسوء .

٥ - والسمة الخامسة للمؤمن هى خفض الصوت والبعد عن اللَّغْو ، خفض صوته إذا ما تحدث ، فلا يتكلم إلا بصوت الخاشع لله وحده ، والله يكره من يرفع

صوته بمناسبة وبغير مناسبة ، فلا حاجة ولا موجب لأن يرفع المؤمن عقيرته حيث لا موضع ولا مناسبة للصياح ورفع الصوت .

والمؤمن من ينأى بنفسه عن اللغو الفارغ الذى يجرى به لسان ضعاف الإيمان بما يقولون ظنا منهم أنهم بكثرة كلامهم وانسياب الكلمات من أفواههم إنما يظهرون على الغير ويكسبون المعركة وهم إنما يخدعون بذلك أنفسهم باصطناع أعلى طبقات أصواتهم ويقذفون من بين شفاههم سيلا من الكلام الذى لا معنى له ولا طائل ولا فائدة ترجى منه ، بل قد يبدو أثناء هذا اللغو وفى غمرته مالا يستحب من المتكلم وللمستمع .

والمؤمن المطمئن النفس الواثق مما يقول ليس بحاجة إلى الزعيق والصخب وكثرة الكلام بل هو يتكلم حيث يلزم كلامه ويشد الانتباه إلى الاستماع إليه والإفادة من مناقشته ، وهو لايتكلم إلا حيث وجد مجال الجد فى المناقشة والاستعداد للاقتناع بالحجة والقول الفصل . وهو فى جميع هذه المجالات ليس بحاجة إلى إجهاد نفسه ولا إزعاج غيره باللغو الفارغ والصوت العالى . والمؤمن الحق من لا يلجأ إلى اللغو من الكلام بل ينأى بنفسه عن مجالس اللغو والمهاترات وما تسفر عنه من عداوات ومعاندات أكثر مما تهدف إلى إحقاق الحق وحل المشكلات .

وما أحكم آيات الله فى قرآنه الكريم الذى لم يترك كبيرة ولا صغيرة إلا أحصاها وجلاها لكل عين تبصر وعقل يتدبر .

« قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُم فى صلاتهم خاشعون * والَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ[٣٣] » .

فلا فلاح ولا نجاح يرجى من اللغو .

« وإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُم لا نَبْتَغِى الجَاهِلِينَ[٣٤] » .

فما أجدر المؤمن بألا يتحدث إلا جادًا وفيما ينفع وبما يعلم ، مع الابتعاد عن مجالس الجهلاء . وألا يجالس من يخوضون فى آيات القرآن الكريم بغير علم أو بقصد الالتواء بمعانيها أو الاستهزاء بها .

« وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعاً »(٣٥) .

فلا يجلس المؤمن مع من يستهزئون بآيات القرآن الكريم ، بل عليه أن يغادر هذا الجمع الماجن فلا يجلس ولا يتحدث معهم ، وإلاَّ باء بغضب الله وسخطه ، وله عذاب أليم .

ومن الأدب القرآنى الذى يجب أن يأخذ به كل مسلم نفسه ، احترام أصحاب الفضل والتقوى والعلم ، وهو فى تحديده نوع العلاقة التى يجب أن تسود الأمة الإسلامية إنما يضع مبدأ أساسيا للسلوك الإنسانى القويم فى أدب الحديث بين الصغير والكبير والجاهل والعالم ، والتلميذ وأستاذه والجندى وقائده وقد جاء عن ذلك فى محكم التنزيل :

« يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِىِّ ولا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُم وأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ(٣٦)» .

« إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُم عِنْدَ رَسُولِ اللهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُم مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ »(٣٧) .

فأين نحن من هذا الأدب القرآنى السامى ؟

فهل بعد ذلك من عذر لذلك الذى يدعى الإيمان ثم هو يفخر ويباهى الناس بأنه قد عنّف بأغلظ الأقوال وأسمع من أسوأ الألفاظ فلاناً أو فلاناً من رؤسائه وأساتذته وأصحاب الفضل عليه ؟.

فاذا ما ذُكِّر بتقوى الله فيما يقول ، تعلَّل بحجج واهية ، وتشدق بمبادىء وقيم حفظ ألفاظها ولم يستوعب معانيها ، فيتشدق بالشجاعة وحرية الرأى والمساواة إلى غير ذلك مما يدعى تبريرا لطيشه وهوجه وتهوره .

٦ - القصد فى السير ، وهو من سمات المؤمن الذى يحفظ لإيمانه وقاره ، ويرعى فى سيره تقواه .

والقصد فى السير هو الاعتدال فى السير أمام الناس فى الطرقات أو المنتديات فيجب أن يكون سير المؤمن وئيداً غير متسرع ولا متعجل ، سير المطمئن إلى نفسه وسداد خطاه بفضل رضا ربه عنه ورعايته وتوفيقه له ، فليس من الإيمان التبختر والخيلاء فى السير . وليس من الإيمان التمايل ذات اليمين وذات اليسار إذا سار ، زهواً بنفسه واستلفاتا للأنظار ، وليس من الإيمان الدَّبُّ بالأقدام على الأرض أثناء السير ، ليسمع من لا يراه أولا يلتفت أو يهتم لوجوده ، فى حين أنه يستجلب على نفسه تعجب الناس من أمره بدلا من إعجابهم به ويبوء بسخريتهم واستهزائهم به بدلا من احترامهم له ، ويحذر الحكيم العليم أمثال هذا المتعجب بقوله :

« ولا تَمْشِ فى الأرضِ مَـرَحًـا إنَّـكَ لَنْ تَخْـرِقَ الأرْضَ ولَنْ تَبْلُغَ الجبـال طُولاً »(٣٨) .

فالعظمة والتعاظم لله وحده الخالق لكل شىء .

« وَعِبادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأرْضِ هَوْناً وإذَا خَاطَبَهُم الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَماً(٣٩) » .

فالمؤمن بالله وعظمته وجلاله هو الذى يتضاءل بنفسه أمام ربه القوى الجبار ويتقيه فى سيره .

والمؤمن بالله ، المطمئن إلى صدق إيمانه وتقواه هو من لايناقش الجهلاء حتى لا يسمع منهم ما يخدش وقاره واحترامه لنفسه ، بل يتركهم ولا يحادثهم .

ثواب المؤمنين ووسائله :

١ - « إنَّ هَذَا القُرآنَ يَهْـدِى لِلتى هِىَ أَقْومُ ويُبَشِّـر الْمُؤْمِنِينَ الـذين يَعْمَلُون الصَّالِحَاتِ أنَّ لَهُمْ أجْراً كَبِيراً(٤٠) » .

فـالمؤمنون الـذين يعملون بكتاب الله ومـا فيه من آيـات تهـدى إلى صـراط الله المستقيم هم من شرح الله صدرهم للإيمان به ، وهى تلك الآيات التى جاءت بالحق الذى لا يأتيه الباطل من أى جانب ، هم المؤمنون الذين جعلوا من القرآن الكريم دستور عملهم فى حياتهم الدنيا ووسيلتهم للفوز برضا الله عنهم وتـوفيقه لهم ، فيجزيهم ربهم عن صالح عملهم بحقهم فى خير جزائه فى حياتهم الدنيا وفى الآخرة .

٢ -« الَّذِينَ يُؤْمِنُون بِالغَيْب ويُقِيمونَ الصَّلاةَ ومِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُون»(٤١) .

« أُولئِكَ عَلَى هُدًى مِن رَّبِّهِمْ وأولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ»(٤٢) .

والإيمان بالغيب من وسائل التماس المؤمن ثواب ربه فيفوز بأحسنه ، وليس الغيب هو ذاك الذى يذهب إليه ويدعيه مستطلعو النجوم وقارئو الطوالع وضاربو الرمل وقارئو الكف وغير هؤلاء ممن اتخذوا من دعوى التنبؤ بما سيحصل فى المستقبل ، وسيلة يخدعون بها البسطاء السذج لينالوا منهم أجراً ، وهم فى سبيل ذلك وإمعاناً فى خداع من ضعف إيمانهم يجعلون دائما هذا المستقبل براقاً ليرضوهم ويفرحوهم فيجزلوا لهم العطاء ، ليس هذا هو الغيب الذى ذكّر الله به عباده المؤمنين ، فالغيب فى علم الله وحده لأنه سبحانه ، هو وحده صانع الماضى والحاضر والمستقبل .

أما الإيمان بالغيب ، كما هو وارد فى القرآن ، فإنه يحمل معنى أجل وأسمى وهو أن الغيب فى علم الله وحده وبتقديره ولا يشاركه فيه أحد . ولما كان الانسان بطبعه يحب أن يطمئن إلى مستقبله متمنياً أن يكون مستقبل خير وسعادة ، وهو فى نفس الوقت عاجز عن معرفته واستطلاعه سلفاً ، فهو إذن شىء محاط بالغموض الذى يبعث فى النفس القلق والحيرة ، ولما كان هذا المستقبل فى علم الغيب الذى لا يعلمه إلا الله وحده ، استتبع هذا تقوى العبد ربه وخشيته فيسلم أمره لله وحده ولا يملك إلا الاتجاه إليه سائلا الخير والبركة فى قدره وتَقْدِيره .

ووسيلة المؤمن إلى رحمة ربه هى تقواه والتقرب إليه بالعمل الصالح كالإنفاق مما رزقه الله على المعوزين المحتاجين وبإقامة عباداته لربه فيتقبل منه الله صالح عمله ويكتب له الفلاح وبلوغ القصد فى حاضره ومستقبله . فالإيمان بالغيب إذن هو طريق المؤمن لتقوى ربه ، ومن اتقى ربه أتاه أحسن الجزاء .

٣ - « والَّذِينَ آمنوا وعَمِلوا الصَّالِحَات أولَئِكَ أَصْحَابُ الجَنَّةِ هُمْ فِيها خَالدُونَ »(٤٣) .

« ومَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً »(٤٤) .

« ولاَ تَهِنُوا ولاَ تَحْزنوا وأنْتمُ الأعْلَوْنَ إنْ كُنْتُم مُؤْمِنِينَ »(٤٥) .

والثواب الذى أعده الرحمن القدير للمؤمن ، بما قدم من صالح الأعمال هى الجنة التى جعلت لمن آمن بالحق ، والمؤمنون فى أعلى درجات القرب من الله فى دنياهم بما يرزقهم فيها بما يشاء من حيث لم يحتسبوا ، وينزلهم فى الآخرة منازل الصالحين المقربين ، وهذه غاية مابعدها غاية يسعى إليها المؤمنون . ويُذهب بها الله عنهم الضعف أمام أعتى الطغاة الظالمين ويمسح عنهم حزنهم وأساهُم على ما يقترف الكافرون ، ويؤمّن لهم مستقبلهم بما تطمئن إليه قلوبهم وتهدأ به نفوسهم .

٤ - « ألا إن أولياءَ اللهِ لا خوفٌ عليهِمْ ولا هم يحزنونَ »(٤٦) .

«الَّذِينَ آمنُوا وَكَانوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ البُشْرَى فِي الحَيَاةِ الدُّنْيا وَفِي الآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لكَلِماتِ اللهِ ذَلِكَ هو الفَوْزُ العَظِيمُ(٤٧)» .

والمؤمن الذى اتخذ الله ولياً له ونصيراً ، وإليه وحده يتجه فى السراء والضراء ، فيحمده فى السراء ويلتمس رحمته وعونه فى الضرّاء ، وإليه وحده يتجه بالشكر على ما أتاه من نعم . هو المؤمن الذى لا تهزه الأحداث ولا يطأطىء رأسه ولا يذل إلا لخالقه سبحانه وتعالى ، فيذهب ربه عنه الخوف ، والحزن ، ويمنحه البشر والسعادة فى الدنيا وله فى الآخرة خير ثواب ، وهذا هو الفوز المبين ، والله صادق وعده للمؤمنين .

« ما يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إنْ شَكَرتُمْ وآمَنْتُمْ وكَانَ الله شاكِراً عليماً »(٤٨)» .

٥ - « إنَّما أمْوَالُكُمْ وأوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ واللهُ عِنْدَهُ أجْرٌ عَظِيمٌ »(٤٩) .

فالمؤمن الذى لا يُفتَنُ عن ذكر الله وتقواه بزينة الحياة الدنيا وبما آتاه ربه من مال وبنين ولا ينحرف بما امتحنه الله بإغداق النعم ، بل لا يزيده ، ما أنعم الله عليه به إلا ذكراً لربه وتقواه ، ويرجع بماله من نعم وعطاء إلى كرم ربه ورضاه عنه فيلتزم بشكره ويعبر عن حمده بمزيد من العمل الصالح ومزيد من الإيمان والتقوى .

هوامــش الفصــل الرابع

(١) الزمر ٢٣
(٢) الرعد ٢٨
(٣) غافر ٢٨ .
(٤) البقرة ٢٦٠
(٥) آل عمران ١٧٣
(٦) الأحزاب ٢٢ .
(٧) البقرة ٢١٦
(٨) الإسراء ٣٠
(٩) الكهف ٣٠
(١٠) الأعراف ١٧٠
(١١) آل عمران ٥٧
(١٢) آل عمران ١٩٥ .
(١٣) العنكبوت (٤٥) .
(١٤) البقرة ٣
(١٥) الذاريات ١٩
(١٦) النساء ٩٥ .
(١٧) الإسراء ٢٧ .
(١٨) الإسراء ٢٩
(١٩) الفتح ٢٩
(٢٠) الفجر ٢٧ - ٢٨
(٢١) الفتح ٤
(٢٢) الأعراف ٥٥
(٢٣) الرعد ٢٨
(٢٤) النساء ١١٠
(٢٥) الأعراف ٢٠٥
(٢٦) النساء ١٧ .
(٢٧) النساء ١٨ .
(٢٨) يونس ٢٦ .
(٢٩) البقرة ٢٧٣ .
(٣٠) طه ١٣١
(٣١) النور ٣٠
(٣٢) النور ٣١ .
(٣٣) المؤمنون ١ - ٣

(٣٤) القصص ٥٥
(٣٥) النساء ١٤٠
(٣٦) الحجرات ٢
(٣٧) الحجرات ٣
(٣٨) الإسراء ٣٧
(٣٩) الفرقان ٦٣
(٤٠) الإسراء ٩
(٤١) البقرة ٣
(٤٢) البقرة ٥
(٤٣) البقرة ٨٢
(٤٤) الإسراء ١٩
(٤٥) آل عمران ١٣٩
(٤٦) يونس ٦٢
(٤٧) يونس ٦٢ - ٦٤
(٤٨) النساء ١٤٧
(٤٩) التغابن ١٥

الفصل الخامس

مراتب الإيمان

إن الإيمان بالله والتسليم بقدره والتوكل عليه وحده ، ليست كلمات تقال فيصبح الإنسان مؤمناً حقا . بل إن الإيمان هو عمل يرعى فيه المؤمن ربه ويذكره فى سره وعلنه .

والإيمان بالله بغير تقواه يصبح لفظاً بلا معنى وشكلا بلا جوهر .

فعبادات الإنسان لربه ، وتعامله مع نفسه ومع الناس جوهر قبل أن تكون حركات آلية وسلوكاً ظاهرياً .

ومظاهر الإيمان إذا لم يراع فيها التقوى والخشوع للخالق ، جل وعلا ، أصبحت عملا بغير هدف وجسداً بغير روح .

فبقدْر مدى تقوى المؤمن ربه فى سلوكه بقدر ما يكون قرباً أو بعداً من الله ، وهذا ما يعبر عنه بمراتب الإيمان أو درجاته .

وبقدْر عمل الإنسان بجوهر الإيمان ، بقدر ما تكون درجة قربه من ربه .

فالإيمان والتقوى متلازمان ، وهما وسيلتا التقرب إلى الله وكسب رضاه .

ولا يمكن تصور الإيمان بالله وبقدرته وبحكمته بغيرخشية المؤمن ربه وتقواه .

ودرجات الإيمان بالمعنى الذى بينه العزيز الخبير فى محكم تنزيله غير تلك الدرجات التى رتبها أصحاب المذاهب الصوفية لإيمان المؤمنين .

فقد فهم بعض متصوفى الإسلام من التصوف البعد المطلق عن زخرف الحياة الدنيا ، وأن هذا البعد لا يكون إلا بانقطاع المتصوف عن العالم وتكريس حياته الدنيا للعبادة والتقرب إلى الخالق والتجرد من كل ما أحل الله من متاع الدنيا ، كما فهموا أن هذا النوع من العزلة إعداد للمؤمنين اعداداً تاماً للحياة الآخرة حياة الخلود والنعيم المقيم .

وقد تأثر بعض هؤلاء المتصوفين بسِيَر من سبقهم من زهاد الفرس والهنود واليونانيين ورهبان المسيحية . واقتفوا أثرهم وأخذوا بما قالوا بأن الجسد سجن الروح وأنه لافكاك للروح من هذا السجن إلا عن طريق رياضة النفس على عدم تلبية كل مطالب الجسد تطهيراً للروح .

أخذ متصوفو الإسلام فكرة هؤلاء الزاهدين من حيث العمل على تطهير النفس والسمو بها وإن اختلفوا عنهم من حيث الهدف ، وذلك أخذاً منهم بالآية الكريمة .

« ومَا هَذِه الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إلاَّ لَهْوٌ ولَعِبٌ وإنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لهى الحَيَوانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ »[1]» .

مع أن هذه الآية لم تتناول التصوُّف من قريب ولا من بعيد ، بل هى تحذير للمؤمنين بعدم التمادى والإسراف فى الاستمتاع بالحياة الدنيا حتى لا يفتنهم بريقها عن ذكر الله وتقواه وحتى لا تنسيهم أن هناك حياة آخرة خالدة لا يحياها إلا من عاش صالحاً فى حياته الدنيا والحياة الصالحة فى الدنيا إنما تكون بالعمل الصالح والسلوك القويم والكسب الحلال والإنفاق فى سبيل الله .

وقد ذهب بعض السلف من غلاة متصوفى الإسلام إلى البعد المطلق عن هذا اللهو واللعب بالانقطاع التام عن المجتمع واعتزاله ، وأمعنوا فى هذا النوع من الزهد بالحرمان التام ، وحملوا أنفسهم وأجسادهم مالا تطيق من الحرمان والتعذيب والآلام لتصفو نفوسهم وتنقى قلوبهم ، واتخذوا من هذا النوع من الزهد وسيلة للفناء عن أنفسهم والبقاء فى ربهم وقربهم منه وشهودهم له واتحادهم به ، كما ظنوا .

ولقد كان رسول الله ﷺ ، لشدة تقواه وإيمانه بقدرة الخالق ، يأخذ نفسه بالتقشف فى الملبس والمأكل ، وبالعكوف على العبادة والتهجد ، والوحدة والبعد عن

الناس للاختلاء بنفسه ليفكر فى الخالق الواحد الأحد وفى بديع خلقه وتدبيره وصرفه ، وقد سار فى هذا الاتجاه حتى نهاه الله عن ذلك وأدركه برحمته بقوله تعالى :

« طَهَ * ما أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقرْآنَ لِتَشْقَى * إلاَّ تَذْكرةً لِمَن يَخْشَى »(٢) .

فخفف المصطفى عليه الصلاة والسلام بعضا من هذه المبالغة ، ولكنه لم يفتر عن ذكر الله والتسبيح بحمده والشكر لفضله مع تقواه فى السر والعلن بالاعتدال فى الملبس والمأكل واستعاذ بربه من غرور النفس وفتنة الحياة الدنيا ، تلك الفتنة التى كثيراً ما تصرف الإنسان المؤمن عن ذكر الله وتقواه واستغفاره والتوبة إليه .

ومن ثم فإن الزهد فى الحياة الدنيا ، إذا أخذ بمعنى حرمان النفس مما أحله الله لعباده المؤمنين ، أو الإمعان فى تعذيب النفس لتطهيرها وتقريبها إلى الله واعتزال العالم وعدم القيام بدور إيجابى بالعمل الصالح فى هذا المجتمع ، كل هذا ليس من تعاليم الإسلام التى أوردها الله فى كتابه المبين .

فقد أحل الله طيبات الأرض إذا سعى إليها المؤمن بالعمل الطيب الصالح ، وقد أحل الله للمؤمن الحصول على نصيبه الحق مما رزقه الله وأن يعمل بما أمر الله لنيل ما أحل من طيبات الحياة الدنيا بالحق وبغير عدوان أو ظلم :

« يا أَيُّها النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فى الأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّباً ولاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّه لَكُمْ عَدُو مُبِينٌ * إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ والفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ ما لا تعلمونَ »(٣) .

« يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ ما رَزَقْنَاكُمْ واشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ »(٤) .

« وابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ ولا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ولاَ تَبْغِ الْفَسَادَ فى الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ »(٥) .

ثم يعدِّد العلى الكريم بعضاً من نعمه التى أحلها للمؤمنين ونواحى الإفادة من هذه النعم :

« والأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيها دِفْءٌ ومَنَافِعُ ومِنْها تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إلىَ بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إلا بِشِقِّ الأَنْفُسِ إنَّ ربَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ * والخَيْلَ والبِغَالَ والحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وزِينَةً ويَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ »[٦] .

فإذا أخذنا الزهد بالمعنى الدينى الإسلامى الذى أمر به الله فى محكم تنزيله وفقاً للتربية الإسلامية التى أرادها الله لمن آمن به وباليوم الآخر حتى يرضى عنه ويقبل إيمانه ويقربه منه ، إذا أخذنا الزهد بهذا المعنى وجدناه غير ذلك الذى أخذ به غلاة المتصوفة أنفسَهم وظنوه عبادة وتقرُّباً إلى الله .

١ - فالزهد بالمعنى الدينى الإسلامى ترويض المؤمن نفسه على السلوك الإنسانى القويم ، يسترشد به فى فكره وقوله وعمله وتعامله فذكْر الله عبادة ، والكلمة الطيبة عبادة ، وقول الحق عبادة .

فالزهد فى لعب الدنيا ولهوها معناه أخْذُ الحياة الدنيا بالجد والعمل الصالح ، مع ذكر الله وتقواه والتعامل مع الناس بالحق والعدل فيما يفيدهم ويصلح أحوالهم ، والبعد عن العبث المضيّع لمصلحة المؤمن ومصلحة مجتمعه ، والعمل على تأدية الرسالة التى من أجلها استخلف الله بنى آدم فى الأرض ، والزهد فى الجاه والسلطان والتواضع والخشوع لقدرة الله جَلَّ وعلا عبادة .

وليس معنى الزهد فى المأكل والملبس أن يعيش الإنسان طوال حياته جائعاً عارياً رغم قدرته على الشبع والكساء ، إنما الزهد فى المأكل والملبس هو البعد عن الإسراف فى الطعام والتباهى بفاخر الثياب والتبرج الذى يلفت الأنظار ، وهذه عبادة مقبولة عند الله فإذا أمر العزيز الحكيم الناس بقوله :

« يَابَنِى آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُوا واشْرَبُوا ولا تُسرِفُوا إنَّهُ لا يُحِبُّ المُسرِفِينَ »[٧] .

إنما يأمر المؤمنين بارتداء ما يحفظ عليهم وقارهم وعدم الإسراف فى الطعام والشراب بما يضر صحتهم ويحرم الجائع من حفظ رمقه ، ويجعل من هذا عبادة وقربى لله تعالى .

والزهد فى المال لايقصد به القعود وعدم السعى لكسب الرزق الحلال ، إنما يقصد به عدم الإمعان فى جمع المال واكتنازه بطرق غير شريفة أوحبسه عن التداول فى السوق مما يعطل انتعاش اقتصاد المجتمع ويضيق مجال الارتزاق للناس .

والزهد فى المال لايمنع الكسب الحلال مع التصدق ببعض ما كسب على المحتاجين ، ومن ثم أمر الله بالاعتدال فى تحصيل المال وفى إنفاقه ولم يأمر بالزهد المطلق فى كسبه أو الإسراف فى إنفاقه فى غير ما يفيد

« ولا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ البَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلوماً مَحْسُوراً »[٨] .

« وآتِ ذَا القُرْبَى حَقَّهُ والمِسْكِينَ وابْنَ السَّبِيلِ ولا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً »[٩] .

فالزهد فى الإسلام إذَنْ هو أن يكبح المؤمن جماح نفسه عن شهواتها فيما حرم الله وألا يمعن فى جمع المال من أجل المال فحسب بل عليه أن ينفق ما زاد عن حاجته مما رزقه الله وألاّ يسرف فى الاستمتاع بمتاع الدنيا إسرافاً يصرفه عن ذكر ربه وخشيته وتقواه .

٢ - والمؤْمِنُونَ دَرَجَات عند ربهم حباً وقربا بمدى عمق إيمانهم بالله وخشيته وتقواه :

« إنَّما المؤْمِنُونَ الَّذِينَ إذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وإذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آياتُهُ زَادَتْهُمْ إيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ » * الَّذينَ يُقيمُونَ الصَّلاةَ ومما رَزَقْنَاهُمْ يُنْفقُونَ * أُولَئِكَ هُمُ المُؤْمِنُونَ حَقّاً لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرةٌ ورزْقٌ كَرِيمٌ »[١٠] .

٣ - والمؤمن الذى شرح الله صدره للإيمان وأضاء بصيرته فى فهم آيات قرآنه الكريم ، فآمن بربه وجلاله وقدرته وخشع له وحده وتوكل عليه ثم استعان به وشكره فى السراء والضراء ، وأنفق مما رزقه ابتغاء مرضاته وحده ، هذا المؤمن أقرب إلى ربه ممن مر على آيات كتاب الله مر الكرام ولم يحاول أن يتفهمها أو يعمل بما أتت به من موعظة ، كما أنه أقرب إلى ربه ممن لا يصلى أو ينفق إلا رئاء الناس .

٤- ويرزق الحكيم العليم عباده المؤمنين ليرى كيف ينفقون مما رزقهم . فمن استعجل ربَّه الرزق ابتغاء متاع الدنيا دون التزود بما رزق لآخرته ، عجل له الله فى

رزقه ليسرف فى الاستمتاع فى حياته الدنيوية ثم يأخذه الرقيب الحسيب فى الآخرة بما كسب . ومن عمل بما رزقه الله فى دنياه وتزود به لآخرته أقرب إلى ربه وأعلى درجة :

« مَنْ كَانَ يُرِيدُ العَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَـهُ جَهَنَّمَ يَصْلاَهَا مَذْمُوماً مَدْحُوراً * وَمَنْ أرادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأولئكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً * كُلاً نُمِدُّ هَؤُلاَءِ وهؤلاء مِنْ عَطَاءِ رَبِّـكَ وَمَا كَـانَ عَطَاءُ رَبِّـكَ مَحْـظُوراً * انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَـا بَعْضَهُمْ على بَعْضٍ ولَـلآخِرةُ أكْبَـرُ دَرَجَاتٍ وأكْبَـرُ تَفْضِيلاً »[11] .

« وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ »[12]

ويكرم الله العلم والعلماء المؤمنين فيجعل المؤمن العالم أقرب إليه من المؤمن الذى لايعلم :

« أمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آناء اللَّيْلِ سَاجِداً وقَائِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ ويَرْجُو رحمة رَبِّهِ قُلْ هَلْ يستوى الَّذِين يَعْلَمُونَ والَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إنَّما يَتَذَكَّرُ أولُوا الألبابِ »[13] .

والمقصود بأهل العلم المتفقهون فى علوم القرآن وهى جماع العلوم قديمها وحديثها ومستقبلها . والمقصود بأهل العلم أيضاً الذين يتأملون بديع صنع الخالق فيما تحتهم وفيما فوقهم فى هذا الكون فضلاً على تفقههم فى علوم القرآن فيزيدهم العلم بربهم إيماناً ومنه خشية ، هؤلاء أقرب درجة ممن لم يتفقّه فى دينه ولم يتأمل أو يتدبر بديع صنع الخالق :

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَراتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوانُهَا وَمِنَ الجِبَالِ جُدَدٌ بيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلفٌ أَلْـوانُهَا وغَرابِيبُ سُـودٌ * وَمِنَ النَّاسِ والـدَّوابِّ والأنْعامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُه كَذَلِكَ إنَّما يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ العُلَماءُ إنَّ اللهَ عزِيزٌ غفُورٌ »[14] .

ويحفظ العليم الخبير للعلماء المؤمنين مقامهم الحق فى المجتمع ويجعل لهم مكان الشرف فى أى جمع من المؤمنين :

« يَا أيُّها الذِينَ آمنُوا إذَا قِيلَ لَكُم تَفَسَّحُوا فى الْمَجَالس فَافْسَحُوا يَفْسحِ اللهُ لكُم وإذا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمنوا منكُمْ والذين أوتُوا العِلْمَ دَرَجَاتٍ واللهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبيرٌ »[15] .

والمقصود بالذين آمنوا المؤمنون حقاً والذين تقبل الله إيمانهم قبولاً حسناً ورفعهم درجات على غيرهم ، ثم جعل الله الذين أوتوا العلم بقدرة الله وحكمته وبديع خلقه وصنعه مع هؤلاء المؤمنين فى نفس مستوى القرب من الله ورضاه عنهم .

٥ - والمؤمن حق الإيمان هو من تحرّى قول الحق وإقامة العدل فى ضميره وفكره وقوله وعمله . فالمؤمن الذى رسخ إيمانه فى قلبه رتمسك بتقوى ربه ، لايصدر منه إلا العدل والتسوية بين الناس فى القول كأداء الشهادة بالحق ، وفى العمل والتعامل بين الناس بإعطاء كل ذى حق حقه ، فالحاكم العادل هو من حكم وأصدر الحكم بعيداً عن الهوى حتى لاينال أحداً من الناس بظلم ، والأب العادل من يعامل أولاده على قدم المساواة ولا تميز ولداً على ولد إلا بالحق ، فالمؤمن العادل أقرب عند ربه وأعظم أجراً ممن آمن بالله ولم يقم ميزان العدل ، ولا عجب فى تفضيل الله المؤمن العادل على غيره ، إذْ العدل من أسس الإيمان والتقوى .

« الذين آمَنُوا ولَمْ يَلْبِسُوا إيمانَهُمْ بظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُون * وتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إبْراهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّنْ نَّشَاءُ إنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ »(١٦) .

« ولِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ »(١٧) .

٦ - وفى صدر الإسلام ، لاقى الرسول ومن تبعه من المؤمنين من عنت المشركين وتآمرهم وعدوانهم ما كاد يقضى عليهم ويقضى على دين الله فى مهده ، ولكن الله القوى القادر أبى إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ، ومن ثم أمر الله رسوله الكريم ومن معه من المؤمنين بالصمود والصبر أمام عناد المشركين ورد عدوانهم بالمثل ، أمرهم الله بقتال المشركين دفاعاً عن بيضة الإسلام ، ووعدهم بحسن الجزاء وأيدهم بروح من عنده ، وأمدهم بجنود لم يروها ، وكتب لرسوله وللمؤمنين النصر المبين :

« وقَاتِلُوا فى سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلونَكُمْ ولا تَعْتَدُوا إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ المُعْتَدِينَ »(١٨) .

« كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ واللهُ يَعْلَمُ وأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمونَ »(١٩) .

فالقتال فى سبيل الحق وفى سبيل الدفاع عن دين الله ، والتسليم بأمر الله وتنفيذه ولو كان فيه تعريض حياة المقاتل المؤمن للخطر ، والإنفاق على جيش المؤمنين لقتال المعتدين ، كل هذه التضحية بالنفس والمال فى سبيل الله هى قمة الإيمان بالله وباليوم الآخر ، من أجل ذلك جعل الله المؤمنين الذين جاهدوا بالنفس والمال دفاعاً عن العقيدة ، أقرب إلى الله من المؤمنين القاعدين مع قدرتهم على القتال :

«لاَ يَسْتَوِى القَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى الضَّرَرِ والمُجاهِدُونَ فى سَبِيلِ اللهُ بأمْوالِهِم وأنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللهُ المُجَاهِدِينَ بأمْوالِهِم وأنفسِهِمْ عَلَى القَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاً وَعَدَ الله الحُسْنَى وَفَضَّلَ الله المُجَاهِدِينَ عَلَى القاعِدِينَ أجْراً عِظيماً * دَرَجاتٍ مِنْهُ ومَغْفِرَةً ورَحْمَةً وكان الله غفوراً رحيماً »[٢٠] .

وشاء العليم الخبير بنفوس البشر وأهوائها أن يكشف خبايا من يتردد عن القتال فى سبيل الله ، ويبين لنا أولئك الذين يقاتلون دفاعاً عن العقيدة وأولئك الذين يقاتلون من أجل الحصول على منفعة دنيوية عاجلة .

فالذين قاتلوا مع الرسول ووقفوا بجانب المؤمنين إذْ كانوا قلة أمام جحافل المشركين ، هم أقرب درجة من أولئك الذين قاتلوا معه من بعد أن اشتد ساعده وزاد عدد المؤمنين المقاتلين معه ولاحت طلائع نصر الله المبين لرسوله الشجاع الأمين وخذلان أعدائه المشركين . فالذين قاتلوا مع الرسول قبل فتح مكة وهم قلة أقرب درجة عند الله من الذين قاتلوا معه يوم فتح مكة فالأولون اشتروا الآخرة بالدنيا وما عليها ، والآخرون قاتلوا مع النبى بعد أن أمنوا خطر المشركين .

« وَمَا لَكُمْ ألا تُنْفِقُوا فى سَبِيلِ اللهِ ولِلهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ والأرْضِ ، لاَ يَسْتَوِى مِنْكُم مَنْ أنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الفَتْحِ وَقَاتَلَ أولَئِكَ أعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الّذينَ أنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وقاتَلوا وَكُلاً وَعَدَ اللهُ الحُسْنَى واللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ»[٢١] .

٧ – والمؤمن الذى صبر وأسلم أمره لله إذا ما ابتلاه ربه ، أكثر برّا وأشد تقوى وأرسخ إيماناً وأقرب إلى ربه من المؤمن الجزوع الهلوع الذى يصيبه البأس إذا ما ابتلاه ربه فيكفر بحكمة ربه وقدرته ورحمته .

والمؤمن الصابر على أذى الناس والكاظم غيظه أمام السفهاء والعافي عند المقدرة احب وأقرب إلى ربه من المؤمن الضيق الصدر السريع الغضب القليل التسامح :

« الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ »(٢٢) .

٨ - والمؤمن الذى إذا ما أتى بفاحشةٍ ثم تاب إلى ربه توبة نصوحا صادقة ولم يعد إلى ما ارتكب ، أقرب إلى الله من المؤمن المصرّ على ارتكاب المعاصى :-

« وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ »(٢٣) .

« أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ »(٢٤) .

« إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِم وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً »(٢٥) .

هوامش الفصل الخامس

(١) العنكبوت ٦٤
(٢) طه ١ - ٣
(٣) البقرة ١٦٨ - ١٦٩
(٤) البقرة ١٧٢
(٥) القصص ٧٧
(٦) النحل ٥-٨
(٧) الأعراف ٣١
(٨) الإسراء ٢٩
(٩) الإسراء ٢٦
(١٠) الأنفال ٢ - ٤
(١١) الإسراء ١٨ - ٢١
(١٢) الأحقاف ١٩
(١٣) الزمر ٩
(١٤) فاطر ٢٧ ، ٢٨
(١٥) المجادلة ١١
(١٦) الأنعام ٨٢، ٨٣
(١٧) الأنعام ١٣٢
(١٨) البقرة ١٩٠
(١٩) البقرة ٢١٦
(٢٠) النساء ٩٥ - ٩٦
(٢١) الحديد ١٠
(٢٢) آل عمران ١٣٤
(٢٣) آل عمران ١٣٥
(٢٤) آل عمران ١٣٦
(٢٥) النساء ١٧ - ١٨





الباب الثالث

الأخلاق فى القرآن



الفصل الأول

القرآن والسلوك الشخصى

هذا القران الكريم :

هذا الكتاب المبين الذى لم يترك كبيرة ولا صغيرة ، من شئون البشر وأحوالهم إلا أحصاها بالحق .

هذا الكتاب الذى أنزله العليم الخبير وحفظه من أى تحريف أو تبديل ، وكف عنه كل يد عابثة تبغى تغيير كلمة منه أو حرف ، إضافة أو حذفا .

هذا الكتاب القيِّم فى إعجازه مع وضوحه ، الذى أوحى به من لدن العزيز الحكيم إلى نبيه الأمى الصادق الأمين ، لهو آية ومعجزة ربانية لرسول من البشر ليهديهم به إلى صراط الله المستقيم .

فهل بعد هذا القرآن البيِّن المحيط من مزيد ، لكل من آمن بالله الواحد القهار وبكتبه وبرسله وهو عليه شهيد ؟ .

أفغير هذا الكتاب المبين يتخذ أى مؤمن هَدْياً ونبراساً فى حياته الدنيا ولآخرته ؟ .

« إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيرًا »[1] .

هذا هو الكتاب الذى أشار إليه منزله ، جل وعلا ، بقوله :

« وأنَّ هَذا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فاتَّبِعُوهُ ولا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُم تَتَّقُونَ »(٢) .

ألا ندعو الله جميعا نحن المؤمنين بالله وكتبه ورسله أن يهدينا إلى صراطه المستقيم ، نتلمس بسلوكنا هذا الصراط رضا الخالق وتوفيقه ، ونتقى غضبه وعذابه ؟ .

اللهم :

« اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِم غَيْرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ »(٣) .

ألا نتخذ من هذا الكتاب مرشدا لنا فى التعامل مع الناس بالمعروف وسبيلا للفوز برحمة العزيز المقتدر ورضائه ، سبحانه وتعالى ؟ .

هذا هو الفرقان ، دستور الإنسان الأزلى ، يفرق به المؤمن بين الحق والباطل ، وفى ضوء آياته البينات يميز الصواب والخطأ ، ويختار الطيب وينبذ الخبيث ، به يهتدى إلى الحق ويتحرى الصواب ويتخير الطيب فى فكره وضميره وفى قوله وعمله فيفوز فوزاً مبيناً فى حياته الدنيا وفى دار البقاء والخلود .

فإلى قرآن الله الكريم خاتم كتب الله ، علينا نحن المؤمنين به وبمنزله وبمبلغه أن نهتدى به إلى الطريق القويم فى أسلوب عملنا فى هذه الحياة الدنيا وسلوكنا فيها ، وبه نسترشد دوافع العمل وأهدافه وطريقته بعد أن نتدبر الأسباب الطيبة لنحصل على مسببات طيبة ونربط بينها بالسلوك الطيب .

وما أبلغ هذا القرآن وما أعظم بيانه لمعنى السلوك الذى يجب على كل مؤمن الأخذ به ليسعد به وليشمله الله برعايته ونظره ورحمته ، إذ يبين معانى ولاية المؤمن لأخيه فى الإيمان وتعاونهما ، ما أطاعا الله العزيز الرحيم ورسوله الصادق الامين :

« وَالمؤْمِنُونَ والمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بعض يَأْمُرُونَ بِالمعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المنكَرِ وَيُقِيمونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ، وَيُطِيعُونَ الله وَرَسُولَهُ أولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ الله ، إنَّ الله عَزِيزٌ حَكِيمٌ »(٤) .

والله الغنى الحميد ، إذْ يأمر المؤمنين بالأخذ بالمعروف والانتهاء عن المنكر ، لا يبغى من عباده شيئا ، وهم هؤلاء الضعفاء الفقراء إلى رحمة ربهم ، إنما يـريد عمران الأرض بالذى هو أصلح وأن يسلك عباده من سبل العمل والعيش بالتى هى أقوم .

يأمر الله عباده المؤمنين بالاستعانة به والتوجه إليه وإسلام الأمر كله له لا تواكلا ولا قعوداً ، بل التماسا لإلهامه لهم إلى طريق الصواب وهدْيِهم فى عملهم بالتى هى أحسن .

والمؤمن الصادق فى إيمانه ، والمتقى ربه حق تقاته ، بسيـره على صـراط ربه المستقيم بلا انحراف ولا عوج ، إنما يجعل من نفسه ومن سلوكه قدوة حسنة لغيره ، وعاملا فعالاً فى بث الخير وإعلاء كلمة الحق .

فعلى هذا المؤمن إذن ، أن يبدأ بنفسه فيأخذ بمبادىء هذا الدين القيّم ، المبينة بأوضح بيان فى القرآن الكريم ، فيسير على هدى آياته نصاً وروحاً فى سلوكه العام والخاص ، فكراً وقولا وعملا ، فى صدق وتقوى . فيكون له بـذلك قـوة الإيحاء والتأثير فيمن حوله ومن يتعامل معهم . يتقبلون منه النصح فيردهم عن الضلال إلى الهدى وعن الانحراف إلى الاستقامة . ولا يكون هذا إلا عن اقتناع به وتصديق له فيترسمون خطاه . وبذلك يكون هذا المؤمن قد نفع نفسه ونفع الناس وأوفى بعهد الله ووفاه بما التزم له به ، ووفى الناس حقهم فى الهداية والاستقامة .

هذا ما يجب أن يكون عليه سلوك المؤمن ، وهذه هى نتائج هذا السلوك . ومظاهر السلوك الشخصى للمؤمن ، كما توحى به آيات القرآن الكريم هى :

١ - أداء المؤمن حق الله عليه فى عبادته ، وهى تلك الفرائض الخمس التى حددها الله ليأخذ بها كل مؤمن مسلم ، وهى الشهادتان وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان والحج إلى بيت الله الحرام . وسنتناولها هنا من حيث أثرها فى تكييف السلوك الشخصى للمؤمنين بما يجعلهم قدوة صالحة لغيرهم :

لا يقصد بهذه الفرائض مظاهرها الحركية فحسب ، بل إن هذه المظاهر ما هى إلا وسيلة إلى هدف أعظم ، هو تجميل مؤديها بحميد الخصال وقويم الأخلاق التى يجب أن يكون عليها كل مؤمن صدق ايمانه وتقبله منه ربه .

وقد سبق لنا أن بينا أسلوب أداء كل فريضة من هذه الفرائض .

وعلينا أن نبين هنا انعكاسات أداء الفرائض فى سلوك مؤديها وهى الهدف الذى قصده الله من فرضها . وهى انعكاسات تجعل من المؤمن إنسانا طاهراً صالحاً لا يصدر منه إلا كل طيب وصالح .

فشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، تهدى المؤمن المسلم إلى الالتزام بالعمل بكل ما جاء فى القرآن والسنة ، ومظاهرها العملية أداء بقية الفرائض .

وبالصلاة ينتهى المؤمن المسلم عن ارتكاب ما نهى الله عنه من فواحش ومنكرات ويتحلى بفضائل الخشوع لله والتواضع له وتقواه والبعد عما يغضبه ، فيفوز برضا الخالق والخلق .

والزكاة تطهير للمال مما حرم الله فى طريقة جمعه وإنفاقه ، وتطهير للنفس من نقائص الجشع والأثرة والبخل لتحل محلها فضائل الزهد والتعاطف بين المؤمنين .

والصوم تدريب للمؤمن ورياضة نفسه على الصبر ومغالبة أهوائها وشهواتها كما أنه تطهير للبدن من البطنة والتخمة .

والحج تمجيد عملى وتقديس لمنزل الوحى الإلهى الذى تهفو إليه نفس كل مؤمن وتجميع لأمة الإسلام من مشارق الأرض ومغاربها فى صعيد واحد للتلبية والابتهال إلى الله عز وجل ، وللتعارف والتعاطف والتشاور فيما يدعم الترابط بين المسلمين واعتزازهم بدينهم وولائهم لربهم .

٢ - والتفاؤل والرضا بما قسم الله ، من مظاهر السلوك الشخصى التى يسعد بها المؤمن كما يسعد بها كل من يتصل به . ومعنى التفاؤل توقع الخير والرزق الطيب من الله سبحانه وتعالى ، وما دام المؤمن قد آمن وسلم بقدرة ربه وحتمية قَدَرِه فإنه يتقبل ما قسمه الله له بنفس راضية إيمانا منه بأن كل ما يأتيه من الله خير ولو بدا له شرًا . وليس معنى التفاؤل والرضا والتوقع أن يتواكل المؤمن ويجمد فى مكانه ولا يعمل ويسعى وراء رزقه ، بل عليه أن يتحرك ويعمل ما يرى فيه الحق والخير ووفق ما أمر به الله عباده المتقين ثم يسلم بعد ذلك نتيجة عمله يقررها العزيز العادل .

« مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِه وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ »[٥] .

« بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ ، وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ »[٦] .

ومن مظاهر تفاؤل المؤمن البشاشة فى المقابلة والحديث ، والعفو عمن أساء إليه ، والدعاء له بالغفران والهداية ، واجتناب سوء الظن بإخوانه المؤمنين أو التوجس منهم ، وعدم تحميل ما قد يبدو من أخطاء الغير أكثر مما تحتمل ، وقاية للمؤمن من الاندفاع وراء انفعال نفسى طارىء فيسىء العمل أو يخطىء التقدير أو يصدر حكما ظالما ، بل على المؤمن المتفائل الواثق من إيمانه وبرضا ربه وبنفسه الرد على المسىء بالموعظة الحسنة وتجنب الفظاظة فى القول أو بالإشارة وأن يأخذ الجاد من الأمور مأخذ الجد الهادىء ، وأن يمر باللغو مراً كريماً ، وفى ذلك يقول التواب الرحيم :

« يَاَ أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلاَ تَجَسَّسُوا وَلاَ يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ »[٧] .

« إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِى خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ »[٨] .

« أُدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِه وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ »[٩] .

فعلى المؤمن ألا يستمع إلى قول السوء ، ثم يبنى عليه أقوالا أو أفعالا قد تكون أسوأ منه ، وعليه ألا يتطير من الإشاعات المغرضة والأقوال الباطلة ولا يسلّم بكل ما يسمع :

« وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً »[١٠] .

بل عليه أن يتحرى ويدقق فى مدى صدق ما يسمع ، ولا يردد منه ما ليس له به علم يقينى :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ »(١١) .

٣- والصبر على نوائب الدهر ومفاجآت الحياة الدنيا من أبرز مظاهر سلوك المؤمن الشخصى ، وهو ملازم للتفاؤل وانعكاس له ، ويزيد عليه بعدم اهتزاز صاحبه ولا يتزعزع إيمانه أمام ما قد يصيبه فى هذه الحياة الدنيا من أذى ، إيمانا منه بأن دوام الحال من المحال وبأن الحياة الدنيا ما هى إلا أيام يداولها الله بين الناس . فقد يخطىء التقدير فى أمنه إلى شىء أو إلى شخص فيأتيه الخطر من هذا المأمن أو ذاك . والصبر يشحذ إيمان المؤمن ويقويه على تحمل الشدائد والصّمود أمام ما يزعج النفس أو يقلق الفكر أو يؤذى البدن .

ومن المواقف التى يجب أن يأخذ فيها المؤمن نفسه بالصبر ، الحرمان من متعه من متع الحياة أو زخرف من زخارفها ، أو الفقر فى المال الذى يهيىء للإنسان مطالبه الحيوية من طعام أو كساء أو مأوى أو أهواء النفس الجامحة ، أو عدوان الناس عليه بالقول أو بالفعل .

وما الصبر على كل هذا إلاّ جهاد ، يجاهد به المؤمن ما يؤذى إيمانه :

الصبر على الفقر بالاكتفاء بالقليل المتاح وفق قدرته وبما قدر الله له .

الصبر على أهواء النفس بكبح جماحها والسيطرة عليها وتوجيهها إلى ما هو أقوم .

والصبر على ما يصيب البدن من آلام وأمراض بذكر الله وطلب رحمته .

والصبر على عدوان أعداء المؤمن وأعداء عقيدته بالصمود وتحمل أهوال القتال فى سبيل الله طمعا فى الاستشهاد فى سبيل الحق ونيل رضوان الله .

فالصبر إذن عمل وليس جمودا ، عمل إيجابىّ وكفاح سلاحه الصمود والثبات

أولا ، ثم اتخاذ دور إيجابي فى دفع الأذى والخطر ، وهذا ما بينه الحكيم العليم فى محكم تنزيله :

« والصَّابرينَ فِي البَأْسَاء والضَّرَّاءِ وَحِينَ البَأْسِ ، أُولَئِكَ الَّذِين صَدَقُوا وأُولئِكَ هُمُ المتَّقُونَ »(١٢) .

« لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الّذينَ أُوتُـوا الكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَ مِنَ الّذينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وإِنْ تَصْبِرُوا وتَتَّقُوا فإنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُور »(١٣) .

وعلى المؤمن التذرع بالصبر فى مواجهة المشاكل ، مع ذكر ربه والاتجاه إليه بالدُّعاء والتماس العون ، ليشد أزره ويوفقه ، فيجد مما هو فيه من ضيق مخرجا :

« واسْتَعينُوا بِا لصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إلاّ عِلَى الخَاشِعِينَ »(١٤) .

ومن مظاهر صبر المؤمن ، كظمه غيظه إزاء ما قد يعكر صفاء نفسه الآمنة فلا يخرج بها عن جادتها وثباتها ، ولا يندفع دون تعقل أو ترو ليرد على ما سمع أو رأى من سوء فى هياج حيوانى حتى لا يكون مثارا للسخرية أو الاشمئزاز ممن حوله ولكى يتقى غضب ربه :

« الَّذِينَ يُنْفقُونَ فى السَّرَّاءِ والضَّرَّاء والكَاظمينَ الغَيْظَ والعَافِينَ عَنِ النَّاسِ واللهُ يُحِبُّ الُمحْسِنِينَ »(١٥) .

فالمؤمن الصابر هو من كظم غيظه وصبر ، ثم يتخذ الموقف المناسب فيما يعرض له من مثيرات الغضب فينأى بنفسه عن مجالس اللغو والمجون ويعرض عن الجاهلين :

« واصْبِرْ عَلَى مَايَقُولُونَ واهْجُرْهُمْ هَجْرا جَمِيلاً »(١٦) .

والمؤمن الصابر هو من تدبَّر أمره وتبين ما يجب أن يأخذ به من سلوك إزاء ما يثير النفس المؤمنة من أقوال أو أفعال ، ويتدبر أمره ويتعقل ، فلا يركبه الهياج والجموح ولا يندفع اندفاعا أهوج وبلا وعى وإلا أضاف لهذا الموقف مَشْهداً قد يكون أسوأ وأشد نُكرا :

« والَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثم وَ الفَواحِشَ وإذاَ مَاغَضِبوُا هُمْ يَغْفِرُونَ »(١٧) .

« وإنْ عَاقبتُمْ فعاقِبُوا بمِثْلِ مَاعُوقبْتُمْ بِهِ ولَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ »[١٨] .

بل عليه أن يكظم غيظه ويكبح جماح غضبه ، فيتذرع بالصبر الجميل الذى يهيء له سبل الرشاد والتروى الهادىء فيما يتخذ مما يرى أو يعفو ، أيهما أحسن وأوفق .

ومن كبح جماح نفسه وصبر ، فقد انتصر نصرين ، انتصر على هوى نفسه وانتصر على أهواء الناس وجموح سلوكهم ، وهذا هو النصر المبين :

« وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابهم البَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ »[١٩] .

« وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأولئِكَ مَاعَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ »[٢٠] .

٤- ومن مظاهر سلوك المؤمن الصدق واليقظة للحق ، وعدم الخداع أو الغفلة ، الصدق واليقظة مع ربه ومع نفسه ومع الناس :

١- فالمؤمن الصادق مع ربه هو من أدى له ما فرض عليه من عبادات حق ادائها ابتغاء مرضاته سبحانه وتعالى ، وليس رئاء أو تظاهراً أمام الناس بالورع والتقوى ، ثم يسير فى حياته صادقا مخلصا لما تهدف إليه هذه العبادات من برٍّ بربه وبِرّ بنفسه وبِرّ بالناس ، فلا يكون مثله مثل أولئك المنافقين الذين جاء فيهم قوله تعالى :

« إنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ الله وَهُوَ خَادِعُهُمْ وإذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاَةِ قَامُوا كُسَالَى يُراءُونَ النَّاسَ ولاَ يَذْكُرُونَ اللهَ إلا قَلِيلاً * مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لا إِلَىَ هَؤُلاءِ وَلاَ إلى هَؤُلاَءِ وَمَن يُضْلِلِ الله فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً »[٢١] .

٢- وصدق المؤمن مع نفسه من أهم مقومات السلوك الشخصى السليم الذى يجب أن يأخذ به كل مؤمن صدق إيمانه ولا يفوز بهذا الصدق وينعم به إلا من عرف حقيقة النفس البشرية من حيث نواحى ضعفها ونوازعها الهوجاء التى لايخدع بضغوطها ويتبعها إلا كل من ضعف إيمانه أو صدَّق نفسه وهو فى الواقع خادعها . وهو إذْ يترك نفسه على سجيتها ويتبع هواها تنعكس انفعالاتها فى تصرفات عملية خاطئة وسلوك غير سليم لايتلاءم مع ما يجب أن يتصف به المؤمن من تقوى وورع ، إذْ يركبه الغرور بالنفس والتعالى على الناس وإهدار حقوق الغير فيبوء بكراهية الخالق والخلقْ .

ومن مظاهر صدق المؤمن مع نفسه أن ينتصح بما ينصح الناس بعمله وأن يفعل بما يقول ، وأن يأخذ نفسه بالبرِّ قبل أن يطالب الناس بالبر والتقوى .

« أَتَـأْمُـرُونَ النَّـاسَ بِـالبِـرِّ وتَنْسَـوْنَ أَنْفُسَكُمْ وأنتم تتلونَ الكتـابَ أَفَـلاَ تَعْقِلُونَ »[٢٢] .

٣- الصدق مع الناس فلا ينطق المؤمن عن الهوى ، أو بما يسمع ، بغير علم وتبصر ، حتى لاينحدر بنفسه إلى استهانة الناس به وبما يقول فيفقد ثقتهم .

ومن مظاهر الصدق مع الناس أداء الشهادة بالحق بعيدا عن أى تأثير معنوى أو مادى ، إرهاباً كان هذا التأثير أو إغراء ، فلا يتحيز لصاحب سلطان خوفا من بطشه ، ولا يظلم بريئاً فقيراً طمعاً فى مال ظالم غنى .

والصدق فى القول عدة المؤمن الصادق يوم الحساب يثاب عليه خير ثواب :

« قَالَ اللهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَّضِىَ الله عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الفَوْزُ العَظِيمُ »[٢٣] .

« مِنَ المؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَاعَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَى نَحْبَهُ ومِنْهُمْ مَّن يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبدِيلاً * لِيَجْزِىَ الله الصادقِينَ بِصِدْقِهِمْ ويُعَذِّبَ المُنَافِقِينَ إن شَاءَ أَو يَتُوبَ عَلَيْهِم إنَّ الله كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً »[٢٤] .

٤- وصدق المؤمن فى العمل حافز على أداء ما يوكل إليه من أعمال فى صدق وأمانة وحماسة ما وسعه جهده فيتقنه ، بل إنه ليسعى إلى مزيد من الإتقان بالاستزادة من العلم بما ينفعه ويعينه على مزيد من الاتقان ، ومظاهر الصدق فى العمل محافظة العامل على مواعيد العمل المحددة وألا يضيع دقيقة من وقت العمل فيما لا جدوى منه ، والمحافظة على أدوات العمل وخاماته ، فلا إتلاف ولا تبذير ، وليضع العامل نصب عينيه أن صدقه فى عمله إنما يعود عليه بالخير فى شكل أجر ثابت يعيش منه أو تشجيع مادى أو معنوى من أصحاب العمل الذين يقدّرون فيه حرصه على مالهم ، كما يعود هذا الصدق على المجتمع إذْ يحصل على مقابل عادل لما يدفع من ثمن .

ومن آيات صدق المؤمن مع مجتمعه عدم النّفاق فيه ، فلا يظهر بوجه فى موقف أو مع جماعة من الناس ثم لايلبث أن يظهر بوجه مخالف كل المخالفة فى موقف آخر

يشهد أو جماعة أخرى ، أو يظهر أمام الناس بمظهر التقى الورع ويعلم الله أنـه [illegible] ، وفى مثل هؤلاء المتقلبين الأدعياء جاء قوله سبحانه وتعالى :

« ومن النَّاسِ من يُعجبك قولُه في الحَياةِ الدُّنيا ويُشْهِدُ الله عَلَى ما فِي قَلْبِه وهُوَ ألدُّ الخِصَامِ »(٢٥) .

« وإذا لَقُوا الَّذينَ آمنُوا قَالُوا آمنَّا وإذا خَلَوْا إلى شَيَاطِينِهِمْ قالُوا إنَّا مَعَكُمْ إنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ »(٢٦) .

« فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ الله مَرَضاً ولَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ »(٢٧) .

٥- ومن مظاهر صدق المؤمن مع نفسه ومع الناس ، اعتداله وتوسطه فى مأكله ومشربه . فلا خير فى مؤمن قد جعل كل همه ومتعته ومقصده فى حياته الدنيا ملء بطنه بما يمكنه الحصول عليه من طعام حتى لقد ينفق فى سبيل ذلك كل ماله وكسبه وقد يحرم أولاده مما يشتهون .

ففضلا عما يلحقه الإسراف بصـاحبه من تخمـة يصاب بهـا.وأمراض تصيبـه وتطحن بدنه ، وفضلا عن حرمانه ببطنته حق غيره فيما رزقه الله ، فإن للإسراف فى الطعام انعكاسات معنوية ضارة به وبغيره من الناس .

فالنهم البَطِنُ ، يتبلد تفكيره فلا يحس ولا يرى ما يعانيه الفقير المحروم وما فى نظراته من حسد وحقد ويستسلم لشهوات نفسه تسيّره حيث تشاء وكيف تريد وهو لايملك لها قيادا ولا يستطيع لها ضبطا .

وما أصدق قول رسول الله ﷺ فى وجوب الاعتدال فى الطعام ، إذْ يقول :

(نحن قوم لا نأكل حتى نجوع ، وإذا أكلنا لانشبع) صدق رسول الله .

أى أن على المؤمن ألا يأكل إلا ما يكفى منع غائلة الجوع ، ثم إذا أكل لايسرف فى الأكل إلى درجة التخمة .

ونحن لانقصد بالاعتدال فى المآكل الحرمان مما أحل الله من أطايب الطعام الذى يأتيه الله للمؤمن بل ننادى بالاعتدال فيه أى يتناول ما يصلح بدنه ويستسيغه ذوقه

ويشبع جوعه ، دون ما إسراف، وأن يتجنب تناول ما حرمه الله تحريما صريحا ، إنما خلق الله الطيبات والنعم لفائدة البشر :

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّبا ولاَ تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيطانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ[٢٨] .

« وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّه حَلاَلاً طَيِّبًا واتَّقوا الله الذِى أنتم بِهِ مُؤْمنُونَ »[٢٩] .

« وَهُوَ الذِى أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَ غيرَ مَعْرُوشَاتٍ و النَّخْلَ والزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ وَ الزَّيتونَ والرُّمَّانَ متشابِهاً وَغيرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِن ثَمرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلاَ تُسرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ المُسْرفِينَ »[٣٠] .

« كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُم ولا تَطْغَوْا فِيه فَيَحِلَّ عَلَيْكُم غَضَبِى وَ مَن يَحْلِلْ عَلَيْه غَضَبِى فَقَدْ هَوَى»[٣١] .

« إِنما حَرَّمَ عَلَيْكُمُ المَيْتَة والدَّمَ ولَحْمَ الخِنْزِيرِ وَ مَا أُهِلَّ لِغيرِ الله بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فإِنَّ اللهَ غَفُور رَّحِيمٌ »[٣٢] .

والحكمة الإلهية فى تحريم بعض أنواع الطعام على المسلم ، علمه سبحانه وتعالى بالأضرار الصحية التى تعود على بدنه من تناولها ، ومع ذلك ، ورحمة من الله على المسلم وخوفا على حياته من الذهاب جوعا ، أباح تناولها فى حالة واحدة وهى حالة المضطر الذى يركب الصعب من الأمور لإنقاذ مايجب عليه إنقاذه ، كأن يستبد الجوع بالإنسان ويهدده بالموت ولا يجد أمامه مايدفع عنه الموت جوعا إلا هذا النوع من الطعام .

والاعتدال فى الملبس والتزين من سمات السلوك الشخصى للمؤمن التقى وليس معنى الاعتدال هنا هو الحرمان مع القدرة أو لبس المهلهل المرقع من الثياب مع القدرة على لبس السليم اللائق منه . فإن الله قد أحل للمؤمن الملبس الطيب والتزين المعتدل الذى لايفقده وقاره أو يخرجه عن رجولته وعن جادة السلوك القويم ، وفى ذلك يقول أحكم القائلين :

« يَابَنِى آدم خُذُوا زِينتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا واشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ المُسْرِفِينَ »[٣٣] .

وذكر التزين عند الذهاب للمسجد يقصد به التحشم فى الملبس واتخاذ مايناسب منه وقار المؤمن ، وأن يكون التحشم عادة ملازمة للمؤمن داخل المسجد وخارجه .

والحكمة فى فرض الاعتدال فى الملبس والتزين عصمة المؤمن من الغرور بمتاع الدنيا والزّهو على الناس والتباهى بما عنده من مال ومتاع ، فضلا عن توقى حسد المحروم وحقده ، كما أن إسراف المؤمن فى التزين يخرجه عن سمة الرجولة التى خلقه الله عليها ، ويمسخها .

وتركز آيات القرآن الكريم على ملبس المرأة وتزينها بصفة خاصة ، لما فى المرأة من ضعف طبيعى تحاول التغلب عليه بجذب الأنظار إليها وكسب إعجاب الرجال بها ، وليبعدها عن مظاهر الفتنة والإغراء التى قد تنزلق بها وبالرجل إلى مهاوى الفحش والفجور ، وقد سبق أن بيّنا الحدود التى يجب أن تقف عندها المرأة فى لباسها وزينتها ، ودعمنا قولنا بالمناسب من محكم آيات التنزيل .

٥ ـ ومن أهم مظاهر السلوك القويم الذى يجب أن يكون عليه كلِ مؤمن ، تجنُّبِ الكبائر الأربع التى حرمها الله تحريما صريحا وبين أثرها الضار فى خُلُقِ المسلم المؤمن ، وهى :

شرب الخمر ، ولعب الميسر ، وإتيان الزنا ، وممارسة الربا .

وفيها مافيها من أضرار بالغة تلحق بجسم فاعلها وعقله وإفساد نفسه وإفساد المجتمع ، فضلا عما فيها من دنس يلحق إيمان المؤمن وتقواه فتضعفهما وتجلب على صاحبها مقت الله وغضبه .

١ ـ فالخمر كل مشروب يؤثر فى عقل الإنسان وتفكيره فيفسدهما مع علمه بذلك . ويطلق أهل الغرب عليها اسم المشروبات الروحية ، ولعلهم يقصدون بهذه التسمية أن شارب الخمر قد تجرد من إنسانيته وباع روحه للشيطان . . . فشارب الخمر يفقد وعيه ويتجرد من الروح الإنسانية فيتصرف بلا وعى فى فكره وقوله وعمله ، ويضل عن اتخاذ قرار حاسم أو أية خطوة سليمة .

.وسبق أن قلنا ان الإنسان يشترك مع الحيوان فى تلك الغرائز التى تجعل منهما الة طيعة تتصرف فيهما على ماتهوى ، والإنسان الذى يتبع هوى نفسه وينقاد لنزعاتها إنما

يتصرف تصرفا لاشعوريا إزاء مايعترضه من مثيرات هذه الغرائز ، فيتخبط فى سلوكه بلا وعى ولا تفكير ولا تدبير .

ولكن الله جلت قدرته وسمت حكمتـه ، وقد استخلف الإنسـان على هـذه الأرض لتعميرها ، قد وهبه أداة ضبط هذه الغرائز وتوجيهها إلى ماأراد الله لهـذه الأرض سن عمران . هذه الأداة هى العقل ، وهو نعمة اختص الله بها الإنسـان وأكرمه دون سائر الحيوان ، فالعقل هو خير أودعه الخالق جسد الإنسان ليتدبر به أمره بما فيه الخير والسعادة له ولغيره من الناس .

وبغير هذا العقل ينقلب الجنس البشرى إلى قطيع من الحيـوان الأعجم فهل لمؤمن أن يكفر بهذه النعمة ويضيعها بإتيان هذا المنكر الذى حرّمه ربه ؟

وماشرب الخمر إلا عصيان لأمر الله وكفر بنعمته .

لذلك كان شرب الخمر من أول المنكرات التى نهى الله عنها وحذر منها عباده المؤمنين ، وهى محرمة تحريما قاطعا فى الإسلام :

« يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الخَمْرُ والْمَيْسِرُ والأَنْصَابُ والأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ »(٣٤) .

إن شارب الخمر ، وقد أفقدته عقله ووعيه ، ليتخبط فى تفكيره وفى كلامه وحركاته ، إذْ تختلط فى فكره صور الأشياء فيهذى فى كلامه بما لايفهم ومـاليس له هدف ، كما أن شرب الخمر وإدمانها يتلف الشارب أعصابه فيفقد السيطرة عليها فيتخبط فى حركاته ، فضلا عما يفقده من اتزان ووقار فيصبح عضواً غـريباً وسط مجتمع إنسانى صالح ، وموضع سخرية واحتقار الناس لما فى سلوكه من خروج بيّن على العرف السائد وعلى الآداب العامة ، ويفقد ثقة الناس به ، فيرفضون التعامل معه فى أية صورة من الصور ، وكيف يأمن عاقل لمدمن خمر هو كل يوم فى شأن ؟ بل إن من شاربى الخمر من يذهب به إدمانه لها إلى الانقلاب إلى وحش ضار ، إذ ينهال على من يوقعه سوء حظه فى طريقه أو فى متناول يده سبا أو ضـربا ، الأمـر الذى ينعكس عليه هو أيضا بما هو أشد وأفظع ، وهو الجانب الضعيف فى هذا وذاك ، وينتهى به الأمر إلى نبذ الناس له نبذ النواة ويبوء بكراهية الناس ومقاطعتهم له .

ويل لأسرة عائلها مدمن خمر !

ويل لمصالح أناس يتولاها شارب خمر !

ويل ويل لمجتمع تولى أمره شارب خمر !

وإذا مانصح شارب الخمر بتقوى ربه والإقلاع عن هذا المنكر النمس من المبررات مالم ينزل الله بها من سلطان .

فهو تارة يدعى بأن الخمر لاتؤثر فى عقله أو وعيه أو سلوكه مهما شرب منها . بل إنه قد يفخر بشربها مدعيا بأنه من القوة وثبات الأعصاب بحيث أنه لا يتأثر بها مهما شرب منها ، ولا يدرى هذا البائس أنه من كثرة ماأدمن قد فقد شعوره وتبلد حسه وماتت فيه كل عاطفة إنسانية نبيلة ، ولبئس من لا يحس بما فى الدنيا ولا يدرى مما حوله شيئا ، ولا خير يرجى منه .

وقد يدعى تارة أخرى بأن الخمر تفيده صحيا ، متمثلا بقول ذلك الماجن الذى قال (وداونى بالتى كانت هى الداء) ، وهو فى الواقع لا يخدع إلا نفسه فقد أثبتت الأبحاث الطبية الأثر السيىء للمشروبات الكحولية فى جسم الإنسان .

ويدعى تارة ثالثة زوراً وبهتاناً ، فائدة الخمر له ، ويقتطع فى سبيل تبرير ادعائه هذا ، جزءا من آية قرآنية ويغمض عينيه عن بقية الآية :

فهلا يكفى تحريم العليم الخبير شرب الخمر تحريما قاطعا ، قلت كميتها أو كثرت إذْ يقول سبحانه وتعالى :

« يَسْأَلُونَكَ عَنِ الخَمْرِ والمَيْسرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وإِثْمُهُمَا أَكبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ العَفْوَ كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُم الآيَاتِ لَعَلَّكُم تَتَفَكَّرُونَ »(٣٥) .

ومن انعكاسات شرب الخمر فى سلوك شاربها ، انصرافه بها عن ذكر ربه وتقواه ، وعن الصلاة له والتقرب منه ، فضلا عما يبثه من فتنة بين الناس ، وينهى الله عباده عن شرب الخمر محذرا ومهددا .

« إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِى الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ »(٣٦) .

٢ ـ الميسر : وهو كالخمر رجس يوسوس به الشيطان فى الإنسان فيستسلم له ضعيف الإيمان ، وهو تدنيس لمال لاعبه ، يجلب عليه الشر ويذهب عنه الخير . ويصرف العبد عن ذكر ربه وتقواه . وقد حرمه الله لمخالفته لما يجب أن يكون عليه المؤمن من صلاح وتقوى وخلُق كريم ، ولما فيه من كفر بنعم الله وعصيانه .

فلاعب الميسر يصرف وقته فى هذه اللعبة وينسى واجب الصلاة لربه ، فضلا عما فى هذه اللعبة من أكل أموال الناس بالباطل ، وتدنيس مارزقه الله من مال إذ ينفقه فيما لاينفع بدلاً من إحسان صرفه كسد حاجة عياله أو مديد المساعدة للفقير المحروم .

ولاعب الميسر إذْ يطمع فى زيادة ماله بهذا الكسب الحرام إنما يخدع نفسه ، فلعب الميسر خسارة محققة للكاسب والخاسر على السواء فالكاسب يطمع فى المزيد فيصر على اللعب ويمعن فيه وكلما كسب ازداد إصراراً على الاستمرار فى اللعب وقد يخسر فى مرة ماكسبه فى مرات ، والخاسر يصر على استرداد ماخسر من ماله ، وهكذا يدور كلا اللاعبين فى حلقة مفرغة لا نهاية لها ولا مخرج منها ولا خلاص .

فلعب الميسر من عوامل هدم المجتمع وفساده ، فالكاسب يزداد قسوة وبلادة حس والخاسر يزداد حسداً وحقداً وكراهية للكاسب . وقد ينزلق هذا المنكر بمؤتيه فتمتد يده لمال الغير بالسرقة أو النصب والاحتيال ، ولمال الدولة بالاختلاس والتزوير ، الأمر الذى يوقعه فى النهاية فى شر فعلته جزاء وفاقاً له فى الحياة الدنيا ، ولَعَذاب الآخرة أكبر وأشد وبالا .

٣ ـ الزنا : وهو وطء الرجل المرأة بغير وجه شرعى ، وهو منكر حرمه الله على كل مؤمن ويحاسب مؤتيه حساباً عسيراً ، كما تحاسب المرأة إذا آتته طائعة مختارة .

والزنا فضلا عن انحداره بصاحبه إلى مرتبة البهائم العجماوات التى تنساق سوقا وبلا وعى إلى اشباع غريزتها الجنسية . فهو من الكبائر التى لاتليق بالجنس الإنسانى الذى استخلفه الله فى أرضه ليعيش فيها بالحق والعدل والصلاح والتقوى ، لا بالفسوق والعدوان .

والحكمة فى تحريم الزنا هى حفظ الأنساب وتنظيم العلاقات الأسرية ، حتى لا يولد مولود لا يعرف أبا ينتسب إليه وله عليه حقوق ، كما أن فى تحريم الزنا حفظا لحقوق الغير ، فلا يعتدى إنسان بهذه الفعلة المنكرة على حق غيره عدوانا يؤدى إلى تفكك روابط الأسرة ، وبالتالى تفكك روابط المجتمع وانحلاله وبث الفوضى فيه .

وقد شاء الله بواسع علمه وعظيم إحاطته بطبيعة النفس البشرية ونوازعها وحفظاً للنوع الإنسانى من الانقراض ، تنظيم العلاقة بين الرجل والمرأة بهذا الرباط الشرعى المقدس ، ألا وهو تزاوج الرجل والمرأة الذى أقره الله وأمر به فى كل شرائعه ووضع له من الأصول والشروط والضوابط مايحفظ به حقوق كل من الزوجين . وزاد فى تكريم المؤمن المسلم فأحل له الزواج بأكثر من واحدة حتى الرابعة تحصينا له وحفاظا عليه من الانزلاق إلى جريمة الزنا ، وحتى لا يكون لمؤمن بعد ذلك عذره إذا ماسولت له نفسه ارتكاب هذه المعصية ، ومن فعلها بعد ذلك فإثمه على نفسه وجزاؤه من جنس عمله ، لذلك حرم الله الزنا تحريما قاطعا وصريحا :

« وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً »(٣٧) .

وإذْ حرم سبحانه وتعالى الزنا فقد أورد من العقوبات على مؤتيه أشدها ، وبين فى هذا العقاب نوعه وطريقة تنفيذه ، ليكون فى ذلك عبرة لمن يعتبر .

« الزانِيَةُ والزَّانِي فاجْلِدوا كُلَّ واحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلاَ تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ الله إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ »(٣٨) .

كما حرم على المؤمن الزواج من زانية ، وحرم على المؤمنة الزواج من زان ، حتى لا يجتمع الطيب والخبيث ولا يتعايشا ، تطهيرا للطيب من أى دنس :

« الزَّانِي لاَيَنْكِحُ إلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لاَيَنْكِحُهَا إلاَّ زَانٍ أَوْمُشْرِكٌ وَحَرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ »(٣٩)

« وَالَّذِينَ لاَيَدْعُونَ مَعَ الله إِلَهًا آخَرَ ، ولاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ الله إلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ ، وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أثاماً »(٤٠) .

وجعل الله الزانية أكبر إثما إذا ماكانت متزوجة ، فهى قد تركت ماأحل الله لها ورغبت فيما حرّم ، وخانت عهدها لزوجها ، فهى إذن نجس يجب تطهير المجتمع

منها ، وعلى أولياء أمرها عزلها عن المجتمع إلى آخر حياتها ، وتقول الآية فى هذه الزانية :

« واللَّاتِي يَأْتِينَ الفَاحِشَةَ مِن نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنْكُمْ فَإن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ المَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ الله لَهُنَّ سَبِيلاً »(٤١) .

٤ – الربا : وهو لغويا معناه الزيادة والنمو ، والربا بالمعنى الدينى زيادة مال شخص وتنميته باضافة مال الغير إليه بغير حق ، وطريقته أن يُقرض شخص موسر آخرَ معسرا مالاً لأَجَلٍ معين ثم يسترده مضافا إليه جزء من مال المقترض ، وهو ما حرمه الله تعالى ، وجعله من دلائل عدم التقوى .

« يَاأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً واتَّقُوا الله لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ »(٤٢) .

« يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا الله وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ »(٤٣)

والحكمة فى تحريم الربا هى نفس الحكمة فى فرض الزكاة وبذل الصدقات على كل قادر وفى كل وقت ، وعن طريقهما يربى الله مال المزكى والباذل بمزيد من المال الحلال والجزاء الحسن :

« يَمْحَقُ الله الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَالله لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ »(٤٤) .

« وَمَا آتَيْتُمْ مِّن رِّبًا لِيَرْبُوَا فِى أَمْوَالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُوا عِنْدَ الله وَمَا آتَيْتُمْ مِّنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ الله فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ»(٤٥) .

أما أخذ الربا لكى يزداد الغنى غنى والفقير فقرا ، فهو ما يتنافى مع المجتمع المثالى المتكامل ، ذلك المجتمع الذى يعين فيه الموسر أخاه المعسر توثيقا لأواصر هذا المجتمع وتكافله وقوته .

« وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا »(٤٦) .

ولا يشفع فى الربا قول أصحابه وادعاؤ هم أنه نوع من التجارة . فالتجارة شراء بثمن وبيع بثمن يزيد قليلا عن ثمن الشراء ، وما المال إلا وسيلة لهذه التجارة

ولا يصح أن يكون هو موضوع التجارة فربح التجارة رزق حلال يحصل عليه صاحبه عن طريق حرفة شريفة وضرورة من ضرورات المجتمع ، وبين عمليتى الشراء والبيع تجرى عدة عمليات وتتهيأ مجالات واسعة لبقية الناس للعمل الشريف والكسب الحلال .

لذلك يسفه محكم التنزيل رأى آكلى الربا الذين يرون فى الربا تجارة ويقول فيهم :

« الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِى يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ »(٤٧) .

٥ – ومن مظاهر سلوك المؤمن الشخصى الاعتدال فى الإنفاق ، وهو بذل الإنسان ماله نقدا أو عينا للحصول على كسب مادى أو معنوى لا يمكنه الحصول عليه إلا ببذل المال .

وبقدر الاعتدال فى هذا البذل وصلاح الغرض منه بقدر ما تكون سلامة سلوك المنفق ، وبقدر إحسان الإنفاق بقدر ما تكون سلامة النتيجة المرجوة وكسب رضا الله سبحانه وتعالى :

« وَأَنْفِقُوا فِى سَبِيلِ اللهِ وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ »(٤٨) .

والمقصود بالإنفاق فى سبيل الله أن يذكر المنفق ربه ويتقيه ، فلا يسرف فى الإنفاق فيما لا جدوى منه ولا نفع ، ولا ينفق ماله فى معصية ، بل ينفقه فيما يرضى الله وبما أمر الله ، فالإنفاق لإغاثة الملهوف جهاد بالمال فى سبيل الله ، وعون الغنى للفقير بالمال جهاد فى سبيل الله وبذل المال لمحاربة المعتدين جهاد فى سبيل الله ، فيطهر الله ماله ويربيه ويضاعف كسب المنفق بما أنفق :

« مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِى سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ »(٤٩) .

وفى إنفاق المؤمن ماله للدفاع عن إخوانه وعن عقيدته ، إنفاق فى سبيل الله :

« لاَ يَسْتَوِى القَاعِدُونَ مِنَ المُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِى الضَّرَرِ وَالمُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللهُ المُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى القَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاً وَعَدَ اللهُ الحُسْنَى وَفَضَّلَ اللهُ المُجَاهِدِينَ عَلَى القَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا »(٥٠) .

وفى بذل المال للمحتاج المعدم ومسح كربْ الملهوف إنفاق فى سبيل الله . وفى بذل المال لفتح المدارس لتعليم أبناء المسلمين . وفى إقامة المستشفيات لعلاجهم ، وفى إقامة الملاجىء لإيواء الأيتام والمعدمين والشيوخ والعجزة وفى إقامة مساجد ليصلى فيها المسلمون ، وفى إقامة المشروعات الاقتصادية التى تتيح للناس ما يحتاجون إليه وليشتغل فيها الوف العاملين ويعيشوا هم وذووهم عيشة كريمة شريفة . كل هذا إنفاق فى سبيل الله وبه يكتسب المنفق رضا ربه ورحمته وتوفيقه .

« لَيْسَ البِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ وَلَكِنَّ البِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ وَالمَلاَئِكَةِ وَالكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى المَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِى القُرْبَى وَاليَتَامَى وَالمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِى الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِى البَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ البَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ المُتَّقُونَ »(٥١) .

وليس فى سبيل الله بذل المؤمن ماله تحقيقا لمآرب دنيوية نهى الله عنها فى كتابه الكريم ، كحب الظهور والتسلط أو الإذلال بالمال ، أو بالظهور أمام الناس بما ليس فيه . هذا الإنفاق لا يقبله الله قبولا حسنا بل يذمه ويرفضه :

« يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالمَنِّ وَالأَذَى كَالَّذِى يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَ يَقْدِرُونَ عَلَى شَىْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللهُ لاَ يَهْدِى القَوْمَ الكَافِرِينَ »(٥٢) .

ويرشدنا الأدب القرآنى إلى أقوم طرق الإنفاق والعطاء فلا تعالى فى العطاء ولا خدش لكرامة وحياء من يأخذ .

« الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَموَالَهُمْ فِى سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ لاَ يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلاَ أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ »(٥٣) .

وخير من العطاء الذى يتبعه أذى ، كلمة طيبة يبذلها المؤمن ابتغاء مرضاة الله :

« قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ »(٥٤) .

ويذم الله من اكتنز المال وحبسه عن الإنفاق وأمسكه عن البذل ، لما فى هذا الاكتناز من جشع مذموم ، ولما فى حبس المال عن التداول من تعطيل لعجلة النشاط الاقتصادى وإضعاف لقوى المؤمنين ، فضلا عما فى ذلك من معصية لأمر الله بالتكافل والتعاون بين المؤمنين :

«الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ الله مِن فَضْلِهِ وَأعتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا »(٥٥) .

هوامــش البــاب الثالث

والفصــل الأول

(١) الإسراء ٩
(٢) الأنعام ١٥٣
(٣) فاتحة الكتاب ٦ - ٧
(٤) التوبة ٧١
(٥) فصلت ٤٦
(٦) البقرة ١١٢
(٧) الحجرات ١٢
(٨) العصر ٢ ، ٣
(٩) النحل ١٢٥
(١٠) الإسراء ٣٦
(١١) الحجرات ٦
(١٢) البقرة ١٧٧
(١٣) آل عمران ١٨٦
(١٤) البقرة ٤٥
(١٥) آل عمران ١٣٤
(١٦) المزمل ١٠
(١٧) الشورى ٣٧
(١٨) النحل ١٢٦
(١٩) الشورى ٣٩
(٢٠) الشورى ٤١
(٢١) النساء١٤٢ ، ١٤٣
(٢٢) البقرة ٤٤
(٢٣) المائدة ١١٩
(٢٤) الأحزاب ٢٣ ، ٢٤
(٢٥) البقرة ٢٠٤
(٢٦) البقرة ١٤
(٢٧) البقرة ١٠
(٢٨) البقرة ١٦٨
(٢٩) المائدة ٨٨
(٣٠) الأنعام ١٤١
(٣١) طه ٨١
(٣٢) النحل ١١٥
(٣٣) الأعراف ٣١

وفى داخل أى مجتمع حيوانى تكون القوة هى العرف السائد ، فيعتدى القوى فيه على الضعيف ، ويسلبه ما فى يده وقد يسلبه الحياة نفسها ، وهذا ما يعرف بشريعة الغاب .

أما الجنس البشرى فقد ذلل الله له الأرض وميزه بالعقل الذى يدبر به أمره ويرشده إلى طرق استغلال مواردها الطبيعية من نبات وحيوان ومعدن .

غير أنه كثيرا ما تتعارض المطالب والرغبات بين أفراد أو جماعات الجنس البشرى ، وقد يلجأ القوى إلى اغتصاب ما بيد الضعيف وقد يتمسك المعتدَى عليه بحقه فينشب القتال بين الأفراد وتشتعل الحروب بين الجماعات ، لذلك تعارفت كل جماعة من الجماعات البشرية على وضع طائفة من القواعد والأسس نظمت بها العلاقات الواجبة بين أفرادها تنظيما يعطى كل ذى حق حقه ويلزمه مقابل ذلك بأداء بعض الواجبات ويعتبر من خالف هذه القواعد خارجا على ما تعارفت عليه الجماعة ، وهذا هو ما يسمى بالقانون .

فإذا كان هذا القانون من وضع جماعة بعينها وتأخذ به أفرادها سمى بالقانون العام . وإذا كان من وضع عدة جماعات وتأخذ به كل جماعة فى علاقاتها مع غيرها من الجماعات ، سمى بالقانون الدولى .

ومع كل هذه التنظيمات والقوانين ، ظل النزاع منذ الأزل قائما بين أفراد الجماعة الواحدة ، وبين الجماعات بمختلف أوطانها .

وهذا هو أكبر ما ابتليت به البشرية منذ أن كان بنو آدم على سطح هذه الأرض . ومع كل هذه التنظيمات والقوانين الأرضية ، ظل التنازع والخلاف والقتال منذ الأزل قائما بين الأفراد ، وقائما بين الجماعات .

لم يفت القرآن الكريم هذه الفوضى القائمة بين أفراد البشر ، وبين جماعاته ، بل بينّ فى التشريعات السماوية الحكيمة ما يكفل القضاء عليها إذا ما وعاها الناس وآمنوا بحكمتها وأخذوا أنفسهم بها .

وإذْ شرّع اللهُ ما شرع للسلوك الشخصى للمؤمن ، إنما يعدّه ليكون عضواً نافعاً وصالحاً فى تعامله مع باقى أفراد مجتمعه الذى يعيش فيه وترتبط مصالحه

بمصالحهم بحيث تقوم العلاقات والتعامل والتعايش بين أفراد المجتمع على أساس الحق والعدل والمساواة ، وهذا ما يعرف بالسلوك الاجتماعى الذى يجب أن يأخذ به نفسه كل من آمن بالله واتقاه .

وإن تماسك بنيان أى مجتمع بشرى وتعاونه وسيلة لبقائه واستمراره وارتقائه وكل هذا رهن باتباع ما شرع العليم الخبير للبشر كافة .

يبين الله سبحانه وتعالى فى محكم تنزيله مقومات هذا السلوك الاجتماعى مبتدئاً بما يجب أن تكون عليه العلاقات بين أفراد الأسرة الواحدة ، إلى ما يجب أن تكون عليه العلاقة بين أفراد المجتمع كله . ونظمت آيات قرآنه الكريم أسس الحياة الاجتماعية البشرية الكريمة ، والتعايش السلمى بين أفراد المجتمع ، يتساوى فيه جميع الأفراد فيما لهم من حقوق يؤدون مقابلها ما عليهم من واجبات ، فلا عدوان إلا بالحق ، ولا تسلط ظالم من قوى على ضعيف

أولا : القرآن والسلوك العائلى :

يتناول هذا السلوك العلاقة بين الرجل وزوجه ، ثم بينهما وبين أبنائهما . وبصلاح البنيان الأسرى صلاح الأمة كلها ، وما الأمة إلا مجموع هذه الأسَر :

١ - سلوك الزوج مع زوجته : ركز القرآن الكريم على واجبات الزوج نحو زوجته ، لأنه أقوى الطرفين بما ميزه الله من صفات جسدية وعقلية ، ولأنه فى الغالب يكون هو البادىء بالعدوان :

« الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ الله بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْض وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ الله وَاللاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلاَ تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ الله كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا »[1] .

والزواج عقد مكتوب وعهد متعارف عليه بين رجل وامرأة على أن يتعايشا فى بيت واحد وأن الزواج شركة بينهما ، لكل منهما وظيفته وحقوقه وواجباته فيها :

الزوج يعول الأسرة ويدافع عنها ، والزوجة تنجب له الأولاد وتتعهدهم بالرعاية والتربية ، فضلا عن رعاية شئون البيت بما يحقق راحة وسعادة الزوجين

أولادهم وينفعون بهم مجتمعهم ، فينشئونهم على تأدية واجب العبادات نحو ربهم ، وعلى الأخذ بالمعروف والانتهاء عن المنكر ، وأن يكون الآباء فى كل هذا القدوة الصالحة لأبنائهم فى سلوكهم حتى يكون لنصحهم أثره الطيب ولكلمتهم قيمتها عند أبنائهم .

وهذا لقمان يعظ ابنه بأداء حق الله عليه بالعبادات الواجبة وينصحه بالتجمل بالصبر والثبات فى الشدائد والتواضع أمام الناس :

« وإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَابُنَيَّ لاَ تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ »[11] .

« وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلاَ تَمْشِ فِى الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ »[12] .

ويكشف الخبير الحكيم للمؤمنين طبيعة النفس البشرية وما يعتمل فيها من أهواء ليكون الآباء على بصيرة بهذه الأهواء التى تجمح أحيانا بصاحبها فيأتى تصرفات تضرّ به وبأبنائه ويضرب لنا ذلك مثلا سيرة يوسف عليه السلام ، إذ ميزه أبوه على أخوته بمزيد من المحبة والإعزاز ، فأثار بذلك غيرة أخوته منه حتى تآمروا على قتله لولا أن نجاه ربه :

« لَقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ »[13] إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ، إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلاَلٍ مُّبِينٍ »[14] * «اُقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْماً صَالِحِينَ »[15].

٣ - وعلاقة الابن بوالديه يجب أن تقوم على الاحترام والتقدير والحب لما تحملا من تعب ونصب فى سبيل تربيته ورعايته ، بل لقد جعل الله طاعة الابن لوالديه فى المرتبه الثانية بعد طاعة الله الذى خلقهم وسواهم ورزقهم ، وفى ذلك تكريم من الله عز وجل ما بعده تكريم :

« وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إلا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً »[16] * « واخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيراً »[17]

وليذكر الأبناء فضل والديهم عليهم ، وخاصة ما لاقته أمهاتهم من جَهْدٍ ونَصَبٍ فى حملهم ووضعهم ورضاعتهم :

« وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِى عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِى وَلِوَالِدَيْكَ إِلَىَّ الْمَصِيرُ »(١٨) .

« وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِى أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِى أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَى وَالِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِى إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ الْمُسْلِمِينَ »(١٩) .

فما أحرى الأبناء برد بعض دَيْنهم لآبائهم ، وما أجدرهم بطاعتهم والتماس رضاهم ، وما يريد الآباء والأمهات لأبنائهم إلا الخير والسعادة . فما أقسى ذلك العاق الذى يعصى والديه ، وهما لا يريدان منه إلا أن يكون عند حسن ظنهما فى الوفاء لهما والبر بهما ، وما أضل الولد الذى يدعوه والداه إلى الاستقامة والتقوى فيأبى إلا العوَجَ والضلال :

« وَالَّذِى قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِى أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ ، إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ، فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ(٢٠) « أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِى أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ »(٢١) .

حالة واحدة لا طاعة فيها على ولد لوالديه ، وهى حضهما له على الكفر والشرك بالله ومعصيته ، إذْ لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، وحتى فى هذه الحالة ومع عدم طاعة الأبناء للآباء ، يجب على الأبناء الرد بمعروف ، مع إصرارهم وتمسكهم بطاعة الله :

« يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا آبَاءكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ مِّنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ »(٢٢) .

« وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِى مَالَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى الدُّنْيَا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ »(٢٣) .

ومن الآداب الاجتماعية الإسلامية ، ألا يزور مؤمن بيت أخيه المؤمن فى غيابه إلا فى حالات معينة لا يجد معها مفراً من هذه الزيارة ، كإبلاغ أمر هام أو لطلب مُلِحّ . وفى هذه الحالة فقط له أن يدخل ، على أن يختصر الزيارة ، وأن يكون حديثه مع أهل رب البيت من وراء حجاب ، حتى لا ينزغ فيهم الشيطان بما يسىء لرب البيت أويحرج تقوى الزائر .

وإذا دُعى مؤمن إلى طعام عند صاحب له ، فعليه أن يلبى الدعوة شاكرا ، فإذا أكل كان عليه أن يستأذن للانصراف ، وإذا كانت الزيارة من غير دعوة سابقة فعلى الزائر ألا يطيل المكث انتظارا لموعد طعام رب البيت وأهله الذى قد لا يكون حسب حسابا لزائر ، وقد يستحى أن يبدى تبرمه وضيقه بإطالة هذه الزيارة وفى ذلك تقول الآية :

« يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمنُوا لاتَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إلاَّ أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إلى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إنَاهُ ولكنْ إذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلاَ مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى النَّبِىَّ فَيَسْتَحْى مِنْكُمْ واللهُ لا يَسْتَحى مِنَ الْحَقِّ وإذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذلِكُمْ أَطْهَرُ لقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ومَا كَانَ لَكُمْ أن تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ وَلاَ أَن تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللهِ عَظيماً »(٢٨) .

ورغم أن الآية خصت أسلوب زيارة بيوت النبى بما أراد لهذه الزيارة من طهر وتوقير فهى دليل عمل ومرشد حكيم للمؤمنين كافة فى آداب الزيارة .

٣- ويحدد لنا القرآن أساليب السلوك القويم التى يجب أن نأخذ بها أنفسنا فى مجالسنا الخاصة ومجالسنا العامة :

فلا يليق بمؤمن أن يتسابق لاتخاذ مركز الصدارة بغير حق فى أى مجلس ، بل عليه مراعاة من هم أكبر منه سنا وفضلاً ، ومن هم أكثر منه علماً أو مقاماً فعليه أن يضع نفسه فى مكانه المناسب ومركزه الطبيعى فى هذا المجلس فيتحاشى بحسن سلوكه استنكار الناس له واستهجانهم لمسْلكه ورحم الله امرأ عرف قدر نفسه وأقدار غيره من الناس وقد جاء فى القرآن الكريم :

« يأ أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا لاَ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىِ اللهِ وَرَسُولِهِ واتَّقُوا اللهَ إنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ »(٢٩) .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللهُ لَكُمْ وإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ والَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ واللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ »(٣٠) .

وإذا ما دار الحديث فى المجلس فليكن حديثاً هادئاً هادفاً خفيض الصوت ولايجهد سمع الناس ، ولا يحاول متطفل أن يظهر نفسه بغير حق ويثبت وجوده ويفرض رأيه برفع صوته ظنا منه أنه بذلك إنما يلفت الأنظار أو يملك ناصية الموقف أو يكسب رأيه قوة إقناع ، وهو فى حقيقة أمره إنما يثير اشمئزاز السامعين ويكشف بنفسه تفاهته وسخف رأيه وقد يضيع صوت الحق ، بما يثيره هذا المتطفل من جلبة وفوضى ويأمرنا العزيز الحكيم بخفض الصوت فى حضرة من هم أكثر علما وأعظم مقاما :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَتَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ، وَلاَ تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ »(٣١) * إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وأَجْرٌ عَظِيمٌ »(٣٢) .

٤- وليكن اجتماع المؤمنين على خير ، وأن يكون حديثهم لصالح مجتمعهم ، هدفه إصلاح أحوال المجتمع الإسلامى وبحث مشاكله ، والتشاور فى حلها بما يرضى الله وبما يزيل عنهم عوامل الفرقة والاختلاف ، ويعلى من شأنهم ليكون المؤمنون مسلمين حقا ، والإسلام يدعو إلى السلام والوئام ، كما يدعو إلى إصلاح ذات البين بين فردين أو طائفتين من المؤمنين نزغ فيهم الشيطان بالكفر بالله وعصيان أوامره ، وليكن اجتماع المؤمنين على أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ، والبعد عن اللغو الفارغ الذى قد يوسع شقة الخلاف فى الأمة الإسلامية بدلا من زالته ، وحتى لا تحل العداوة والبغضاء محل المحبة والوئام ، ولنعمل بما جاء فى قوله تعالى :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلاتَتَنَاجَوْا بِالإِثْمِ والْعُدْوَانِ وَمَعصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بالبِرِّ وَالتَّقْوَى ، واتَّقُوا اللهَ الَّذِى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ »(٣٣) .

« لاَخَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ ، وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ فَسَوْفَ نُؤتِيهِ أَجْراً عَظِيماً »(٣٤) .

« الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فتح مِنَ اللهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمنينَ فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَلَن يَجْعَلَ اللهُ لِلكافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمنينَ سَبيلا »(٤٤) .

« مُذَبْذَبينَ بَيْنَ ذَلِكَ لاَ إِلَى هَؤُلاَءِ ولا إِلَى هَؤُلاَءِ ، وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَه سَبِيلاً »(٤٥) .

« فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُّصِيبَةٌ بِماَ قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللهِ إِن أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَاناً وَتَوْفِيقاً »(٤٦) . « أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللهُ ما فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنهم وَ عِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فى أَنفسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً »(٤٧) .

ومن المنافقين من يستحى من الخلق ولا يستحى من الخالق ذى الانتقام ، فيتخذ أمام الناس مظهر التقى الورع الخاشع لله فى عباداته وهو فى ضلال مبين ، والله كاشف أمره للمؤمنين :

« إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وإِذَا قاموا إلى الصلاَةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَاسَ وَ لاَ يَذْكُرُونَ اللهَ إِلاَّ قَلِيلاً »(٤٨) .

هؤلاء هم الذين مأواهم قاع جهنم يوم الحساب العسير ، ولهم فيها أشد العذاب جزاء وفاقا لكفرهم بالله وهزئهم بالدين وإفسادهم فى الأرض ، وحق فيهم قوله تعالى :

« إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِى الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تجدهم نَصِيراً»(٤٩) . « بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً »(٥٠) . « الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ المؤمِنِين أَيَبتغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ العِزَّةَ لله جَمِيعاً »(٥١) .

٧- والمؤمن المعتز بإيمانه ، لايصاحب ولا يجالس من هم دونه إيمانا أو علما ، لا - ترفعا ولا استكبارا ، بل لأنهم لاخير يرجى من مجالستهم ولا جدوى فى الحديث إليهم ولا هم على استعداد للاستماع إليه ، وليست لديهم النية للإفادة من علمه وتقواه لأن الله قد طبع على قلوبهم الكفر بسوء نيتهم وعنادهم ومكابرتهم ، فعلى المؤمن عدم مخالطتهم أو محاولة موعظتهم ، لأنه سيلقى منهم عنتا واجهادا لا طائل

وراءهما بل قد يسمع منهم ما يؤذى إيمانه وتقواه أو يجرح عقيدته بغير حق ، إمعانا منهم فى اللغو الفارغ والكراهية البينة .

« يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتْ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْواهِهِم وَ مَا تُخْفِى صُدُورُهمْ أَكْبَرُ قَدْ بيَّنَّا لَكُمُ الآياتِ إنْ كُنْتمْ تَعْقِلُونَ »[٥٢] .

فهؤلاء لا أمن للمؤمن عندهم ولا أمان يظهرون لـه مالا يبطنون ، يكاد بغْضُهم للمؤمنين أن يقفز من عيونهم ، ويفلت من بين شفاههم الحسد والحقد على ما أتى الله المؤمنين من نعم الهداية والرضا والاطمئنان ويتمنون زوال هذه النعم عن المؤمنين ويكيدون لهم ويتآمرون عليهم ، والله خير حافظ من كيدهم وكاشف ما فى صدورهم ، ليأخذ المؤمنون منهم حذرهم :

«هَا أَنْتُمْ أولاءِ تُحِبُّونَهُمْ ولاَ يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالكِتابِ كُلِّه وإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الغَيْظِ ، قل مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ ، إنَّ الله عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُور »[٥٣] . « إنْ تَمْسَسْكُمْ حسنةٌ تَسُؤْهُمْ وَإن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وإن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إنَّ الله بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ »[٥٤] .

٨- وعلى المؤمن ألا ينساق فى حديثه مع تيار الإشاعات الكاذبة المغرضة التى ينفثها المنافقون فى المجتمع الإسلامى ، ابتغاء مصلحة عاجلة ، وعليه أن يفسد هذه الإشاعات ولا يكون بوقا من أبواقها ، وعليه أن يحصرها فى أضيق نطاق ويقتلها فى مهدها ولا يكون وسيلة لتفشيها ، وعليه أن يقول الحق والكلمة الطيبة التى يريد بها وجه الله ، والله الحق الطيب يحذرنا من هذا الكذب وهؤلاء الكذابين .

« فَلاَ تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ[٥٥] * وَلاَ تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَّهِينٍ * هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ مَّنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ »[٥٦] .

ويأمرنا بأن نأخذ فى سلوكنا الاجتماعى بالحكمة والمجاملة مادامـا يؤديان لإحقاق الحق .

« ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ والْمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ »[٥٧] .

« أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ الله مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَة كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى السَّمَاءِ ٭ تُؤْتِى أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ الله الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ »(٥٨) .

« هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إلاَّ الإِحْسَانُ »(٥٩) .

٦ ـ ومن الأدب القرآنى المفروض على كل مؤمن صدق إيمانه ، حفظه عهده مع الناس بعد عهده مع الله ، وحفظ الأمانات وردها لأصحابها كاملة ، فحفظ العهود والأمانات وصدق الكلمة هما عماد الثقة والترابط والقوة داخل المجتمع الإسلامى .
فمن عاهد الناس إنما يعاهد الله ويشهده على الوفاء بما عاهد ، ومن يؤدى الشهادة بالحق والعدل إنما يشهد الله على مايقول ، فليؤدها بعيدا عن الهوى أو متأثراً بشخصيات من يشهد لهم أو عليهم ، بل عليه أن يقول الحق ولايخشى فيها يقول لومة لائم ، ولو كانت ضد أقرب الناس وأحبهم إليه فلا يأخذ جانب القوى بغير حق خوفا منه ، ولا يشهد زورا ضد ضعيف استهانة بشأنه . والله يحب المقسطين .

« وأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلاَ تَنْقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَاتَفْعَلُونَ »(٦٠) .

« يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لله شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلاَيَجْرِمَنَّكُمْ شَنَئَانُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَتَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوى واتَّقُوا الله إِنَّ الله خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُون »(٦١) .

« وَمِنْ أَهْلِ الكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَنْ إِنْ تَأْمَنهُ بِدِينَارٍ لاَ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلا مَادُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِى الأُمِّيينَ سَبِيلٌ وَيقُولُونَ عَلَى الله الكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ(٦٢) ٭ بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ واتَّقَى فَإِنَّ الله يُحِبُّ المُتَّقِينَ »(٦٣) .

«إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إلى أَهْلِهَا وإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أن تَحْكُمُوا بِالعَدْلِ إِنَّ الله نِعِمَّا يَعِظُكُمْ به إِنَّ الله كَانَ سميعاً بَصِيراً »(٦٤) .

« يَاأَيُّهَا الَّذِين آمنُوا كُونُوا قوَّامِينَ بالقِسْطِ شُهداء لله ولَوْ على أَنْفُسِكُمْ أوِ الوَالِدَيْنِ والأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غنيًا أَوْ فقيراً فالله أَوْلَى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلُوا وإن تَلْوُوا أَوْ تعرضوا فإنَّ الله كان بما تعملون خبيراً »(٦٥) .

« ولاتَلْبِسُوا الحَقَّ بالبَاطِلِ وتَكْتُموا الحَقَّ وأَنْتُم تَعْلَمونَ »(٦٦) .

ومن الأمانة والعدل ، حفظ مال اليتيم والوفاء به كاملا ، وعدم الغش والتدليس فى المعاملات .

« وَآتُوا الْيَتَامَى أموالَهُمْ وَلاَ تَتبدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلاَ تَأْكُلُوا أمْوَالَهُم إلى أمْوَالِكُم إنَّهُ كَانَ حُوباً كَبِيراً »(٦٧) .

فمن الظلم البين الذى نهى الله عنه فى كتابه المبين الخلط بين مال اليتيم ومال المؤتمن عليه حتى إذا ما أصاب الثانى خسارة فى ماله انتقص من مال الأول ظلماً .

وعلى التاجر أن يرعى الله فى تجارته ويتقيه فلا يبخس الناس حقهم فى الكيل أو الميزان :

« وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِين * الَّذِينَ إذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وإذَا كَالُوهُمْ أو وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ »(٦٨) .

والله سبحانه وتعالى يحب القِسْط ، وهو الذى خلق الكون بأدق ميزان :

« والسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الميزانَ(٦٩) * ألاَّ تَطْغَوْا فِى المِيزَانِ * وأقِيمُوا الوَزْنَ بِالقِسْطِ وَلاَ تُخْسِرُوا الميزَانَ »(٧٠) .

والقسط والميزان من أسس الإيمان والتقوى فى السلوك الاجتماعى ، فليتعامل المؤمنون فيما بينهم بالعدل ويتحروا الحق فيما يقولون ويعملون ، والقسط والميزان من مستلزمات القضاء العادل فيرعى العدل والحق فيما يصدر من أحكام ، والقسط والميزان من أسس الحكم ، فالحاكم العادل يحكم بين الناس على أساس المساواة ولا يتأثر بشىء آخر غير تحرى العدل فى أداء مصالح الناس وقضاء حوائجهم ، كل بما يستحق ويعمل .

هوامش الفصل الثانى

(١) النساء ٣٤
(٢) الروم ٢١
(٣) النساء ١
(٤) الأعراف ١٨٩
(٥) النساء ٣٢
(٦) البقرة ٢٣١
(٧) النساء ٣٥
(٨) آل عمران ١٤
(٩) الكهف ٤٦
(١٠) الأنفال ٢٨
(١١) لقمان ١٣
(١٢) لقمان ١٨
(١٣-١٥) يوسف ٧ - ٩
(١٦) الإسراء ٢٣
(١٧) الإسراء ٢٤
(١٨) لقمان ١٤
(١٩) الاحقاف ١٥
(٢٠-٢١) الأحقاف ١٧ - ١٨
(٢٢) التوبة ٢٣
(٢٣) لقمان ١٥
(٢٤) آل عمران ١١٠
(٢٥) النساء ٨٦
(٢٦) النور ٢٧
(٢٧) النور ٢٨
(٢٨) الأحزاب ٥٣
(٢٩) الحجرات ١
(٣٠) المجادلة ١١
(٣١-٣٢) الحجرات ٢ - ٣
(٣٣) المجادلة ٩

(٣٤) النساء ١١٤
(٣٥) النساء ١٤٠
(٣٦) الأنعام ٦٨
(٣٧) محمد ١٦
(٣٨) محمد ٣٠
(٣٩) محمد ٢٩
(٤٠) الأعراف ١٩٩
(٤١) محمد ١٧
(٤٢) الحجرات ١١
(٤٣) الحجرات ٦
(٤٤) النساء ١٤١
(٤٥) النساء ١٤٣
(٤٦) النساء ٦٢ ،
(٤٧) النساء ٤٧
(٤٨) النساء ١٤٢
(٤٩) النساء ١٤٥
(٥٠) النساء ١٣٨ ،
(٥١) النساء ١٣٩
(٥٢) آل عمران ١١٨
(٥٣) آل عمران ١١٩ ،
(٥٤) آل عمران ١٢٠
(٥٥) القلم ٨ - ٩
(٥٦) القلم ١٠ - ١٢
(٥٧) النحل ١٢٥
(٥٨) إبراهيم ٢٤ ، ٢٥
(٥٩) الرحمن ٦٠
(٦٠) النحل ٩١
(٦١) المائدة ٨
(٦٢) آل عمران ٧٥ ،
(٦٣) آل عمران ٧٦
(٦٤) سورة النساء الآية ٥٨
(٦٥) النساء ١٣٥
(٦٦) البقرة ٤٢
(٦٧) سورة النساء الآية ٢
(٦٨) المطففين ١-٣
(٦٩) الرحمن ٧
(٧٠) الرحمن ٨ - ٩

الفصل الثالث

القرآن والسلوك الدولي

الإسلام دين السماحة والتسامح ، وهو دين السلام والمحبة ، والتعاون بين البشر بالحق والعدل ، وإذْ طهر الله دينه الذي ارتضاه للناس كافة من أى لون من ألوان التعصب أو الحقد لغير المسلمين ، إنما يطلب من أمة الإسلام التعاون والتعامل مع شعوب الأرض كافة على أساس الحق والعدل والمساواة ماعاملتهم بقية الشعوب بالمثل .

فلا عدوان إلا بعدوان ، ولا قطيعة إلا لمن ظلم ، ولا عهد مع من لا عهد له :

١ ـ فلم يفرض الخالق على المسلمين العزلة عن غيرهم من شعوب هذه الأرض . فقد شاءت حكمته سبحانه وتعالى بعد إنزاله آدم وزوجه إلى هذه الأرض ، أن يكوناهما وبنوهما خلفاءه عليها ليعمّروها وليصلحوا فيها وأنعم عليهم بنعمة العقل تمكينا لهم وهداية لتبين الحق فيها يفكرون وفيها يَعْمَلُونَ وليصدوا عن أنفسهم غواية الشيطان عدوّهم منذ الأزل ، وهم لا حول لهم ولا قوة إلا بتقوى الله وذكره والاستعانة به من كيد الشيطان ووسوسته .

وهو سبحانه القادر على كل شيء ، إذْ جعل حياة بنى آدم على هذه الأرض حياة عمل وكدّ وجهاد ، إنما يختبر مدى إيمانهم به وحده وامتثالهم لأوامره وتجنبهم

سبحانه ، فيمد في الرزق لبعض خلقه ويقتر على البعض الآخر ابتلاءً لهؤلاء وهؤلاء فيما يعملون ليرى أي الفريقين أحسن عملاً .

فيرى هل يطغى من وسع عليه رزقه ويتكبر ويتجبر فيفسد في الأرض وينصرف بما آتاه الله عن ذكره ، أم يحمد ربه ويشكر له نعمته ويعمل بأوامره ، وليرى هل تهتز نفس وإيمان من قتر عليه في الرزق فيضيق بقدره ويكفر بربه ، أم يصبر ويحمد ربه على ماقدر له ويؤمن بحكمته في قدره فيسلم الأمر كله لله وحده ، وفي كل هذا تطهير للنفس البشرية مما يوسوس به الشيطان فيها من سوء وغواية وانحراف عن صراط الله المستقيم ، ومن حارب الشيطان أعانه الله ونصره ، ومن اتبع غوايته ووالاه تخلى عنه الله ثم لايجد من دون الله نصيرا .

وما أحكمه من قائل ، إذ يقول :

« وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ إنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ العِقَابِ وإنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ »(١) .

وما كان أيسر على الله القوى القادر أن يستخلف على الأرض ملائكة أطهارا بدلا من بني آدم :

« وَلَوْ نَشَاءُ لَجعلْنَا مِنْكُم مَّلائِكَةً فِي الأَرْضِ يَخْلُفُونَ »(٢) .

وهو العلى القدير ، لو شاء لجعل من سكان هذه الأرض أمة واحدة لاتفصل بينها حدود ، ولا يفرق بينها اختلاف قوميات وأجناس ولهجات وهو سبحانه لو شاء لما نشب فيهم تنافس على مال أو سلطان وما إلى ذلك مما نراه اليوم فى بنى آدم من خروج عن جادة الحق ومن مناصبة بعضهم بعضاً عداوة وعدوانا ، إنما هى إرادة الله وحكمته يريد بها تثبيت صاحب الحق والأخذ بيده ومجازاة الظالمين بظلمهم :

« وَلَوْ شَاء اللهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِه والظَّالِمُونَ مَالَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلاَنَصِيرٍ »(٣) .

« وَمِنْ آيَاتِه خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ واخْتِلاَفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ »(٤) .

وهو سبحانه وتعالى إذْ استخلف بنى آدم على الأرض ، إنما أراد منهم تعميرها بالجهد والعمل ، وذكر الله وحمده ، تطهيرا لأنفسهم ، ومن طهارة النفس قيام العلاقة بين الإنسان وأخيه على أسس من الحق والتعاطف والتقوى ، ويبين ذلك فى الآية :

« يَا أَيُّها النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ »[٥] .

٢ ـ ويدعو الله سبحانه وتعالى ، الأمة الإسلامية على اختلاف أجناسها وألوانها وأوطانها ، بان تجعل من القرآن الكريم نبراسا تهتدى به ودستور عمل وتعامل بين أفرادها حتى يبذلوا المعروف ويأمروا به ويتجنبوا المنكر وينهوا عنه ، لتكون هذه الأمة بحق ، خير أمة أخرجت للناس ومثلا تقتدى به شعوب الأرض كافة :

« وَلْتَكُنْ مِّنْكُمْ أُمَّةٌ يدعُونَ إِلَى الخَيْرِ ويَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ »[٦] .

فلتكن من هذه الأمة ، كما أراد لها الله ، أمة واحدة اجتمعت على كلمة الله المبينة فى كتابه الكريم ، شاكرة لربها أنعُمَهُ عليها إذْ جعل منها أمة واحدة فى عقيدة واحدة أن تتقى ربها فى السر والعَلَنِ ، ويداً واحدة ضد أى ظلم أو عدوان يقع عليها أو يمس عقيدتها .

وفى خاتم كتب الله بيان لكل ما يجب على أفراد هذه الأمة الأخذ به من حقوق وواجبات ، وأسلوب عمل وسلوك فى التعامل مع الغير مع نبل الهدف وحسن القصد بما يهيىء لهم السعادة فى حياتهم الدنيا ، والتزود منها للآخرة وهى خير وأبقى ، وعلى المجتمع الاسلامى أن يتمثل فى حياته وعمله وتعامله قول العزيز الحكيم :

« وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ »[٧]

فهذا الدين القيّم ، دين الإسلام ، هو الذى جمع شتات أمم كانت فى عدوانها وضلالها وكفرها تسير فى طريق الضياع والفناء ، لولا أن جمع شتاتَها دينُ الحق وأنقذها مما كاد أن يوردها موارد الهلاك ، فما أجدر أمة الإسلام بشكرها لربها الذى هداها من ضلال وجمعها من شتات وألّف بين قلوب أبنائها بعد طول عداوة وعدوان ، وما أجدرها بإظهار هذا الشكر والحمد بالاتحاد على الحق والاعتصام بذكر الله وتقواه .

وعلى أمة الإسلام التى آمنت بالله ورسوله وباليوم الآخر ألا تكون فى ضلال بنى إسرائيل وكفرهم بما أنعم الله عليهم ففسدت عقولهم وأخذتهم العزة بالإثم ، فنقضوا عهدهم لله بعد أن أنعم عليهم بالهدى ، إذْ أرسل به موسى إليهم ، فحق عليهم قوله تعالى :

« أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وأَنْتُمْ تَتْلُونَ الكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ »(٨) .

وعلى المسلمين ألا يكونوا فى ضلال أمم سابقة ، إذْ اختلفت فى الحق بعد أن أبانه الله لها ، وتفرقت كلمتها ، فأصابها الله بسوء العذاب فى حياتها الدنيا ، وأعد لها فى آخرتها أشد العذاب ، والله سريع العقاب .

« وَلا تكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ البَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ »(٩) .

ومن فضل الله على الأمة الإسلامية ، وتأكيده وحدتها وقوة أواصرها ، أن جعل منها أمة واحدة تربط بينها صلة الأخوة فى العقيدة التى تؤكد بدورها وحدة الرأى ووحدة الاتجاه والقصد :

« إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ واتَّقُوا الله لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ »(١٠) .

ولذا فلا يجوز شرعاً أن تقتتل طائفتان أو دولتان مسلمتان بعد أن جمع الإسلام بينهم على المحبة والإعزاز ، وبعد أن شدهم الإسلام بعضهم إلى بعض برباط الأخوّة الإسلامية المؤمنة التقية .

ولا تستخدم القوة فى الإسلام إلا فى الحق وإعلاء كلمته ، وذلك إذا ما اعتدت دولة إسلامية ظلماً على أختها فى الدين ، حتى تنتهى عما تذنب إلى رشدها وترجع إلى الحق :

« وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ »(١١) .

ويأمر العزيز الحكيم المؤمنين به ، بتقواه وبالسعى إلى السلام ونشره بين البشر أجمعين ، ومقاومة ما يوسوس به الشيطان بين الخلق من عداوة وعدوان ، أو حقد وبغضاء ، حتى ينصرف بنو آدم إلى ما خلقوا واستخلفوا من أجله على الأرض وهو تعميرها وإصلاح أحوال البشر ، وبث الأمن والطمأنينة فى نفوسهم .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ »(١٢) .

٣ – واختلاف حظ أمم الأرض فيما أتاها الله من رزق وسلطان ومنعة ، لم يأت عبثا ، بل لحكمة إلهية :

فقد شاءت حكمته تعالى ، باختلاف الأمم فى أرزاقها ، زيادة فى تعارفها وترابطها كنتيجة طبيعية لحاجة كل منها إلى ما فى يد غيرها من أنواع الرزق ، فيتبادلون المنافع ويتعاونون على زيادتها وتنميتها وتعميم خيراتها بالحق ، وهذا ما يعرف فى التعبير الحديث بالتكامل الاقتصادى ، وهو سبحانه القادر ، لو شاء ، لجعل البشر متساوين فى الرزق والسلطان والمتعة ، إلا أنه سبحانه وتعالى ، وهو الخبير بنفوس البشر أفرادا وجماعات ، قدّر أن لو بلغ كل بنى البشر غاية أرزاقهم وحصلوا على ما تهفوا إليه نفوسهم من نعم الدنيا لا نصرفوا إلى التكاسل والخمول ، ولنأوا بجانبهم عن ذكر الله وتقواه ، استكباراً منهم وغرورا بما أوتوا ، وما أوتوا فى الحقيقة إلا ما شاء الله أن يعطيهم ، ومن ثم يعيشون فى الأرض مفسدين بدلا من إصلاحها وتعميرها :

« وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِى الأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ »(١٣) .

ومن حكمة العلى العظيم ، الإغداق أحيانا فى الرزق على من كفر بنعمته أو عاث فى الأرض مفسدا ، فيحسب هذا الغافل أن ما أوتى من برهان على رضا ربه عن أعماله وسلوكه ، فيمعن فى سلوكه الخاطىء ، وهو لا يدرى أن ما أوتى ليس بنعمة بل هو نقمة ، وقد يعجب مؤمن محروم إذْ يرى أكثر الناس حظا فى هذه الحياة الدنيا أقلهم إيمانا وتقوى ، ولو تبصر هذا المؤمن المحروم وتأمل لحمد الله على ماقدر له ، إذْ يرى أن من آتاهم الله وزادهم رزقا قد ازدادوا بغياً وعصياناً وغرورا ، حتى يأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر ، فيذهب بريحهم وبما آتاهم الله فيصبحوا كأن لم يغنوا بالأمس ، ولهم فى الآخرة أشد العذاب . خسروا دنياهم وآخرتهم ، أليس فى ذلك عبرة لهذا المؤمن المتعجب ؟ أفليس فى هذه الحكمة الإلهية تثبيت لإيمانه بالله وتسليمه بقدره ؟ والرضا بما قسم له ؟ إذا كان فى شك من أمره ، فلير الآية الآتية وليتبصر :

« وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لهم لَيَزْدَادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ »(١٤) .

وينوع القوى القادر فى هذا العذاب الذى توعد به الكثير من الأمم التى كفرت بنعمته :

فهو سبحانه يسلط عليهم منهم من يفسد فيهم ويجرهم إلى الدمار :

« وإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا القَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً »(١٥) .

وهو جلت قدرته يَصُبُّ عليهم جام غضبه تارة أخرى ، فيتولى تأديبهم تأديباً مباشرا ويسومهم من لدنه سوء العذاب :

فهاهم قوم نوح الذين كذبوا بالحق الذى آتاهم به رسول من ربهم ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر فأغرقهم الله جميعاً ، إلا نوحا ومن تبعه من المؤمنين فقد رضى عنهم وأنجاهم .

وها هم قوم عاد وقوم ثمود ، وغيرهم من الأمم التى حادت عن الحق فأفسدت فى الأرض ، نالهم جميعا من ربهم سوء العذاب ، وذهبت ريحهم ، ولهم فى الآخرة عذاب مُهين .

« وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً »[١٦].

وما من أمة ، بلغت ما بلغت من غنى وسلطان فى هذه الأرض ، بمانعة أخذ الله لها بإثمها وعصيانها إذا ما أثمت أو عصت ، ليبدّلها العزيز الرقيب بغيرها أصلح منها :

« وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِى الأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِىٍّ ولاَ نَصِيرٍ »[١٧] .

« وَمَنْ لاَ يُجِبْ دَاعِىَ اللَّهِ فَلَيْسَ بمعجز فِى الأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِه أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِى ضَلاَلٍ مُّبِينٍ »[١٨] .

« أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا »[١٩] .

فالأمة التى سارت فى حياتها الدنيا على صراط ربها المستقيم ، وعاشت بين الأمم بالحسنى وبالتعايش السلمى وتوجهت إلى خالقها مصبحة ممسية فى سرها وعلنها ، ثم لم تبطر بنعمة ربها ولم تكفر به ، سبحانه وتعالى ، ثم اتقته فيما تقول وتعمل ، هدأ بالها وعاشت فى أمن وسلام وزادها الله رزقاً وقوة :

« إن الَّذين قَالُوا رَبُّنَا الله ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ولاَ هُمْ يَحْزَنُونَ »[٢٠] .

٤ - ويبين لنا محكم التنزيل طبيعة التعاون وحدود العلاقات السليمة بين المؤمنين وغيرهم من شعوب الأرض ووسائل هذا التعاون وأساليب هذه العلاقات ، وما يرمى من كل منها إلا إصلاح لأحوال المسلمين وسائر شعوب البشر ، تحقيقا لعمران الأرض وتوطيدا للوئام والسلام بين الناس ، حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، وهو ، سبحانه وتعالى ، خير الوارثين .

وروح هذا التعاون ، كما أراده الله ، هى البر والتقوى ، ووسيلته عقد العهود والمواثيق ، ويأمر العزيز الحكيم بالوفاء بهذه العهود وجعل من نفسه طرفا ثالثاً فيها ومهيمناً عليها ، فهى ميثاق وعهد معه سبحانه وتعالى ، قبل أن تكون بين البشر ، ومن ثم يأمر عباده المؤمنين بمراعاة ربهم فيما عاهدوا والتماس رضاه واتقاء غضبه ،

فليجعلوا من هذه العهود ومن تلك المواثيق اتفاقاً مقدساً ، ما قام على الخير والحق ، يلتزم به المتعاهدون ، وبهذا يكون تعاون الشعوب تقريباً بينها ووصلا على الخير .

فإذا ما اختلفت وجهات النظر عند التطبيق لسبب أو لآخر ، عليهم بتقوى الله فى إزالة أوجه الاختلاف فلا اتباع لهوى ولا اندفاع فى غضب ، بل عليهم الرجوع لكتاب الله ، يجدون فيه الحل الأمثل لما اختلفوا فيه :

« الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلاَ يَنْقُضُونَ المِيثَاقَ * والذِّينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ به أن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ، وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ »

« جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ والْمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّنْ كُلِّ بَابٍ * سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ »(٢١) .

« وما اخْتَلَفْتُمْ فِيه مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إلى اللَّهِ ذلِكُمُ الله رَبِّي عَلَيه تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ »(٢٢) . »

وقد لعن الله ناقضى العهود ، وقاطعى كل صلة طيبة بينهم وبين الناس ، وأنذرهم بعذاب أليم ، جزاء وفاقاً بما أفسدوا فى الأرض التى لا يريد الله لها إلا كل صلاح وإصلاح :

« وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقطَعُونَ مَاأَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ »(٢٣)» .

« إنَّ الذينَ يُبَايِعُونَكَ إنَّمَا يُبَايعونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْديهم ، فَمَنْ نَكَثَ فَإنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ، وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهُ ، فَسَيُؤتِيهِ أَجْراً عَظِيماً »(٢٤)» .

٥ - ولا عهد ولا ميثاق بين مسلم مؤمن وبين منافق ، ولو كان ممن يتلون كتاب الله ، فالمنافقون قد فسدت ضمائرهم ومرضت قلوبهم ، وهم أعداء كل سلام أو إصلاح أو صلاح ، إنما هم يرون بقاءهم وبقاء سلطانهم مرهونا بما بين غيرهم من خلاف وشقاق ، وما السلام فى نظر المنافق إلا اتفاق بين الناس على التعايش معا بالحق والمحبة والعدل ، وليس للمنافق فى كل هذا من شىء ، بل هو من الجبن والضلال لدرجة انه يعمل دائماً فى الظلام للوقيعة وبث الفتنة بين الناس ، بل إنه

لا يتورع عن التلوّن تلون الحرباء حسب المواقف والأحوال : فيظهر لقوم بوجه ثم يظهر لغيرهم بوجه آخر ، لا يستقر على حال ولا يقطع برأى ، يلتوى بالكلام إلى ما فيه تحقيق لمآرب خبيث، ولو كان فيه أبلغ الضرر بالناس ، يخادع بعمله ويبث بقوله الفرقة بين الناس .

هؤلاء المنافقون ليسوا على دين ولا ضمير ولا تقوى ، وهم آفة البشرية ، وعلى المؤمن ان يأخذ منهم حذره ، فلا يتعامل معهم ولا يركن اليهم ولا يتفق معهم ، وإلا كان منهم فاستحق ما أعد الله لهم من سوء المآب ، وعلى مجتمع المؤمنين ان ينبذهم بل يتخلص منهم ويطهر الأرض من شرورهم :

« فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً »(٢٥) .

« وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلاَ تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلاَ تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيراً »(٢٦) .

«لاَ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَه ، وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ »(٢٧) .

« سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّمَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُم وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُم حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً مُّبِيناً »(٢٨) .

هوامش الفصل الثالث

(١) الأنعام ١٦٥
(٢) الزخرف ٦٠
(٣) الشورى ٨
(٤) الروم ٢٢
(٥) الحجرات ١٣
(٦) آل عمران ١٠٤
(٧) آل عمران ١٠٣
(٨) البقرة ٤٤
(٩) آل عمران ١٠٥
(١٠) الحجرات ١٠
(١١) الحجرات ٤
(١٢) البقرة ٢٠٨
(١٣) الشورى ٢٧ .
(١٤) آل عمران ١٧٨
(١٥) الإسراء ١٦
(١٦) الإسراء ١٧ .
(١٧) الشورى ٣١
(١٨) الأحقاف ٣٢
(١٩) محمد ١٠
(٢٠) الأحقاف ١٣ .
(٢١) الرعد ٢٠ ، ٢١ ، ٢٣ ، ٢٤
(٢٢) الشورى ١٠
(٢٣) الرعد ٢٥
(٢٤) الفتح ١٠ .
(٢٥) النساء ٨٨
(٢٦) النساء ٨٩
(٢٧) آل عمران ٢٨ .
(٢٨) النساء ٩١ .

الفصل الرابع

« القرآن والسلوك القتالى »

كَذبَ أعداء العرب والإسلام إذْ قالوا ان الإسلام إنما قام وانتشر بحد السيف .

كذب من قال بأن الناس لو تركوا وشأنهم ، لما اتخذوا من الإسلام دينا وعقيدة .

كَذبَ هذا النفر من أهل الكتاب ، إذ تخرّصوا على الإسلام والمسلمين بأن من أسلم من أهل الكتاب إنما قد أسلم رهبة من قوة المسلمين وبطشهم ، أو ابتغاء بعض مما آتاهم الله من غنائم .

مثل هؤلاء المتخرصين من أهل الكتاب إنما يفضحون أنفسهم بأنفسهم ، فأى عقيدة هذه التى يخلعها صاحبها جبنا وخوفا من الخلق دون الخالق ، ليلبس عقيدة أخرى لا يؤمن بها ؟ .

وأى عقائد هذه التى أصبحت تجارة وبضاعة يبيعها أصحابها ليشتروا بها بضاعة تدر عليهم مغانم دنيوية زائلة ؟ .

ألا إنهم لا عقيدة فيما آتاهم الله ولا اعتقاد !

ألا إنه الضلال عما أنزل الله عليهم من كتب !

ألا إنه الحسد والحقد على من هداهم الله إلى دينه القويم خاتمَ الأديان السماوية وأنزل فيهم كتابه المبين خاتم كتبه ، وأرسل إليهم رسوله الأمين خاتم رسله .

ألا إن الإسلام هو الدين الذى أتم الله به نعمته على من آمن به وباليوم الآخر ، وهو الدين الذى ارتضاه للناس كافة ، هو الدين الذى حقد على أصحابه كل من كابر وعاند ولم يؤمن به .

ولو تبصّر هؤلاء المتخرصون فيما أنزل الله فى خاتم كتبه وعقلوه ، لوجدوا فيه الرد المبين على افتراءاتهم وأكاذيبهم وما نضح به خبث نفوسهم وضلالهم ، فليتبصروا :

« لاَإكْرَاهَ فى الدِّينِ قَدْ تَّبيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَىِّ فَمَن يَكْفُرْ بالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِالله فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الوُثْقَى لاَ انْفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ »[1] .

فهذا الدين القيم الواضح المعالم ، وهذا الكتاب المبين الذى يخاطب القلوب قبل العقول ، إنما يؤمن بهما من أرشده الله وهداه إلى الحق ، ولا يكفر به إلا من غواه الشيطان بالكفر وأضله عن الإيمان :

« تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُمْ مَّنْ كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وآتَيْنا عِيسَى بنَ مَرْيَمَ البَيِّنَاتِ وأَيَدْناهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ، وَلَوْ شَاءَ اَللهُ ما اَقْتَتَلَ الَّذِينَ مِّن بَعْدِهِم مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ البَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَّن آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ الله ماَ اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ »[2] .

فلا نعجب إذن مما يفترى أهل الكتاب به كذبا على هذا الدين القيم ، فقد سبقهم أخوة لهم من قبل ، كذّبوا ما نزّل عليهم من كتب سماوية وكفروا ، وقتلوا من بلغهم بها .

« الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالفَحْشَاءِ وَاللهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللهُ واسِعٌ عليمٌ »[3] .

فما أضل هذا الكافر بآيات الله وما أقل عقله إذْ يختار ما يوعز به الشيطان من شر وخسران وينبذ ما وعده الله من خير إذا تخلى عن كفره وآمن بالخالق وحده وبيومه الآخر .

« لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِى مَن يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ »[4] .

فما على الرسول الأمين إلا البلاغ المبين ، ولا سبيل ، ولا سلطان على من غضب الله عليه بكفره فأضله عن سواء السبيل .

وليرجع هؤلاء المفترون إلى التاريخ المثبوت وإلى الواقع الحاضر الملموس ، عسى الله أن يهديهم إلى الحق والصواب . فلو كان الإسلام ، كما ادعوا كذبا ، قد قام بحد السيف ليخرج أهل الكتاب من دينهم ليعتنقوه ، ولو كان من مبادئه هدم ما سبق من أديان ، فلِم إذَن قد أبقى المسلمون الأوائل وهم فى عنفوان قوتهم وحماستهم وواسع سلطانهم ، على مالا يزال قائما للآن فى العالم الإسلامى من معابد أهل الكتاب وأديرة رهبانهم ، وقد كانت كلها موجودة قبل الفتوحات الإسلامية الأولى ؟ : وعلى من لا يزال على افترائه على دين السلام والرحمة أن يرجع إلى المذابح البشعة التى اقترفها الصليبيون فى الأرض العربية المقدسة وإلى وحشية المغول فى حروبهم فى العراق والشام .

ألا إنها العقيدة الإسلامية السمحاء ، عقيدة الرحمة والسلام ، تلك العقيدة التى جعل الله من أهم مقوماتها الإيمان بالله ورسله وكتبه .

ألا إن أعداء الإسلام والمسلمين المتربصين بأهل هذا الدين ، ما أرادوها إلا فتنة فى دين الله ، يبغون من ورائها الاحتفاظ بسلطانهم وجاههم فى أتباعهم والتسلط على المسلمين بكيل الافتراءات والاتهامات الباطلة واستعداء الناس عليهم باسم الحق ، والحق منهم براء ، وباسم الدين وهم أول من خرج عن الدين .

فالإسلام دين رحمة وسلام للبشر كافة ، دين المساواة بين الناس ، دين التواضع والخشوع للواحد الأحد دون سواه ، ولا يمكن لمن يدين بهذا الدين أن يكون عامل فتنة أو ظلم وعدوان ، أو غرور أو استعلاء بين بنى آدم أجمعين .

فليرجع هؤلاء الأدعياء من أعداء الإسلام والمسلمين إلى خاتم كتب الله ، دستور الإسلام والمسلمين ، ليقرءوا فيه بقلب مفتوح وضمير منزه عن الهوى وبلا تحيز أعمى أو تجنٍّ ظالم ، فسيجدون فيه ما شرع الله للمسلمين من شرائع وحدود تعاملهم مع أهل الكتاب ، وألزمهم باتباعها ، ليتبينوا منها الأسباب الحقيقية التى دفعت المسلمين إلى القتال ، وسيروْن أنه لم يكن عدوانا ولا تعصبا أعمى ، بل كان

قتالا عادلا أباحه الله وأخذ به العرف الانسانى فى كل زمان ومكان ، ألا وهو حق الدفاع عن النفس وما يتصل بها من عقيدة وأهل ومال ضد معتد بالإثم وضد من يعترض طريق نشر دعوة الحق ويحارب دعاتها بقوة السلاح لا بالنقاش الحر ولا بالمنطق السليم .

فالحروب فى الإسلام لم تكن من أجل نشره بقوة السلاح ولا بالضغط والإرهاب إنما كانت عدوانا بعدوان ، ودفعا ودفاعا ضد من بدأ بهذا العدوان ، والبادى أظلم .

وصف القرآن الكريم الدوافع الحقيقية لعدوان أعداء الإسلام ويكشف لنا زيف ادعائهم الكاذب بأنهم يحاربون من يعتدى على دينهم ، يصفهم خاتم كتب الله بأنهم حلفاء الشيطان الذى لا يريد لهم هداية ولا سعادة ، وإن من الكفر المبين أن يتخذ إنسان من الشيطان ولياً ، والله يأمر المؤمنين به بقتال أولياء الشيطان عدو الله والناس ، عدو الخير ورسول الشر ، وهو ذلك العاصى الخارج على أوامر خالقه ، وهو ذلك المخادع الذى يغرى الناس بالمعصية ويزين لهم عمل السوء ثم لايلبث أن يغدر بهم ويتركهم لمصيرهم المشئوم وهل يملك الشيطان ردا لإرادة الخالق وقدره ؟ .

« وإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لاَ غَالِبَ لَكُمُ اليَومَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىءٌ مِنْكُمْ إِنِّى أَرَى مَالاَ تَرَوْنَ إِنِّى أَخَافُ اللهَ ، واللهُ شَدِيدُ العِقَابِ »(٥) .

ويحذر الحكيم العليم المؤمنين من الاستسلام لغواية الشيطان الذى لا يغوى إلا بالشر ولا يسوق إلا لضلال ولا يوسوس إلا بالظلم والعدوان ومن أجل التسلط والطغيان .

« الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً »(٦) .

وهذا أمر صريح للمؤمنين بالله بألا يعتدوا بدون وجه حق وألا يحاربوا إلا أولياء الشيطان الذين يريدون بالناس شرّاً ، وأن الله مع من قاتل فى سبيل الحق ودفع العدوان ، والله ناصرهم :

« يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ »(٧) .

وقد أباح الله للمؤمنين القتال فى غير عدوان ، وجعل من القتال حرباً فى سبيل الله وإعلاء كلمته ، وهل يرضى الله للمؤمنين بالعدوان ظلما ، كما يدعى أعداء الإسلام ؟ كلا ! فقد أمرهم الله بالقتال دفاعا عن الحق وعن العقيدة ضد من يعتدى عليهم وعلى دينهم .

وإذْ أمر الله المؤمنين بقتال المعتدين ، ولكى يكون قتالاً شريفا وواجبا ، قد رسم لهم فى محكم تنزيله ، بوضوح لا لبس فيه ولا غموض ، سلوك المؤمن القتالى ، إذْ بيَّنَ متى يجب على المسلم القتال ، وضد من يقاتل ، وعلى من يجب الجهاد ، وأوضح بحكمته وعلمه أسلوب القتال ، وحذرهم من معوقاته ، وما يجب عليهم الأخذ به أثناء القتال والالتحام ، كما بين متى وأين يحرُم على المسلم القتال ، كما أوصى بحسن معاملة أسرى الحرب الذين أصبحوا بلا حول ولا قوة ولا خطر يخشى منه على دين الله والمؤمنين بالله ، وبيَّنَ ظروف وشروط إطلاق سراح هؤلاء الأسرى : ومتى زالت أسباب القتال فلا يحق لمؤمن حرب ولا عدوان :

١ - الأمر بالقتال :

القتال فَرْضٌ إلهى على كل مسلم قادر ، وهو فى سبيل الله ، وهو قتال يرد به كل مسلم على عدوان يقع عليه وعلى إخوانه فى الدين ، دفاعاً عن الدين والعِرْضِ والمال .

فالقتال فى الإسلام ليس حبا للقتل وسفك الدماء ، كما يدعى بعض المغرضين من أعداء دين الله ، بل هو قتال اضطرارىٌّ فُرِضَ على المسلم ، مالم يجد وسيلة أخرى أومفرا من رد هذا العدوان ودفع الخطر عنه وعن عقيدته .

والإنسان بطبيعته يحب الحياة ويكره الموت ، ومن ثم يتحاشى كل ما يحرمه هذه الحياة ولا يحب حرباً لها تكاليفها وقد تنتهى بموته وحرمانه من الحياة ، إلا أنه قد يلجأ إلى الحرب متى وجد أنه لا سبيل له إلى الحياة إلا بالدفاع عنها ضد ما يهددها ولو اضطره الأمر إلى حمل السلاح والقتال فى سبيل حفظ هذه الحياة والمحافظة على مقوماتها من عقائد ومُثُل ومبادىء .

ومن أجل ذلك فرض الله على المسلمين القتال لا بالعدوان بغير حق بل دفاعا عن الحق ، وأباح من أجل ذلك الحرب هجوما أو دفاعا ، حسبما تقضى به ضرورة

هذا النوع من القتال أو ذاك ، فقد يكون هجوما من أجل مساعدة أخوة لهم فى الدين ضد معتد بغير حق ، وقد يكون دفاعا ضد عدو يطمع فى السيطرة عليهم وإذلالهم ونهب أرضهم ومالهم ، وقد يكون هجوما على عدوّ أعد عدته وحشد جيوشه من أجل العدوان عليهم ، وخير وسائل الدفاع هو الهجوم ، وقد يكون هجوما على عدو لدينهم يسوم إخوانهم فى الدين سوء العذاب من أجل ردهم عن عقيدتهم ، ومن أجل هذا شرع الله للمسلمين قتال أعدائهم وأعداء عقيدتهم :

« كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ »(٨) .

وحضّ اللهَ المؤمنين على التضحية بالمال والنفس فى سبيل الله وإعلاء كلمته وللدفاع عن عقيدتهم ، وأمر بألا يتخلف مسلم قادر عن هذا الغرض المقدس :

« انْفِرُوا خِفَافاً وثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ اللهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ »(٩) .

ومن أقوال رسول الله ﷺ فى هذا الواجب المقدس على كل مسلم :

(جاهدوا الكفار بأنفسكم وسيوفكم وألسنتكم) .

(اغزوا فى سبيل الله) .

(لا هجرة بعد الفتح ، ولكن جهاد ونية ، وإذا استنفرتم فانفروا) .

« صدق رسول الله »

وشرط الحرب فى الإسلام هو القتال ضد من يعتدى عليه وعلى أهلِهِ ، لا من أجل إشباع شهوة التعصب الأعمى ولا حبا فى القتل وسفك الدماء ولا للنهب والسطو على أموال الناس ، كما ادعى أعداء الإسلام ، إذْ أن الله حرم القتال من أجل كل هذا .

« وَقَاتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ »(١٠) .

« وَقَاتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ »(١١) .

والإسلام بواقعيته ورحمته بالمؤمنين ، وإزالة منه لعوامل الضعف التى قد تنشأ فى صفوف المقاتلين المسلمين ، قد أعفى غير القادر من القتال بنفسه إذا ما كان ذا عاهة أو مرض أو ضعف لا يقدر معها على القتال وتحمل مشاقه ، ولكنه لم يعفه من الإسهام بماله ، إذا كان ذا مال ، فى إعداد جيش المسلمين بالسلاح والمثونة ، ومن لم يكن له حظ من هذا ولا ذاك ، فليكن معهم بقلبه يدعو لهم بلسانه ليشد به من عزمهم :

« لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ ولا عَلَى الْمَرْضَى ولا على الذين لا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ »(١٢) .

« لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الْمَرِيضِ حرجٌ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّـاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَـا الأَنْهَارُ وَمَن يَتَولَّ يُعَـذِّبْهُ عَـذَاباً أَلِيماً »(١٣) .

« وَلا عَلَى الَّذينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ »(١٤) .

ويقول رسول الله ﷺ فى اتحاد المسلمين ووحدة كلمتهم على قتال عدو معتد :

(يد الله مع الجماعة) .

(من جهز غازيا فقد غزا ، ومن خلف غازيا فى أهله بخير فقد غزا)

« صدق رسول الله »

ولا يقبل الله من مسلم قتالا ، مالم يكن لوجه الله وحده وفى سبيل الحق ولإعلاء كلمته ، ولا يقبله إذا كان مراءاة للناس أو تفاخرا عليهم أو لنيل شهرة بينهم ، ولا يقبله إذا كان من أجل مغنم دنيوى زائل ، ولا يقبله إذا كان من ذلك النوع من العدوان الذى كان يقوم به أهل الجاهلية الأولى من أجل التسلط على الناس :

« لاَ يَنْهَاكُمُ اللهُ عنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِى الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِن دِيَارِكُمْ أن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ »(١٥) . « إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِى الدِّينِ وَأَخْرجُوكُم مِنَ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْراجِكُمْ أَن تَوَلَّوهُمْ وَمَن يَتولَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ »(١٦) .

« وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ بَطَراً وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ وَاللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ »[١٧] .

وقد كان على المقاتل المسلم ، فى عهد رسول الله ﷺ ، إذا ما خرج للقتال والجهاد فى سبيل الله ، أن يجهز نفسه من ماله بالسلاح والمئونة إيمانا منه بالحق الذى يدافع عنه ، وزهدا فى متاع الدنيا وتضحية منه وفداء فى سبيل إعلاء كلمة الله ، بل لقد كان من بين أغنياء المسلمين الأوائل من تكفلوا بتجهيز حملات بأكملها من مالهم الخاص ، فضلا عن قتالهم بأنفسهم ، وهؤلاء هم الذين صدقوا ما عاهدوا الله ورسوله :

« إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ »[١٨] .

وينذر العزيز ذو الانتقام من يتقاعد من المؤمنين القادرين عن الجهاد فى سبيله ولإعلاء كلمة الحق وحماية العقيدة ، بسوء العذاب .

« إِلاَّ تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ »[١٩] .

وقد حق على المؤمنين قتال من اعتدى عليهم وأخرجهم من ديارهم ونهب أموالهم :

« وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ »[٢٠] .

كذلك أحل الله للمسلمين قتال مثيرى الفتنة والفرقة بين صفوفهم بقصد إضعافهم والقضاء عليهم وعلى عقيدتهم ، فمثيرو الفتنة من الجبن والنذالة ومرض النفس بحيث لا يجرءون على مواجهة المؤمنين سافرين فى ميدان القتال ، بل هم جند الشيطان لا يعملون إلا فى الظلام ، يثيرون الذعر ويبثون البلبلة رغبة منهم فى الكيد لمن هداهم الله بنور الإيمان ، بل لقد كان من مثيرى الفتنة الكثير من أهل

الكتاب ممن غضب الله عليهم وأضلهم بسوء سريرتهم وختم على قلوبهم وعقولهم بمكرهم ، وزيغهم عما بين أيديهم من كتب الله ، إنما هو الحسد والحقد على من نزل الله فيهم خاتم كتبه وأرسل فيهم خاتم رسله واصطفاهم بالهدى والرحمة ، فعلى المسلمين القضاء على مثل هذه الفتن فى مهدها قبل أن يستفحل أمرها ويشتد أوارها :

« وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلاَ عُدْوَانَ إلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ »[٢١] .

« قَاتِلُوا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلاَ بِاليَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ »[٢٢] .

كما فرض الله على المسلمين القتال لنجدة من لا حول لهم ولا قوة من إخوانهم فى الدين ضد أعداء دينهم الذين يسومونهم سوء العذاب ، لا لشىء إلا لأنهم آمنوا بالله وحده وبرسوله :

« ومَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ والْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ القَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا واجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَّنَا مِن لَّدُنْكَ نَصِيرًا »[٢٣] .

« أُذِن لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ »[٢٤] .

ومن ضعاف الإيمان وخائنى العهود ، من تظاهروا باعتناق الإسلام إما طمعا أو رهبة ، إما طمعا فيما فتح الله به على المسلمين من انتصارات وما آتاهم من غنائم أو رهبة من قوتهم ، ثم ما لبثوا أن ارتدُّوا عن الإسلام وانقلبوا أشد كفرا وللمسلمين ألد خصاما بعد أن نالوا ما طمعوا فيه أو بعد أن زال عنهم خطر قوة المسلمين ، وهؤلاء المرتدون أشد خطرا على الإسلام والمسلمين من المشركين السافرى الشرك والعداء ، هؤلاء المرتدون لا خلاق لهم ولا عهد ولا أمان ، ومن الخير للإسلام

والمسلمين أن يقاتلوهم ليطهروا الأرض من فسادهم وكيدهم ، وهم من جاء فيهم قوله سبحانه وتعالى :

«وَإِنْ نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِى دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ(٢٥) * أَلاَ تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ(٢٦) * قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ »(٢٧) .

وليس لمؤمن أن يقبل أولياء له من بين الكفار أو أعداء دينه ، بل فرض عليه أخذ الكفار بالشدة فى قتالهم ولو كانوا له أولياء :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الذينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ »(٢٨) .

وما كان للمسلمين أن يقاتلوا عدوهم من أجل القتال وسفك الدم بغير الحق ، وما كان لهم أن يهدروا دماءهم ودماء أعدائهم سدى ، بل كانوا قبل القتال يتلمسون وسائل تجنبه ما ارتدع المعتدى على دينهم فثاب إلى رشده ورجع إلى الحق ولم يقف فى سبيل نشر الدعوة : ولذا كان المسلمون يحذرون المشركين قبل بدء قتالهم بالعودة إلى الحق ونبذ ما أشركوا به الله فى عبادتهم وعدم التعرض بالأذى لمن أسلم من بينهم ، وقد أعذر من أنذر ، وفى ذلك تقول الآية :

« قُل لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ »(٢٩) .

٢ - التخطيط لقتال الأعداء :

إذا ما قرر المؤمنون القتال بعدما تبينوا حقهم فيه وواجبه عليهم ، وبعد ما استنفدوا كل الوسائل السلمية لرد أعدائهم عن غيهم أو تماديهم فى الكيد لهم ، عليهم أن يتدبروا أمر قتالهم فى روية ودون اندفاع عاطفى قد يسوقهم إلى ما لا تحمد عقباه .

فيجب عليهم التخطيط لهذا القتال تخطيطاً محكماً ، مستعينين بالله ،

ومستلهمين ما نزل عليهم فى آيات القرآن الكريم بشأن قتال أعداء الإسلام والإعداد لهذا القتال ، وسيجدون فى هذه الآيات خير ملهم وخير مرشد لهم :

(ا) فعلى المؤمنين ألا يهنوا ولا يفقدوا ثقتهم بأنفسهم وبعون الله لهم ما بقوا على عهده قائمين ، وبذلك ترتفع روحهم المعنوية ويثبتون أمام العدو فى المعركة ويصبرون على شدة القتال ووطيسه ، وليثقوا ثقة تامة بأن الله معهم ما داموا على حق ، ومن كان الله معه فلا غالب له .

« إن يَنْصُرْكُمُ الله فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِى يَنْصُرُكُمْ مِن بَعْدِهِ وَعَلَى الله فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ »(٣٠) .

وليس معنى التوكل على الله التواكل والقعود والتكاسُل ، بل معناه أن يعد المؤمنون للقتال مستلزماته ، فليتدربوا أولا على حمل السلاح واستخدامه وأساليب القتال وحيله ، ومواضع الكر والفر فى ميدان القتال ، ودراسة الميدان الذى سيلاقون فيه أعداءهم ومسالكه ، كما عليهم الوقوف على حال عدوهم من حيث عدده وعدته وحيله القتالية وأساليب غدره ليأخذوا منه حذرهم ، وعليهم الثبات وقت الشدة ، وخفة الحركة فى متابعة العدو وملاحقته وسد منافذ نجاته منهم ، وأن يكونوا يداً واحدة فى مجابهة العدو تمثلا بالآية الكريمة :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعًا »(٣١) .

وعلى المسلمين بعد ذلك أن يعدوا للقتال جيشا منظما بجنود أقوياء ، وأن يزودوا جيشهم بأحسن السلاح نوعا وعددا وأن يوفروا ما يلزم من مئونة وذخيرة ووسائل النقل والانتقال والاتصال ، وبذلك يظهر جيش المسلمين لأعدائهم بالمظهر اللائق بجيش من جيوش الله ، قوة عظيمة البأس من قوى الحق تحارب رسل الشيطان وأعداء الحق .

« وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَّا اسْتَطَعْتُمْ مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ الله وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ الله يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ»(٣٢) .

ومن أقوال الرسول ، ﷺ ، فى هذا الشأن :

(ألا إن القوة فى الرمى) ، (يا خيل الله اركبى) ، (نُصرت بالرعب) .

« صدق رسول الله »

(ب) فإذا لاقى جيش المسلمين أعداءه فى ميدان المعركة ، فعليه ملاقاتهم طبقا لخطة القتال التى وضعها لهم قائدهم . لا عوج فيها ولا ثغرة ينفذ منها العدو كرا أو فرا .

وعلى جيش المسلمين أن يهاجم أعداءه بشجاعة مع الدراية التامة باستخدام أحدث الأسلحة نوعا وكمّاً :

« إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ »(٣٣) .

كما على جيش المسلمين أن يتزود بالسلاح والعتاد المناسبين للمعركة ومكانها وزمانها .

حتى إذا ما اشتبك جيش المسلمين مع عدوه والتحم به ، وحمى وطيس القتال ، كان عليه أن يقاتل بشجاعة ولا يهاب الموت فى سبيل الحق ، وليعلم أنه يد الله التى تبطش بعدوه وعدو المؤمنين به ، فليشتد المقاتل المسلم على عدوه وليتابع ضرباته له ، حتى يقضى على قوته قضاء مبرما :

« فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ ، وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ »(٣٤) .

(ج) والمقاتل المؤمن بالله وباليوم الآخر هو من نزل ساحة القتال وسلاحه العقيدة وعتاده الشجاعة فى قتال قوى الشر ، فلا يرهب عدوا مهما ظهر أمامه رهيبا مخيفاً ، فالله هو الذى أمره بمحاربة أعداء دينه ، وهو حسبه وهو ناصره ، وإذا ما استشهد ففى سبيل الله وإعلاء كلمته :

« وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ، وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا »(٣٥) .

﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّن يَنْتَظِرُ وما بَدَّلُوا تَبْدِيلاً ﴾(٣٦) .

وكيف يخشى الموت مقاتل مسلم أمام أعداء العقيدة وأعداء الحق ، وها هو ذا يرى الرسول الأمين الشجاع فى مقدمة صفوف جيش المسلمين ، يهاجم ويقاتل ويضرب ، مستهينا بالموت فى سبيل العقيدة ومستعينا بربه فى مجالدة الأعداء مضحيا بحياة عاجلة من أجل حياة الخلود والبقاء :

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ الله أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا ﴾(٣٧) .

ذلك هو رسول الله الذى ألهمه ربه الصبر والصمود أمام شدة القتال ، وهو ، عليه الصلاة والسلام ، الذى حرض من معه على الثبات أمام قسوة الحرب وشد من عزيمتهم بقوله :

(الآن حمى الوطيس) ، إنما الصبر عند الصدمة الأولى) صدق رسول الله فمن تذرع بالصبر من أول المعركة ولم يهتز لهاوواصل قتال أعدائه إلى النهاية حتى يأتيه الله نصره المبين .

وعلى المقاتل المسلم ألا يفقد ثقته بنفسه ولا يتخاذل إذا ما لقى شيئا من شدة القتال فلا يتزعزع ولا يفزع ، فله من إيمانه قوة ومن توكله على الله وانتصاره له ما يخفف عنه آلام القتال ، إنما الألم أشد الألم والفزع أشد الفزع فى عدوه الذى يقاتل بلا عقيدة ولا بسند من الحق :

﴿ وَلاَ تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ مَا لاَ يَرْجُونَ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾(٣٨) .

(د) وعلى المقاتل المسلم أن يأخذ جانب الحذر واليقظة إزاء كيد وخبث هؤلاء الأعداء فقد يتخذ هؤلاء الأعداء من شدة إيمان المسلم وتقواه ربه وذكره ، وحرصه على أداء حق ربه عليه فى عبادته وإقامة شعائرها فى مواقيتها فيحاول هذا العدو الغادر أن يأتى المسلم من مأمنه وهو بين يدى ربه يصلى له ويذكره ، والله لا يريد لكافر أن يفوز بمكره على عباده الصالحين ، وهو سبحانه وتعالى خير الماكرين . لذلك أذن

للمسلمين أثناء القتال باختصار صلاتهم ، حتى لا تُفتح لغدر عدوهم ثغرة ينفذ فيها ليأخذهم بغتة ، فأمرهم الله بقصر الصلاة فى حالة الحرب ومواجهة العدو :

«« وإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاَةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوّاً مُبِيناً »(٣٩) .

ويسمى بعض الفقهاء هذا النوع من الصلاة بصلاة الخوف ، وأولى بنا أن نسميها صلاة الحذر أو صلاة الحرب أو صلاة الجهاد .

وزيادة فى الرعاية الإلهية لأرواح المسلمين ، جنود الحق ، ودرءاً لكيد الأعداء وإتقاء لمكرهم وغدرهم ، أمر الله رسوله الكريم بأن يأخذ حذره من عدوه حتى فى وقت الصلاة الواجبة على كل مسلم . أمر الله رسوله بأن يصلى بجماعة من المقاتلين المسلمين بينما تقف جماعة أخرى تحرسهم أثناء هذه الصلاة ، حتى إذا ما انتهت الجماعة الأولى من صلاتها ، صلى الرسول بالجماعة الأخرى وتناوبت الجماعة الأولى حراستها أثناء صلاتها ، مع حرص المصلين والحارسين على أسلحتهم ووضعها تحت أعينهم وفى متناول يدهم أثناء صلاتهم وأثناء حراستهم :

« وإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الذين كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَّطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَّرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً »(٤٠) .

وهذا النوع من الصلاة يكون فى ميدان القتال فى غير حالة الالتحام والصدام الفعلى ، ويقتصر فيها على ركعتين بدلا من أربع ، وأن تكون فى وقتها ، وبالنسبة للإمام الذى صلى بالمقاتلين على هذا النحو ، تكون صلاته الثانية سنة أو نفلا .

أما النوع الثانى من صلاة الخوف فلا تقام جماعة ، بل يصلى كل مقاتل فى موقعه ومكانه وفى حالته التى حددها له قائد جيش المسلمين ، سواء تمكن من استقبال

القبلة أم لم يتمكن ، ويستطيع أن يقتصر فى صلاته فى هذه الحالة على الإيماء برأسه بدلا من الركوع والسجود ، كما يمكنه أداؤها راكباً أو واقفاً :

« حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاَةِ الوُسْطَى وَقُومُوا لله قَانِتِينَ * فَإنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَاناً فَإذَا أَمِنتُم فَاذْكُرُوا اللهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَّالَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ »(٤١) .

فإذا حدث الاشتباك والالتحام القتالى الفعلى بين الجنود المسلمين وأعدائهم أُخرت الصلاة حتى ينتهى هذا الاشتباك ثم تُقضى .

(هـ) ومن السلوك القتالى السليم ، رفع الروح المعنوية للمقاتل ، وشد أزره بالقول والفعل ، وهذا ما أمر الله به نبيه الكريم ، إذ أمره بشد عزم المؤمنين فى قتالهم واستزادتهم إقداماً وحركة وفداء ، وأن يحرضهم على منازلة العدو وتشديد ضرباتهم له ، وعدم التردد أو الارتداد مهما ظهر لهم من تفوقه عدداً وعدة . فإن المسلمين بإيمانهم وعقيدتهم أولى الناس بالدفاع عن الحق والثبات والتصميم على نصرته ، ومن جاهد فى سبيل الحق كتب الله له النصر مهما قل عدداً وعدة ، ويكفيه إيمانه بالحق وثباته على العقيدة قوة وحسن تدبير يقاتل بهما من لاعقيدة له ولا مبدأ معقول :

« يَاأَيُّها النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى القِتَالِ إن يَكُن مِّنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مائَتَيْنِ وإن يَكُنْ مِّنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِّنَ الذين كَفَروا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَفْقَهُونَ »(٤٢) .

فعلى المقاتل المسلم الثبات والشجاعة أمام المعتدى ، والكر عليه بلا خوف ولا وجل ولا تردد . فهو بإيمانه وعقيدته وطاعته ، جندى من جند الله ، ويأبى الله إلا النصر لجنده :

« يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ * وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إلاَّ مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ المصيرُ »(٤٣) .

وعلى المقاتل المسلم أن ينفذ أمر قائده فور تلقيه ولا يناقش فيه ولا يتردد فى تنفيذه ، فالحرب حركة سريعة ، فيها الموت أو الحياة ، لا مجال فيها لمناقشة ولا موضع فيها لتردد ، فإن خطة القتال قد سبق وضعها بتدبير وإحكام وفرضت فيها كل الاحتمالات .

وكما يصدر القائد العسكرى المحنك أوامره طبقاً لخطة أحكمت دراستها ووضعها ، كذلك كان رسول الله ، ﷺ ، يضع خطط القتال ويصدر أوامره فى ميدان الحرب ، عن وحى وإلهام من ربه ، فما أخطأ الحكم وما أمر عن الهوى ، وكم أحرز السلف الصالح من انتصارات باهرة أذهلت الدنيا كلها ، رغم ما كان عليه المسلمون من قلة فى العدد وعجز فى العتاد أمام جحافل أقوى جيوش العالم فى وقتهم ، وما كانت هذه الانتصارات لتأتى إلا بطاعة المقاتلين المسلمين لقائدهم وثباتهم أمام أعدائهم :

« وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ »(٤٤) .

« يا أَيُّهَا الَّذين آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا واذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ »(٤٥) .

(و) الحذر من المنافقين :

أمر الله رسوله والمؤمنين ، إذا ما عزموا على القتال ورد العدوان ، أن يكونوا على حذر من المنافقين والمتخاذلين والجبناء ، وغيرهم ممن آمنوا بشفاههم وقلوبهم غفل من كل إيمان وتقوى ، ليكون المسلمون المؤمنون على بينة منهم ومن نواياهم وكيدهم عندما يشتد القتال ، فيتقوا غدرهم وتخاذلهم ، ويطهروا جيشهم من هؤلاء المذبذبين لأنهم أشد خطراً عليهم من الكفار السافرى العداء .

١ - وفئة المنافقين المتخاذلين ليست جديدة على بنى آدم ، بل هى قائمة منذ الأزل ، وأكثر ما يكونون ظهوراً وقت الشدائد والأزمات كالحروب والكوارث الطبيعية فهى فرصتهم التى يتحرقون شوقاً لاغتنامها ليفيدوا منها مغنماً على حساب ما يحل بالناس من أزمات وشدائد .

وكم لاقى من سبق من الأنبياء من هذه الفئة الضالة من مشقة وإجهاد وعنت ، بكيدها وتقاعسها عن طاعة ما أمر به الله وما جاءهم به الرسل ، بل منهم من آمن كذباً ثم ما لبث أن أخلف وعده ونقض عهده ، فباءوا جميعاً بغضب الله ولعنته ، وهاهم بنواسرائيل الذين أرسل الله فيهم من الأنبياء والرسل من إذا أرسلوا إلى العالم

كله لآمن وأسلم لله ، ولكنهم حاوروهم وداوروهم وصدوهم ، بل إنهم قتلوا الكثير منهم :

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلأ مِن بَنِى إِسْرائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُقَاتِلْ فِى سَبِيلِ الله قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلا نُقَاتِلَ فِى سَبِيلِ الله وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ القِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ والله عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ »(٤٦) .

« وَلِيَعْلَمَ الذينَ نَافَقُوا وقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ أَوِادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاتَّبَعْنَاكُم هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ للإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ وَالله أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ »(٤٧) .

ويحذر الله المسلم المقاتل من الاستماع إلى هؤلاء المخذلين أو تصديقهم وطاعتهم ، وإلا لحقته من عدوه هزيمة منكرة :

« يَاأَيُّهَا الَّذين آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُم عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقلبُوا خَاسِرِينَ »(٤٨) .

٢ - بل إن من المنافقين القاعدين عن الجهاد مع المؤمنين فى سبيل الله من فقد إيمانه وفقد إنسانيته ونخوته فيسفر عن شماتته بالمقاتلين المؤمنين إذا لم يُرِد اللهُ لهم نصراً فى معركة من المعارك ، ويظهر شماتته ويبث الفتنة بين المجاهدين ، فعلى المؤمن حق الإيمان ألا يكترث ولا يلقى بالاً لشماتة أعدائه أو سخريتهم ، ويكفيه إيمانه باللهِ والإسلام لقَدَره درعاً يتقى به كيد وشماتة هؤلاء المنافقين :

« يَاأَيُّهَا الَّذِين آمَنُوا لاَ تَكُونُوا كَالَّذِين كَفَرُوا وَقَالُوا لإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِى الأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَّوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجعَلَ اللهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِم واللهُ يُحْيِى وَيُمِيتُ وَالله بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ »(٥٠) .

« الَّذِيَن قَالُوا لإِخْوَانِهِم وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ »(٥١) .

٣ - ومن المنافقين ، ضعاف الإيمان ، من اتخذ من كلمة الإيمان دون معناها ، وسلة لمغنم دنيوى زائل أو رئاء الناس يظهر به بأنه مؤمن ، حتى إذا دعا داعى القتال

فى سبيل الله تلكأ وتباطأ ، وتردد بين حب الاستشهاد فى سبيل الله وبين بريق الحياة الدنيا وزخرفها ، فإذا هُزم جيش المؤمنين فى موقعة تنفس الصعداء وطار فرحاً بنجاته بنفسه ، بل قد يبلغ به كفره وخداعه أن يحمد الله ، الذى لم يصدقه إيمانه به ، أنْ لم يكن مع المؤمنين يوم هزيمتهم ، وهو لو وعى وعيد الله للمنافقين لتمنى الموت لفوره ، فإذا ما فتح الله على المؤمنين بالنصر فى جهادهم ، تمحك هذا المنافق فى كلمة الإيمان لينال نصيباً مما أوتى المؤمنونَ من غنائم بعد النصر ، مثل هؤلاء المنافقين المترددين قد كشفهم الله أمام المؤمنين ، فى قوله تعالى :

« وإنَّ مِنْكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإنْ أَصَابَتْكُمْ مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ الله عَلَيَّ إذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيداً(٥١) * ولَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ الله لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً »(٥٢) .

« فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَالله أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ الله وَمَن يُضْلِلِ الله فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً(٥٣) * وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفُروا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلاَ تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ الله فَإن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ واقْتُلوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُّمُوهُم وَلاَ تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيراً »(٥٤) .

٤ – ومن المنافقين من يبلغ به الجبن والرعب والخوف من الخلق دون الخالق ، فيتردد ويتثاقل فى القتال فى صفوف المؤمنين خوفا من قوتهم ، وجبنا أمام أعدائهم فهو يخشى القتال مع أى من الجانبين ، ولا يتخذ موقفا صريحا واضحا أمام إحدى الطائفتين أو فى مواجهتهما معا ، مثل هؤلاء لا مكان لهم فى صفوف جيش المؤمنين ، بل يجب نبذهم أو قتلهم :

« سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ ويَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّمَا رُدُّوا إلَى الفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فإنْ لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُم عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً مُّبِيناً »(٥٥) .

ومن الجبناء المتخاذلين من اضطر اضطرارا ، لا عن إيمان عميق ، إلى قتال يلتحم فيه مع جنود العدو ، فأصابه الوهن وخلع الرعب قلبه أمام ضجيج القتال

وسيل الدماء وتناثر أشلاء القتلى وتساقط الجرحى ، ويعجب لسفك كل هذه الدماء ، بل إنه ليَسأل الله ، الذى لا يُسأل عما أراد ، عن أسباب هذا القتال المرير ، ويتساءل لِمَ أقحم نفسه فى هذا البلاء وهو الذى نعم بالحياة الدنيا الهادئة ، ويستنكر العزيز الحكيم مسلك هؤلاء الجبناء الذين أخذوا من الإسلام مظهره دون جوهره ، ويفضحهم علام الغيوب وكاشف المستور ويستهزىء بهم ويحذر المؤمنين منهم :

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيكُم وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ القِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا القِتَالَ لَوْلاَ أَخَّرتَنا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنْ اتَّقَى وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً »(٥٦) .

ويطلب رسول الله من المؤمنين التضامن والتكاتف أمام العدو ، وأن يجاهدوا أنفسهم ونوازعها قبل أن يجاهدوا أعداءهم ويلتحموا معهم :

(يد الله مع الجماعة) ، (المجاهد من جاهد نفسه) .

صدق رسول الله

مثل هؤلاء الجبناء لا مكان لهم فى صفوف جيش المسلمين ، ولا نفع يرجى من تحريضهم على قتال أعداء العقيدة ، بل على المؤمنين أن ينبذوهم ، ولا يضيعوا معهم وقتهم وعليهم أن يكرسوا كل وقتهم وجهدهم فى مجاهدة العدو المتربص بهم :

« فَقَاتِلْ فِى سَبِيلِ اللهِ لاَ تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ وَحَرِّضِ المُؤْمِنِينَ عَسَى اللهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللهُ أَشَدُّ بَأْساً وَأَشَدُّ تَنْكِيلاً »(٥٧) .

ومثل هؤلاء الجبناء كمثل قوم موسى ، عليه السلام ، الذين عصوا أمر ربهم الذى أوحاه إلى نبيه بدخول الأرض المقدسة ، جبنا منهم وخوفا من أعدائهم ، رغم ما جاءهم من بينات لقدرة الخالق وعزته :

« قَالُوا يَامُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ »(٥٨) .

بل لقد بلغ الجبن ببنى إسرائيل وكفرهم بربهم الذى أعانهم وأغدق عليهم

من نعمه ونصره ، أن قالوا لنبيهم :

« قَالُوا يَامُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَداً مَادَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ »(٥٩) .

إن المجاهد المؤمن حق الإيمان هو من قاتل ولم يبغ من جهاده سوى وجه الله والتسليم بما أمر ، ولا يأمر الله إلا بالحق ومن أجل الخير ، فيضحى بنفسه وبما يملك فى سبيل ربه ، ويتخذ من دنياه الوسيلة للقربى من الله ويبيع دنياه لشراء آخرته ، وهذا هو الفوز الأكبر :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا الله وابْتَغُوا إِلَيْهِ الوَسِيلَةَ ، وَجَاهِدُوا فِى سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ »(٦٠) .

« يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَالَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِى سَبِيلِ الله اثَّاقَلْتُمْ إِلى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالحَيَاةِ الدُّنْيا مِنَ الآخِرةِ فَمَا مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا فِى الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ »(٦١) .

٥ - ومن المنافقين الجبناء ضعاف الإيمان من يتظاهر بالشجاعة والإقدام مادام هو فى مأمن من القتال وبعيدا عن ميدان المعركة ، ولكن عيونهم تنطق بالخوف والهلع عند سماعهم كلمة القتال ، وقلوبهم ترتعد من مجرد رؤية ميدان القتال بل قد يتعهدون ويشهدون الله على عهدهم أن يقاتلوا مع المؤمنين فى سبيل الله فإذا دعا داعى القتال ولوا الأدبار :

« وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللهَ مِن قَبْلُ لاَ يُوَلُّونَ الأَدْبارَ وَكَانَ عَهْدُ الله مَسْئُولاً »(٦٢) .

« قَدْ يَعْلَمُ اللهُ المعُوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالقَائِلِينَ لإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلاَ يَأْتُونَ البَأْسَ إِلاَّ قَلِيلاً »(٦٣) .

ويصور القرآن سلوك هؤلاء الجبناء فى صورة مزرية لا تليق بإنسان ، بَلْه المؤمن ، ويسخر من جبنهم ويسفر عما فى دخيلة نفوسهم من جبن وهلع :

« أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرونَ إِلَيْكَ ، تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِى يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ المَوتِ ، فإِذَا ذَهَبَ الخَوفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الخَيْرِ ، أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ الله أَعْمَالَهُمْ ، وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى الله يَسِيراً »(٦٤) .

« وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلاَ نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وذُكِرَ فِيهَا القِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ المَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ المَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ »[٦٥] .

« يَحْسَبُونَ الأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ الأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَاقَاتَلُوا إِلاَّ قَلِيلاً »[٦٦] .

٦ ـ وقد يكون من بين المؤمنين نفر أضعف الجبن إيمانهم بالله وقدرته على نصر المؤمنين على قلة عددهم وعدتهم ، واتبعوا غواية الشيطان ، فيحاولون أن يشيعوا فى إخوانهم المؤمنين مافى أنفسهم من جبن وخوف ، بل قد يطلبون منهم الرجوع والنكوص مثلهم ، أمام عدو جبار ، ولكن هذا التخذيل لا يزيد راسخى الإيمان إلا إيمانا بالحق وإصراراً على القتال والفداء ، ليزيدهم الله قوة ويأتيهم نصرا مبينا :

«الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاس إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ »[٦٧] * « فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ واتَّبَعُوا رِضْوانَ اللهِ واللهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ »[٦٨] « إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ ، فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ »[٧٠] .

والحرب نصر وهزيمة ، والمؤمن هو الذى يحمد ربه على ما آتاه من نصر ، ولا يتزعزع إيمانه ولا عقيدته إذا ما لحقت به هزيمة .

أو ليس فيما يقضى الله حكمة ؟ ألم يبتل الله قوة إيمان المقاتل المؤمن ليرى مدى ثقته بحكمة الله وتسليمه بقدره ؟ وهل يجزع مؤمن من هزيمة بعد العديد من الانتصارات ؟ .

فعلى المؤمن الذى صدق إيمانه الاعتصام بحبل الله ، فكم صبر المقاتل المؤمن أمام أشد الهزائم نكرا ومرارة ، إذ ظل على عهده لربه وإسلام أمره كله له وحده ، فنصره الله وهو أقدر الناصرين ، ولا ضير على المؤمنين من فئة قليلة من الجبناء المنافقين ابتلى الله بهم أمما مؤمنة من قبل ، لم يزدهم هؤلاء المنافقون إلا إصرار على الحق وعلى الجهاد فى سبيله :

« إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا(٦٩) * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزالاً شَدِيداً * وإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً * وإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لاَ مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَاراً »(٧٠) .

« يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُروا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتكُمْ جُنُودٌ ، فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً »(٧١) .

فعلى المقاتل المسلم ألا يهتز ولا ييأس إذا لم يفز بنصر على أعدائه فى إحدى المواقع ، وهو الذى وعده الله بالنصر ووعده حق ، ولا ييأس من رحمة ربه وهو الذى يشمل المؤمنين برحمته ، بل عليه أن يرجع إلى نفسه يحاسبها ويسائلها عن أسباب هذه الهزيمة ليتبين هذه الأسباب فيتفاداها مستقبلا ، والله ناصر المجاهدين فى سبيله والمجاهدين أنفسهم ، والله ناصر من ينصره ومن ينتصر فإنما ينتصر على نفسه :

« أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ »(٧٥) .

٧ - الحذر من التخاذل عن القتال :

إن قوة أى جيش تكمن فى تلبية جنوده الدعوة للقتال فورا وبلا تباطؤ . فالموقف موقف جد وحزم أمام عدو متربص غادر ، ولا يحتمل أى تردد أو تخاذل ، ولا وقت لتلمس الأعذار هربا من الحرب وويلاتها . فتردد المقاتل عن قتال أعدائه من أكبر الآفات والمعوقات التى يصاب بها جيش .

وقد صادفت الجيوش الإسلامية الأولى شيئا من هذا التردد الذى ابتلاها به بعض المتخاذلين المترددين عن رد العدوان وفى ميادين القتال ، وهؤلاء هم أهم أسباب كل هزيمة لحقت بجيوش الإسلام .

وهم لا أمان لهم ولا إيمان ، وكان الخيرُ كل الخير للإسلام ولجيوشه تخليص صفوفها منهم .

ويحذر الله منهم من أراد النصر على الأعداء .

« لاَ يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ واليَوْمِ الآخِرِ أن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ »(٧٣) .

فمن صدق إيمانه وتمسك بعقيدته وآمن بالحق لايتلمس عذرا ولا يتردد فى القتال فى سبيل إعلاء كلمة الحق :

« إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لاَيُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ »(٧٤) .

بل إن من ضعاف الإيمان من يتردد فى قتال أعدائه وأعداء عقيدته مع قدرته على منازلتهم ومجاهدتهم ، بل إنزال الهزيمة بهم ، إلا أن حرصه على الحياة الدنيا وغروره بزخرفها أنسياه ربه فعصى أمره وآثر الأمن والسلامة وطيب العيش على الجهاد فى سبيل الله :

« وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ »(٧٥) .

«لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيباً وَسَفَراً قَاصِداً لاتَّبَعُوكَ وَلَكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَوْ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ »(٧٦) .

ويأبى العزيز الحكيم العليم بما فى القلوب إلا وقاية جيش المؤمنين من هؤلاء المتخاذلين ، فهو العليم بترددهم وخطر وجودهم فى صفوف جيش يقاتل فى سبيل الله وحده ، يزيد فى قلوبهم التخاذل والتردد ، وينطقهم بما فى قلوبهم ، حتى يكشف دخيلة نفوسهم لجند الله ، فيحذروهم :

« وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ(٧٧) * لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَلأَوْضَعُوا خِلاَلَكُم يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ واللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ »(٧٨) .

ويعلم الله مدى كذب هؤلاء المتخاذلين ويكشف مكرهم إذ يتمسحون بالإسلام وما هم بمسلمين ، فهم إذا ما انتصر المؤمنون طمعوا فى اقتسام الغنائم معهم ، وهم هم الذين لو دخلوا مع المسلمين حربا ضد الأعداء لاستبد بهم الذعر والجبن ولولوا الأدبار وجمحوا جموح الماشية المذعورة يتلمسون مخبأ يحتمون فيه من الأعداء :

« ويَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَاهُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَومٌ يَفْرَقُونَ[79] * لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ »[80] .

ومنهم من يحمد الله على عدم انخراطه فى جيش المقاتلين المسلمين ونجاته من مشقة الجهاد وأهواله .

« فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعدِهِمْ خِلاَفَ رَسُولِ اللهِ وكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَموالِهِمْ وأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ اللهِ وَقَالُوا لاَ تَنْفِرُوا فِى الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ »[81] .

ويعاتب الرحمن رسوله وصفيه عتابا خفيفا ، إذ قبل فى صفوف جيشه أمثال هؤلاء المتخاذلين القاعدين عن الجهاد فى سبيل الله ، أو قبل اعتذارهم عن الجهاد :

« عَفَا اللهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ »[82] .

« لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ كَارِهُونَ »[83] .

ثم يبين الله لرسوله والمؤمنين ما يجب عليهم حيال هؤلاء المتخاذلين :

« سَيَحْلِفُونَ باللهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ »[84] .

« إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وهُمْ أغنياءُ رَضُوا بأن يكونوا مع الخَوالِفِ وطَبَعَ اللهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَيَعْلَمُونَ »[85] .

« فَإِن رَّجَعَكَ اللهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَّنْ تَخْرُجُوا مَعِىَ أَبَداً وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِى عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ »(٨٦) .

« يَاأَيُّهَا النَّبِىُّ جَاهِدِ الكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ »(٨٧) .

فالمنافقون والأعداء سواء ، يجب أن يحاربهم المؤمنون بل إن المنافق أشد خطرا على المسلمين من العدو الظاهر ، هذا عدو مستتر وذاك عدو سافر .

ومن ضعاف الإيمان من اتخذ القتال بجانب المجاهدين فى سبيل الله ، تجارة وسلعة يبغى به مصلحة دنيوية ، فيبيع نفسه للجانب الذى يدفع ثمنا أكبر ، ومنهم اليوم من يسمون بالجنود المرتزقة ، مثل هؤلاء المقاتلين لا أمان لهم فى جيش المسلمين لأنهم لايقاتلون بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله وحده ، وكم من هؤلاء المرتزقة من اندس فى صفوف الجيوش الإسلامية بدعوى الإيمان والدفاع عن الحق ، وهم أبعد الناس عن الحق والإيمان ومنهم بعض الأعراب سكان البادية الذين اندسوا فى جيش الرسول عليه الصلاة والسلام ، وقد حذر الله رسوله من هؤلاء الجنود المرتزقة .

« الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ واللهُ عليمٌ حَكِيمٌ »(٨٨) .

« وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ »(٨٩) .

ويكشف الله دخيلة نفوسهم وسوء قصدهم وما جبلوا عليه من خيانة وغدر ونفاق وكذب :

« وَمِنَ الأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَماً وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ واللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ »(٩٠) .

« سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَّالَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُمْ مِّنَ اللهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً »(٩١) .

« بَلْ ظَنَنْتُمْ أَن لَّنْ ينقلِبَ الرَّسُولُ وَ الْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَداً وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وكُنْتُمْ قَوْماً بُورًا »(٩٢).

« سَيَقولُ الْمُخلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمِ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلاَمَ اللهِ قُلْ لَّنْ تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنا بَلْ كَانُوا لاَيَفْقَهُونَ إِلاَّ قَلِيلاً »(٩٣).

٣- وقف القتال وظروفه :

إذا مانشبت الحرب بين فئتين لسبب أو لآخر ، استمرت قائمة حتى تظفر إحداهما بالأخرى ، وتقضى على قوتها ومقاومتها ثم تتوقف الحرب وينتهى القتال بفوز إحدى الطائفتين وهزيمة الأخرى .

على أنه يحدث أحياناً أن يتوقف القتال أثناء الحرب قبل أن تنتصر إحدى الطائفتين على الأخرى ، وذلك فى حالات تعارف عليها الناس منذ أقدم العصور فيكون وقف هذا القتال مؤقتا أو دائماً .

(أ) وقد تعارف الناس على وقف القتال مؤقتا فى ظروف معينة منها :

١- اتفاق الطرفين المتحاربين على وقف القتال بعض الوقت ليتمكن كل منهما من دفن قتلاه واجلاء جرحاه عن ميدان المعركة وعلاجهم ويبقى كل من الطرفين شاكى السلاح ثم يستأنف القتال بعد ذلك ، وقد يوقف الطرفان القتال ، مؤقتا اذا ماسئما استمراره وتفادياً لمزيد من الخسائر والخراب فى الأرواح والممتلكات ، وذلك لتهيئة جوّ من الأمن والسلام المؤقت لإجراء مفاوضات والتماس الحلول لتسوية سلمية فيما تنازعا عليه وتحاربا من أجله .

هذه الهدنة الموقوتة بزمن محدد والتى تعرف اليوم بالهدنة المسلحة ليست غريبة على العرب والمسلمين ، وقد حددها الحكيم الخبير فى محكم آياته القرآنية ، التى لم تترك كبيرة ولا صغيرة إلا أحصتها وبينتها أمام كل ذى عقل يتدبر به ويهتدى فى تنظيم جميع نواحى السلوك البشرى ومنها السلوك القتالى .

ففى القرآن الكريم ما نظم به العلى القدير السلوك الذى ينبغى أن يأخذ به كل مقاتل مسلم بما يحقن دماء المؤمنين بالله وباليوم الآخر ، بل دماء أعدائهم وأعداء عقيدتهم من الإهدار بغير حق ، وبغير ما يمنع إعلاء كلمة الله التى أراد بها خير البشر وصلاحهم أجمعين بل إن فى إعلان الهدنة المؤقتة فرصة لهداية الضالين من أعداء الدين الى تفهم هذا الدين والرجوع إلى الحق ، وإحلال السلام بين الناس محل التنازع والخصام .

حدد القرآن الكريم وقت هذه الهدنة تحديدا واضحا لا لبس فيه ولا غموض ولا تأويل ، بشرط التزام الطرفين بما اتفقا عليه ، حدد الله هذه الهدنة بأربعة شهور عربية محددة بالإسم هى شهور المحرم ورجب وذو القعدة وذو الحجة .

« إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِى كِتَابِ اللهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ، فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ »(٩٤) .

ولم يحل الله للمسلمين قتال أعدائهم فى هذه الشهور إلا فى حالة واحدة وهى بدء أعدائهم بالعدوان عليهم واضطرار المسلمين إلى استخدام السلاح ، والقتال فى رد هذا العدوان ، دفاعا عن النفس والمال .

« الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ »(٩٥) .

وقد كان فى عرف العرب أيام الجاهلية وقبل الإسلام تحريم القتال بين قبائلهم فى هذه الشهور الأربعة ولكن هذا التحريم كان يرمى إلى غرض آخر غير ما جاء به القرآن . قصدوا بهذا التحريم تهيئة جو من الأمن لمدة محددة يزاول اثناءها العرب تجارتهم وأفكارهم .

٢- وقد يحدد الطرفان المتحاربان ، بعد نشوب الحرب بينهما ، مكانا معينا يتفقان على جعله منطقة حياد ، يحرم عندها على أى من الطرفين تجاوزها أو القتال فيها ، وهى منطقة يقف كلا الطرفين على جانبيها شاكى السلاح وعلى أتم الاستعداد لخوض المعركة إذا ما خرق الطرف الآخر ما اتفق عليه واخترق هذه المنطقة بقصد

العدوان والقتال وهذا ما نراه اليوم على الخريطة السياسية لدول العالم وهو ما يعرف بخطوط الهدنة .

هذا النوع من الهدنة المكانية ، كان موجودا قبل الإسلام وأيام جاهلية العرب ، إذْ جعلوا من بيت الله الحرام مكانا آمنا لايجوز فيه قتال ولاسفك دماء ، وذلك لنفس السبب الذي من أجله حرموا القتال في الأشهر الحرم ، مضافا إليه سبب ديني وهو مزاولة عبادتهم عند بيت الله الحرام .

وقد حدد القرآن الكريم هذا المكان بالذات منطقة هدنة يحرم فيها على المسلمين القتال فيه إلا دفاعا عن النفس في حالة عدوان الأعداء عليهم .

وشاءت حكمة العزيز الحكيم اختيار هذا المكان تقديسا وتبريكا له . فهو أول بيت أقيم بأمر الله لعبادته وحده ، وأمر بتطهيره من سفك الدماء وتأمينه لمن يؤمه من عباد الله ورغم التواء المشركين بما أراد الله من بنائه قبل الإسلام وسنرى فيما بعد كيف ولماذا أحل الله للمسلمين منع المشركين من دخول هذا المكان المقدس أو مُزَاوَلَةِ طقوسهم الدينية فيه :

« وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُوا مِن مَّقامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ »(٩٦) .

« وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ، قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ » (٩٧)

وقد جعل الله سبحانه وتعالى ، من بيته الحرام قبلة للمؤمنين في جميع أنحاء الأرض ، وأمر بإقامته ليصلى فيه الناس لله ويذكروه ويضرعوا إليه وحده ، مكان هذا شأنه وإذْ جعله الله حصن أمان لعباده القانتين يأمنون فيه على أنفسهم أذى أعدائهم وعدوانهم ، مكان هذا شأنه ، لابد وأن يكون المؤمنون بالله أُسْوَةً لغيرهم في تقديسه ، ومن ثم أمر الله المؤمنين به أن يكونوا قدوة لغيرهم في تطهيره ونشر السلام في ربوعه وجعله دار أمْن لهم ولمن يلوذ به من الناس كافة ، فلا قتال فيه إلا

دفاعاً عن النفس ولا قتال فيه إلا ضد نجسٍ يحاول أن ينال من قدسيته ، ولا قتل فيه إلا لمن أراد بكفره أن يطفىء نور الله ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون .

« وَاقْتلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخرجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ القَتْلِ وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ المَسْجِدِ الحرام حَتّى يُقاتِلُوكُمْ فِيه فَإن قَاتَلوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ ، كَذَلِكَ جَزاءُ الكَافِرينَ(٩٨) * فَإنِ انْتَهَوْا فَإنَّ اللَّه غَفُورٌ رَّحِيمٌ »(٩٩) .

ولما أقام النبى ﷺ ، فى يثرب أول حكومة إسلامية منظمة تسيروفق ما أمر الله به فى كتابة الحكيم من مبادىء العدل والديمقراطية والمساواة ، ولما أقام من المسلمين المؤمنين جيشاً منظماً يدافع به عن العقيدة ويعلى به كلمة الحق ، ويطهر به بيت الله الحرام من أدران الشرك ، ونجس المشركين الذين كانوا لا يزالون يفدون إليه للطواف والتعبد لأوثانهم من دون الله ، .

من أجل ذلك ومن أجل إبقاء البيت الحرام على ما أراد الله من بنائه ، ألاَ وهو عبادته وحده والتسبيح باسمه وحده ، ولوضع هذا البيت أمانة فى يد أصحابه وهم المسلمون ، من أجل ذلك أمر الله نبيه والمؤمنين بتطهيره من مظاهر الوثنية والإباحية التى كان يزاولها من دخل فيه من المشركين ، بتحريم دخوله على غير المسلمين ، فأنزل الله على نبيه الآية :

« وَأَذَانٌ مِنَ اللَّه وَرَسُولِهِ إلَى النَّاسِ يَوْمَ الحَجِّ الأكْبَر أَنَّ اللَّه بَرِيءٌ مِنَ المُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى اللّه وَبشِّرِ الَّذِين كَفَرُوا بِعذابٍ أَلِيم(١٠٠) . إلاَّ الَّذِينَ عَاهَدْتُّم مِنَ المُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً ، وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُم أَحَداً فَأَتِمُّوا إلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إلىَ مُدَّتِهِمْ إنَّ اللَّه يُحِبُّ المُتقِين »(١٠١) .

واستثناء هؤلاء المشركين المتعاهدين مع النبى ليس مطلقاً ، بل هو موقوت إلى أن يتم الأجل الذى تعاهدوا عليه ، وبعد انتهاء هذه المهلة ، كان شأنهم شأن بقية المشركين فى تحريم دخولهم بيت الله الحرام :

« فَإذَا انْسَلَخَ الأَشْهُرُ الحُرُم فَاقْتُلوا المُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ واقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإن تَابُواَ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ، إنَّ اللَّه غَفُورٌ رَّحِيمٌ »(١٠٢) .

فلا تشفى منهم ولا انتقام لما لاقاه المؤمنون منهم من إضطهاد وتعذيب ، وهذه ناحية أخرى من نواحى سماحة الإسلام وتسامحه حتى مع من كانوا له ألد الأعداء .

إنما أراد الله بطرد المشركين من بيته الحرام وقتالهم حتى يجلوا عنه ، تطهير هذا البيت من كفر المشركين ونجسهم وحتى لا يجتمع الطيب والخبيث فى مكان واحد .

« يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الحَرامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِن خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُم اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إن شاء إنَّ اللَّه عَلِيمٌ حَكِيمٌ »(١٠٣)

فقد أمر الله نبيه الكريم بتطهير بيته الحرام من المشركين ومن مظاهر شركهم بالله ، وذلك بتحريم دخولهم هذا البيت الطاهر تزكية له من رجسهم ونجسهم ، وأمر الله بإمهال المشركين إلى نهاية عام الحج الأكبر ، يختارون بعده إما الإسلام لله وإقامة شعائر دينه فيبقون فى مكانهم ، وإما الجلاء نهائياً عن هذه الأرض المقدسة وعدم عودتهم إليها ما بقوا على شركهم ، فإن أبوا إلا الشرك عناداً واستكباراً ، أحل للمسلمين قتلهم :

وهذا ما أعلنه الرسول الأمين للناس كافة وللمشركين بصفة خاصة يوم الحج الأكبر فقد أناب لإعلانه صفيه وصديقه أبا بكر الصديق رضى الله عنه ، وأمر المسلمين باحترام الهدنة المعطاة للمشركين ، مالم يبدأ المشركون بالعدوان على المسلمين أثناء الحج ، كما أعلن اجارة من يستجيره من المشركين لإعطاء الفرصة لإسلام من أراد منهم إسلاماً ، وذلك تنفيذاً لقوله تعالى :

« وإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فأَجِرْهُ حَتَّى يسْمَعَ كَلاَمَ اللَّه ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِك بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَعْلَمُونَ »(١٠٤)

وهذا أسلوب حكيم من أساليب الحرب بين المؤمنين وأعدائهم ، حدده الله للمؤمنين ليأخذوا به فى سلوكهم الحربى .

(ب) أما وقف القتال وقفاً تاماً ونهائياً ، فقد حدده الله فى حالات منها عدم القتال بين المسلمين وعدم قتال من اصطلحوا معهم بشروطهم :

١ - فقد أبى الله إلا أن يتم نعمته على المؤمنين ، وأبى إلا أن يعيش أخوة الدين الواحد الذى اختاره لهم ربهم فى سلام وأمن كأفراد أسرة واحدة . فأمر بعدم

القتال بين المسلمين حتى لا تكون فيهم فتنة تذهب بهم ، وهم أمة تدعو للسلام وتنادى به .

نهى الله المؤمن عن قتال أخيه فى الدين ، أو اتخاذ أمة إسلامية الحرب وسيلة لفض المشكلات التى تقوم بينها وبين أمة إسلامية أخرى ، بل حض الله على الإصلاح بين المؤمنين إذا ما بدت فى الأفق بوادر تنذر بنزاع أو اختلاف حتى لا يستفحل هذا النزاع إلى نشوب قتال بينهم ، كما أمر بمنع المعتدى وكف يده بل وقتاله إذا لم يرجع للحق أو لم يرتدع بالحسنى ، فالإسلام سلام وأمن واطمئنان بين أهله .

« يَا أَيُّهَا الَّذِين آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً ولاَ تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ »(١٠٥)

« إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيكُمْ وَاتَّقُوا اللَّه لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُون »(١٠٦) .

« وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ، فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلى أَمْرِ اللَّهِ ، فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالعَدْلِ وأَقْسِطُوا ، إِنَّ اللَّه يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ »(١٠٧) .

وقد شدد الله فى تحريم قتل المؤمن أخاه المؤمن أو العدوان عليه والغدْر به ، وتوعد من خالف ما أمر به الله بأشد العذاب :

« وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمناً مُّتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً »(١٠٨) .

بل إن الله الرحيم بعباده المؤمنين قد زاد من رعايته لهم وأحاطهم بسياج من الأمن ، إذْ حض المقاتل المؤمن على التحرى وإمعان النظر أثناء قتال الأعداء فعلى هذا المقاتل أن يتبين ، فقد يكون بين هؤلاء الأعداء أخ له فى العقيدة اضطرته ظروف العيش وقلة الحيلة إلى العيش بينهم ولم يستطع لنفسه منهم فكاكاً فلا يتعمد قتله ، فإن أخطأ رغم حرصه فقتله خطأ ، كان على من قَتلَ التكفير عن خطئه والتعويض عمن قتله تعويضاً مادياً عادلاً .

بل لقد شاءت رحمة الله بخلقه من بنى آدم : أن تحرّم على المؤمن قتل من لم يؤمن إذا كان فى قوم بينهم وبين المؤمنين ميثاق أو عهد بعدم القتال ، كما سنتبين فيما بعد .

« وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلاَّ خَطَأً وَمَن قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلاَّ أَن يَصَّدَّقُوا فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَن لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً »(١٠٩) .

والحكمة الإلهية من التأكيد على تحرير رقبة مؤمنة هو تكريم من آمن به من الأرقاء بتحريرهم حتى يكون جميع المؤمنين أحراراً ، فالحرية هى من المبادىء الأساسية فى الإسلام .

٢ – وإذ أباح الله للمؤمنين به القتال فى سبيله وحده وليس من أجل مغنم أو مطمع شخصى ، فإنه سبحانه وتعالى قد نهى عن قتل من استسلم لهم من جيش الأعداء بحجة أنه غير مسلم ، وعلى المؤمن ألا ينسى أنه كان مثله قبل أن يكرمه الله فشرح قلبه للإيمان ، فإذا ما طلب المعتدون الصلح وسلموا بشروط المسلمين المنتصرين فلا قتال بعد ذلك إلا ضد من يعتدى ، وذلك حتى لا تسوّل لمؤمن نفسه بإتخاذ عدم إسلام الناس حجة فى سلبهم أموالهم بغير حق :

« يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ اللهِ فَتَبَيَّنُوا وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ، كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عليكم فتبينُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً »(١١٠) .

« وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ »(١١١)

ومع كل هذه السماحة وحب السلام ومد يد المؤمن لمن مد له يده بالسلام ، فإن على المؤمن أن يتحوط ويأخذ حذره مما قد يريده عدو غادر . فقد يطلب العدو السلام ويظهر الاستسلام أثناء الحرب خوفاً من بطش جيش المسلمين ، وقد رأى العدو أنه سيخرج من هذه الحرب مهزوماً ومدحوراً ، فيلجأ إلى الغش والخداع ثم

لا يلبث أن ينقض عهده وينقلب على المسلمين أشد ضراوة وقسوة ، فعلى المقاتل المسلم ألا يخدع بل يكون على أهبة الاستعداد لرد كيد العدو إلى نحره إذا ما سولت له نفسه غدرا أو خيانة فلا يؤخذ على غرة منه بل يرد للغادر الخائن الصاع صاعين حتى لا تقوم له بعد ذلك قائمة .

« وإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الخَائِنِينَ »(١١٢) .

٤ - مكاسب الحرب فى الإسلام :

١ - فرض الله على المؤمنين القتال لرد ما قد يقع على الإسلام والمسلمين من عدوان ، وهو أصلاً وكما أمر به الله ، قتال فى سبيل الله وإعلاء كلمته فى العالمين ، وازالة ما يعترض انتشار العقيدة الاسلامية من كيد ومن عقبات لا تقوم على الحق والعدل ، والقضاء على من يريد بدعاة هذه العقيدة سوءاً عن طريق عدوان عليهم أو تسلط ، وهذا هو ما أراده الله بالجهاد فى سبيله .

وقد يبدو لمن ينظر نظرة سطحية إلى ما شنه المسلمون الأوائل من حرب ، على انه عدوان منهم على غيرهم من الشعوب الآمنة ومن ثم رموهم بالتعصب الأعمى واتهموهم بحبهم سفك الدماء وميلهم للنهب والسلب . ولو تحرى هؤلاء المفترون الدقة فى النظر والأمانة والعدل فى إصدار هذا الحكم الظالم ، لقالوا غير ما قالوا :

والمعروف أن النبى ﷺ بعد أن نشر دعوته فى أمته قد أرسل إلى ملوك ورؤساء الشعوب المجاورة يدعوهم إلى الإسلام ، ولم يفاجئهم بحرب عدوانية بغية النهب والسلب ، بل أرسل إليهم أن يسلموا لله أو على الأقل ألا يقفوا فى سبيل انتشار الدعوة الإسلامية وأن يتركوا لشعوبهم الحرية فى اختيار دعوة الحق والسلام والعدل ، وفى ظل هذه الحرية يترك الأمر للأفراد يهدى الله منهم من يشاء ويشرح قلبه للإسلام ، ولكن غرور بعض هؤلاء الرؤساء أركبهم رءوسهم ، فمنهم من أكرم رسل النبى إليهم ، ومنهم من رد رداً غير كريم . وكان هذا إصراراً منهم على الكيد للإسلام والمسلمين والوقوف منهم موقف العدوان ، ومع كل هذا لم يقاتل المسلمون إلا من اعتدى عليهم أو على حلفائهم اعتداء فعلياً عن طريق شن الحرب والبدء بالعدوان . وكانت حروب مريرة بين المسلمين وأعدائهم ، فتح الله فيها على

المسلمين بالنصر المبين ، وهنا انتصر الحق ، فما أن تحرر أفراد هذه الشعوب من ضغط حكامهم واضطهادهم حتى دخلوا فى دين الله أفواجاً ، وهذا هو النصر المبين إذا أتاه الله لمؤمن اتقى ربه وأعلى كلمته ، لذلك يعتبر تحرير هذه الشعوب من ظلم حكامهم تحريرا للفرد فى اعتناق ما يؤمن به من دين .

هذا هو الكسب الأول للحروب الاسلامية الأولى ، وياله من كسب وياله من نصر ، انتصار الحق على الباطل ، وفوز الخير على الشر .

٢ ـ ومن مكاسب الحروب الإسلامية ، ما استولت عليه جيوش الإسلام مما بيد الأعداء المهزومين من مال أو متاع ، وهو حق مشروع لمن انتصر للحق وقضى على قوى الشر ، بل هو ما تسير عليه الدول فى الحروب الحديثة فيما يسمى بالغرامات الحربية يفرضها المنتصر على المهزوم ويأخذها منه فى شكل مال أو أرض .

وقد سُمى هذا الكسب فى القرآن باسم الغنائم وهو ما جرت عليه التسمية فى صدر الإسلام والغنيمة هى ما يستولى عليه المقاتل المسلم من عدوه بعد ان ينتصر عليه فى ميدان القتال .

وقد شرع الله للمسلمين طريقة عادلة فى اقتسام الغنائم بين المسلمين سواء منهم من حارب أو من لم يحارب ، وذلك توفيقا للتكافل والتعاون بين الأخوة فى دين الله :

« وَاعْلَمُوا أنَّمَا غَنِمْتُمْ مِن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمسهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَساكِينِ وابْنِ السَّبِيلِ إنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بالله وما أنْزَلْنا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقانِ يَوْمَ الْتقَى الْجَمْعَانِ وَالله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ »(١١٣) .

وعلينا أن نفرق بين هذه الغنائم وبين ما يسمى بالفىء .

فالفىء هو ما آتى الله المسلمين من أموال الأعداء من غير حرب مثل مال الصلح الذى كان يدفعه بعض الحكام المجاورين للمسلمين مقابل ألا يعتدى أحدهما على الآخر أو مقابل حماية المسلمين لأحد هؤلاء الحكام ونجدته إذا ما اعتدى عليه حاكم آخر ومن الفىء الأرض التى كان يفر منها أعداء المسلمين خوفاً من محاربة المسلمين فتصبح هذه الأرض للمسلمين ، ومن الفىء أيضاً الجزية التى كان يدفعها أفراد

الشعوب المهزومة من أهل الكتاب إذا فضلوا البقاء على دينهم وأعفى منها من اتخذ الإسلام دينا كما يشمل الفىء مصادر أخرى لأموال المسلمين فى صدر الإسلام كالصدقات والزكاة والخراج والعشور .

وقد شرح العزيز الحكيم مصارف الفىء فى الآيات ٧ - ١٠ من سورة الحشر ، بين فيها للمسلمين ضرورة مراعاتهم المساواة فى العطاء من هذا الفىء بين من يستحقه من المسلمين فلا يستأثر به بعض منهم حتى لا يكونوا طبقة من الأغنياء يتميزون بما أخذوا من مال المسلمين على فقرائهم .

٥ - معاملة الأسرى فى الإسلام :

ان الله الرحمن الرحيم ، وقد وسعت رحمته كل خلقه ، لم يستثن من رحمته أولئك الذين حاربوا دين الحق وناصبوا دعاته العداء ، فشملت رحمته الأسرى من الأعداء الذين وقعوا فى يد المسلمين المقاتلين فى سبيل الله بعد أن أتاهم بنصره المبين . فبعد أن أصبح هؤلاء الأسرى لا حول لهم ولا قوة ولا خطر يخشى منه ، وبعد أن كفى الله المؤمنين المنتصرين شر هؤلاء الأسرى وعدوانهم أبى الله إلا أن يؤخذوا بالرفق . فقد أمر سبحانه وتعالى المؤمنين بحسن معاملة هؤلاء الأسرى وتأمين حياتهم بل أمرهم أيضاً باقتسام الأسرى طعام المؤمنين حتى إذا ما اطمأن الأسرى إلى حسن معاملة المسلمين الأقوياء المنتصرين وإلى سماحة دينهم أخذهم المسلمون بالموعظة الحسنة فى دين الله ، فقد يشرح الله قلوبهم للإسلام بعد ان ذهبت سماحة الإسلام وحرمته بما كان فى قلوبهم من غل وحقد وسوء فهم لهذه الشريعة الإلهية السمحاء ، وتبين آيات الله البينات فى كثير من المواضع ما يجب على المقاتل المؤمن أن يأخذ به سلوكه فى معاملة الاسرى .

« وإِنْ أَحَدٌ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ ٱللَّهِ ، ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ »(١١٤) .

« يَا أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَنْ فِى أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ »(١١٥) .

« وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً(١١٦) » .

بل إن سماحة الإسلام واحترامه لحرية الفرد لتأبى إكراه أهل الكتاب من غير المسلمين على اعتناق هذا الدين القيم ما لم يشرح الله قلوبهم للإسلام فالهداية من الله وحده ، ولا إكراه فى الدين .

ولذلك فرض على المغلوب الذى ظل على دين غير الإسلام جزية معلومة يدفعها فداء لنفسه ولحريته ، وحقاً لله وللمؤمنين به وبرسوله .

«قَاتِلُوا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلاَ بِالْيَومِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ[117]» .

٦ - ثواب القتال فى سبيل الله :

إن فى قتال المؤمنين أعداء الله وأعداء الحق وأعداء السلام الذى أراده الله لهذه الأرض ، إنما هو قربى لله تعالى والتماس عفوه ورضاه ، وتطهير للمؤمن من هوى نفسه ، وحرب منه ضد الشيطان الذى يزين للناس حب الحياة الدنيا ويصرفهم عن طاعة الله وتقواه . والقتال فى سبيل الله ولإعلاء كلمته التى أنزلها بالحق ، هو تكفير من المؤمن عما بدر منه من زلات أغواه بها الشيطان الرجيم فى غفلة من المؤمن عن ذكره ربه وتقواه وبراءة للمؤمن من ذنبه وتزكية لنفسه إذْ هو يشترى آخرته بدنياه ، ويشترى بحياته الموت فى سبيل الله .

لذلك قرّب الله إليه المقاتلين من المؤمنين . إذْ أن من علامات تقوى المؤمن ربه والتقرب إليه وصدق الإيمان به التضحية بالنفس والمال حين يدعو داعى الجهاد والفداء فى سبيل الله وحده لذلك فالمؤمن المجاهد فى سبيل الله وحده أقرب وأحب إلى ربه من المؤمن القاعد وهو قادر على القتال والجهاد :

« لاَيَسْتَوِى القَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِى الضَّررِ وَالمُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى القَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاً وَعَدَ اللَّهُ الحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى القَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً[118]* دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً[119]» .

« الذينَ آمَنُوا وَهَاجَروا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَموالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الفَائِزُونَ(١٢٣)» .

فكيف إذن بأولئك القادرين جسدا ومالاً ثم قعدوا عن الجهاد مع إخوانهم المؤمنين فى سبيل اللهِ وفى سبيل العقيدة ، وهم أقدر على تحمل متاعب الحرب وتكاليفها ؟ ألا إنهم لقوم آمنوا بأفواههم بينما قلوبهم خواء من أى إيمان .

« رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ(١٢١)» .

وما أصدق قول رسول الله فى هؤلاء المتخلفين :

(من مات ولم يغز ، ولم يحدث نفسه بغزو ، مات على شعبة من النفاق)
صدق رسول الله

وما لهؤلاء المتخلفين عن القتال فى سبيل الله لا يتخذون من الرسول الشجاع وممن آمن به من السلف الصالح أسوة ، ليؤتيهم الله فى آخرتهم خيراً مما بذلوا فى دنياهم ؟ .

« لَكِنِ الرَّسُولُ والَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَموالِهِمْ وأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ »(١٢٢).

وإذْ أمر الله العلى القدير المؤمنين بقتال أعدائهم وأعداء دين الله ، إنما يعدهم النصر ويؤيدهم بروح من عنده ، فيأخذ بيد جنود الحق ، ويخذّل أعداءهم وينزل فى قلوبهم الرعب والهلع ، وينصر المؤمنين ويظهرهم عليهم ، وهو سبحانه على كل شىء قدير :

« سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللهِ مَالَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَمَأواهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ »(١٢٣) .

« قَدْ كَانَ لَكُم آيَةٌ فِى فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِى سَبيلِ اللهِ وَأُخرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْىَ الْعَيْنِ وَاللهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُولِى الأَبْصَارِ »(١٢٤) .

« وإذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ واللهُ خَيْرُ المَاكِرِينَ »(١٢٥) .

« ولَو قَاتَلكُمُ الَّذينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الأَدْبَارَ ثُمَّ لاَ يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً »(١٢٦) .

وإذْ يخذّل القوى العزيز الكفار والمعتدين ويوهن قواهم ، يمد المؤمنين المجاهدين بجند من عنده لايرونها فتشد من أزرهم وتكون معهم حرباً على الكفار :

« فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ المُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاَءً حَسَناً إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ »(١٢٧) .

« بَلِ اللهُ مَوْلاَكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ »(١٢٨) .

«إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاثَةِ آلافٍ مِنَ المَلاَئِكَةِ مُنْزَلِينَ(١٣٢) * بَلَى إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا ، وَيَأْتُوكُمْ مِن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ المَلاَئِكَةِ مُسَوِّمِينَ» . « وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللهِ العَزِيزِ الحَكِيمِ » . « لِيَقْطَعَ طَرَفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ»(١٣٠) .

« ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللهَ مُوهِنُ كَيْدِ الكَافِرِينَ »(١٣١) .

« وَعَدَكُمُ اللهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ ، وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً »(١٣٢).

« إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ ، أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ المَلاَئِكَةِ مُرْدِفِينَ »(١٣٣) .

هذا هو النصر الذى أتاه الله المؤمنين فى حربهم ضد المعتدين ، وهو نصر يرفع به الله راية الحق ويعز به الإسلام والمسلمين فى حياتهم الدنيا ، ما بقوا على إيمانهم بالله وتقواه والجهاد فى سبيله ، فيلمسون من فورهم ثمرة هذا النصر بما يأتيهم الله من فضل وغنائم .

« وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ ينالُوا خيْراً وكَفَى الله المؤْمنِينَ القتال وكانَ الله قَوياً عَزيزاً » .

« وأنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِّن أَهْلِ الكِتَابِ مِنَ صَيَاصِيهِمْ ، وقَذَفَ فِي قُلُوبِهِم الرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً . وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَمْ تَطأُوهَا ، وَكَانَ الله عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرًا » (١٣٥) .

« لَقَدْ رَضِيَ الله عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تحت الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً . وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ الله عَزِيزاً حَكِيماً وَعَدَكُمُ الله مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِه »(١٣٦) .

وإذْ نصر الله المؤمنين على أعدائهم ، أحل لهم أخذَ أموالهم ومتاعهم وسلاحهم ، يوهن بذلك قوة الأعداء ، فيزدادوا ضعفاً ، ويزيد بها قوى المؤمنين فيزدادوا عزةً ومَنَعَةً .

ومن استشهد من المؤمنين في سبيل الله ، أتاه الله خيراً من كل ما في الدنيا ، آتاه مغفرة لما تقدم من ذنب ، رضــاً وتقرُّباً منه ، ونعماً ونعيماً دائماً مما لم يخطر على بال البشر ، وما عند الله خير وأبقى ، لا يؤتاه إلا من عَمُقَ إيمانه واتقى ربه ونفذ أمره ورضى بقَدَره .

وكيف يخشى المقاتل المؤمن الموت في سبيل الله ، وكل نفس ذائقة الموت ، طال بها العمر أم قصر ، وخير للمؤمن أن يموت شريفاً كريماً في سبيل الحق والعقيدة ليفوز برضا ربه ورحمته :

« فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ الله الذِينَ يَشْرُونَ الحَيَاةَ الدُّنْيا بالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ الله فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤتيهِ أَجْراً عَظِيماً»(١٣٧) .

« وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لإِلَى الله تُحْشَرُونَ »(١٣٨) .

« وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ الله أَوْمُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ الله وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ »(١٣٩) .

« وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ . فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَهُمْ يَحْزَنُونَ(١٤٣) يَسْتَبْشِرُون بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِين . الَّذينَ اسْتَجَابُوا للهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ واتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ »(١٤٠) .

« إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقتَلونَ وعداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوراة والإنجيل وَالقرآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْده مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِروا بِبَيْعِكُمُ الَّذى بَايَعْتُمْ بِهِ وذلك هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ »(١٤١) .

وفى الحديث الشريف عن ثواب المقاتل فى سبيل الله :

(الجنة تحت ظلال السيوف) ، (جعل رزقى تحت ظلال رمحى) .(لغدْوة أو روْحة فى سبيل الله خير مما تطلع عليه الشمس أو تغرب) ، (قتلانا فى الجنة وقتلاهم فى النار) .

(من شاب شيبة فى سبيل الله كانت له نوراً يوم القيامة) .

(يشفع الشهيد فى سبعين من أهله) . صدق رسول الله .

هوامــش الفصــل الرابع

(١) البقرة ٢٥٦
(٢) البقرة ٢٥٣
(٣) البقرة ٢٦٨
(٤) البقرة ٢٧٢ .
(٥) الأنفال ٤٨
(٦) النساء ٧٦
(٧) التوبة ٣٢ .
(٨) البقرة ٢١٦
(٩) التوبة ٤١
(١٠) البقرة ١٩٠
(١١) البقرة ٢٤٤
(١٢) التوبة ٩١
(١٣) الفتح ١٧
(١٤) التوبة ٩٣
(١٥) الممتحنة٨
(١٦) الممتحنة ٩
(١٧) الأنفال ٤٧ .
(١٨) الحجرات ١٥
(١٩) التوبة ٣٩
(٢٠) البقرة ١٩١ .
(٢١) البقرة ١٩٣
(٢٢) التوبة ٢٩
(٢٣) النساء ٧٥
(٢٤) الحج ٣٩
(٢٥) التوبة ١٢
(٢٦) التوبة ١٣
(٢٧) التوبة ١٤
(٢٨) التوبة ١٢٣
(٢٩) الأنفال ٣٨
(٣٠) آل عمران ١٦٠
(٣١) النساء ٧١
(٣٢) الأنفال ٦٠
(٣٣) الصف ٤

(٣٤) محمد ٤
(٣٥) الأحزاب ٢٢
(٣٦) الأحزاب ٢٣
(٣٧) الأحزاب ٢١
(٣٨) النساء ١٠٤
(٣٩) النساء ١٠١
(٤٠) النساء ١٠٢
(٤١) البقرة ٢٣٨ ، ٢٣٩
(٤٢) الأنفال ٦٥
(٤٣) الأنفال ١٥ ، ١٦
(٤٤) الأنفال ٤٦
(٤٥) الأنفال ٤٥ .
(٤٦) البقرة ٢٤٦
(٤٧) آل عمران ١٦٧
(٤٨) آل عمران ١٤٩ .
(٤٩) آل عمران ١٥٦
(٥٠) آل عمران ١٦٨
(٥١) النساء ٧٢
(٥٢) النساء ٧٣
(٥٣) النساء ٨٨
(٥٤) النساء ٨٩
(٥٥) النساء ٩١
(٥٦) النساء ٧٧ .
(٥٧) النساء ٨٤
(٥٨) المائدة ٢٢
(٥٩) المائدة ٢٤
(٦٠) المائدة ٣٥
(٦١) التوبة ٣٨ .
(٦٢) الأحزاب ١٥
(٦٣) الأحزاب ١٨
(٦٤) الأحزاب ١٩ .
(٦٥) محمد ٢٠
(٦٦) الأحزاب ٢٠ .
(٦٧) آل عمران ١٧٣
(٦٨) آل عمران ١٧٤
(٦٩) آل عمران ١٧٥
(٧٠) الأحزاب ١٠ ، ١٣ .
(٧١) الأحزاب ٩
(٧٢) آل عمران ١٦٥
(٧٣) التوبة ٤٤ .

(٧٤) التوبة ٤٥
(٧٥) التوبة ٨٦
(٧٦) التوبة ٤٢
(٧٧) التوبة ٤٦
(٧٨) التوبة ٤٧
(٧٩) التوبة ٥٦
(٨٠) التوبة ٥٧
(٨١) التوبة ٨١
(٨٢) التوبة ٤٣
(٨٣) التوبة ٤٨
(٨٤) التوبة ٩٥
(٨٥) التوبة ٩٣
(٨٦) التوبة ٨٣
(٨٧) التوبة ٧٣
(٨٨) التوبة ٩٧
(٨٩) التوبة ١٠١
(٩٠) التوبة ٩٨
(٩١) الفتح ١١
(٩٢) الفتح ١٢
(٩٣) الفتح ١٥
(٩٤) التوبة ٣٦
(٩٥) البقرة ١٩٤
(٩٦) البقرة ١٢٥
(٩٧) البقرة ١٢٦
(٩٨) البقرة ١٩١
(٩٩) البقرة ١٩٢
(١٠٠) التوبة ٣
(١٠١) التوبة ٤
(١٠٢) التوبة ٥
(١٠٣) التوبة ٢٨
(١٠٤) التوبة ٦
(١٠٥) البقرة ٢٠٨
(١٠٦) الحجرات ١٠
(١٠٧)، الحجرات ٩
(١٠٨) النساء ٩٣
(١٠٩) النساء ٩٢
(١١٠) النساء ٩٤
(١١١) الأنفال ٦١
(١١٢) الأنفال ٥٨ .
(١١٣) الأنفال ٤١

(١١٤) التوبة ٦
(١١٥) الأنفال ٧٠
(١١٦) الإنسان ٨
(١١٧) التوبة ٢٩
(١١٨) النساء ٩٥
(١١٩) النساء ٩٦
(١٢٠) التوبة ٢٠
(١٢١) التوبة ٨٧
(١٢٢) التوبة ٨٨
(١٢٣) آل عمران ١٥١
(١٢٤) آل عمران ١٣
(١٢٥) الأنفال ٣٠
(١٢٦) الفتح ٢٢
(١٢٧) الأنفال ١٧
(١٢٨) آل عمران ١٥٠
(١٢٩) آل عمران ١٢٤
(١٣٠) آل عمران ١٢٥-١٢٧
(١٣١) الأنفال ١٨
(١٣٢) الفتح ٢٠
(١٣٣) الأنفال ٩
(١٣٤) الأحزاب ٢٥-٢٧
(١٣٥) الفتح ١٨-٢٠
(١٣٦) النساء ٧٤
(١٣٧) آل عمران ١٥٨
(١٣٨) آل عمران ١٥٧
(١٣٩) آل عمران ١٦٩-١٧٢
(١٤٠) التوبة ١١١





البـــاب الرابــع

القرآن والسلوك العلمي



العلم والإيمان :

يحض العليم القدير ، عظم علمه وجلت قدرته ، فى قرآنه الكريم ، بنى آدم على التفكير فيما حولهم من ظواهر الأشياء وجوهرها ، وهى تلك الأشياء المادية مما يمكننا إدراكها بحواسنا ، كالبصر والسمع واللمس ، كما يأمرنا بتدبُّر وتعقل ووزن ما نرى أو نسمع أو نلمس بميزان العقل ، مع البعد عن الغرض والهوى ، أى أن يكون تفكيرنا فى هذه الأشياء محايدا وموضوعيا ، فالحيدة والموضوعية هما أهم أسس معرفة ظواهر الأشياء وحقائقها .

ونحن إذْ نحس هذه الأشياء نتدبر أسبابها وموجداتها فنصل بذلك إلى جوهر هذه الأشياء ومعانيها الحقيقية ، ونحن اذْ نتدبر هذه المعانى إنما نحاول - الحصول على المعرفة الشاملة بتكوينها وأسبابها والقصد من إيجادها ، وهذا ما يسمى بالمعرفة اليقينية . فالحواس تؤدى إلى العلم المادى ، والعلم يؤدى إلى معرفة الجوهر والمعنى .

وبتدبُّر معانى الأشياء وانفعال النفس بها وتمثلها يستيقظ الضمير ، ومن هذا الضمير ينبع الاحساس بجوهر الموجود أو حقيقته التى لا تدرك بالحواس وحدها ولا بالعقل وحده ولكن بتعاون الحواس والعقل والضمير . فمن أوتى حسا سليما

وعقلا راجحا وضميرا حيا يقظا اهتدى إلى المعرفة اليقينية بالحق سبحانه وتعالى وقدرته على الخلق والإبداع وسلامة تدبيره وخير قصده ، كل هذا يؤدى إلى الإيمان المطلق من حدود الزمان والمكان بالخالق القادر الحكيم المدبّر المسيّر لما خلق ، وإسلام الأمر كله له والعمل بما أمر به والتوكل عليه والاستسلام لِقَدَرِهِ .

من هذا نرى أن حث الله لنا على طلب العلم وتحصيل المعرفة إنما أراد بهما الخير لنا فى حياتنا الدنيا ، هذا هو ظاهر العلم . أما باطنه فهو الوصول إلى معرفة الخالق والإيمان بوحدانيته وقدرته وحكمته ، والتسليم بقَدَرِه .

والحكمة الإلهية من حض الناس على ممارسة هذا النوع من السلوك الفكرى ، هى ان تطمئن نفسُ الإنسان ويهدأ باله ، لأن اطمئنان النفس وهدوء البال مع حسن التدبير من عوامل التيقن التى هى أولى مقومات الإيمان ، وباليقين يتجنب الإنسان الشك الذى يؤدى إلى إساءة الظن بالأشياء وعدم تدبُّر حقيقة الظواهر والأفعال والنتائج ، وما ينعكس عن سوء الظن والتدبر فى حياة الناس من قلق نفسى وخطأ فى السلوك وما يقعون فيه من آثام ، وما يلحق نفس الإنسان من ضلال ومعاناة وعذاب .

وقلما نجد سورة من سور القرآن الكريم وليست فيها آية أو أكثر تحض المؤمنين على النظر والتعقل والتفكر والتدبر أو تحصيل العلم والمعرفة .

وقد يفكر الإنسان فيما يرى مما حوله ويتأمله ويتدبره ثم يعمل بما علم ليفيد منه فائدة دنيوية فحسب ، وقد يحس الإنسان بما حوله من مظاهر ولكنه يمر بها مر الكرام دون أن ينال منها أى نفع .

وعلى العكس من ذلك نجد آخر يفكر فيما حوله ، يتأمله ويتدبره بقصد الحصول على المعرفة والعلم المجردين ، فيتدبر الأسباب والنتائج ثم يقف عند اختزان المعرفة .

فالانسان فى الحالة الأولى إنما يفكر ويتدبر فيما ينفعه نفعاً مادياً فى حياته الدنيا فحسب أو يفكر ولا يفيد شيئا ، فيزداد حبا فى الدنيا وتعلقاً بها وتمسكاً بحياته فيها ، وينسى آخرته ويوم الحساب المحتوم ، وهذا شر ما تبتلى به البشرية من تفكير خاطىء

سىء العاقبة ، وهذا سبب ما نراه فى العالم من تسلط وظلم وعدوان ، وهو سبب ما يعانيه الإنسان من تعاسة وآلام ، إذْ نسى ربه واليوم الآخر فحرمه الله من رحمته ورعايته .

أما الإنسان فى الحالة الثانية فإنه ينظر ما حوله ويتدبر ، ثم يكشف بما عرف قدرة الخالق فيما خلق وحسن تدبيره وصرفه للأمور فيؤمن بالخالق وبوحدانيته وبحكمته فيما خلق ودبر ، فيهدأ باله ويطمئن قلبه .

والناس فيما يفكرون ويتدبرون صنفان :

فمنهم من قد ينصرف بكليته نظراً وفكراً متأملاً فيما خلق الله ، دون الإفادة من ماديات الحياة ، فيصل إلى ما يعرف بالتصوف ، وهو التجرد والانقطاع المطلق عن متاع الدنيا إلى العبادة والقربى من الخالق سبحانه وتعالى ، دون أن ينال حظه مما أحل الله له من نعم وما منحه من رزق ومتاع دنيوى مادى .

يقابل هذا صنف آخر من الناس انصرف بحسه وحواسه وفكره إلى نيل أقصى ما تصل إليه يداه من متاع دنيوى لنفسه ودون غيره ، حتى ولو كان فيما يرغب ويحصل عليه إضرار بالناس أو صرف له عن ذكر الله وتقواه وعن يوم الحساب فى الآخرة وهذا الصنف هو ما يطلق عليهم اسم الماديين .

وليس من الإسلام هذا ولا ذاك ، فالاسلام دين ودنيا :

الإسلام دين يذكر المؤمن ربه وتقواه وإقامة شعائره ، ثم الاستعانة به فى العمل للعيش فى دنياه حياة كريمة صالحة وإسلام الأمر كله إليه والرضا بقدره ، وحمده سبحانه وتعالى وشكره على ما يقدر ، فيعمل المؤمن بما أمر الله من صالح الأعمال فى دنياه ونيل حظه فيها ، والتزود من دنياه لآخرته .

ومن ثم حض الإسلام المؤمن على البحث وتحصيل العلم بما ينفع المؤمن فى دنياه وآخرته ، إذْ أمر بأن يكون تحصيل العلم والمعرفة قائما على تقوى الله والتماس عونه فى كسب الرزق الذى أحله ، وذلك بالعمل الصالح الذى يفيد منه صاحبه كما يفيد به مجتمعه ، بغير عدوان على حق الله وحقوق الناس .

فبطلب العلم وبالعمل الصالح بما عُلم وعُرف ينفّذ بنو آدم أمْرَ ربهم فى عمران هذه الأرض بالتى هى أحسن وأصلح :

« قُلْ مَنْ حَرَّمَ زينَةَ اللَّهِ الَّتى أَخْرَجَ لِعِبَاده والطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِى الحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ القِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ »(١) .

ورابطة العَقْد بين الإيمان بالله وذكره وتقواه وبين طلب العلم والحصول على المعرفة ، هو العلم القائم على النظر والتأمل والتدبر ، والربط بين المرئيات ، والمحسوسات واستخلاص النتائج ، ثم عملُ المؤمن بما عَلِم على معرفة الله والإيمان بقدرته وقَدَرِهِ ، والانتفاع بهذا العلم فى إعلاء كلمة الحق وإقامة العدل ، حتى تكون ثمرة المعرفة والعمل كسب رضا الخالق والنفع الحقيقى للخلق .

وبذلك يفيد العالم ، بعلمه ، نفسه ومجتمعه فى حياته الدنيا ، ويتزود بصالح أعماله فى دنياه لآخرته . والعمل إذا لم يكن قائما على علم يقينى ومعرفة تامة بطبيعة الأشياء التى يبغى الإنسان الانتفاع بها فى معاشه ومعاش من حوله من الناس ، يصبح عبثاً وعملاً غير صالح ، لا من حيث عدم حتمية النتائج المادية المرجوة فحسب ، بل من حيث عدم عمومية فائدتها لسائر الناس .

هذا عن العلم فى جانبه المادى .

أما الجانب الروحى من العلم وجوهر المعرفة فهو الوصول بصاحبه إلى معرفة الحق وبذلك يعمق هذا الجانب إيمان المؤمن بالله وحده وترسخ فى قلبه تقواه ، وهو بذلك يكون علماً صالحاً ومعرفةً مقبولة عند الله ، وينال بهما صاحبهما خير الجزاء :

« فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ومن يَعْمَلْ مثقال ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ »(٢) .

القرآن والمنهج العلمى :

ان المعرفة الحقة والعلم اليقينى بشىء أو بظاهرة لا يأتيان عفوا ، بل لابد للحصول عليهما من اتباع أسلوب أو طريقة تتمثل فى عدة خطوات متتابعة ومترابطة يسلكها الباحث فى فكره وعمله لكى يحصل على المعرفة أو العلم المطلوب ، بحيث تكون كل خطوة فى بحثه وتحصيله نتيجة لسابقتها وتمهيداً للاحقتها ، وهذا ما يعرف

فى التعبير الحديث بالمنهج العلمى ، ويمكن أن نسميه بالسلوك العلمى ، وتكـون النتيجة النهائية لهذه الخطوات حقيقة ثابتة تنطبق على الأشياء والظواهر المشابهة بشرط توافر نفس الشروط ، ومتى ثبتت صحة هذه النتيجة أصبحت قانونا أو نظرية .

وتسير خطوات العمليات العقلية فى المنهج العلمى على الترتيب التالى :-

١- الإحساس بالشيء أو الظاهرة ، وأدوات هذا الإحساس هى البصر والسمع واللمس والذوق والشم .

٢- الملاحظة أى إمعان النظر أو السمع أو اللمس مع التفكير .

٣- التذكُّر والربط أى تذكر ما يتصل بهذا الشيء أو هذه الظاهره عن طريق تداعى المعانى ثم ربط المتشابه منها بما نحس .

٤- فرض الفروض أى تدبر ما نحس وتقليب الفكر فى كـل جوانبـه ، وتلمُّس التفسير لما رأينا أو تذكرنا .

٥- تجربة الفـرض ، وهو الجـانب العملى فى البحث ، للتحقق من صحـة هذا الفرض .

٦- فإذا نجحت التجربة وثبتت صحة الفرض ، جاءت النتيجة إيجابية وأصبح هذا الفرض يقينا فيسمى قانونا ، والقوانين حقائق ثابتة تتكون منها المعرفة الحقة والعلم اليقينى .

هذه الخطوات فى المنهج العلمى فى البحث وتحصيل العلم والمعرفة قد أوحى بها الله للناس فى كثير من آيات القرآن الكريم ، فهذه الآيات تتضمن ألفاظـا توحى طـريقة تحصيـل الناس للمعـرفة ، فمن هـذه الألفاظ مثـلا : تنـظرون ، يـاأولى الأبصـار ، انـظر ، اسمعـوا - تتـذكـرون - تتفكـرون - تعقلونَ - تعـرفـون - تعلمون .

وهذه كلها أوامر ربانية للناس بأن يتخذوا من هذا القرآن الكريم مرشدا يهتدون بتوجيهاته وبياناته لفهم الكون وما يجرى فيه من أحداث وللحصول منه على العلم والمعرفة .

وسبيل الحصول على هذا العلم وهذه المعرفة هو النظر والتأمل والتذكر والتدبر والتعقل والعمل ، ثم بعد ذلك نصل إلى تحصيل المعرفة بما هية ماديات هذا الكون ومعنوياته فنؤ من إيماناً راسخاً وعلماً يقينيا بوجود السبب الأول لكل أسباب الكون ،

مادق فيه وما عظم ، ألا وهو الخالق الواحد جل وعلا . وطريقنا هو تفهم القرآن الكريم وآياته البينات وما أتت به من علم يقيني ومعرفة حقة من بحر علم الله الذى لن نبلغ منتهاه .

فلننظر ولنتدبر بعضا من هذه الآيات :

« قُلْ سِيرُوا فِى الْأَرْضِ ثُمَّ انظروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ »(٣) .

فلنقرأ تاريخ الأمم ولننظر ونتدبر ما انتهت إليه بعضها بظلمها وكفرها بالله :

« قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَ أَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثم هم يَصْدِفُونَ »(٤) .

وهو سبحانه وتعالى القادر على كل شيء قد وهبنا السمع والبصر والفؤاد لنحس بها ونفكر ونتدبر بديع خلقه ، وهو وحده القادر على أن يذهب بها جميعا .

« وهو الَّذِى يُحْيِى وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلاَفُ اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ »(٥) .

وهل ينكر عاقل أن الله وحده هو القادر على أن يحيى ويميت ؟ أو ليس فى ذلك حث لأهل العلم على التواضع ، وهم أمام علم الخالق أقزام لم يحيطوا إلا بأقل القليل من واسع علمه ؟ .

فآيات الله ظاهرة واضحة لكل ذى عينين يبصر بهما ولكل ذى عقل يفكر به ، فعلينا أن ننظر ونفكر فى بديع خلقه لنحصل على مزيد من العلم والمعرفة .

« قُلْ إنما أَعِظُكُم بواحدةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وفُرادَى ثُمَّ تَتَفَكَّروا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ »(٦) .

فعبادة الله وذكره وتقواه لا تتعارض مع حرية تفكير البشر وتحصيلهم العلم .

« قُلْ مَنْ حَرَّمَ زينَةَ اللَّهِ الَّتِى أَخْرَجَ لِعبادِه والطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِىَ لِلَّذينَ آمَنُوا فِى الحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصةً يَوْمَ القِيامَةِ كذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ »(٧) .

« وَهُوَ الَّذِى أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَومٍ يَفْقَهُونَ »(٨) .

فهو سبحانه وتعالى يزيد العالم والفقيه علماً ، بزيادة البيان والتفصيل فيما يعلمون ويفقهون ، ومن لا يؤمن بآيات الله الواضحة البينة فهو لا يعلم ولا يفقه شيئا .

« وتلك الأمثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاس وما يَعْقِلُها إلاَّ العالِمُونَ »(٩) .

« وهَذَا صِرَاطُ ربك مستقيما ، قد فَصَّلْنا الآيات لقوم يَذَّكَّرُونَ »(١٠) .

وكلام الله سبحانه وتعالى واضح وآيات قرآنه الكريم لا لبس فيها ولا غموض على من ذكر ربه واتقاه وأسلم لقدرته وقَدَرِه وحكمه .

العلم والعلماء فى القرآن :

ان من يقرأ القرآن الكريم قراءة واعية متفهمة ، فاتحاً بصره وقلبه لما يقرأ ، يجد فيه منهلا عذباً لا ينضب له معين من أنواع العلوم والمعارف التى تناولت قدرة الخالق وعظمته وبديع خلقه ، كما تناولت عجيب تكوين هذا الكون بما فيه من حى وجامد ثم هو بعد ذلك لن يطلع ولن يلم الا بقطرات من بحر علم الله الواسع الذى لا حدود له ولا نهاية .

ومهما أوتى قارىء كتاب الله المبين من علم ومعرفة ، فإن علومه ومعارفه لتتضاءل إلى أقل من القليل من بحر علم الله ، ذلك العلم المطلق بكل صغيرة وكبيرة مما يظهر لنا ، وما يزال خافيا عن إدراكنا .

وكيف نعجب لقصورنا وعجزنا أمام علم الخالق جل وعلا ؟ وهو الذى أحاط علمه بالماضى الذى لا نزال نجهله والحاضر الذى نحاول التعرف عليه بقدراتنا المحدودة - والمستقبل الذى لا يعلمه إلا هو وحده علام الغيوب .

كيف نعجب ؟ وهو سبحانه المبتدأ والمنتهى ومصير كل شىء إليه ، هو الخالق والمحيى والمميت ، وهو سبحانه الذى لا يقول لشىء كن الا وكان ، وهو جلت قدرته الأعْرَف بما خلق ، ما خفى منه وما ظهر :

« إنَّ اللَّهَ لا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ »(١١) .

إن إرادة الخالق ، وقد خلق بنى آدم واستخلفهم على هذه الأرض لإصلاحها وتعميرها بالحق والعدل ، ما شاءت إلا أن يرعاهم بعنايته فأمدهم بجزء من علمه ،

وبالقدر اللازم الذى يساعدهم على تذليل هذه الارض والعمل والاستزادة ، من العلم والمعرفة .

وقد بدأ العليم الخبير بآدم أبي البشر عند خلقه ، فلقنه من هذا العلم ما لم يلقنه لملائكته الأطهار :

« وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى المَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاَءِ إن كُنْتُمْ صادِقِينَ »[١٢] .

« قَالَ يَاآدمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِم قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّى أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ، وَأَعْلَمُ مَا تبدونَ وما كنتم تَكْتُمونَ »[١٣] .

ويريد العليم الخبير من أولى العلم ومن الباحثين عن المعرفة أن يصلوا ببحثهم وعلمهم إلى جوهر الأشياء فضلاً عن ظاهرها ، فيتبينوا قدرة الخالق وجلال تدبيره فيزدادوا إيماناً بقدرة الله ووحدانيته فيما خلق بالحق وتدبيره وتسييره بالعدل .

« شَهِدَ اللهُ أنّه لاَ إِلَهَ إلاَّ هُوَ وَالمَلاَئِكَةُ وَأُولُوا العِلْمِ قَائِماً بِالقِسْطِ لاَ إِلَهَ إلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الحَكِيمُ »[١٤] .

والعالِم إذْ يصل بما علم إلى معرفة الحق وعظمة ربه وجلاله ليتضاءل أمام الحق تعالى وليخشع له فى سره وعلنه ويخضع لأمره ويسلم لمشيئته ويتقيه ، فيتجمل بما أراد الله للعلماء من تواضع ويتقى غضب ربه بالعمل الصالح بما علم وعرف ، فيفيد البشر بدلا من أن يفسدهم ، ويعمر الأرض بدلا من أن يخربها .

ومن آيات تواضع العلماء وتقواهم :

« قُل آمِنُوا بِهِ أَوْلا تُؤْمِنُوا إنَّ الذِينَ أُوتُوا العِلْمَ مِن قَبْلِهِ إذَا يُتْلَىَ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً »[١٥] .

« وَيخِرُّونَ للأذقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُ هُمْ خُشُوعاً »[١٦] .

« وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ ربِّنَا ، إن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً »[١٧] .

ويميز الله العلماء من الناس ويجعلهم أقرب إليه من غيرهم

« أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَيَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ »(١٨) .

بل يشبّه الحكيم العليم من لا يعلم..لا يعرف بالأعمى الذى لا يرى ما حوله من بديع صنع الخالق .

«وَمَا يَسْتَوِى الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ(١٩)» .

ومَنْ أحسن عملاً بما علّمه الله وبما آتاه من معرفة ثم اتقى ربه ، أحبه الله وزاده من لدنه علما ومعرفة ، وها هو يوسف الصديق عليه السلام ، إذْ اتقى ربه وعرف الحق وصان الأمانة فحصن نفسه عن المعصية والخيانة لمن أحسن إليه ، فأتاه الله من العلم ما فسر به الرؤ يا ومن حسن التدبير ما انقذ به شعبا بأكمله من مجاعة كادت تدهمه .

« وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ »(٢٠) .

والإنسان لا يولد عالما ، بل يخرج من بطن أمه إلى هذه الدنيا غفلاً من أى معرفة أو تدبّر . ولكن العزيز الحكيم الرحيم بعباده ، قد زود هذا المولود بأدوات المعرفة والعلم التى تنمو بنموه ، زوده بالحواس التى بها يحس ما حوله من ظواهر الأشياء ، وعقل يتدبّر ما يحس به . فيكتسب من الخبرات والمعارف مع تقدم العمر ، ما يعينه على الحياة الصالحة فى هذه الدنيا ، وبالعلم يصل إلى معرفة الحق سبحانه وتعالى والإيمان به وتقواه فى سلوكه ، والتسبيح بحمده وشكره .

« وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُم السَّمْعَ والأَبْصَارَ وَالأَفئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ »(٢١) .

ومظهر الشكر لله هو عمل العالم بعلمه ما يصلح حاله وحال إخوانه من بنى آدم .

ويأمر العزيز الحكيم عباده بتحصيل العلم والتزود بالمعرفة عن طريق البحث والتنقيب فى خلق الله بالبصر والبصيرة ، وبقلب مفتوح للحق وعامر بالإيمان بقدرة الخالق وجلاله ، وعلى الناس وهم يحاولون الحصول على العلم والمعرفة أن يتخذوا

من الماضى عبرة لحاضرهم ومن حاضرهم عدة نافعة لمستقبلهم ، وأن يميزوا فيما يعلمون ويعرفون بين الحق والباطل ، وبين الطيب والخبيث ، متجهين فى جميع الأحوال إلى ربهم يلتمسون منه المزيد من العلم .

« وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلماً(٢٢)» .

« أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُم قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بها فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَىَ الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَىَ القُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ »(٢٣) .

« أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرضِ فَيَنْظُروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَة الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَروهَا أكثَرَ مِمَّا عَمَروهَا ، وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ ، وَلَكِن كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ »(٢٤) .

ذلك لأن العلم بلا إيمان وتقوى ، يكون إفسادا لا وسيلة تعمير وإصلاح ، ومن غره ما آتاه الله من قوة وغنى ، بالكفر بنعم الله وعدم تقواه ، فهو لا يزال جاهلاً وضعيفاً وفقيراً أمام الخالق وقوته وغناه ، ولا يملك لنفسه دفعاً لبأس ربه وغضبه وعذابه .

ويأمر العلى القدير الناس بالرجوع إلى أنفسهم وما بداخلهم يبحثون فى طبيعة النفس البشرية وأهوائها ومثيراتها ونوازعها وغير ذلك مما توصل إليه الباحثون وأقاموا منها علما قائما بذاته هو علم النفس ، ومن عرف نفسه حق المعرفة اتقى من نوازعها ما يقوده إلى الشر والفساد ، كما يأمر الخالق سبحانه وتعالى الناس بالتبصّر والتفكير فى السماء التى فوقهم وفى الأرض التى تحت أقدامهم للحصول على العلم والمعرفة التى تصل بهم إلى الحق وإلى الإيمان بأن لكل مما يرى أجلا محتوما لا يعلمه إلا الله فيزدادون إيماناً بالخالق ويتقون فى عملهم ذلك اليوم العصيب يوم البعث والحساب :

«أَوَلَمْ يَتَفكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَّا خَلَقَ اللهُ السَّمَواتِ والأَرضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إلاَّ بِالحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ بِلقاءِ رَبِّهِمْ لكافِرُونَ »(٢٥) .

وليس العلم أو تحصيل المعرفة هو الأخذ بظواهر الأشياء للانتفاع بها نفعاً مادياً فى الحياة الدنيا فحسب ، إنما العلم والمعرفة هما ما أديا بصاحبهما إلى التفكير فى

الأسباب فيرجعها كلها إلى تلك القوة العليا التى لا ندركها بحواسنا ، بل ندركها بقلوبنا وضمائرنا وبذلك يصل العالم فى تحرّيه هذه الأسباب إلى الإيمان بالله وحده وباليوم الآخر :

« يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ »(٢٦) .

ومن وصل بعلمه إلى معرفة جوهر الأشياء وحقيقة الظواهر وأسبابها والحكمة فى خلقها ، فقد اهتدى للحق فخشع له ، وهداه الحق إلى الإسلام له والسير على صراطه المستقيم :

«وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فيؤمنوا به ، فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ، وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ »(٢٧) .

« وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ الَّذِى أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الحَقَّ وَيَهْدِى إِلَى صِرَاطِ العَزِيزِ الحَمِيدِ(٢٨)» .

إن تحصيل العلم وكسب المعرفة وإتيان الحكمة ليست بالأمور الهينة الميسرة لكل الناس ، بل هى لمن هدى الله ، وسلك بعلمه السلوك العلمى الصالح من بداية النظر والتأمل إلى حدوث النتيجة الصالحة المرجوة . فالسلوك العلمى الصالح يتطلب ، فضلاً عن التطلع والنظر والتأمل والصبر وتقصى الحقائق ، كثيراً من القراءة والاطلاع فيما ترك لنا علماؤنا من السلف الصالح ، وان على من يطلب العلم والمعرفة ، إذا ما وفقه الله إلى تحصيلهما ، ألا يستأثر بهما لنفسه ولا يتخذ منهما وسيلة للفساد والإفساد ، بل عليه أن ينفع الناس بما آتاه الله من نعمة العلم سواء بالخطاب او بالكتابة بل عليه أن يدونه فى صحائف لينتفع به من يليه من أجيال ، وبذلك تتراكم المعرفة وتتسع دائرتها بتوالى الأجيال .

ومن السلوك العلمى الصالح تقوى العالم ربه فيما يقول وفيما يكتب ، وألا يغفل عن ذكره ، وعليه ان يستعين بالله ويلتمس رضوانه فيما يقول أو يكتب فيكون بذلك عالماً صالحاً ، ولا يصدر عنه من العلم والمعرفة إلا كل صالح نافع له ولمجتمعه .

وما نزل القرآن على سيد المرسلين إلا ليعلمه ربه ما لم يعلم ، وليعلم الناس بما علم مما هداه الله إليه من أنواع العلوم والمعارف ونواحى السلوك الصالح . ويكفى

دليلاً على أهمية العلم للانسان أن نزلت أول سور هذا الكتاب المبين تأمر الناس بالعلم وتحصيل المعرفة :

« إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ الأنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ »(٢٩) .

هذه هى منزلة العلم ، وهذه هى مكانة العلماء فى كتاب الله الكريم ، حث على طلب الصالح من العلوم وتحصيل المعرفة الحقة ، وإكبار للاتقياء من العلماء وإعلاء لشأنهم بين البشر .

وقد تضمن خاتم كتب الله طرفا من علم الله المطلق وحكمته البالغة فى كونه الواسع اللانهائى ، ماضيه وحاضره ومستقبله ، جاء من ذلك بالقدر الذى رأى فيه موعظة منه لبنى آدم ونفعا لهم ، وفتحاً لباب البحث والمعرفة لكل ذى عقل وصبر ليصل الناس إلى بعض من أسرار الكون والخلق ، ينتفعون بها فى حياتهم الدنيا ، ويتعرفون على قدرة الخالق وبالغ حكمته وواسع رحمته بخلقه ، وفى كل هذا تثبيت للإيمان به وحده ، وفتح لصدورهم للمزيد من تقواه وخشيته .

إن كل ما وصل إليه البشر فى تاريخهم الطويل منذ أن نزل أبوهم آدم إلى هذه الأرض من خبرات وعلوم ومعارف ، ما هى إلا قطرة من بحر علم الله الذى لا نهاية له ولا حدود :

« وَلَوْ أَنَّمَا فِى الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلاَمٌ وَالبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ(٣٠)» .

« يَا بُنَىَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَردلٍ ، فَتَكُنْ فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى السَّمَوَاتِ أَوْ فِى الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ(٣١)» .

وقد أورد العليم الخبير فى قرآنه الكريم طرفاً من علم الله الواسع ، يوحى به إلى البشر بمزيد من الرغبة فى استطلاع الكون وتحصيل العلم وتطلعا إلى المعرفة بالكون والخلق ، وإذْ يؤتى الله البشر ما شاء من علمه إنما يعطى بالقدر اللازم وبما يكفى الإنسان وما ينفعه فى حياته الدنيا وما يزيدهم إيماناً بالله وقدرته وحكمته .

وللقرآن الكريم أسلوبان فى عرض العلوم ونواحى المعرفة والأحكام ، اقتضتها حكمة الله فى تعليم البشر وتربيتهم :

فهو يلمح تلميحاً ويجمل إجمالاً فيما يتصل بطبيعة الكون وتركيبه وحركاته وكل ما ندركه بحواسنا وهو ما يسمى بالعالم المادى ، ويترك للإنسان بعد ذلك بحث التفاصيل بالعمل الجاد وبما وهبه الله من عقل وإدراك ليستفيد بما حصل عليه من أسرار الكون فى حياته الدنيا . وهذا النوع من التحصيل هو ما يطلق عليه اسم العلوم الطبيعية .

ثم يفصّل بأدق تفصيل ويبين بأجلى بيان وأبلغ لسان كل ما يتصل بالسلوك الإنسانى الصالح وبعلاقة الإنسان بربه بما يزيد إيمانه وتقواه . كما يسوق فى آياته وسحر بيانه الحكمة البالغة والموعظة الحسنة والأحكام القاطعة فى علاقة الإنسان بغيره من الناس ويجمع كل هذا ما يسمى بعلوم القرآن .

هوامـش البـاب الرابع

(١) الأعراف ٣٢
(١) الزلزلة ٧ ، ٨
(٣) الأنعام ١١
(٤) الأنعام ٤٦
(٥) المؤمنون ٨٠
(٦) سبأ ٤٦
(٧) الأعراف ٣٢
(٨) الأنعام ٩٨
(٩) العنكبوت ٤٣
(١٠) الأنعام ١٢٦
(١١) آل عمران ٥
(١٢) البقرة ٣١
(١٣) البقرة ٣٣
(١٤) آل عمران ١٨
(١٥) الإسراء ١٠٧
(١٦) الإسراء ١٠٩
(١٧) الإسراء ١٠٨
(١٨) الزمر ٩
(١٩) فاطر ١٩
(٢٠) يوسف ٢٢
(٢١) النحل ٧٨
(٢٢) طه ١١٤
(٢٣) الحج ٤٦
(٢٤) الروم ٩
(٢٥) الروم ٨
(٢٦) الروم ٧
(٢٧) الحج ٥٤
(٢٨) سبأ ٦
(٢٩) العلق ١-٥
(٣٠) لقمان ٢٧
(٣١) لقمان ١٦

الفصل الأول

علوم القرآن

ويقصد بعلوم القرآن تلك العلوم المتصلة به ، ككتاب سماوىّ ، من إعجاز فى الأسلوب والمعانى وبلاغة فى التعبير ووضوح اللغة وبيانها ، وأصول الدين والعبادات ، والتشريع لما يجب أن تكون عليه العلاقات بين أفراد المجتمع الإسلامى بعضهم مع بعض ، ومع أصحاب الملل الأخرى .

وقد سبق أن بينا أصول الدين والعبادات فى الباب الثانى الخاص بالإيمان وشروطه ومقوماته . وسنتاول فيما يلى النواحى اللغوية والتشريعية .

أولا ـ اللغة :

شاء العليم الخبير بنفوس البشر وتقلب أهوائها وعنادها وترددها ، أن يكبح جماح هذه النفوس ويرجعها عن غيها إلى جادة الصواب والحق ، فأرسل فى كل أمة رسولا من أهلها ، وحمله كتابا سماويا بنفس لغتهم ، فيه بيان الصراط المستقيم الذى يجدر بالبشر السير على هداه ، ومبينا للناس الحق من الباطل ، والسلوك الصالح الذى ينفعهم فى حياتهم الدنيا بحياة صالحة جديرة بأرقى الكائنات الأرضية ، ولينالوا بصالح أعمالهم ما يرجون من واسع رحمة خالقهم وربهم ورضوانه يوم البعث والحساب فى الحياة الآخرة :

« وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ الله مَن يَشَاءُ وَيَهْدِى مَن يَشَاءُ ، وَهُو العَزِيزُ الحَكِيمُ »[1] .

وما أرسل الله من رسول إلا أيَّده بروح من عنده ومعجزة خارقة يلجم بها ألسِنَة المكابرين من قومه ، فلا يجدون أمام قدرة الله ومعجزاته سوى الإسلام له عز وجل ، والتسليم والإيمان بوحدانيته ، والخضوع لمشيئته ، والانصياع لأوامره بلا تردد ، والتماس عفوه ورضاه وإتقاء غضبه :

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ »[٢] .

أرسل الله نبيه موسى إلى فرعون وقومه بمعجزة العصا التى انقلبت ، بإذن الله ، حية التهمت أفاعيهم ، وبها شق البحر لينجو بقومه من مطاردة فرعون وجنده ، وليفجر بها الماء العذب من الصخر الأصم .

ووهب عيسى بن مريم القدرة على شفاء المرضى وإحياء الموتى بإذن ربه سبحانه وتعالى :

« وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِى إِسْرَائِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِن رَّبِّكُمْ أَنِّى أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِى الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُم إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنْتُم مُّؤْمِنِينَ »[٣] .

أما معجزة سيدنا محمد ﷺ فكانت وستظل ، قرآن الله المبين ، الذى أوحى به إلى هذا النبى الأمى ، وبلسان قومه حَرْفاً ولفظاً ومعنى ، ولكنه كان فى تراكيبه وأسلوبه تحدياً لما أوتى العرب وما اشتهروا به من فصاحة وبلاغة وبيان وذكاء فى التعبير بمختلف فنون التعبير اللغوى شعراً كان أو نثراً ، ولكنهم وقفوا أمام هذا الكتاب المبين ، عاجزين عن الإتيان بمثله ومبهورين أمام بلاغة لغته وفصاحتها :

(أ) إعجاز القرآن :-

كان من شدة وقع هذا الكتاب فى نفوس المشركين من العرب وتحدّيه لعقولهم وأخيلتهم ، أن ظنوه ضربا من السحر حمله اليهم ساحر .

فأى سحر هذا الذى ينزل بلغة قوم ، ثم لا يستطيعون الإتيان بسورة أو آية مثله ؟ .

وأى ساحر هذا الذى استطاع تحدى قومه بلغتهم ، وهو ذلك الأمِّىُّ الذى لم يقرأ ولم يكتب ؟ .

ولكنه العناد والمكابرة من المشركين المصرين على عدم الاقتناع بأن :

« تَنزِيْلُ الكِتَابِ مِنَ اللهِ العَزِيزِ الحَكِيمِ »(٤) .

وما نزّل الله من كتاب إلا مبشراً ونذيراً للناس ، وأنزله بلغتهم ليعوه وليعملوا بما جاء فيه :

« وَكَذَلِكَ أَوْحَينَا إِلَيْكَ قُرآناً عَرَبياً لِتُنْذِر أُمَّ القُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الجَمْعِ لاَ رَيْبَ فِيه فَرِيقٌ فِي الجَنَّةِ وفَرِيقٌ فِى السَّعِيرِ »(٥) .

« إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ »(٦) .

« قُرْآناً عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ »(٧) .

« وإِنَّهُ فِى أُمِّ الكِتابِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ »(٨) .

وهو ، سبحانه وتعالى ، إذْ أنزل قرآنه المبين على نبيه الأمى الذى لم يقرأ توراة ولا إنجيلا ، إنما أراد أن ينزع الشك فيه والريبة منه فى نفوس الكافرين والمكابرين .

« وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّه بيَمِينِكَ إذاً لاَرْتَابَ المُبْطلونَ »(٩) .

وما كان نبينا الأمى الكريم الصادق شاعراً ، فما نزل القرآن شعراً ، بل نزل ذِكراً وموعظة وهداية إلى التى هى أحسن ، وما يؤمن بما جاء فى هذا الكتاب إلا من شرح الله قلبه للعلم والمعرفة الحقة من بعض أهل الكتاب من يهود أو نصارى .

« وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِى لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْر وَقُرْآن مُّبِينٌ »(١٠) .

« بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِى صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ ، وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ »(١١) .

« وَإِن كُنْتُمْ فِى رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِن دُونِ اللهِ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ »(١٢) .

« أَم يَقُولُونَ افْتراهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِن دُونِ الله إن كُنْتُمْ صَادِقِينَ » (١٣) .

« فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِى وَقُودُهَا النَّاسُ وَالحِجَارَةُ أُعِـدَّتْ لِلْكَافِرِينَ »(١٤) .

وهذا تحدّ ما بعده تحدّ ، وإعجاز ، وتهديد دونه أى تهديد لمن أنكر ما جاء به الرسول ، ﷺ ، من لدن العزيز الحكيم ، ولم يؤ من بالله وأصر على كفره ، بل يشاء العزيز القدير أن يبعث اليأس فى قلوب الكافرين والمكذبين ، فيضرب لهم مثلا ربانيا فى قوله :

« قُلْ لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا القُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبعْضٍ ظَهِيراً »(١٥) .

ولا عجب فى مكابرة المشركين وإعراضهم عن الإيمان بما أنزل الله من آيات مبينات ، فقد سبقهم إلى هذا العناد والكفر أقوام أشد عناداً وكفراً ، ولهم جميعا سوء العذاب :

« بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ، كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالمِينَ »(١٦) .

هذا هو القرآن المبين ، الذى تحدى لسان العرب وعقولهم ، قد استوقف الجن وشد انتباههم إذْ سمعوا آياتـه لأول مرة ، وأثـار دهشتهم وتعجبهم ، فآمنـوا به وصدقوا لفورهم ما جاء فيه من حق وتبيين :

« وإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الجِنِّ يَسْتَمِعُونَ القُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنْذِرِينَ »(١٧) .

« قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنْزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى ، مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِى إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ »(١٨) .

أما أهل الكتاب ، وخاصة اليهود ، فقد كان لهم موقف آخر أشد كفرا وعنادا .

فان ما جاء فى القرآن من آيات لم يكن إلا تصديقا لما فى كتابهم المنزل ، ولكنه صحح بعض ما حذفوا أو غيروا من كتابهم حسب أهوائهم ، فحقدوا على العرب أن أنعم الله عليهم بتنزيل خاتم كتبه على نبى عربى . فحاول المكذبون ظلماً ، تجريح آيات الله البينات ، فلما لم يجدوا حيلة أمام إعجاز هذا القرآن ، حاولوا تصيد ما فيه من آيات صححت ما حذفوا أو بدّلوا فى كتبهم وحاجُّوا الرسول ﷺ ، بما نزل فى القرآن من تصديقه لكتبهم ، زاعمين ، كل فئة على حدة ، أن كتابهم هو خاتم الكتب ومن ثم فهو الذى يجب أن يأخذ به الناس أجمعون . وهم لو صدقوا القول وخلصت نيتهم لا عترفوا بأن تصديق القرآن لا يكون لما بدلوا وحذفوا ، بل تصديق لكتبهم كما أنزلها الله وقبل أن يلحقها التحريف والتشويه بفعلهم ، ولكنهم يخدعون أنفسهم ويحاولون خداع غيرهم من الناس .

نواحى الإعجاز القرآنى وصوره :-

إذا كان هذا القرآن الكريم الذى نزل بلغة العرب ، قد بلغ من الإعجاز حدًّا وقف عنده العرب عاجزين مشدوهين ، وهم أهل اللغة العربية التى تناولت كل ما وقع تحت أنظار العرب أو ما أحسوا به ، بما فى هذه اللغة من فصاحة وبلاغة وحسن بيان ودقة تعبير ، تناولوها جميعاً بالوصف الدقيق شعراً ونثراً ، وإذا كان العرب بدلا من التسليم والإيمان بكتاب الله المبين وتصديق مبلغ الدعوة الأمين ، قد رموا القرآن ومبلغه بالسحر والشعوذة . إذا كان الأمر كذلك فى موقف العرب من القرآن الكريم ، فما السر اذن فى هذا الإعجاز القرآنى رغم وضوحه نصا ومعنى ؟ وما نواحى هذا الإعجاز ؟ .

هل هى فى اللغة التى نزل بها القرآن ؟ كلا فإنهم أصحاب هذه اللغة .

هل هى فى تنوع الأسلوب ودقة التعبير وإن العرب سادة الأساليب اللغوية المنوعة .

هل فى فصاحة اللغة وسحر الإغراب ؟ والعرب أهل فصاحة وحس مرهف بما يحسون ، وبما تختلج به مشاعرهم وأخيلتهم .؟

إنّ الإعجاز يكمن فى كل ذلك وفى ترتيب آياته أحيانا على غير ما يتوقع قارىء القرآن أوسامعه فيشحذ تفكيرهما ويشد انتباههما . وقد يكون فى حذف ما يتوقع

وجوده من هذه الآيات ، وفى ضرب أمثال مما فى علم الله وبما لم يسبق للعرب علم به . أو فى تأكيد كلام الله فيما نزل من كتب قبل القرآن ، وفى شرح ما أسىء فهمه أو تصحيح ما لحق من عبث وتشويه فى تلك الكتب ، والإعجاز فى كل هذه الأسباب مجتمعة ، فلنتناول هذه النواحى والصّور لنتبين هذا الإعجاز .

١ - وضع آية مكان آية ، على غير ما يتوقع القارىء :

وما نزّل الله من كلمة إلا بالحق ، وكل ما يصدر من عند الله هو لحكمة بالغة هدفها خير البشر وهديهم ، ومن اهتدى فلنفسه ومن أساء فعليها . وينزل الله إلى الناس من واسع علمه تلك الآيات ليهتدى بها الناس ولترشدهم إلى سواء السبيل . ولا تبديل لكلام الله مهما اختلفت صوره وأساليبه ، فهو الحق الأزلى فى لوح الله المحفوظ والله وحده هو المحيط بكل شىء علما ، ولكن اكثر الناس لا يعلمون :

« وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آية وَالله أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ »[١٩] .

ولا يعترض على كلام الله ، جل شأنه ، ولا يصر على الكفر به الا من كان وليا للشيطان ومشركا بالله :

« فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِالله مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ [٢٠] .

إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ[٢١] .

إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ »[٢٢] .

وكيف يعترض من شرح الله قلبه للإيمان ، وعلم أن كلام الله حق لأنه تنزيل من الحق ؟ .

إن الله جل شأنه ، إذْ ينزل آياته البينات ويرتب مواضعها فى كتاب من كتبه المنزلة ، هو وحده أعلم بما نزل ، ولماذا أنزله ، وليرى أى من الناس أكثر ايمانا :

هل هو الذى أسلم نفسه وأمره لرب العالمين فآمن بكل حرف وكلمة وآية فى كتابه ، إيمانا منه بوحدانية الخالق وبكلمته ، وبأنه سبحانه وتعالى وحده العالم بما يريد ؟ .

« قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ »(٢٣) .

أم هذا الذى لم يرض عنه الله لسوء سريرته ومرض نفسه ، فلم يشرح الله صدره للإيمان ، فظل على شكه وضلاله وشركه ؟ .

أم ذاك الذى كان يدعى بأنه من أهل الكتاب المؤمنين بالله ، فلما نزل القرآن مصدقاً لما بين يديه من كتاب ، مصححاً لما لحق بها من عبث ، ازداد عناداً واستكباراً ؟ .

« مَن كَفَرَ بِاللهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِنْ مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللهِ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ »(٢٤) .

أما المؤمنون حقاً من أهل الكتاب فإن الله يزيدهم إيماناً به وباليوم الآخر وبما أنزل الله على نبينا الكريم ولهم عند ربهم خير الجزاء :

« وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ للهِ لا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عند ربهم إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ »(٢٥) .

٢ - حذف آية من حيث يتوقع وجودها :

ومن نواحى الإعجاز فى القرآن الكريم ، حذف آية توقع قارئه أو المستمع إليه وجودها ثم لا يجدها ، فيأخذه التعجب حيث لا عجب ولا استغراب ، فانه سيجد من الآيات ما تكرر ذكرها فى مواضع أخرى ، إنما هو علم الله المحيط بما يفعل ، سبحانه وتعالى ، وفيها يقول ، ولم يعلم البشر إلا قليلا ولو تمعن القارىء أو المستمع لوجد مكان ما حذف ما هو خير منه وأوضح بيانا :

« مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ»(٢٦) .

والأمثلة على ذلك : الآيات ١٤٦ الأنعام ، ١٧٣ البقرة ، ٤٣ النساء ، ٩٠ المائدة ، ١٨٧ البقرة ، ١٤٢ البقرة .

وما على المؤمن الراسخ الإيمان بالله الواحد الأحد العالم القادر ، إلا أن - يتلقى كلام ربه بإيمان مطلق ، وعليه ألا يلبسه شك فى حكمته الإلهية فيما أنزل للبشر وفيما احتفظ به من آيات ، وأن يصرف فكره فى محاولة مخلصة لتفهم ما يقرأ وحكمة ربه فيه والهدف منه ، وعليه أن يحصن نفسه من الاستماع إلى ألسنة السوء والمضللين ، أعداء دين الله القويم :

« أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِّن دُونِ اللهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ »(٢٧) .

وعلى المؤمن ألا يكون فى عناد قوم موسى وكفرهم بما آتاهم به :

« أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ »(٢٨) .

وهم بنو اسرائيل الذين حقدوا على العرب ما أنعم عليهم الله بقرآنه المبين على يد رسول منهم كريم ، حيث توقعوا أن يكون خاتم أنبياء الله من بنى اسرائيل :

« وَدَّت طَّائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ »(٢٩) .

« مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِن رَّبِّكُمْ وَاللهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مِن يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ »(٣٠) .

« وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللهِ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ »(٣١) .

« وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ »(٣٢) .

وهم بنو اسرائيل الذين ظاهروا المعاندين المكابرين من المشركين ضد الرسول وضد من آمن برسالته ، حسدا منهم وحقدا على ما أنعم الله به على العرب الذين آمنوا بالرسول الأمين وما حمله اليهم فى خاتم كتب العزيز الحكيم ، وظلوا على كيدهم للمؤمنين وسعيهم ليردوهم عن دين الله

« وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ »(٣٣) .

« هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتَابِ ، وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُوا الأَلْبَابِ »(٣٤) .

« إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسلامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُم العِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللهِ فَإِنَّ اللهَ سَرِيعُ الحِسَابِ »(٣٥) .

« وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ »(٣٦) .

٣ - ضرب الأمثال :

.تقريبا للحق وجوهر الإيمان إلى أذهان من نزل فيهم القرآن المبين ، وتفتيحا لعقولهم على فهم ما نزل فيه من آيات ، ضرب الحكيم العليم الأمثال تلو الأمثال ، جلاءً للمعاني التي أراد بها تثبيت إيمان من آمن والعودة بمن ضل إلى الصراط المستقيم .

وينوّع لنا القرآن فيما يضرب لنا من أمثال ، ويختار بحكمته ما يراه مناسبا منها لمقام الحديث ولمن يقرأ أو يسمع آياته البينات ، ويتخير من الأمثال ما يرى فيه الكفاية لمن ألقى السمع وهو شهيد ، ويترك بعد ذلك من أصر على كفره متخبطا في غيه وضلاله إلى أن يأذن الله له بالهداية :

« إِنَّ اللهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الحَقُّ مِن رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الفَاسِقِينَ »(٣٧) .

« وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ »(٣٨) .

وقد تنوعت الأمثال الإلهية في قرآن الله الكريم :

فمنها ما جاء مثلا لقدرة العزيز القدير ، ولحكمته البالغة ، ولرحمته الواسعة ليثبت قلب المؤمن على الإيمان بقدرة الخالق فيتمه ، ويرجع الأمور كلها والخلق كلهم إليه وحده :

« ولِلَّهِ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ »(٣٩) .

« ولِلَّهِ مَا فِي السَّموَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِلَى اللهِ تُرجَعُ الأُمُورُ»(٤٠) .

ويبين العزيز الحكيم للمؤمنين أن النصر من عنده وحده يؤتيه من يشاء ، بقوته تعالى وبقدرته المطلقة على خلق الأحداث وإنهائها بما يرى وعندما يريد .

« ولِلَّهِ مَا فِي السَّموَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ »(٤١) .

« وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ »(٤٢) .

ويضرب العزيز الحكيم المثل لقدرته على خلق ما يريد وكما يريد وكذلك أحيائه الموتى حين يشاء ، وعلمه المطلق بما يُسِرّ الناس أو يعلنون ، وهو سبحانه يهب من يشاء من خلقه القوة والمقدرة والمعجزات .

« قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّموَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ »(٤٣) .

« تُولِجُ اللَّيلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وتُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ وَتُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَيِّ وَتَرزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ »(٤٤) .

« أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ الله بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَه الله مِائَةَ عَامٍ ثُم بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يومًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ ، وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وانْظُرْ إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ الله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ »(٤٥) .

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ »(٤٦) .

وهو سبحانه وتعالى ، وحده القادر على إيتاء عباده المؤمنين الداعين ، فرجا من بعد يأس ، يثبت به الإيمان فى قلوبهم ويزيدهم له خشوعا وإسلاما .

« قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلاَمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ »(٤٧) .

ومن ضروب الأمثال ، ما نزل منها فى بعض الآيات القرآنية ما يعجز ضعيف الإيمان عن فهمها ، ولا يتفهمها إلا من عمر قلبه بالإيمان بالله وحكمته فيما يفعل وما يقول . فمن حكمة الله اختبار مدى إيمان من آمن حقا ، وكشف كفر من أصر على كفره . فقد يبلو هذا بما لا يحب ويملى لذاك فيما يحب ، ليرى بعد ذلك سلوك كل منهما فيأخذ كلاً بما كسب . وهذا ما ورد فى أمر الله لرسوله بتغيير قبلة المسلمين .

« سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِلهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٤٨) * وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللهُ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرءوفٌ رَّحِيمٌ »(٤٩) .

ومن أمثلة الآيات المبينة لحكمة الله فى اختيار الصابر من المؤمنين ، من الجزع الهلوع .

« وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوَالِ وَالأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ » .

« الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلهِ وإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ »(٥٠) .

« لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ »(٥١) .

«وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ »(٥٢) .

ومن الأمثلة والعبر ما يبين رحمة الله بعباده المؤمنين ، إذْ ينتشلهم ، سبحانه وتعالى ، من مواضع الأذى واليأس ، فهو جلت قدرته ، لا يترك المؤمنين طعمة سائغة للمتجبرين والكافرين ولا يبخل برحمته على من ضل ثم تاب وجاء ربه مستغفرا تائبا توبة نصوحا .

« وإذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُم سُوءَ العَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلاَءٌ مِن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ »(٥٣) .

«وإذْ فَرَقْنَا بِكُمُ البَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُم وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ»(٥٤) .

» وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فاستغفروا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَافَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ » * « أُولَئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِنْ رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ العَامِلِينَ »(٥٥) .

ويضرب الله الأمثال مفرِّقا بها بين الخير والشر ، ومنبها إلى مظاهر كل منهما وجزاء المحسن والمسيء .

« وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ »(٥٦) .

« الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ، ثُمَّ لاَ يُتْبِعُونَ مَا أَنفقُوا مَنًّا وَلاَ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ »(٥٧) .

« إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ »(٥٨) .

وتأتى آيات الله البينات بأمثلة مهينة للكافرين وتصوراتهم السقيمة ، وألوان ما ينتظرهم من عذاب أليم .

«أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ »(٥٩) .

فهم اتخذوا من الإفساد وسيء الأعمال والسلوك الضار حرفة يتعيشون منها ، ولا عيش لهم ، فى نظرهم فى حياتهم الدنيا ، إلا عن طريق هذه التجارة الخاسرة .

« مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَاحَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ »(٦٠) .

فهم يفسدون من حيث ظنوا أنهم يصلحون ، وهو يضرُّون من حيث ظنوا أنهم ينفعون ، فما أفسده من عمل ، وما أبورها من تجارة ، حتى إذا أخذهم الله بغتة ضلوا طريقهم بعد أن عميت بصيرتهم .

« صُمٌّ بُكْمٌ عمى فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ »(٦١) .

وهم لا يستمعون لنصح من الناس ، ولا وازع لهم من ضمير ، ولا ينطقون بحق .

« هَلْ يَنْظُرُونَ إلاَّ أن يَأْتِيَهُمُ الله فِى ظُلَلٍ مِّنَ الغَمَامِ وَالمَلاَئِكَةُ وقُضِىَ الأَمْرُ وإلَى الله تُرْجَعُ الأُمُورُ »(٦٢) .

فهم إذن حالة ميئوس منها ، ولا خير ينتظر منهم ، ولا نفع يأتى من جانبهم .

« سَلْ بَنِى إِسْرائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِّنْ آيةٍ بَينةٍ وَمَنْ يُبدِّلْ نِعْمَةَ اللهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فإنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقَابِ »(٦٣) .

« زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفرُوا الحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرونَ مِنَ الَّذِينَ آمنُوا وَالَّذينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ القِيامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ »(٦٤) .

« كَيْفَ يَهْدِى الله قَوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ البَيِّنَاتُ وَالله لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ »(٦٥) .

« لَقَدْ سَمِعَ الله قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إنَّ الله فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِياءُ سَنَكْتُبُ مَاقَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنْبِياءَ بِغَيرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الحَرِيقِ »(٦٦) .

« لاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلاَ تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ العَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ »[٦٧] .

« لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى البِلادِ »[٦٨] * « مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ المِهَادُ »[٦٩] .

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازدَادُوا كُفْراً لَّن تُقْبَل تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ »[٧٠] .

وتؤكد لنا هذه الآيات أن من كَفَرَ بعد إيمانه أشد كفرا من الذى ظل على شركه بالله عز وجل . وأنهم من الضلال وضعف العقل بحيث تراهم تائهين بين الحق والباطل بعد مابيّنهما الله أوضح بيان وبعد ما ضرب الكثير من الأمثال يرشد بها الناس إلى التمييز بين الخير والشر وبين الطيب والخبيث ، وما أشد ضلال من آمن بآيات الله بعد اقتناع واستبانة وتأكد ، ثم بعد ذلك يترك هذا الصراط المستقيم الواضح المعالم المؤدى إلى خير الإنسان ، ليختار طريق الضلال والهلاك .

وهل بعد ذلك أمان لمن كفر بعد إيمانه ؟ وهل هناك خير يرجى منه نحو نفسه ونحو غيره ؟

لقد خرج على طبيعة الوجود ، الذى أوجده الله بالحق ، بل لقد نزل بنفسه الضالة إلى ماهو أقل من مرتبة الحيوان ، فالحيوان يعمل ما ينفعه ولا يلتفت لما ينفع غيره بينما الضال يضر نفسه ويضر بقية بنى جنسه .

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَروا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الأَرْضِ ذَهَباً وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِّنْ نَّاصِرِينَ»[٧١] .

وهل تقبل توبة ممن أصر على الكفر وأمعن فى الضلال ؟ وهل تقبل فدية ممن تجنب طريق النور واختار طريق الظلام ؟ إن مثل هذا التائب مثل من يحاول خداع الله والناس وهو لا يخدع إلا نفسه ، وخط بيده نهايته المشئومة حيث لا يستجيب له مغيث ولا معين ، وما له من مجيب بعد أن غضب عليه الله وكتب له العذاب الأليم .

ومن إعجاز القرآن ماورد فيه من أمثلة ومشاهد تبين أهوال يوم القيامة والبعث والحساب :

ذلك اليوم الذى لا يعلم ميقاته إلا الله وحده . وهو ، سبحانه وتعالى ، الخالق المحيى المميت الباعث .

هو ذلك اليوم الذى احتفظ الله بسره ، لا يطلع عليه أحدا من خلقه ولو كان من أنبيائه ورسله المقربين .

وفى ذلك حكمة إلهية حتى لا يلجّ الناس فى المعاصى حتى إذا ما قرب موعد الساعة ، إذا كانوا بميقاتها عالمين ، استكثروا من الخير طمعا فى الجنة وخوفا من عذاب الجحيم لا عن إيمان وتقوى وذكر الله .

«يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهاَ عِنْدَ رَبِّى لاَ يُجَلِّيهاَ لِوَقْتِها إلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فى السّمواتِ والأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا قُلْ إنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ ولكنَّ أَكثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ »(٧٢) .

ومن إعجاز القرآن ما ورد فيه من أهوال ومشاهد يوم القيامة والبعث والحساب ما يفوق كل صور الأهوال والمشاهد التى تخيلها الناس فى حياتهم الدنيا ، ويأتيهم الله ما كانوا عنه يتساءلون :

« يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ القِيَامَةِ »(٧٣) .

وهو يوم آت لاريب فيه ، وهو يوم محتوم يفرضه الخالق فرضا عندما يشاء .

« إِذَا وَقَعَتِ الوَاقِعَةُ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ »(٧٤) .

ومن علامات الساعة اهتزاز كوكبنا الأرضى اهتزازا عنيفاً ، تتفتت فيه الجبال فتصبح هباء متراكما وتُخرج الأرض مافى بطنها وتنثر العظام من قبورها ، ويبعث الموتى إلى الحياة مرة أخرى ، فيشاهدون فى هذا اليوم مالا عهد لهم به :

« إِذَا رُجَّتِ الأَرْضُ رَجًّا * وَبُسَّتِ الجِبَالُ بَسًّا * فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنْبَثًّا »(٧٥) .

« إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا »(٧٦) .

ثم تصطدم الكواكب والنجوم بعضها ببعض وتنفجر ، وتلتهب السماء ويختلط مافى الكون .

« يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ * وَتَكُونُ الجِبالُ كَالعِهْنِ »(٧٧) .

« فَإذَا بَرِقَ البَصَرُ * وَخَسَفَ القَمَرُ * وَجُمِعَ الشَّمْسُ والقَمَرُ »(٧٨) .

عندئذ يفزع الإنسان ، ويتساءل البشر فى هلع عما جرى للكون ، ويظل الجميع فى ذهولهم وتيههم ، حتى يحين وقت الحساب ، فيصبح كل امرىء بأمره فى شغل عن غيره :

« وَقَالَ الإنْسَانُ مَالَهَا * يوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا »(٧٩) .

« يَقُولُ الإنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ المفَرُّ * كَلا لاَ وَزَرَ »(٨٠) . « إلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ المُسْتَقَرُّ يُنَبَّأُ الإنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ »(٨١) .

« وَلاَ يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً * يُبَصَّرُونَهُم يَوَدُّ المُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ * وصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ * وَفَصِيلَتِهِ التِى تُؤْوِيهِ * وَمَن فِى الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنْجِيهِ »(٨٢) .

وكيف لمجرم أن يفر من عذاب جهنم وهو يراها رأى العين ، وكلما حاول الفرار منها ، دعته فيأمره الله بالرجوع إليها ولا راد عنده لأمر ربه ، وكلما جاء النار فوج من هؤلاء المجرمين ابتلعتهم لتوِّها وطلبت المزيد :

« كَلاَّ إنَّهَا لَظَى * نَزَّاعَةً للشَّوَى * تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى * وَجَمَعَ فَأَوْعَى »(٨٣) .

ثم يقف الناس أمام ربهم ، وقد انعقدت ألسنتُهم فتنطلق حواسهم بما قدمت فى حياتها الدنيا ، ويحاسب كل إنسان حساباً عسيراً على ما قدم ، إن خيراً أو شراً ولن يظلم الله أحداً :

« يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أشْتَاتاً لِيُرَوا أَعْمَالَهُمْ * فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ »(٨٤) .

وبعد هذا الحساب ، يقسم الحسيب الخبير عباده إلى طائفتين :

أهل اليمين الذين آمنوا بربهم واتقوه فى حياتهم الدنيا وقدموا لأنفسهم ما أرضوا به الله ، فرضى عنهم وجزاهم فى آخرتهم بجنات فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت من ألوان النعيم الإلهية ، فيُنعم بها على عباده الصالحين .

« فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ(٨٥) والسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ، أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ، فِى جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٨٦) عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ * يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّنْ مَّعِينٍ * لاَ يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلاَ يُنْزِفُونَ * وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ * وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ * جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلاَ تَأْثِيماً * إِلاَّ قِيلاً سَلاَماً سَلاَماً»(٨٧) .

وفى الجانب الآخر يقف فى ذِلَّة وانْكسار ، قوم قد لبسهم البؤس ولفهم الشقاء ، هم أهل الشمال الذين غضب الله عليهم لما عصوه ورسله فى الحياة الدنيا ، يقفون اليوم وقفة المجرم الذى أحاطت به ذنوبه من كل جانب ، يلقون سوء العذاب بما قدموا ، وأى عذاب أشد من نار جهنم التى أعدها الله لهم ، تشوى جلودهم وتأكل بطونهم فاذا خبت حياتهم من الحريق أعادها لهم العزيز ذو الانتقام ليستمر عذابهم إلى ما شاء الله ، وهذا هو نصيب من كفر بنعمة ربه ، وكذّب آياته .

« وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ »(٨٨) .

« وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ * فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ * وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ لاَ بَارِدٍ وَلاَ كَرِيمٍ »(٨٩) .

«إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً »(٩٠) .

« ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ * لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ * فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ * فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ * فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ »(٩١) .

« هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِى رَبِّهِمْ ، فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّنْ نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ(٩٢) * يُصْهَرُ بِهِ مَافِى بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ * وَلَهُمْ مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ(٩٣) * كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ»(٩٤) .

ومن مشاهد يوم الحساب والجزاء ، ذلك الحوار الطريف بين أهل الجنة وأهل النار على ما أتى الله كلا منهما من جزاء بما كسب كل منهما فى حياته الدنيا .

« وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أصحابَ النَّارِ أَن قد وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا * فَهَلْ وَجَدْتُم مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَّعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً وَهُمْ بِالآخِرَة كافرونَ »(٩٥) .

« وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ الله قَالُوا إِنَّ الله حَرَّمَهُمَا عَلَى الكَافِرِينَ * الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْواً ولَعِباً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ »(٩٦) .

٤ - تأكيد ما أنزل الله فى كتبه السابقة .

إن القرآن الكريم ما نزّل إلا تأكيدا لكلمة الله فى كتبه السابقة ، وكلها من مصدر واحد أزلى ودائم هو الحق سبحانه وتعالى ، ولا تبديل لكلمات الله . إنما نزّل الله كتبه ليهدى بها من فتح قلبه للإيمان بالله وحده ، وبكتبه وبرسله وباليوم الآخر ، وتثبيتا لإيمان من آمن حقا بهذا كله من أهل الكتاب الحافظين له حق حفظه .

« قُولُوا آمَناً بِالله وَمَا أُنزل إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْراهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ والأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِى النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمونَ »(٩٧) .

وهذا ما أوحى الله به لخاتم رسله محمد ﷺ ، فآمن بما أنزل الله وبملائكته وبمن سبقه من رسل ، وما كان لنبينا الأمين إلا أن يبلغ الناس ما أوحى إليه من رب العالمين :

« آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَملاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحدٍ مِّنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطْعَنا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ »(٩٨) .

وما كان القرآن الكريم ، خاتم كتب الله ، إلا تنزيلا ممن نزل التوراة والإنجيل وما أوحى به إلى رسله وأنبيائه المصطفين .

« الله لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ » (٩٩) « نَزَّلَ عَلَيْكَ الِكتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ والإِنْجِيلَ »(١٠٠) .

« إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَرُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً »(١٠١) . « وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيماً »(١٠٢) . « رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً »(١٠٣) .

ويؤكد العزيز الحكيم تنزيل التوراة والإنجيل من قبل ، هدى ونور للناس إلى الطريق القويم ، ما استمسك أهل هذين الكتابين بما جاء فيهما من الحق المبين :

« إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلاَ تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلاَ تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ »(١٠٤) .

« وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ »(١٠٥) .

ثم يأمر الله عباده الذين آمنوا بالتوراة والإنجيل ، بالإيمان بخاتم كتبه ، قرآنه الكريم الذى نزل بالهدى والنور ، يهدى به الله إلى صراط مستقيم .

« وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ »(١٠٦) . « أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ »(١٠٧) .

ويتوعد القوى القادر ، المنكرين للحق والجاحدين بأنعمه ، والناقضين لميثاقه المخلفين لوعده ، المنكرين لخاتم كتبه ، بما توعد ناقض عهده وميثاقه من بنى إسرائيل .

« يَابَنِى إِسْرائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ »(١٠٨) . « وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُمْ وَلاَ تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلاَ تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ »(١٠٩) . « وَلاَ تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ »(١١٠) .

ويواسى الرحمن حبيبه المصطفى ، عليه الصلاة والسلام ، ويخفف عنه حزنه على تكذيب بعض أهل الكتاب له ، وكفرهم بما أنزل فى القرآن مصدقاً لكتابهم وهو سبحانه وتعالى ناصره ، ولو كره الكافرون .

« قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ »(١١١) .

« وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِىَ الْمُرْسَلِينَ »(١١٢) .

ولَمَ يَأسَ محمد ، ﷺ ، على قوم جاءهم بكتاب من إله واحد يؤمن به كما يجب أن يؤمنوا ؟ وفيم حزنه على إعراضهم ، لا تكذيباً بل تعالياً واستكباراً منهم ؟ .

وهم الذين ظنوا خطأ أنهم وحدهم أحباب الله ، وأنهم هم الشعب الذى اختاره الله من دون خلقه أجمعين ، وهم الذين ادعوا أن كتابهم الذى أنزله الله لهم ، هو أول كتبه وآخرها :

كيف يأْسَى رّسولنا الأمين على قوم جاءهم بكتاب مصدق لما أنزل الله إليهم ومؤكدا له ؟ .

كيف يَأسَ النبى الكريم على قوم يخفون ، عمدا ، ما أعلمهم الله به فى كتابه الذى سبق أن أنزل إليهم ؟

كيف يأْسَى خاتم رسل الله على قوم سبق أن قتلوا الأنبياء ، وكفروا بما أوحى الله لرسله إليهم وأنكروا ما نزل إليهم من الكتب ؟

« ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَاماً عَلَى الَّذِى أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ »(١١٣) .

« وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِى إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلا اللهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ »(١١٤) .

« وَلَمَّا جَاءَهُمْ كتابٌ مِّنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ ، وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الكَافِرِينَ »(١١٥) .

« وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاه مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوه وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ »(١١٦) .

ثم يأمر الله هؤلاء الكافرين بنعمته وبما أنزل عليهم فى كتابه ، بالإيمان بخاتم رسله الذى جاءهم بخاتم كتبه .

« الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِىَّ الأُمِّىَّ الَّذِى يَجِدُونَهُ مكتوباً عِنْدَهُمْ فى التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ المُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِم الخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ التى كَانَتْ عَلَيْهِمْ فالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوه وَنَصَرُوهُ واتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِى أُنْزِلَ مَعَهُ أولئكَ هُمُ المُفْلِحُونَ »(١١٧) .

« وإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ الله قَالُوا نُؤْمِن بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَه وَهُوَ الحَقُّ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللهِ من قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ »(١١٨) .

« وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ العِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ »(١١٩) .

« وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ »(١٢٠) .

« قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِى اللهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ »(١٢١) .

« أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ، وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً »(١٢٢) .

وكفى الله صفيه ورسوله مشقة مناقشتهم ومحاجتهم من بعد ما بلغهم الأمانة ، ومن بعد ما تلى عليهم مما أنزل الله من آيات مبينات ، فليتركهم إذن وشأنهم فلا خير يرجى منهم ولا طاعة ، وما عليه إلا البلاغ المبين . ويكفى رسول الله إيمان من آمن منهم ، والله كفيل بأخذ مكذبيه بكفرهم .

« فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ »(١٢٣) .

« وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ للهِ لاَ يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الحِسَابِ »(١٢٤) .

وكيف لا يؤمن أهل الكتاب بما آمن به من أسلم ؟ ولماذا لا يؤمن أهل الكتاب بما أنزل عليهم من كتب الله ؟ فكلها تفرض نفس العبادات المفروضة فى قرآنه الكريم ، والإيمان بالله واليوم الآخر ، والثواب والعقاب ، والجنة والنار وكلها تحض على الخلق الكريم والسلوك القويم وإقامة العدل والقصاص ، وغير ذلك مما هو مدون فى اللوح المحفوظ لدى الحكيم الخبير الخالق المدبر ، علام الغيوب القادر على كل شىء ، ولا مبدل ولا مغير لكلام الله لأنه الحق ، والحق بين لا يحتمل قولين ، ولا يتناول جوهره تفسيران .

ومفهوم السلام وإقامة العدل والقصاص هى واحدة فى كتب الله السماوية وتحذير الخالق لخلقه من كيد الشيطان ، ورد فى خاتم كتب الله كما ورد فيما سبقه من كتبه .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِى السِّلْمِ كَافَّةً وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُم عَدُوٌّ مُبِينٌ »(١٢٥) .

« فَإِن كُنْتَ فِى شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرءُونَ الكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءكَ الحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ »(١٢٦) .

« وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ ، وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ »(١٢٧) .

« وَكَتَبْنَا عَلَيْهِم فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالعَيْنَ بِالعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنْفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ والجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ »(١٢٨) .

« وَلَكُمْ فِي القِصَاصِ حَيَاةٌ يَأُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ »[129] .

وها هو خاتم كتب الله ، يبين لهم ويؤكد ما أمر الله به فى كتبه السابقة من عبادات فرضها على عباده المؤمنين به وبكتبه وبرسله ، ويكفى المؤمن حق إيمانه ، شهادة الخالق جل وعلا وملائكته الأطهار ومن أضاء الله قلوبهم بنور العلم به ، وبوحدانيته سبحانه وتعالى وبعدله ورحمته بالناس ، وبعلمه وحكمته ، وهو سبحانه وتعالى أصدق القائلين .

« شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وأُولُوا الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الحَكِيمُ »[130] .

وهو سبحانه وتعالى الذى فرض العبادات على الخلق أجمعين قد أمر من آمن بكتبه ورسله بأداء فروض هذه العبادات فى القرآن الكريم كما سبق أن فرضها فيما سبق من كتبه .

« يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ »[131] .

« وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنْفُسِكُمْ مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ إِنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ»[132] .

وينكر العزيز القادر على المكذبين من أهل الكتب السابقة على القرآن ، تباهيهم الكاذب وتعاليهم المزيف على من أسلم لله ، إذْ ادعوا كذباً وبهتاناً بأن أبا الأنبياء إبراهيم عليه السلام ومن جاء بعده ، من ذريته كانوا جميعاً يهوداً أو نصارى ، ثم يكشف ، سبحانه وتعالى كيدهم ، فيوجه إليهم هذا السؤال الاستنكارى .

« أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ كَانُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى قُلْ أأَنْتُمْ أَعْلَمُ أمِ اللهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَم شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللهِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ »[133] .

ثم يقرر سبحانه وتعالى كذب ادعائهم هذا بما أنطق به إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام ، بالدعاء إليه وحده ، والتماس رضوانه والإسلام له .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

« رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ »(١٣٤) .

« إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسلِم قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ العَالَمِينَ »(١٣٥) .

« وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَابَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إلاَّ وأَنتُم مُّسْلِمُونَ »(١٣٦) .

ويسفه الواحد الديّان من خرج عن ملة إبراهيم ودينه .

« وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيم إلا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ »(١٣٧) .

ويكشف الحاكم العادل ذلك الخلاف الذى قام بين بعض أهل الكتاب بعد أن أعرضوا عن دعوة خاتم رسل الله ، إذ أخذ كل منهم يدعى ، بغير حق ، بأنه هو وحده الذى على حق وهدى ، وأن غيره فى ضلال مبين .

« وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَومَ القِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ »(١٣٨) .

ثم تعود الطائفتان المختلفتان ، فتتحد كلمتهما ويتفق رأيهما ضد خاتم كتب الله وخاتم أديانه الذى ارتضاه الله دينا للناس كافة ، فتناقضان ما سبق أن قالت كل منهما عن الأخرى وتدعيان أنهما معا ووحدهما ، من خَلْق الله ، من وعدهما الله بالجنة ، ونسوا جميعاً أن الجنة والنار وأهل كل منهما من أمور الغيب التى احتفظ بها الخالق ولا يعلمها أحد سواه . ويحكم الحكيم الخبير على كليهما فى ادعائهما هذا بالجهل المطبق رغم ما لدى كل منهما من كتاب نزله الله إليهم مبيناً فيه الحق والباطل ، ويسفه أحلامهما ويأخذهما بأقوالهما الباطلة وباستسلامهما لغواية الشيطان ، وبكفرهما بالله .

« وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إن كُنتُمْ صَادِقِينَ »(١٣٩) .

« الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وفَضْلاً وَاللهُ واسِعٌ عَلِيمٌ »(١٤٠) .

فإذا ما قرر الخالق أن الدين عنده ، هو الإسلام ، كان هذا هو الدين الذى ارتضاه لمن آمن من البشر بالله وحده وباليوم الآخر ، وأن أهل الكتاب هم أجدر الناس باتباعه .

« إنَّ الدِّينَ عنْدَ الله الإسْلامُ وَمَا اخْتَلَفَ الذين أُوتُوا الكِتَابَ إلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَمَن يَكفُرْ بِآيَاتِ اللهِ فَإنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ »(١٤١) .

وعندما يقرر الحق ، سبحانه وتعالى ، أن القرآن هو خاتم كتبه المنزلة على البشر ، فهو إذن الدستور الإلهى الذى جعله الله قانوناً وشريعة يسير عليها الناس كافة فى كل زمان ومكان فى حياتهم الدنيا ، وبه يسترشدون لإعداد أنفسهم ليوم الحساب فى الحياة الآخرة . وهو ذلك الكتاب الذى جعله الله مهيمنا على كتبه وشاملاً لها .

« وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمناً عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهم عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُم شِرْعَةً وَمِنْهاجاً وَلَوْ شَاءَ الله لَجَعَلَكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ »(١٤٢) .

فمن ذا الذى يكفر بذلك الكتاب الحق بعد أن نزله وفرضه على البشر الحق سبحانه وتعالى ؟ .

« إنَّ الَّذينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ(١٤٣) لاَ يَأْتِيهِ البَاطِلُ من بين يديه ولا من خلفه تنزيل مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ(١٤٤) مَا يُقَالُ لَكَ إلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ »(١٤٥) .

وعند ما يقرر الله أن الرسول محمدا ﷺ الذى أوحى إليه بهذا الكتاب ، هو خاتم رسله ، فما على البشر عامة ، وأهل الكتاب خاصة ، إلا تصديقه والإيمان به وبما أوحى إليه من الخالق الواحد الأحد ، أوليس محمد هو الرسول الذى أنطق الله نبيه عيسى باسمه ؟ .

« وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَم يَابَنِى إِسْرَائِيلَ إِنِّى رَسُولُ الله إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ التَّوْراة ومُبَشِّراً بِرَسُول يَأْتِى مِنْ بَعْدِى اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بالبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ »(١٤٦) .

فمن آمن بالله وحده ، ثم آمن بملائكته ، وبكتبه وخاتمها القرآن الكريم وبرسله وخاتمهم نبيناً محمد ﷺ ، ومن آمن بالغيب وباليوم الآخر ، ومن اتخذ الإسلام ديناً ، هو المؤمن حقاً ، وهو الذى أطاع خالقه واكتسب رضوانه فكتب له السعادة فى حياته الدنيا ، والمغفرة والرحمة فى حياته الآخرة .

ويصحح رب العالمين فى كتابه المبين ، ويأتى بالنبأ اليقين عما تعارف عليه أهل الكتاب من سير الأشخاص وأحوال الأمم الغابرة ، التى تناقلها الخلف عن السلف بعدما تراكم عليها بمرور الأجيال من اصطناع وأخيلة ضلت سبيلها عن حقيقة ما جرى لهؤلاء الأشخاص ولتلك الأمم ، فيورد لنا العليم الخبير أدق التفاصيل ويعرضها لنا كما لو كانت حية متجسدة .

فهذه سير نوح وإبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب ويوسف وموسى وعيسى عليهم جميعاً السلام ، كما جرت بالحق وبإذن العلى العليم .

فهذا نوح الذى نجاه ربه ومن استخلص ممن آمن من قومه فى الفلك الذى بناه بأمر الله ، إذ نجاه من الطوفان الذى أغرق الله به من عداهم من الكافرين المكذبين بأوامر الله ، فمحاهم الله من فوق الأرض وأبقى على نوح ومن تبعه .

« وَقِيلَ يَاأَرْضُ ابْلَعِى مَاءَكِ وَيَاسَمَاءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِىَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَومِ الظَّالِمِينَ »(١٤٧) .

« قِيلَ يَانُوحُ اهْبِطْ بِسَلاَمٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ »(١٤٨) .

وهذا هو إبراهيم أبو الأنبياء الذى أضاء الله قلبه بالإيمان به وحده ونجاه من القوم المشركين الظالمين .

« وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ(١٤٩) إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِى أَنتمْ لَهَا عَاكِفُونَ »(١٥٠) .

« فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً إِلاَّ كَبِيراً لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ »(١٥١) .

« قَالُوا أأَنْتَ فَعَلْتَ هَـذَا بِآلِهَتِنَا يا إِبْرَاهِيمُ(١٥٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَـذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانوا يَنْطِقُونَ »(١٥٣) .

«قَالُوا حَرِّقُوهُ وانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إن كُنْتُمْ فَاعِلِينَ(١٥٤) قُلْنَا يَانَارُ كُونِى بَرْداً وَسَلاَماً عَلَى إبْراهِيم »(١٥٥) .

« وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً إلَى الأرْضِ الَّتِى بَارَكْنا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ »(١٥٦) .

ويجتبى الله نبيه يوسف ويؤتيه الحكمة البالغة والرؤيا الصادقة وينجيه من غواية الشيطان ، ثم يزيده ، بتقواه ربه ، فى الأرض تمكينا ، فيزداد لربه شكراً وبه إيماناً .

« وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأحَادِيث وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آل يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قبلُ إبْراهِيمَ وَإسْحَقَ إنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ »(١٥٧) .

« لَقَدْ كَانَ فِى يوسُفَ وإخْوَتِه آياتٌ لِلسَّائِلِينَ »(١٥٨) .

« إذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إنَّ أبَانَا لَفِى ضَلاَلٍ مُبِينٍ »(١٥٩) .

« اُقْتُلُوا يُوسُفَ أوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْماً صَالِحِينَ »(١٦٠) .

« فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأوْحَيْنَا إلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لاَ يَشْعُرون »(١٦١) .

« وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلاَ أن رَّأى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ »(١٦٢) .

« فَاسْتَجَابَ لَهُ ربُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ »(١٦٣) .

« وكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى الأرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْها حَيْثُ يَشَاءُ ، نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ »(١٦٤) .

«رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِى مِنَ الْمُلْك وعلمتنى مِن تَأْوِيلِ الأحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأرْضِ أَنْتَ وليِّى فِى الدُّنْيَا والآخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِماً وأَلْحِقْنِى بِالصَّالِحِينَ »(١٦٥) .

« نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إلَيْكَ هَذَا الْقُرآنَ وَإن كُنْتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الغَافِلِينَ »(١٦٦) .

« ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ ، وَهُمْ يَمْكُرُونَ »(١٦٧) .

« وكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ والأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ »(١٦٨)

ومن أنباء الماضى السحيق الذى لم يصل لنبينا الأمى ولا لقومه منها إلا طرف كان فى نظرهم من أساطير الأولين ، تلك القصص التى أوردها العليم الحكيم فى كتابه المبين ، يؤيد بها رسوله الأمين إذ يأتيه بالخبر اليقين عن هذه الأمم فى كثير من التفاصيل التى عجز عن حفظها البشر أجمعون ، فوقفوا منها حائرين مترددين ومكذبين وما هذه القصص إلا حقائق ثابتة فيما سبق أن نزل الله فى كتبه وفيما تركه الأولون من آثار ومدوّنات .

وها هى قصص أقوام خلت منذ قرون . منها قوم فرعون موسى فى مصر ، وقوم عاد فى جنوب الجزيرة العربية وقوم ثمود فى شمالها ، وقوم شعيب فى سيناء وغيرهم وغيرهم ممن عاش على هذه الأرض من شعوب منذ آلاف السنين ، ويبن لنا القرآن الكريم ما حل بهذه الشعوب حين أخذها الله بفسقها وكفرها وفسادها :

« وَهَلْ أَتَاكَ حَديثُ مُوسَى »(١٦٩) .

« إِذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى »(١٧٠) .

« وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَالَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إلا مُفْتَرُونَ »(١٧١).

« وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ واسْتَعْمَرَكُمْ فيها فاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى قريب مُجِيبٌ »(١٧٢) .

« وَأَخَذَ الَّذينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ »(١٧٣) .

« تِلْكَ مِنْ أَنباءِ الْغَيْبِ نُوحِيهاَ إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُها أَنْتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الَعاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ »(١٧٤) .

٥- شرح وتوضيح ما أسىء فهمه فى كتب الله .

هذا القرآن الكريم المنزل من رب العالمين ، كتابٌ لا ريب فيه ، ولا يتناقض مع ما سبقه من كتب سماوية ، بل هو توضيح لما جاء بها ، إنما نزل خاتم كتب الله لشرح ما غمض أو أسىء فهمه منها ومكملا لها ومهيمنا عليها جميعا ، ولا سبيل لنكران هذه الحقيقة ممن قرأه وفهمه حق فهمه .

« الَّذينَ آتَيْنَاهُمُ الكتابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِه فَأُولَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ »(١٧٥) .

« وَمَا كَانَ هَذَا القُرآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ العَالَمِينَ »(١٧٦) .

ولا أدل على ما أنعم الله به على خلقه مما ورد فى هذا الكتاب من تصحيح لما أسىء فهمه من كتبه السابقة ، إذْ هدى به الناس إلى بعض الحقائق التى قررها الخالق المقتدر .

مثال ذلك ما ورد فى القرآن الكريم عن حقيقة مولد عيسى بن مريم ، عليهما السلام ومسألة قتله وصلبه التى جرت على ألسنة بعض الناس ظنا ، وما هى من الحق فى شىء .

فالسيدة العذراء مريم ولدت من أبوين صالحين من بنى البشر وتقبلها الله قبولاً حسناً ، وحفظ لها طهرها وصفاء نفسها ، وأعدها لهذا الحدث الربانى ألا وهو مولد عيسى ، كلمة الله ، وضَعَتْهُ أمه ولم تتزوج ولم يمسها بشر ، فاصطفاه ربه لتبليغ رسالته إلى بنى إسرائيل ، وأوحى إليه إنجيله المقدس هاديا ومصدِّقًا للتوراة :

« إذ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ ما فِى بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّى إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ »(١٧٧) .

« وإذْ قَالَتِ المَلائِكَةُ يا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ ، وَاصْطَفاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ »(١٧٨) .

« إِذْ قَالَتِ الملائكةُ يا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ »(١٧٩) .

« قالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ له كُن فَيَكُونُ »(١٨٠) .

« إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ »(١٨١) .

ثم أرسل الله عيسى إلى بنى إسرائيل رحمة بهم ومصدقا لكتابهم .

« وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ »(١٨٢) .

« إِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ »(١٨٣) .

ثم يصحح العليم الخبير فكرةً بعض الناس عن وفاة المسيح عيسى بن مريم ويرد كيد بنى إسرائيل وكذبهم .

« إِذْ قَالَ اللهُ يا عِيسى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كفروا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ »(١٨٤) .

« وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فيه لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً(١٨٥) بَل رَّفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ ، وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً »(١٨٦) .

ثم يحذر العزيز ذو الانتقام أهل الكتاب الذين اتخذوا من التثليث دينا لهم وعقيدة . فهو سبحانه وتعالى واحد لا شريك له ولا شيء مثله ، وهو سبحانه لم يلد ولم يولد . وما كان عيسى ابن مريم إلا بشرا من بنى آدم وعلى صورتهم ، وعبداً من عباد الله اختاره ربه رسولا وأوحى إليه بالانجيل هدى ورحمة لقومه .

« يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَتَغْلوُا فِى دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلاَّ الحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُوا ثَلاَثَةٌ انْتَهُوا خَيْراً لَّكُمْ إِنَّمَا اللهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً »(١٨٧) .

« لَن يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً للهِ وَلاَ الْمَلاَئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً »(١٨٨) .

وكما صحّحَ القرآن الكريم فكرة الناس عن مولد عيسى ونهاية حياته الدنيا ، صَحَّحَ أيْضاً فكرة الناس الخاطئة عن الربا وحرمه تحريما قاطعا ، فقد ادعى أهل الربا وبرروا معصيتهم بقولهم إن الربا نوع من التجارة ، وما هو من التجارة فى شىء ، بل هو أكل أموال الناس وإذلالهم بغير حق .

« الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِى يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِن رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ »(١٨٩) .

وقد يذهب بعض المكابرين الى التعجب من إباحة القرآن بعض ما حرّم الله فى كتبه السابقة كما فعل اليهود مع نبينا الصادق الأمين ، إذْ نَسُوا أو تناسوا أن فى الإباحة والتحريم حكمة إلهية قد يجهلها البشر ولا يؤمن بها إلا من شرح الله صدره بالإيمان وأضاءَ عقله بالفهم السليم . ومن ذلك ما أباحه القرآنُ من أنواع الطعام ما سبق أن حرّمه الله على بنى اسرائيل فى التوراة عقابا لهم على ما اقترفوا من ذنوب ومعصية ، إذْ حرّم فى التوراة بعض متع الدنيا عقابا لهم ، واختبارا لهم فى مدى إسلامهم لأمر الله وطاعته ، وصدق إيمانهم بما نزل إليهم .

« وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَو مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ »(١٩٠) فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ »(١٩١) .

« قُل لا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ »[١٩٢] .

ولكنهم بما جُبلوا عليه من عناد ومكابرة وتكذيب بما أنزل الله فى قرآنه الكريم كفروا بنعمة ربهم عليهم وبما أراد لهم من مغفرة ورحمة ، إمعانا فى كيدهم للإسلام والمسلمين ، فيَا لضلالِ قومٍ أبَوْا أن يتقبلوا رحمة ربهم بهم !

٦- تصحيح ما لحق الكتب السماوية من تشويه نتيجة حذف أو إضافة .

لقد أنزل الله خاتم كتبه من نفس لوحه المحفوظ الذى نزل منه على البشر كتبه السابقه ، هداية ورحمة وعوداً بهم إلى صراطه المستقيم ، وتصحيحا لما لحق هـذه الكتب من تشويه أملته أهواء بعض ممن سعى وراء مصالح شخصية ومنافع دنيوية عاجلة أو إمعاناً منهم فى الاستكبار والاستعلاء بما آتاهم الله من بعض علمه ولكنهم خانوا الأمانة واستباحوا ما حرم الله وحرموا مـا أحل ، وألبسـوا الحق بالبـاطل ، وتسلطوا على عقول البسطاء من الناس وأضلوهم عن سواء السبيل ، إلا من عصم الله من عباده الصالحين .

« كَـانَ النَّاسُ أُمَّـةً واحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّـينَ مُبَشِّرِينَ وِمُنْـذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ »[١٩٣] .

ولو كان ما لحق هذه الكتب من تشويه نتيجه لعدم فهم كتاب الله على وجهه الصحيح أو نتيجة لقصور غير مقصود فى تفسير كلام الله بالحق ، لهان الأمر وقُبل العذر إذا ما اقتنع هؤلاء المفسرون بخاتم كتب اللهِ وآياته البينات ولتـابوا إلى اللهِ وآمنوا به ، وعسى الله أن يقبل توبتهم ، وهو سبحانه الرحيم الغفور .

أما إذا كان هذا التشويه متعمدا ومقصـودا من أناس هم أعـرف بكتاب الله ومقاصده ، وهم أدرى الناس بصدق ما جاء به وبمفهومه ، إذا كان هذا التشويه على

هذا الوصف لكان هو الضلال بعينه والكفر المبين والارتداد عن الحق بعد ما تبين ، وما يزيد الله هؤلاء المرتدين إلا كفرا بالحق وإصرارا على الكذب والافتراء ليضاعف لهم العذاب بما قدموا من كفر وتضليل .

« الَّذين آتَيْنَاهُمُ الكِتابَ يَعْرِفُونَه كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنهُم لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ »(١٩٤) الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ »(١٩٥) .

ومن أشد كفراً وأهلاً لغضب الله ولعنة الخالق والخلق ممن كتم عن الناس نور الحق وهو يعرفه ، ويأبى الله إلا أنْ يتم نوره ولو كره هؤلاء المفترون الضالون :

هؤلاء هم المفترون المصرون على كفرهم وكذبهم ، الذين لا يناقشهم الله يوم الحساب فيما قدموا فى دنياهم من إثم وفساد ، فإثمهم محيط بهم وفسادهم آخذ بتلابيبهم ، وقد غضب عليهم القوى الجبار وكتب عليهم سوء العذاب ، فلا موجب لحساب ولا وقت لمؤاخذة أو مناقشة ، بل يقذف بهم لتوهم قذفا فى نار جهنم ولا يرحمهم الله ولا يشفع لهم أحد ، وهل بعد الافتراء على الله ، سبحانه وتعالى ، بالكذب من ذنب ؟

«إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ ما أَنْزَلْنَا مِنَ البَيِّنَاتِ والْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهَ ويَلعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ »(١٩٦) .

« إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ الْكتابِ وَيَشْتَرونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ القِيامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ »(١٩٧)» .

« إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ فِى الآخِرَةِ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ ولا يَنْظُرُ إِلَيْهِم يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(١٩٨)» .

أما من تدارك خطأه فى دنياه فأصلحه ، وتبين ضلاله فنفضه عنه ، ثم عمل جاهدا على إصلاح ما أفسد وثاب إلى صراط ربّه المستقيم ، وأخلص نيته فصدق قوله وتاب إلى ربه توبة نصوحا ، تقبل الله توبته وعفا عنه وشمله برحمته ، وهو سبحانه التواب الغفور .

« إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ »(١٩٩) .

فهل آن لهؤلاء الضالين أن يتحروا الحق فى تفسير كتبهم وأن يُصْدِقوا الجهد فى استخلاص العبر والحكم مما يقرءون ، بدلا من تلمس ما يتفق ونفوسهم المريضة وأهوائهم الخبيثة ، وبدلا من تصيد المتشابه من آيات القرآن الكريم يفسرونها بما يتفق ومصالحهم الخاصة ، وبدلا من اختلاق ما لم ينزل به الله من كلام يدسونه زورا إلى الله ، والله أعلم بذات صدورهم وبما يؤفكون ، ولهم سوء العذاب ؟ .

« هُوَ الَّذى أَنْزَلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتَابِ وأُخَرُ مُتَشَابِهاتٌ فأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الفِتْنَةِ وابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إلاَّ اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِى العِلم يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إلا أولُوا الألْبابِ »(٢٠٠) .

« وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لَتَحْسَبُوهُ مِنَ الكِتَابِ ومَا هُوَ مِنَ الكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ »(٢٠١) .

وهم يقولون ما لم يُرد الله أو ينزّل ، ويقلبون الحقائق التى آتاها الله للبشر ، ورغم علمهم بذلك فإنهم يتمادون فى بث الشك والفتنة بين المؤمنين ، حسداً منهم وطمعا ، ورغبة منهم جامحة فى التسلط على الناس ، ولكنهم فى الواقع لا يضلون الا أنفسهم أمام تقوى المؤمنين وثباتهم على الحق .

« وَدَّت طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ »(٢٠٢) .

« فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إنَّهُ لاَ يُفْلِحُ المُجْرِمُونَ »(٢٠٣) .

وما أهل الكتاب إلا بشر دأب الشيطان على الكيد لهم وبث الفتنة فيهم ، ففيهم من اتخذ من الشيطان ولياً واتبع هواه ، ومنهم من ثبته الله على إيمانه فعمل

بكلام الله المنزل ، ومنهم المهتز النفس الضعيف الإيمان الخائن للأمانة الناقض للعهود ، ومنهم القانت الخاشع لله فظل على الايمان به وحده وباليوم الآخر .

« ومِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إن تأْمَنْه بقنطارٍ يُؤَدِّه إليْك ومنهم مَنْ إنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَ يُؤَدِّهِ إليك إلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيهِ قَائِماً ذَلِك بأنَّهُمْ قالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سبيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الكَذِبَ وَهُم يَعْلَمُونَ »(٢٠٤)

« يَاأَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا إنَّ كَثِيراً مِّنَ الأَحْبارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ »(٢٠٥)

ويعرّف العليم الخبير معنى الإيمان كما أراده وكما بينه فى كتبه ، حتى يهتدى الضالون ويتقوا ربهم فيما يقولون .

« إنَّ الذينَ آمنُوا وَالذينَ هَادُوا والصَّابِئُونَ والنَّصَارى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ وعمل صَالِحاً فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ »(٢٠٦)

ويحذر الله من آمن به من ضلال وتضليل بعض أهل الكتاب الذين يبغون بينهم ويبثون فيهم الفتنة ، ويأمر المؤمنين به أن يكونوا دعاة خير وإحسان .

« يَأَيُّها الَّذينَ آمنُوا إن تُطِيعُوا فَرِيقاً مِنَ الَّذينَ أوتُو الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إيمَانِكُمْ كَافِرِينَ »(٢٠٧)

« وَلْتَكُن مِّنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ »(٢٠٨) .

والعليم بما فى الصدور ينكر على بعض أهل الكتاب تماديهم فى الضلال والكفر والتكذيب بما أنزل الله رغم علمهم بالحق .

« يَأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ(٢٠٩) يَأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالبَاطِلِ وَتَكْتُمونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ »(٢١٠)

ويضرب الله مثلا بضلال بنى اسرائيل وغيرهم من أهل الكتاب بما أنزل الله ، ويكشف تزييفهم للحق وخيانتهم وعدوانهم ، يضرب بكل هذا مثلا للمؤمنين

يحذرهم منهم ومن كيدهم ، والله رالا كيد الكافرين بما كفروا وأثموا ، وبما أثاروا من فتنة بين الناس :

« وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَـاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ »(٢١١)

« لَن يَضُرُّوكُمْ إلاَّ أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلوكُمُ الأَدْبَارَ ثُمَّ لاَ يُنْصَرُونَ »(٢١٢)

« مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَـرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّواضِعِهِ وَيقُـولُونَ سَمِعْنَـا وَعَصَيْنَا ، وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَراعِنَا لَيًّا بَأَلْسِنَتِهِمْ وطَعْناً فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأطعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنا لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْـرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُـونَ إلاَّ قَلِيلاً »(٢١٣)

« وإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُو الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ فَنَبذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئسَ مَا يَشْتَرُونَ »(٢١٤)

« ضُربتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَمَا ثُقِفُوا إلاَّ بِحَبْلٍ مِنَ اللَّه وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغضَبٍ مِنَ اللَّه وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِـكَ بِأَنهُمْ كَـانُوا يَكْفُـرُونَ بِآيَـاتِ اللَّهِ ويَقْتُلُونَ الأَنْبِيَاءَ بغيرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِما عَصَوْا ، وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ »(٢١٥)

« وَمِنَ الَّذينَ قَالُوا إنَّا نَصَارَى أَخذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغرَيْنَا بْينَهُمُ العَـدَاوَةَ والْبَغْضَـاءَ إِلَى يَـوْمِ القِيَـامَـةِ وَسَـوْفَ يُنبئُهُمُ اللَّهُ بِمَـا كَـانُـوا يَصْنَعُونَ »(٢١٦) .

ثم يسلط الله نـوره على مـا أخفى أهل الكتـاب من الحق ويبـين للمؤمنـين ما حاولوا إخفاءه .

« يَأَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ (١١٧) » .

« قُلْ يَأَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكمُ أَلاَّ نَعْبُدَ إلاَّ اللَّه وَلاَ نُشْرِكَ به شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضًا أَرْبَاباً مِّنْ دُونِ اللَّهِ فإن تَوَلَّوْا فَقُـولُوا اشْهَـدُوا بِأَنَّـا مُسْلِمُونَ »(١١٨)

ويُبصِّر ألله أهل الكتاب فيها اختلفوا فيه ويكشف مدى ضلالهم وتخبطهم فيها يفكرون وفيها يقولون وتحريفهم فيها يعلمون وفيها لا يعلمون . فكل منهم يريد أن يدعم قوله ، بغير حق ويقرع حجة زميله ، بحجج أو هى من حججه ، إذْ يقولون إن ابراهيم أبا الأنبياء عليه السلام كان يهوديا أو نصرانيا رغم أنهم لا يعرفون أى ملة كان عليها ابراهيم ، ومن ثم يصحح القرآن لهم ما تاهوا فيه من أخطاء وضلال ، وما كان ابراهيم من هؤلاء ولا هؤلاء ، بل كان مسلما حنيفاً .

« يأَهْلَ الْكتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إبْراهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ والإنْجِيلُ إلاَّ مِن بَعْدْهِ أفَلاَ تَعْقِلُونَ »(٢١٩) .

« هَا أَنْتُمْ هَؤُلاَءِ حَاجَجْتم فيِمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لكم بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ(٢٢٠) مَا كَانَ إبْرَاهِيمُ يَهُودِياً وَلاَ نَصْرَانياً وَلكِن كَانَ حَنِيفاً مُّسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ(٢٢١) إنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإبراهيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِىُّ والَّذِينَ آمنوُا وَاللَّهُ وَلِىُّ الْمُؤْمنينَ »(٢٢٢) .

ثم يشدد الله القول على بنى إسرائيل ويعنفهم تعنيفاً شـديداً بمـا ارتكبوا من جرائم وأكاذيب وعصيان لأوامر الله ويعذبهم فى حياتهم الدنيا ، ولهم فى الآخـرة عذاب أشد .

« فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الأنْبياءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَولِهِمْ قُلوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إلاَّ قَلِيلاً »(٢٢٣) وبِكُفْرِهِمْ وَقولِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً »(٢٢٤) .

« فَبِظُلْمٍ مِّنَ الّذينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيراً »(٢٢٥) وأخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرينَ مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً »(٢٢٦) .

« فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا به ولا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إلاَّ قَلِيلاً مِنْهُمْ فَاعفُ عَنْهُمْ وَ اصْفَحْ إنَّ الله يُحب الْمُحْسِنِينَ »(٢٢٧)

ثم يسأل الله رسوله عيسى بْنَ مَرْيَمَ سؤالا استنكاريا عما ادعى بعض أهل الكتاب كذباً ويبرىء عيسى نفسه أمام ربه من هذا الادعاء الكاذب ،

« وإِذْ قَالَ اللهُ يَاعِيسَى بْنَ مَرْيَمَ أأنْتَ قُلْتَ للنَّاسِ اتَّخذُونِي وَأمِّيَ إلهَيْنِ مِن دونِ اللهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَايكُونُ لِى أنْ أقُولَ مَالَيْسَ لِي بِحَق إن كُنْتُ قُلْتُه فَقَدْ علمتهُ تَعْلَمُ مافى نَفْسِى ولاَ أعْلَمُ ما فى نَفْسِكَ ، إنَّكَ أنْتَ عَلاَّمُ الغُيُوبِ (٢٢٨) * مَاقُلْتُ لَهُمْ إلاَّ مَا أَمَرْتَنى به أنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عليْهِمْ شَهيداً مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنى كُنْتَ أنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وأنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْء شَهِيدٌ »(٢٢٩)

وكما ادعى بعض أهل الكتاب من النصارى ربوبية نبيهم عيسى ، ادعى اليهود أيضاً أن عُزَيْراً ابنُ الله والله سبحانه وتعالى هو الواحد الأحد الذى لم يلد ولم يولد ، فليكذب الكفار ماشاء لهم الكذب ولينالوا جزاءَ كَذِبهم .

« وقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ الله ، وقَالَتِ النَّصارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأفْواهِهِمْ يُضَاهِئونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قاتلهمُ الله أنَّى يُؤفَكُونَ »(٢٣٠)

ثم يقرر الخالق العليم حقيقة عيسى بن مريم ، فما هو إلا بشر من بنى آدم قال الله فيه كلمته بما يشاء ليخلق منه ما يشاء .

« ما الْمَسِيحُ ابْنُ مَريَمَ إلاَّ رسولٌ قَدْ خلَتْ مِن قَبْله الرسُلُ وأمهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أنَّى يُؤْفَكُونَ »(٢٣١) .

ومع ذلك لا يزال من أهل الكتاب من لم يكتف بتأليه رسولهم ، بل تعدوا هذا الكفر إلى ما هو أشد كفراً وعصيانا إذْ صنعوا من قسيسهم أرباباً فتعددت آلهتهم وضلوا سبيلهم إلى الله الذى لا إله إلا هو .

« اتَّخذُوا أحْبَارَهُم وَرُهْبَانَهُمْ أرْبَاباً مِن دُونِ اللَّهِ والمسِيحَ بْنَ مَرْيَمَ ومَا أُمِرُوا إلا لِيَعْبُدُوا إلهًا واحِداً لاَ إلَهَ إلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ »(٢٣٢)

ويلعن الله وأنبياؤه بنى اسرائيل بكفرهم وبما تمادوا فيه من إثم وعدوان وبتحزبهم للكفار للصدِّ عن سبيل الله ، ويتوعدهم بعذاب اليم .

« لُعِنَ الذين كَفَرُوا مِن بَنِي إسْرَائيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ »(٢٣٣)

« تَرَى كَثِيراً مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ ما قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُم أَنْ سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَفِي العَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ »(٢٣٤) .

« وَلَوْ كَانوا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ والنَّبِيِّ وما أُنْزِلَ إِلَيْهِ ما اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاء ولكنَّ كَثِيراً مِّنْهُم فَاسِقُونَ »(٢٣٥)

ثم يأخذ القوى العليم من ضل من أهل الكتاب بأقوالهم وافتراءاتهم ، ليبين لهم ما كانوا فيه يتخبطون ويهذون ، فيكشف كفرهم وسوء ظنهم وفساد ضمائرهم وغرورهم بأنفسهم .

« وَقَالَت الْيَهُودُ والنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ الله وأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِم يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُم ، بَلْ أَنْتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يشَاءُ وَيُعَذِّب مَن يَشَاءُ ، ولِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ومَا بَيْنَهُمَا وإِلَيْه المَصِيرُ »(٢٣٦) .

« قُلْ يا أَهْلَ الكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيءٍ حَتَّى تُقِيموا التَّوْرَاةَ وَ الإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِّنْ رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِّنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً فَلا تَأْسَ عَلَى القَوْمِ الكَافِرِين »(٢٣٧) .

« ومَنْ أَظْلَمُ مِمَّن افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ، إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ »(٢٣٨) .

« ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا واللَّهِ رَبِّنَا ماكُنَّا مُشْرِكِينَ »(٢٣٩) .

« انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ »(٢٤٠) .

ثم يأمر الله أهل الكتاب بالإقلاع عن العبث بدين الله والبعد عن هوى النفس وأن يكونوا صادقين مع أنفسهم ومع ربهم .

« قُلْ يا أَهْلَ الكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِى دِينِكُم غَيْرَ الْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً وضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيل »(٢٤١).

ويقطع عليهم سبيل التملص مما لجّوا فيه من ضلال ، فيرسل إليهم رسولا يصحح لهم أخطاءهم ويلقى إليهم بكلمة الحق ليردهم إلى سواء السبيل .

« يَا أَهْلَ الكتَابِ قَدْ جَاءَكُم رَسُولُنَا يُبَين لَكُمْ عَلَى فَتْرة مِّن الرسُل أَن تَقُولُوا ما جَاءنَا مِن بَشِير ولاَ نَذِير فَقَد جَاءكُمْ بشير ونذير والله عَلَى كُلِّ شَىْ ء قَدير »(٢٤٢) .

« قُلْ يَا أَهْلَ الكْتَابِ هَل تَنْقِمُونَ مِنَّا إلاَّ أَنْ آمَنَّا باللهومَا أُنْزِلَ إلَيْنَا وما أُنزِلَ مِن قَبْلُ وأَنَّ أَكْثَركُمْ فَاسِقُونَ »(٢٤٣) .

٧ - الحروف المقطعة فى أوائل سور القرآن :

ومن نواحى الإعجاز القرآنى ما ورد فى أوائل بعض السور من حروف مقطعة يزداد عددها أو يقل كما يشاء الله .

فمن السور ما يبدأ بحرف واحد من نفس حروف اللغة التى نزل بها القرآن ، والبعض الآخر يبدأ بحرفين أو أكثر لا تربطها كلمة واحدة ذات معنى بالمفهوم البشرى ولكنها عند الله ذات معنى ومدلول لا يزال العقل البشرى عاجزاً عن التعرف عليهما ، وقد تضاربت الأقوال فى هذه الحروف .

فيقول البعض إن الحروف المقطعة هى أسماء سور أى عناوين لها .

وهذا قول مردود عليه بأن الكثير من السور اشتهرت بأسماء وعناوين غير ما بدأت به من حروف مقطعة . فسورة البقرة اشتهرت بهذا الاسم ولم تشتهر بما بدأت به من حروف (الم) ، ومثلها سور آل عمران والأعراف ومريم والعنكبوت والروم ولقمان . وسورة غافر اشتهرت بهذا الاسم ولم تشتهر بما بدأت به من حرفى (حم) ومثلها سور فُصّلت والشورى والزخرف . وسورة يونس اشتهرت بهذا الاسم ولم تشتهر بما بدأت به من حروف (الر) ومثلها سور هود ويوسف وإبراهيم والحِجْر . ولا يستثنى من سور القرآن فى هذا المجال سوى سور (يس) ، (طه) ، (ق) إذْ أن عناوينها وأسماءها هى هذه الحروف المقطعة .

ومن أقوال البعض الآخر أن الحروف المقطعة فى أوائل بعض سور القرآن قد قصد بها تنبيه العرب إلى أن القرآن قد نزل بلغتهم وبنفس صور حروفها .

وهذا قول مردود عليه بأن العرب لم يكونوا ليجهلوا أن اللغة العربية هى لغتهم وأن القرآن قد نزل بها .

وقال آخرون إن هذه الحروف المقطعة ما هى إلا تحد للعرب وتعجيز لهم عن الإلمام بأسرار الله سبحانه وتعالى . وقد يكون فى هذا القول بعض الصواب من حيث الشكل ولكن لا يبين لنا جوهر هذا الإعجاز . وقد رأينا فيما سبق من نواحى الإعجاز أنها إنباء للناس بما لم يسبق لهم به علم ، ولكن الأمر يختلف من حيث هذه الحروف فإنها لا تنبئنا بشىء ولا يفهم منها نبأ أو حكمة ، وهذا ما يجعلنا نعجز عن فهمها وبالتالى لا نستطيع تفسيرها .

وإذا كان القرآن قد نزل لصالح البشر وليعملوا بما فيه إنما يطلع به الله عباده المؤمنين على بعض من أسراره بالقدر الذى ينفعهم فى حياتهم الدنيا وبما يثبت فيهم الإيمان بالخالق القادر وحده والتسليم لأوامره والبعد عن نواهيه ، فقد احتفظ الله ببقية أسراره له وحده حيث لا يفيد بعلمها البشر ، على الأقل فى وقتهم هذا .

إذن لا داعى لأن يتعب الناس أنفسهم فى محاولة تفسير هذه الحروف ولا هم مطالبون بفهمها ما لم يأذن الله بذلك ، ولا يجوز للخلق أن يحاولوا الإلمام بكل علم العزيز العليم بأسرار كونه وخلقه ، وكم فى الكون من أسرار إلهية لا يدركها العقل البشرى ، ولا جدوى له من معرفتها ، فهى من الغيبيات الإلهية التى يكفى العبد منها الإيمان بقدرة الخالق وبواسع علمه وتسليم الأمر له وحده .

(ب) البلاغة فى لغة القرآن :

تتضح لنا روعة كتاب الله المبين وعظمته فى كل ناحية من نواحى البلاغة اللغوية فمن دقة فى التعبير وحسن البيان إلى وضوح فى التصوير وبلاغة فى التشبيه ، إلى غير ذلك من ألوان البلاغة مما لا يجعل فى هذا الكتاب الذى أحكمت صياغته ثغرة لسوء فهم أو مجالا لتزييف فى التأويل فهو بروعة بلاغته ومحكم بيانه ، تنفذ آياته من عين القارىء إلى قلبه فيطبعه على الإيمان ويثبته ، ويقع ترتيله على الأذن فينفذ إلى الضمير فيضيئه ويصفيه . فهو كلام الحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

١ - فما أبلغ القرآن فى تجسيده صفات البشر ، وما أروع تصويره لها حين يصور ذا القلب المقفل المصر على الكفر ، بمن فقد أقل ما يحس به أدنى الحيوانات ، فهو بذلك أحقر وأدنى من أدنى الكائنات الحية .

«وَلَوْ نَزَّلْنا عَلَيْك كِتاباً فى قِرْطَاس فَلَمَسُوهُ بأيْديهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفرُوا إنْ هَذَا إلاَّ سِحْرٌ ، مُّبِينٌ »(٢٤٤) .

« وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً مِنَ السَّماء فظلوا فيهِ يَعْرُجُونَ(٢٤٥) لَقالُوا إنَّمَا سُكِّرتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ »(٢٤٦) .

٢ - ويبين لنا القرآن بأجلى بيان مدى كفر الكافر وانصرافه عن الإيمان بالله مهما أتاه الرسل من معجزات إلهية ، ويبين لنا مدى مكابرته وإصراره على الكفر ومشاقته لرسل الله ولا عجب فى هذا الإصرار ، فإن الله لم يرد له رشداً ولا هداية ما ظل عاصياً لأوامره وتابعاً للشيطان .

« وإن كَان كَبُرَ عَلَيْك إعْرَاضُهُمْ فَإن اسْتَطَعْت أَن تَبْتَغِي نَفَقاً فى الأرْض أوْ سُلَّماً فى السَّماء فَتَأْتِيَهُمْ بـآيـة وَلَـو شَـاءَ اللَّهَ لَجَمَعَهُمْ عـلى الهُـدَى فَـلاَ تَكُـونَنَّ مِنَ الجَاهِلِينَ »(٢٤٧) .

« قُلْ أرَأيْتُم إنْ أَخَذَ الله سَمْعَكُمْ وأبْصاركُمْ وخَتَم عَلىَ قُلوبكُمْ مَّنْ إلهٌ غيرُ الله يأْتِيكُمْ به انْظر كَيْفَ نُصَرِّف الآيات ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ »(٢٤٨) .

٣ - ثم انظر وتدبر هذا التلميح القرآنى البليغ ، إذ يصور من ينظر إليك بعينين مفتوحتين ولا يرى ، ومن يعيرك أذنه ولا يسمع من قولك حرفاً وكلاهما كـالأبله الفاقد الإحساس والرشد فلا يتبين ما يرى بعينيه ولا يعى ما يسمع بأذنيه ، بل هما بالموتى أشبه فى بلادة الحس .

« وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُونَ إليك أَفَأنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ ولَوْ كَانُوا لاَ يَعقِلونَ »(٢٤٩) .

« وَمِنْهُمْ مَّن يَنْظُرُ إلَيْكَ أفَأنْتَ تَهْدِى الْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا لا يُبْصِرُونَ »(٢٥٠) .

« فَإنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلاَ تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ »(٢٥١) .

٤ - ويبث القرآن بأسلوبه البليغ اليأس فى قلب من كفر بآيات الله ، فقد تخلى الله عنه كما بعد هو عن ربه بكفره وسوء عمله .

« إنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِناَ وَاسْتَكْبرُوا عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلاَ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فى سَمِّ الخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِى الْمُجْرِمينَ »(٢٥٢) .

« لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ »(٢٥٣) .

وما أشبه تابع الشيطان ، والمغتر بما زينه له من سوء الأعمال بالمتعطش إلى شربة ماء فيجرى وراء السَّراب باحثاً عنها ، وما هو ببالغها ، وما يخدع إلا نفسه .

« وَالَّذِينَ كَفَروا أَعْمالُهُمْ كَسَرابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّه عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الحِسَابِ »(٢٥٤) .

وما أشبه الكافر بآيات الله بالغارق فى بحر من الظلمات ، يلفه الظلام ويحيط به من كل جانب فلا يكاد أن يتبين شيئاً مما حوله .

« أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِى بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بعضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَراهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُورٍ »(٢٥٥) .

وما أشبه عمل الكافر بنسيج العنكبوت الواهى ، يظهر كأنه متماسك وهو فى حقيقة أمره مفكك وضعيف ، وهو بذلك لم يكسب من عمله شيئاً فى دنياه وهو فى الآخرة من الخاسرين .

« مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ العَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ العَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ »(٢٥٦) .

« وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ العَالِمُونَ »(٢٥٧) .

٥ – وممن كفر بآيات الله البينات واتبع غواية الشيطان ذلك الحائر الذى لا يقر له قرار ولا يبقى على حال ، بل هو يدور حول نفسه ويتعب وتتقطع أنفاسه بسوء ما يعمل أو يسعى ولا يجنى مما عمل سوى الإجهاد والإعياء ، فهو كالكلب الضال الحائر يلهث وهو يعمل ويلهث وهو قاعد بلا عمل ، وياله من تشبيه .

« واتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِى آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الغَاوِينَ(٢٥٨) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوم الَّذِين كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ القَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ(٢٦٠) سَاءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ »(٢٦١) .

٦ – وما أشبه معبود الكافر المشرك بالله ، بالذبابة فى ضعفها وقلة حيلتها ، بل هو أضعف منها وأقل تدبيراً ، والله وحده هو خالق هذا وتلك ، وما هو أكبر منها وأدنى .

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لاَ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ »(٢٦١) .

ويمعن القرآن الكريم فى التهكم على أتباع شياطين الجن ، إذ يدخلون تباعاً فى صحبة أوليائهم إلى نار جهنم حتى تزدحم بهم وتضيق بهم ذرعاً ، ويتوسلون إلى الله أن يرحمهم ويغفر لهم وينقذهم مما هم فيه من عذاب ، ولكن الله يغفر لكل شىء إلا أن يشرك به .

« وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يَا مَعْشَرَ الجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنْسِ وقال أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الإِنْسِ رَبَّنا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنا أَجَلَنَا الَّذِى أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُم خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ »(٢٦٢) .

٧ – وحين يصوّر القرآن للناس الجنة والنار بالمفهوم البشرى الدنيوى ، إنما يقرب صورتيهما إلى أذهانهم ترغيباً أو إرهاباً ، ولكى يتبينوا جزاء ما قدمت أيديهم إن ثواباً أو عقاباً .

« مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِى وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِى النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ »(٢٦٣) .

وتقارن الآية بين ما فيه أهل الجنة من نعيم ، وبين ما يصلى أهل الجحيم من عذاب أليم ، وعندما يذكر الله ما ينعم به أهل الجنة من ماء ولبن وخمر وعسل وثمرات إنما يقرب إلى أذهاننا أنواع هذه النعم . فليست كلها مما طَعِمَه الناس فى حياتهم الدنيا بل هى نِعمٌ ربانية أعدها الله وشبهها فى لذتها بالماء النقى واللبن والخمر والعسل التى عرفها الناس وتمنوها فى حياتهم الدنيا . فالخمر التى أشارت إليها الآية ووعد بها الله أهل الجنة ليست ذلك الشراب الدنيوى الخبيث الذى حرمه الله على المؤمنين تحريماً قاطعاً .

أما أنَّ هذه الأنواع من مشروبات الجنة تجرى بها أنهار ، فكناية عن دوامها وعدم انقطاعها ، فهى تأتى من معين لا ينضب ولا ينقطع له مورد ، فهى خالدة خلود أهل الجنة .

وليس الحميم الذى يشربه أهل النار نوعا من الماء المألوف لدينا بل هو معدن مصهور يصبه الله صباً فى جوف كل عاص أثيم إمعاناً فى تعذيبه بما قدمت يداه فى حياته الدنيا .

٨ - وما أروع القرآن الكريم فى بلاغته وسحرِ بيانه حين يصور ذلك المرتد عن دين الله والذى كفر بآياته البينات بأبشع صور الحيوان وأقذرها ، فيشبهه بالقرد ، وبالخنزير قبحاً ودنساً وجبناً ، إذ يحاول هذا النجس الاستخفاء عن الناس فيلبس لباس المؤمن وهو فى دخيلة نفسه أشد الناس كفراً ، ولكن الله عليم بذات الصدور .

« قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍ مِّن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّه مَن لَّعَنَهُ اللَّه وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أولَئِكَ شَرٌّ مَّكَاناً وَأضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ »(٢٦٤) .

« أَلا إنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلاَ حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ »(٢٦٥) .

ثانيا ـ القرآن والتشريع :

ويقصد بالتشريع القرآنى تلك الأحكام والحدود التى وضعها الخالق للخلق رحمة بهم وهداية لهم . وهى التى وُضعت بالحق والعدل ، والتشريع القرآنى هو شريعة الله فى تنظيم العلاقات بين أفراد البشر وجماعاته ، ورَعى فيها الصلاحية والصلاح لكل البشر فى كل زمان ومكان .

والشريعة الإسلامية هى تلك الأحكام الربانية التى وضعها الله ليهتدى بها الناس كافة إلى صراط مستقيم . وهى الحد الفاصل بين الحق والباطل ، يتحرى الناس بها العدل وينبذون الظلم فيما يقولون وفيما يعملون ويتعاملون ، حتى يكون بنو آدم مجتمعاً كاملاً ، يأخذ بالمعروف وينهى عن المنكر .

« إِنَّ هَذَا القُرآن يَهْدِى لِلَّتِي هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كبِيراً »[٢٦٦] .

« وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِى مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُـلَ فَتَفرَّق بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُم تَتَّقُونَ »[٢٦٧] .

« وأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالقِسْطِ وَلاَ تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ »[٢٦٨] .

« الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُهْتَدُونَ »[٢٦٩] .

« إِلاَّ الَّذِينَ آمنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ »[٢٧٠] .

مصادر التشريع فى الإسلام :

مصادر الشريعة الإسلامية ثلاثة ، وها هى مرتبة حسب أولوية ما يؤخذ به فى التشريع وفى إصدار الأحكام .

١ - فأول هذه المصادر هو القرآن الكريم وما نصت عليه آياته من أحكام قاطعة لا لبس فيها ولا غموض .

٢ - سنّة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وهى ما صدر عن النبى من أقوال وأفعال ويرجع إليها إذا لم نعثر على الحكم فى القرآن أو لبيان المراد مما ورد فى القرآن .

٣ - رأىُ أولى الأمر ويرجع إليه إذا لم نعثر على الحكم فى القرآن أو فى السنة أو لبيان ما ورد فيهما .

فيجتهد أولو الأمر رأيهم . ويقوم هذا الاجتهاد على عنصر الشورى ، فإذا حاز هذا الرأى الاتفاق وجب العمل به . وتظهر قيمة رأى أولى الأمر فيما يعرض من حوادث لم تكن موجودة من قبل ، وطريقتهم فى إبداء هذا الرأى هو القياس على أحكام القرآن والسنة أى اصدار الحكم فى حادث بمثل ما صدر فى حادث مماثل .

ففيما يختص بالحدود والأحكام القرآنية فإنها تلك الأحكام القاطعة التى لا تقبل أى تلبيس أو تأويل ، وهى التى تهدى إلى أقوم الأحكام .

« إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا »(٢٧١) .

« وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ »(٢٧٢) .

والأخذ بسنة الرسول واجب على كل مؤمن إذا لم يجد فى القرآن ما يبين له حكما قاطعا .

فالأخذ بسنة الرسول فى هذه الحالة إنما هو أمر وإذن من الله بوجوب طاعة المؤمن لرسول الله :

« فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا »(٢٧٣) .

فهو رسول الله الأمين الذى هداه ربه إلى صراطه المستقيم وعصمه من الغواية والهوى ولا يحكم إلا بوحى من ربه :

« وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى * وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى »(٢٧٤) .

« إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى »(٢٧٥) .

أما الأخذ برأى أهل الثقة من ذوى الحل والعقد من أبناء الأمة الإسلامية الصالحين من العلماء وأرباب النظر فأحكامهم واجبة النفاذ ، فهم لا يصدرون أحكامهم إلا عن خبرة وتقوى ، ولا يبتون فى الرأى إلا إذا لم يجدوا له بديلا فى القرآن والسنة :

« الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ »(٢٧٦) .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً »(٢٧٧) .

وإذا كانت القوانين الوضعية ، وقد وضعها البشر لصالح المجتمع ، واجبة النفاذ ، ولا نفاذ لقانون إلا بطاعته والامتثال لأحكامه ، وإذا كان واضعو القانون وهم بشر ، غير معصومين من الهوى أو الخطأ رغم اجتهادهم وحسن قصدهم ، إذا كان الأمر كذلك بالنسبة للقانون الوضعى ، فما أحرى البشر بالطاعة والامتثال لما شرع أعدل الحاكمين لهم من مبادىء وأحكام لم تتناول كل نواحى حياتهم الدنيا فحسب ، بل وما يتعلق أيضا بحياتهم الآخرة ، وما أجدرهم بعد ذلك بالتزود بالصحيح الوارد عن سنة الرسول الأمين ، وبما قال الصالحون المجتهدون الذين آمنوا بالله وبرسوله .

ورغم كل هذا البيان والتفسير الإلهيين ، لا يزال بيننا نحن المسلمين من انحرف بمفهوم الاجتهاد فى اصدار الأحكام وطاعتها وتنفيذها كما أراد الله ، إلى القول بوقف هذا الاجتهاد وقفل بابه .

بل لقد انحرف البعض عن الاجتهاد فى تبين الحق إلى المنحدر الواضح حتى عن البيّن من أحكام الله ، سبحانه وتعالى ، فى قرآنه الكريم ، بحجة أن لكل عصر ولكل بلد أن يتخذ من دون هذه الأحكام أحكاما وقوانين وضعية يصطنعها كل قوم بما يناسبهم ، بل لقد تمادوا فى ادعائهم إلى القول بأنه لا شىء يصلح لقوم إلا إذا كان من صنعهم هم ، لأنهم أدرى بمصالحهم ، ألاَ كبرت كلمة خرجت من أفواههم ! فما وَضع الشريعة الإسلامية إلا العليم بأحوال الخلق الخبير بما يصلح لهم وما لا يصلح . وما دفع هؤلاء المتخرصين الخارجين على أحكام قرآن الله الكريم إلا أهواء وأطماع شخصية مالت بهم عن جادة الحق إلى صاحب سلطان تقربا منه وطلبا لمنافع دنيوية عاجلة وإشباعا لشهوات نفسية جامحة فى مال أو سلطة أو شهرة .

فماذا يأخذون على أحكام القرآن وشريعة الله سبحانه وتعالى ؟

فهل فى تحريم الخمر ولحم الخنزير والميتة بداوة لا تليق بمجتمع عصرى متحضر شرقيا كان هذا المجتمع أو غربيا ؟ فلينظروا إذًا إلى ما يلحق شاربها أو آكلها من أضرار صحية وعقلية .

وهل فى تحريم الإسلام للزنا والتبرج والربا ما يتنافى مع الأخذ بأسباب الحضارة البشرية والتقدم الإنسانى ؟ فلينظروا إذًا إلى ما ساد المجتمعات الأمريكية والأوروبية

من فساد وفوضى أخلاقية ، إذْ أمعنت هذه المجتمعات فى إتيان هذه الكبـائر مـا عجزت معها حكوماتها عن وقف تيارها الذى يهدد بانهيارها .

وهل فى إقامة حدود الله على من يفسد فى الأرض ويعتدى على حقوق الغير ، ما يتنافى مع القواعد الحضارية الحديثة ؟ فهل نترك القاتل يقتل ، والسارق يسرق ، والمحتال يأكل أموال الناس بالباطل دون أن ينال الجزاء العادل حتى يقطع دابر هؤلاء الأثمين فى حق الله وحق الناس ؟ وهل هناك ما هو أحكم وأعدل مما أمر الله به من حدود تقام على كل آثم أو معتد ؟ .

لقد بلغ العجز وقلة الحيلة فى وقف تيار هذه المعاصى ببعض الحكومات غير الإسلامية إلى الأخذ ، عن غير قصد أو إيمان ، بالشريعة الإسلامية فى إقامة حدود الله فى كثير من الحالات التى عجزت عن علاجها قوانينهم الوضعية :

فهذه فرنسا وغيرها من دول أوربية قد أخذت بمبدأ الطلاق كقانون يطبق عندما تستحيل الحياة والمعاشرة بين زوجين ، أليس من أوليات الشريعة الإسلامية إباحة الـطلاق ؟ بل إن للطلاق فى الشـريعة الإسـلامية السمحـاء قيودا واشتـراطـات وإلتزامات فرعية تضمن لكل من الزوجين حقه الإنسانى الكريم فى حالة انفصالهما بالطلاق ..

وهذه انجلترا وامريكا ، وهما لا تدينان بالإسلام ، قد عادتا إلى إقامة حد الله (النفس بالنفس) وتنفيذه بإعدام قاتل النفس بغـير حق بعد أن كـانت قوانينهـما الوضعية تمنع إعدام القاتل وبعد أن عجزت عن منع هذه الجريمة البشعة أو الحد منها .

فما أحرانا نحن أهل العقيدة الإسلامية بالأخـذ بشريعـة الله المبينة فى قـرآنه الكريم . وما أحرانا نحن المسلمين بشكر الله وحده على ما أنعم علينا فى كتابه المنزل من تشريع قويم فنعمل بما ورد فيه من أحكام ونقيم ما بيّنه لنا من حدود فى كل شئون حياتنا الدنيا ، إذا ما أردنا السعادة والكمال والتقدم لمجتمعنا الإسلامى ، وحتى نكون عند حسن ظن الله بنا . فنسير على هدى قرآنه الكريم ، وأن نجعل من هذا الكتاب الإلهى المبين دستور حياتنا فى عمومياتها وتفاصيلها ، وأن نجعل منه نورا يضىء لنا الطريق إلى صراط الله المستقيم ، وحتى نكون بحق وكما أراد الله لنا ، خير أمة أخرجت للناس .

وسنتناول بالشرح ، البيّنات واليقينيات من هذه الشرائع والأحكام ، فيما جرى رجال القانون على تسميته بالأحوال الشخصية ، ثم نثنى بالحدود التى فرضها الله قصاصا من الخارجين على أحكام هذا التشريع بعدْوَانِهم على حقوق المجتمع وهو ما يطلق عليه بلغه القانون اسم العقوبات .

(أ) القرآن وأحكام الأحوال الشخصية :

وهى تلك الأحكام الخاصة بالعلاقات الزوجية والميراث والوصية والدَّيْن :

١ - فى العلاقات بين الزوجين :

تناول القرآن الكريم هذه العلاقات بكل تفاصيلها من بدء الاختيار والخطبة ثم فى الاتفاق والتعارف على الزواج ، ثم أسلوب المعاشرة الزر [illegible]ا يجب على كل طرف فى سلوكه حيال الطرف الآخر ، ثم فى افتراق الزوجين سواء بالطلاق أو بالوفاة .

والدين الإسلامى دين الحق والمساواة ، قد أكد حقوق وواجبات كل من الزوج والزوجة ، ويلاحظ لطف الله ورحمته بالمرأة رعاية منه لضعفها وقلة حيلتها ، فكرمها تكريما عظيما ودفع عنها كل ظلم أو عدوان ، ولا عجب فى ذلك فالإسلام أراد بالمسلمين مجتمعا متماسكا صالحا ، ولا تماسك لمجتمع ولا صلاح إلا بتماسك الأسرة وصلاحها ، فالأسرة هى الخلية الأولى لأى مجتمع وفى سلامتها سلامته .

ففى اختيار الزوج المسلم لمن ستكون شريكة حياته ، يأمره الله بأن يحسن الاختيار فيختار المسلمة المؤمنة ويحرم عليه الزواج من مشركة ، كما حرم على المؤمنة الزواج من مشرك .

« وَلاَ تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلاَ تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللهَ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ »(٢٧٨)

والحكمة فى هذا التحريم هى أولا تنشئة جيل مسلم على تربية إسلامية صحيحة بكل ما يعنيه الدين الإسلامى من عبادات وسلوك قويم ، ولا يتأتى هذا إلا إذا كان

الأبوان مسلمين مؤمنين . وهى ثانيا تحاشى افتتان المؤمن أو المؤمنة والاستسلام والانقياد للطرف المشرك ، مما قد يؤدى به أو بها إلى زعزعة الإيمان بل قد يؤدى إلى الردة والكفر بعد الإيمان .

وكيف يأمن مسلم إلى مشركة أو مسلمة إلى مشرك على أولادهما ؟ وكيف يسكن كل منهما للآخر ويأمن إليه ؟ فلا اتفاق بين الخير والشر ولا التئام للطهر مع النجس .

أما إذا آمن الطرف المشرك قبل عقد الزواج واتخذ له الإسلام دينا ، فلا تحريم ، وهذا تيسير ما بعده تيسير ، وسماحة لا مطمع بعدها فى سماحة .

ولنفس الأسباب حرمت الشريعة الغراء زواج مسلم صالح من زانية ، كما حرم الله زواج مسلمة صالحة من زان ، وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

« الزَّانِي لاَ يَنْكِحُ إلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لاَ يَنْكِحُهَا إلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ »(٢٧٩).

وهذا تحريم قاطع مانع للزواج من زان أو زانية ، ولا يشفع للتحلل منه كونهما مسلمين ، بل لقد جعل الله من ارتكاب الزنا معصية لله تستوجب المساءلة والحساب العسير يوم الحشر الأكيد .

وهذا إيحاء من الله للمؤمنين بفظاعة الزنا وخطره على المجتمع الاسلامى ، وهو أشد فظاعة إذا أتاه مؤمن أو مؤمنة . ووجه الخطورة فى هذه المعصية أن يأمن مؤمن صالح إلى مسلمة زانية فيصاب بالغفلة عما قد تأتيه هذه العاصية من فاحشة حتى بعد الزواج وما يترتب على ذلك من النجس واختلاط الأنساب الذى قد يصاب به المجتمع الإسلامى ويبدد كيانه ويدمر أخلاقياته ، كما أن نفس الخطورة تقع إذا ما تزوجت مؤمنة صالحة من مسلم زان . وسنرى فيما يلى ما أوجب الله الأخذ به حيال من يأتى به أحد الزوجين من زنا .

ولحكمة إلهية لا تخفى على لبيب ، حرم الله على المؤمنين الزواج من أنواع محددة من ذوى القربى المسلمين ، ويتبين هذا فى الآيتين الكريمتين :

« وَلاَ تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إنَّهُ كَانَ فاحِشَةً وَمَقْتاً وَسَاءَ سَبِيلاً »(٢٨٠) .

والمقصود بما قد سلف أى ما حصل من زواج من هذا النوع قبل الاسلام :

« حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وبَنَاتُكُمْ وأَخَوَاتُكُمْ وعَمَّاتُكُمْ وَخَالاَتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ ، فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلاَئِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلاَبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً »(٢٨١) .

« يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ »(٢٨٢) .

فأى بيان ودقة فى التحديد بعد هذا ؟ ومن يجرؤ بعد هذا البيان الإلهى فيدعى الجهل وعدم الفهم فى الخروج عما أمر الله به ؟

فالحكمة فى تحريم أنواع من الزواج ما هى إلا تكريم للإنسان ولبنى جنسه ، ورحمة به وحفاظاً على سلامة المجتمع الإنسانى ليكون جديراً بإنسانيته وبما وهبه الله من عقل واع وضمير حى .

وإلا فماذا يكون الفرق بين المجتمع الإنسانى وبين أى قطيع حيوانى أعجم يسير فى سلوكه الجنسى بلا رابط ولا ضابط ؟

وماذا يكون هذا المجتمع الذى لا يعرف الفرد فيه أخاه من ابنه ، ولا يميز بين ابنته وأخته ؟ وأى حياة زوجية هذه التى يجمع فيها الزوج بين أختين ليقطع ما بينهما من صلات حب وتعاطف فرضتها صلة الرحم ؟ هذا عن الفوضى الاجتماعية ، فإذا صح ما قال به علماء الأحياء من الضعف الجسمانى والعقلى اللّذيْن لاحظوهما فى نسل مثل هذه الزيجات التى حرمها الله ، زاد إيماننا بحكمة الله ورحمته بعباده المؤمنين .

ومن أجلّ مظاهر تسامح الإسلام وأخذه بمبدأ المساواة وبعده عن التعصب الأعمى ما أباح الله من زواج المسلم من كتابية :

« الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلاَ مُتَّخِذِى أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ »(٢٨٣) .

وبعد الاختيار والتوافق والاتفاق على النحو الذى وضحه محكم التنزيل يبين لنا أيضا روابط وضوابط هذا الاتفاق ليصبح الزواج والمعاشرة الزوجية رباطاً قوياً يحفظ للأسرة كيانها وللمجتمع رقيه واستمراره .

فلم يجعل الله من عقد الزواج عقداً عادياً كغيره من العقود والمواثيق التى يتعاقد عليها طرفان ينظر فيها كل طرف منهما إلى مصلحته وحده ، بل لقد جعل عقد الزواج أوثق وأحكم ، إذْ جعله ميثاقاً غليظاً قوياً ومحكماً يتفق فيه الزوج والزوجة على حسن العشرة القائمة على المحبة والتعاطف والاحترام والتعاون الصادق ، فلا يتخذ منه الزوج وسيلة لأكل مال زوجته بغير حق :

« وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُم مِّيثَاقاً غَلِيظاً »(٢٨٤) .

وكيف لا يكون الزواج من أقدس العقود وأقوى المواثيق بين طرفين حسنت نيتهما ، وقَبِل كل منهما الآخر عن طواعية واختيار ؟

كيف لا يكون هذا الزواج مقدّساً وقد صدق طرفاه نفسيهما وأشهدا الله على نيتهما ؟ .

ألم يجعل الله من كل من الزوجين لباساً وستراً للآخر ، وهما اللذان خلقهما الله من نوع واحد ، يألف كل منهما الآخر ويميل إليه بطبعه وغريزته ؟

ألم يأمن كل من الزوجين للآخر ويسكن إليه ويكمله ؟ ثم هما بعد ذلك ينجبان من الأولاد قرة لأعينهما وأملاً لهما فى حياتهما وامتداداً لهما بعد مماتهما .

« وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ »(٢٨٥) .

« هُوَ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ »(٢٨٦) .

فكيف لا يكون الزواج إذن أقوى رباط يربط بين الذكر والأنثى ، لا يدانيه رباط الأبوّة أو الأخوّة أو البنوّة ؟ .

فالزواج ليس عقد تجارة يبرم بين بائع ومشتر ثم ينصرف كل منهما إلى حال سبيله ، ولا عقد تمليك امرأة لرجل يملك به التصرف فيها كيفما شاء ، بل هو عقد مودة ورحمة وطيب عشرة . وليس المهر الذى يدفعه الرجل ثمنا لسلعة تشترى ، بل هو رمز ودليل رغبة حرة ومودة خالصة ، يعطيه الرجل ولا ينتظر له مقابلا ماديا ، ولذلك لم يحدد الله هذا المهر ولا طبيعته ، بل سماه صدقة ونحلة أى عربون لصدق النية ودليل رغبة ورضا :

« وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَّرِيئاً »(٢٨٧) .

فإذا دخل الرجل بزوجته واستقر فى بيت الزوجية ، قامت المعاشرة والتعامل بينهما على قدم المساواة فى العمل بالمعروف والانتهاء عن المنكر . وعلى كل منهما القيام بما فرضه الله من واجبات وأخذ ماله من حقوق بما لكل منهما من فضل وعلم ومقدرة .

فقوامة الرجل على زوجته ليست مطلقة ، بل حددها الله بما أوتى الرجل من فضل وعلم ورجاحة عقل يسيِّر بها شئون بيته وأسرته فيما يفيدها ويصلح أحوالها ويحفظ أمنها وسعادتها ، وبما وهبه الله من مال ينفق منه على أسرته بما يحفظ لها معاشاً كريماً وحياة رغدة . وعلى الزوجة مقابل هذا واجب الطاعة لزوجها ما أحسن التصرف بفكره وماله وتعامله .

فإذا كان الزوج عاطلاً من المال أو التقوى أو سلامة التفكير ، أو كان شرس الخلق ، فلا طاعة على الزوجة له . وإذا كان الزوج يعيش على مال زوجته أو معوج السلوك فلا قوامة له على زوجته ، بل على الزوجة فى هذه الحالة أن تدير شئون بيتها ونفسها وزوجها بما أتاها الله من فضل ومال وصلاح وتقوى . وإلا أصبحت الحياة الزوجية لا معنى لها ولا هدف ، ولدبت فيها الفوضى والتناقض والفساد ، ولكان انفصال كل من الزوجين عن الآخر أصلح من مثل هذه الحياة .

أما إذا جنحت الزوجة إلى عصيان زوجها رغم ما يؤدى ما عليه من واجبات فعلى الرجل العاقل تدبر الأمر ، فقد يكون هذا السلوك من الزوجة نتيجة لسوء

فيهم ، وعليه فى هذه الحالة أخذها بالنصح والموعظة الحسنة ، فإذا أصرت على العصيان بغير حق أو بإهدار حقوق زوجها بغير ما سبب ، كان على الزوج أخذها بالشدة والعقوبة المناسبة مادية كانت أم معنوية بما حدده الله للزوج لأخذ زوجته به حتى تثوب إلى رشدها وتمتثل إلى الحق والصواب :

«الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ، فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلاَ تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيراً »(٢٨٨) .

فإذا تطور الخلاف بين الزوجين واستحكم إلى الحد الذى لا تجدى معه موعظة أو عقاب ، فعليهما الاحتكام إلى أسرتيهما طلباً للصلح والتوفيق وإزالة أسباب الاختلاف ، ومن واجب الأسرتين المبادرة فوراً إلى تحقيق رغبة الزوجين إذا صدقت نيتهما على المصالحة ، وليس كالأسرتين من هم أقدر وأصدق نية فى إصلاح ذات البين بين الطرفين المتنازعين :

« وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلاَحاً يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً »(٢٨٩) .

والحكمة الإلهية فى فرض هذا التحكيم هو استحالة وصول الزوجين المتنازعين وحدهما إلى حل سليم ودائم لهذا الخلاف والشجار ، فقد ساء ظن كل منهما بالآخر واشتد بهما الغضب واستبد الهياج بما قد يشذ بهما عن الصواب فيما يريان من حلول . والأوفق إذن أن يقوم بالصلح بينهما أرفق الناس بهما وأشدهم حدباً عليهما وأحرص على حفظ حياتهما الزوجية ، وهم أهل الطرفين .

وكما تكون الزوجة هى سبب ما يقع فى الأسرة من خلاف ، قد يكون السبب هو الزوج أيضا . فقد يفقد الزوج مقومات القوامة على الزوجة ، كأن يكون مثلا سقيم التفكير أو منحرف السلوك أو شحيحاً فى الانفاق على بيته ، إلى غير ذلك مما يعتبر نشوزاً منه وخروجاً على جادة الصواب والحق ، ففى هذه الحالة كان على الزوجة الحريصة على كيان أسرتها وسلامها العائلى أن تتعاون مع زوجها فى إصلاح حاله ؛

فتعمل على حل مشاكلها فى هدوء وتعقل ، وأن تتلمس مع زوجها أسباب ودوافع تصرفاته السيئة ، عسى الله أن يوفقها ويمدهما بعونه لإزالة هذه الأسباب فيعودا بحياتهما الزوجية إلى مجراها الطبيعى :

« وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزاً أَوْ إِعْرَاضاً فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ، وَأُحْضِرَتِ الأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً »(٢٩٠) .

فإذا يئست الزوجة من إصلاح زوجها ولم تتفق معه ، كان لها الحق فى طلب الطلاق دون إثارة مشاكل من أى نوع ، بل يحسن أن ينفصلا فى هدوء وسلام بدلاً من الانفصال على عداوة وبغضاء ، وهذا ما يراد بالإحسان والتقوى المذكورين فى الآية . وليس على المرأة من التزام فى هذه الحالة إلا إعفاء مطلقها من النفقة وترد له ماله .

ولم تقتصر الرعاية الربانية على حفظ كرامة المرأة المؤمنة الصالحة فى شخصها فحسب ، بل أبت رحمة الله أن تحمى أموالها أيضا من أى عبث يلحقه بها زوج طامع ، عن طريق التهديد بالزواج من أخرى أو بالطلاق أو غير ذلك مما قد يلجأ إليه زوج عابث لا يرعى فى زوجته إلا ولا ذمة ، ويأمر الله المؤمنين بأن تكون المعاشرة الزوجية قائمة على الأخذ بالمعروف ، وألا يتخذ الزوج من النفور والتباعد عن زوجته أو غير ذلك من وسائل الضغط والإرهاب ، سلاحاً مسلطاً لابتزاز أموالها .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهاً وَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلاَّ أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً »(٢٩١) .

فإذا أراد الزوج أن يتزوج بأخرى ، فلا يجوز له أن يأخذ من زوجته الأولى مما أتاها شيئا ، حتى لا يزيد من حزنها :

« وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ ، وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَاراً ، فَلاَ تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً ، أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً »(٢٩٢) .

وإذْ أباح الله للمسلم أن يتزوج من أكثر من واحدة ، فهو يأمر أيضا بالعدل بين زوجاته رغم استحالة تحقيق هذا العدل ، ويأمره بألا يميل إلى إحداهن دون الأخرى حتى لا يفقدها حقها الطبيعى فى الحياة الزوجية معه ، وفى نفس الوقت لا يتركها لتتزوج من غيره :

« وَلَن تَسْتَطِيعُوا أن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ ولَوْ حَرَصْتُمْ ، فَلاَ تَمِيلُوا كُلَّ المَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ ، وَإن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإنَّ الله كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً »(٢٩٣) .

« وَإن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ الله كُلاًّ مِن سَعَتِهِ ، وَكَانَ الله وَاسِعاً حَكِيماً »(٢٩٤) .

كل هذا تكريم من الرحمن للمرأة ما بعده تكريم ، ما بقيت على إيمانها وصلاحها وتقواها وتعففها . فإذا ما خرجت عما أمر الله به من تقوى وطهارة ، وآتت ما نهى الله عنه من الفواحش ، اعتبرت نجسا لا يقربها زوجها بل وتبقى ما بقى لها من حياة فى عقر دارها بعيدة عن زوجها ومنبوذة من سائر المؤمنين :

« وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ، فَإن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوفَّاهُنَّ الْمَوتُ ، أَوْ يَجْعَلَ الله لَهُنَّ سَبِيلاً »(٢٩٥) » .

ولو جاء الفاحشة كلا الزوجين ، أقيم عليهما حد الله على مرتكب الزنا ، وعلى الناس أن ينبذوهما ، حتى يتوبا إلى الله ويواصلا حياتهما الزوجية فى طهر وشرف :

« وَالَّلذانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا ، فَإنْ تَابَا وأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا ، إنَّ الله كَانَ تَوَّاباً رَّحِيماً(٢٩٦) .

وحرَّم الله على المؤمن فراش الزوجية إذا ما أقسم ألا يقرب زوجته فى ثورة من ثورات الغضب أو على سبيل الانتقام ، وقد فرض الله على هذا المتهور ما يستحقه من عقوبة معنوية جزاء تهوره وانسياقه لهوى نفسه وجاء تعريضه اسم الله بالقَسَم لأذى الغير . فجعل هذه العقوبة أربعة شهور يحرم عليه خلالها إتيان زوجته ، وله بعد هذه المدة أن يباشر حقوقه الزوجية الطبيعية ، بعد أن كفّر عما اقترف فى حق الله وفى حق زوجته :

« لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ، فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ »(٢٩٧) .

« وَلاَ تَجْعَلُوا اللهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ ، أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ ، وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ »(٢٩٨) » .

« لاَ يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ ، وَلٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ، وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ »(٢٩٩) .

ومن أنواع القسم الذى نهى الله المؤمنين عنه ، ما يسمى (بالظِّهَار) ، أى قسم الزوج بألا يقرب زوجته ويحرّمها على نفسه كحرمة أمه عليه ، إذْ يقسم قائلا لزوجته (أنتِ عليّ كظهْرِ أمى !) ، وهو ذلك القسم الذى جرى على لسان أوس بن الصامت لزوجته خَوْلَةَ بنت ثعلبة . وكان رجل الجاهلية إذا ما قال هذه العبارة لزوجته حرم عليه إتيانها . فلما جاء الإسلام أثيرت القضية من جديد . فعندما ظاهر أوس من زوجته خولة ثم عاد فدعاها إلى نفسه أبت . وجاءت خولة إلى رسول الله ﷺ وقصت عليه قصتها مع زوجها واستفتته فيما تعمل رد قائلا ما (أراك إلا قد حرمت عليه) ، وأخذت تجادله فى هذه الفتوى وتلح عليه ولا يجد الرسول لديه من الوحى ما يفتى به فتوى قاطعة فرفعت رأسها إلى السماء تشكو لربها ما بها من حيرة . فنزل على الرسول الوحى بالآية :

« الَّذِينَ يُظَاهِرُون مِنْكُمْ مِن نِّسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِى وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَراً مِنَ الْقَوْلِ وَزُوراً وإِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ »(٣٠٠) .

وبذلك أصبح هذا الظِّهار منكراً وقولا كذبا ، لا يقبله الله من مؤمن .

أما إذا استحالت المعاشرة الزوجية وتعذر الإصلاح بين الزوجين ، وأصبح الانفصال بالطلاق هو الحل الوحيد للخلاص من حياة تعسة ، فقد أباح الإسلام الطلاق .

وقد أوضحت آيات الله البينات شروط هذا الطلاق والتزاماته ، حفاظاً على ما كان بين الزوجين المؤمنين من ود وتعاطف ، وحفاظا على حياة ما قد يكون لهما من

أطفال هم بحاجة إلى رعاية وتربية :

« وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلاَقَ فَإِنَّ الله سَمِيعٌ عَلِيمٌ »(٣٠١) .

« وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا على الْمُتَّقِينَ »(٣٠٢) .

فمن شروط الفراق فى الإسلام أن يقع الطلاق بائنا ، وإلا ، فيبقى الزوجان متعايشين فى بيتهما دون أن يتماسا ، عسى أن يَتُوب المتعنت منهما إلى رشده وتصفو الحياة الزوجية ، وفى هذه الحالة يجب أن يحسن الزوج معاملة زوجته ، فإذا لم يجدا بعد ذلك مفرا من الطلاق البائن فليسرِّح الزوْجُ زوجته بإحسان وليعطها كافة حقوقها وأموالها التى حددها الله :

« الطَّلاَقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلاَّ أَن يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ الله فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ الله فَلاَ تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ الله فَأُولئكَ هُمُ الظَّالِمُونَ »(٣٠٣) .

ويحذر الله المؤمنين غضبه من التحايل على آياته البينات فيفسرونها لمصلحتهم وبما تمليه عليهم أهواؤهم . فقد أباح الله للزوج استرداد مطلقته على أن يكون ذلك عن نية خالصة على إعادة الحياة الزوجية إلى خير مما كانت عليه ، وليس بنية التعسف والإيذاء أو الانتقام من زوجته .

« وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلاَ تُمْسِكُوهُنَّ ضِرارا لِتَعْتَدُوا وَمَن يَفْعَل ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلاَ تَتَّخِذُوا آيَاتِ الله هُزُواً وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ الله عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِّنَ الكِتَابِ وَالحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ وَاتَّقُوا الله واعْلَمُوا أَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ »(٣٠٤) .

وقد فرض الله على المطلق التزامات لابد له من أدائها لمطلقته ، ويفرق العليم الخبير بين المُطَلَّقَةِ التى سبق أن دخل بها وتلك التى لم تُمَس :

« وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُم لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُم إِلاَّ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا الَّذِى بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَب لِلتَّقْوَى وَلاَ تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ الله بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ »(٣٠٥) .

وعلى المطلِّق الذى لم يفرض لمطلقته فريضة ملزمة ، أن يكون كريما فيحسن إليها ما وسعه الإحسان ، وبقدر ما يستطيع :

« لاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعاً بِالْمَعْرُوفِ حقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ »(٣٠٦) .

وعلى المطلقة ألا تتزوج قبل ثلاثة شهور من تاريخ طلاقها ، وهى المدة الكافية لظهور أعراض الحمل ، إذا كانت قد حملت من مطلقها قبل الطلاق وعليها ألا تكتم حملها عليه ، فقد يرغب المطلق ردها حفاظا على المولود الذى جاء من صلبه ، وهو أحق بها وبه من زوج آخر .

« وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ وَلاَ يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ الله فى أَرْحَامِهِنَّ إن كُنَّ يُؤْمِنَّ بالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فى ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلاَحاً وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِى عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَالله عَزِيزٌ حَكِيمٌ »(٣٠٧) .

ومن حق المطلقة إذا كان لها من مطلقها طفل رضيع أن تقوم هى بإرضاعه حتى يتم سنتين منذ ولادته ، وعلى الوالد أن ينفق على مطلقته حتى يتم الرضيع هاتين السنتين وما ذلك إلا حرصا على المولود الذى يهم أمره كلا الطرفين . بل لقد كان من فضل الله ورحمته بالأطفال أن فرض مثل هذه النفقة واستمرارها لتمام السنتين ، فى حالة وفاة المطلق ، على من يرثه ، وإذا اتفق المطلقان على قصر مدة الفطام لأقل من حولين ، فلا مانع من هذا الفطام ، وإن اتفق الطرفان على أن ترضع الطفل مرضعة غير أمه فلا مانع أيضا من هذا الاسترضاع بشرط أن يتولى الوارث الاستمرار فى الإنفاق على المرضعة .

هذا عن انفصال الزوجين بالطلاّق .

فإذا كان الانفصال نتيجه لوفاة الزوج ، بقيت الأرملة فى بيت الزوجية لتقيم فيه حتى نهاية الحَوْل ، وللأرملة حرية البقاء بالمنزل لهذا الحول أو تخرج منه عقب وفاة زوجها اذا شاءت ذلك :

« وَالَّذين يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً وَصِيَّةً لأَزْوَاجِهِمْ مَّتاعاً إلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إخْرَاجٍ فَإنْ خَرَجْنَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَّعْرُوفٍ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ »(٣٠٨) .

ولا يحل للزوجة التى توفى زوجها الزواج إلا بعد انقضاء أربعة أشهر ، وهى المدة الكافية لظهور أعراض الحمل ، ولها أن تستمر فى منزل الزوجية الى نهاية الحول حتى تضع حملها .

« وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بأَنْفُسِهِنَّ أَرْبعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً فَإذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُم فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ »(٣٠٩) .

٢ - فى المواريث :

« وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأقْرَبُونَ والَّذِينَ عَقَدَتْ أَيمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إنَّ اللهَ كانَ على كلِّ شيءٍ شهيداً »(٣١٠) .

فإذا توفى شخص عن مال ، خرج هـذا المال عمن كـان يملكه وأصبح من الواجب أن يمتلكه شخص آخر . وقد جرى العرف بين الناس منذ أقدم العصور على أن يئول هذا المال أو الأرض إلى أقرب الناس إلى المتوفى وألصقهم به ، وهم أولاده .

ولكن كثيرا ما كانت تدب الفوضى فى الإرث بعد وفاة المالك عن مال ، كالنقود أو الحيوانات أو الحاصلات الزراعية أو العقار والأرض أو متاع البيت وخاصة إذا كان للمورث زوجة ضعيفة أو أطفال لا حول لهم ولا قوة فيصبح هذا المال نهبا لغير ذى حق .

فقد كان يحدث مثلا أن يفرض الحاكم أو من بيده الأمر ، وخاصة فى النظم القبلية ، حقه فى تملك كل أو بعض ما ترك المتوفى من مال ، ويحدث أحياناً أن يعبث واصٍ عديم التقوى بمال من هم تحت وصايته من أطفال صغار عبثا قد يودى بكل أو بعض ما ورثوا .

وقد شاء الرحمن أن يكون المجتمع الإسلامى مجتمعاً مثالياً فنظم العلاقات بين أفراد هذا المجتمع على أسس سليمة ، ونظم هذه العلاقات فيما تضمنتـه الكتب

السماوية من آيات بين فيها أسلوب التصرف فيما ترك المتوفى من مال من حيث المستحقين والأنصبة .

وجاء القرآن الكريم . المهيمنُ على ما سبق من هذه الكتب ، ففصّل فيه ما أجمل بها . فقد حدد القرآن الكريم تحديدا دقيقا الأشخاص الذين لهم الحق فى الإرث ، ونصيب كل منهم ولم يترك هذا الكتاب المبين ، فى شأن المواريث ، مجالاً لأى تأويل أوعبث أو تلاعب :

فسوّى الله فى حق الميراث، بين الرجل والمرأة من حيث الاستحقاق فى الإرث - مع اختلاف فى المقدار ، لحكمة سنذكرها فيما بعد ، إذْ جعل للمرأة نصف نصيب الرجل . كما جعل للأقارب حقا فيه مع اختلاف أنصبتهم حسب درجة قرابتهم من المورث .

فالأبناء والزوجات والآباء يحُجُّبون غيرهم من الأقرباء ، فاذا لم يكن للمورِّث أولاد أو زوجة أو أب على قيد الحياة استحق الأخ والأخت نصيبا من الميراث ، واذا لم يكن له أخ أو أخت استحق أبناؤ هما الميراث .

كل هذا نظمه كتاب الله المبين الذى شمل برحمته ، أول ما شمل ، أطفال المتوفى وزوجته وأبويه فكلهم لهم حقوق فرضها الله على الآباء والأزواج والأبناء وزيادة فى الحرص على مصلحة الأطفال حدد الله الواجبات المفروضة على الوصى أو من يتولى رعاية هؤلاء اليتامى القصَر بما يحفظ حقوقهم كاملة ويكف عنهم طمع الطامعين :

ففى تقرير حق كل من الرجل والمرأة فيما ترك الوالدان والأقربون ، نزل قوله تعالى :

« لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِماَّ تَرَكَ الوالِدان وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّساءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَالِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِماَّ قَلَّ منه أَوْ كَثُرَ نَصِيباً مَفْرُوضاً »(٣١١) .

ومن حيث الأنصبة حددها الحكيم الخبير تحديدا دقيقا مقدَّرًا فيها كل ما وسعه علمه من احتمالات ، حتى لا يغمط كل ذى حق حقه ، فيحدد نسبة نصيب الرجل ونسبة نصيب المرأة :

« يُوصِيكُمُ اللهُ فى أَوْلاَدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْن ، فَإن كُنَّ نِسَاءً فَوقَ اثنتَيْن فَلَهُنَّ ثُلثا مَا تَرَكَ وَإنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النصْفُ وَلأَبَوَيْهِ لِكلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإن لَّمْ يكُن لَّهُ وَلَدٌ وَورِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ فإنْ كَانَ لَهُ إخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْدَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لاَ تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً فَرِيضَةً مِنَ اللهِ إنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً »[٣١٢] .

أما من حيث أنصِبَة الزوج والزوجة ، والأخوة والأخوات ، فتحددها الآية :

« وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إن لَّمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فإن كَانَ لَهُنَّ ولَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يوُصِينَ بِهَا أَوْدَيْن وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ ولَدٌ فَإنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ مِن بعدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلاَلَةً أَو امْرأةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ فَإنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِى الثُّلُثِ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَا أَوْدَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيةً مِنَ اللهِ واللهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ »[٣١٣] .

وتقرر هذه الآية المبدأ الأساسى فى التوريث ، وهو حفظ حق المرأة فى الإرث تماما كحق الرجل ماداما فى نفس الدرجة من القرابة ، كما يقرر نصيب الرجل بضعف نصيب المرأة .

وكانت بعض الأديان تحرم المرأة من أى حق فى الميراث بينما كان بعضها يساوى بين الرجل والمرأة من حيث الأنصبة ، فجاء الإسلام بتشريع وسط بين هذه وتلك ، فلم يحرم المرأة كل الحرمان ولم يساوها بالرجل فى المقدار .

ويراعى التوريث الإسلامى درجة القرابة فى أولوية الميراث ، وحدد بمقتضاها الأنصبة :

فللزوج نصف ما تركت الزوجة إذا لم يكن لها ولد منه أو من زوج سابق ، فإن كان لها ولد ورث الرجل نصف النصف .

ونفس النظام ينطبق على الزوجة التى مات زوجها مع مراعاة أن يكون نصيبها نصف نصيب الرجل .

أما فى حالة الكلالة (أى من يموت وليس له والد ولا ولد ، وله أخت أو أخ) ، كان لأخ المورث الإرث كله ولأخت المورِّث نصف الإرث ، وقد بين الله ذلك فى الآية الآتية :

« يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ الله يُفْتِيكُمْ فى الْكَلاَلَةِ إنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ ، فَإنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإن كَانُوا إخْوةً رِّجَالاً وَنِسَاءً فَلِلذَّكرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ يُبَيِّنُ الله لَكُمْ أن تَضِلُّوا والله بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ »(٣١٤) .

فهو ، سبحانة وتعالى ، العليم بتقلب أهواء النفس البشرية يدقق فى حفظ حقوق المؤمنين من أى عبث ، فيتناول كل من له حق الإرث من أقارب المورث على اختلاف درجات قراباتهم منه ، ثم يحدد لكل منهم نصيبه تحديدا دقيقا لا يدع مجالا لأى لبس أو تلبيس أو تدليس .

وفى جميع هذه الحالات لم يغمط الله الكريم العادل ، حق كل ذى حق من غير هؤلاء الأقربين أو ممن ليست له صلة قرابة من المورث من أى نوع ، بل حفظ حق الجميع ، وأَوْلَى الناسِ بهذا الحق هو صاحبُ المال الأصلى أى المورِّث ، فمثلا فيما يترك من وصية يوصى بها فى الحدود التى رسمها الله ، وكذلك قضاء دين من كان المورث مدينا له وظَلَّ دينُهُ قائما حتى وفاته ، أمر الله باحترام هذه الوصية وهذا الدين وتقديسهما وربطهما رباطا وثيقا بالتقوى وحق الله على المتقين . وقد حددت السُّنةُ حدًّا أقصى لنسبة ما يوصى به المتوفى إلى ماله كله بالثلث . ويوصى الله عباده المؤمنين بتحرى الدقة والعدل والحق فيما يوصون به :

« كُتِبَ عَلَيْكُمْ إذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إن تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنَ والأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى المتقينَ(٣١٥) فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإنَّمَا إثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إنَّ الله سَمِيعٌ عَلِيمٌ »(٣١٦) .

« وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْتَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا الله وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً »(٣١٧) .

فليخش المورث ربه وليتق غضبه ، فلا يسىء إلى ورثته الشرعيين بالوصية لمن

ليس محتاجا إليها بينما ورثته فى حاجة إلى ما ترك من مال حتى لا يضر بهم ولا بأنصبتهم :

فلا يأت الموصى فى وصيته بتصرفات تمليها عليه شهوة باطلة أو هوى فاسد كأن يوصى للأجانب بجزء من ماله أو يقرّ بديون لا وجود لها كيدًا للوارث الشرعى بل لقد شاءت حكمة الله وعدله بأن تكون الوصية بالعدل وبما أمر الحكيم الخبير ، فإن خالفت الوصية ما أمر الله به ، فلا حرج على من بيده الأمر فى إصلاح هذا الانحراف ، وإعلاء كلمة الله :

« فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفاً أَوْ إِثْماً فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ »(٣١٨) .

كما يحذِّر اللهُ غَضَبَه ، كاتم شهادة الحق فيما شهد مما يوصى به مورث حضره الموت فجأة ، كأن تكون هذه الوفاه أثناء سفر ، أو لم يكتب المورث وصيَّته قبل أن تحضره الوفاة ، وبيِّن طريقة الإدلاء بهذه الشهادة مع تحرى الدقة فى التعرف على صلاحية وسلامة هذا الشاهد :

« يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذوا عَدْلٍ مِّنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى الأَرْضِ فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِن بَعْدِ الصَّلاَةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لاَ نَشْتَرِى بِهِ ثَمَناً وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلاَ نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الآثِمِينَ(٣١٩) فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْماً فَآخَرانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِم الأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ من شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ(٣٢٠) ذَلِكَ أَدْنَى أَن يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَن تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ واسْمَعُوا وَاللَّهُ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ »(٣٢١) .

ويحذر اللهُ الوَصِىَّ من تبديد أموال اليتامى أو أكلها بغير حق أو الإهمال فى حفظها واستثمارها ، أو خلطها بأمواله ، حتى لا يُظلَم يتيم لا حول له ولا قوة أمام وصى ظالم أثيم :

« وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّه كَانَ حُوباً كَبِيراً »(٣٢٢) .

وقد يتحايل الوصى على مال اليتيم ليأكله بالباطل ، كأن يتخذ من الزواج من يتيمة سلما ووسيلة لتحقيق هذا الهدف الخبيث . ويحذر الله من إتيان هذا الأمر بعد أن أباح للمؤمنين الزواج بأكثر من واحدة حتى لا يجد الوصى فى ذلك ذريعة للزواج من اليتيمات من النساء أو مجالا لاغتيال أموالهن :

« وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِى الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُوا »(٣٢٣) .

وعلى الوصى ، إذا ما بلغ اليتيم ، الذى تحت وصايته ، رشده وأصبح أهلا للتصرف الحكيم فى ماله ، أن يسلمه ماله كاملا ، إلا ما أنفقه عليه مضافا إليه ما استحقه هو شرعا كأجر لإدارة هذا المال ورعاية صاحبه ، ومن كان قد أغناه الله عن هذا الأجر فحسبه الله فيما أدى من معروف :

« وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالتِي هِىَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ العَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً »(٣٢٤) .

« وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَأْكُلُوهَا إِسْرَافاً وَبِدَاراً أَنْ يَكْبَرُوا وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللهِ حَسِيباً »(٣٢٥) .

أما إذا كان الموصَى عليه غير أهل لإدارة ماله ورعايته ، كأن يكون سفيها أو معتوها فعلى الموصِى الاستمرار فى قيامه على ماله ، فيتولى الانفاق عليه من هذه الأموال بالحق والعدل وحسن المعاملة ، حتى يقضى الله أمره :

« وَلاَ تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوالَكُمُ الَّتِى جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَاماً وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفاً »(٣٢٦) .

وحرصا من العليم العادل ، سبحانه وتعالى ، على حق الورثة وحق الدائن معا ، ومنعا لأى لبس فى تحديد مقدار هذا الدين ونوعه ، أمر الله بتحرى الدقة فى بيان الدين والتذرع بالصبر والأمانة فى تدوينه :

« يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلاَ يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ وَلاَ يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً فَإِنْ كَانَ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهاً أَوْ ضَعِيفاً أَوْلاَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى وَلاَ يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلاَ تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيراً أَوْ كَبِيراً إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلاَّ تَرْتَابُوا إِلاَّ أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلاَ يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلاَ شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ ، وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٣٧) وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِباً فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضاً فَلْيُؤَدِّ الَّذِى اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ وَلاَ تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ » (٢٣٨) .

(ب) القرآن وإقامة الحد :

جُبِل الإنسان منذ الأزل على الأنانية والأثرة واتباع شهوات نفسه الجامحة ، وهذا ما يعلمه الله منذ بدء خلقه ، وهو ما حدث منذ أن عصى آدم أمر ربه إذ انقاد لغواية الشيطان وكيده ، فزل عن الحق الذى أمره به خالقه وباء بغضبه ، فقذف به وبشيطانه إلى هذه الأرض ، بعد ما كفر بنعم ربه وعصاه ، ثم قبل الرحمن توبة آدم ورحم ضعفه ، ولكنه جلت قدرته كتب عليه الجهد والمجاهدة فى حياته الدنيا . كتب عليه الجهد فى تحصيل عيشه وإقامة حياته فى هذه الأرض ، كما كتب عليه مجاهدة نفسه وضبط أهوائها حتى يمنعها من غواية الشيطان الذى لايُغْرِى إلا بالإثم والبوار والخسار .

من أجل ذلك نزَّل العليم القدير على بنى آدم تعاليمه وأوامره فى كتبه وخاتمها قرآنه الكريم ، تذكرة وهداية للناس ، وبين لهم فيها أوامره ونواهيه وما يأمر الله إلا بالمعروف ، وما ينهى إلا عن المنكر ، أمر بالمعروف الذى فيه الخير كل الخير للناس كافة ، ونهى عن المنكر الذى لايعود عليهم إلا بالسوء والأذى .

حدد الله للناس فى خاتم كتبه ، صراطه المستقيم الذى يجب عليهم اتباعه وهو سبحانه وتعالى سندهم ومغيثهم من نزغات الشيطان ، ما اتبعوا صراط الله المستقيم . وهو سبحانه وتعالى لا يريد للإنسان إلا صلاحا ، ولا للأرض إلا عمرانا ، يريدهما بالحق والعدل .

ويبين العزيز الحكيم لعباده المؤمنين ، بما لا يدع مجالا للشك ، جزاء من اتبع هوى نفسه وخرج عن صراطه المستقيم ، وثواب من التزمه ، وهو وحده العليم الشهيد بأهواء النفس البشرية ونزعاتها .

« وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وتقواها * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا »(٢٣٩) .

« مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِاللهِ شَهِيداً »(٣٣٠) .

وكما بين العزيز الحكيم فى محكم تنزيله ، حقه على عباده المؤمنين ، بين أيضا حق الناس بعضهم على بعض فأوحى الله فى قرآنه الكريم ألوانا من الثواب لمن آتاه حقه من المؤمنين وألوانا من العقاب يوقعه على من غمط فيه وكفر ، وما استأثر علم الله بهذه وتلك كان أعظم ، ولكنه سبحانه وتعالى ، فى بيانه ما يجب على الناس الأخذ به فى عملهم وتعاملهم قد أوضح وبين للناس ما يجب الأخذ به فى حياتهم الدنيا بما لايدع مجالا لأى شك أو سوء تأويل . فقد بين الحدود التى يجب أن توقع على من يسيء إلى الناس أو يعتدى على حقوقهم ، وأوضح الأسس السليمة والمبادىء القويمة التى تنظم حياة الناس بما أراد الله ، وتكف يد كل أثيم معتد على حق الغير ويأخذ بناصيته لينال الجزاء العادل بما اقترفت يداه وبما وسوس له شيطانه من إثم .

ولو لم يقم الناس حدود الله التى بينها فى خاتم كتبه ، لدبت الفوضى فى المجتمع الإنسانى الذى أراد الله له الخير ، ولتحول المجتمع الإنسانى إلى قطيع من الحيوانات الشرسة التائهة فى غابة مظلمة ، يسير فيها بشريعة الغاب الذى يعتدى فيه القوى على الضعيف يهدر دمه ويهضم حقه فى الحياة .

ولكنّ القـوى الرحمن ، جـلّ وعلا ، قـد فَرَضَ الحـدود المحكمـة الحكيمـة للاقتصاص من كل مجرم مفسد فى الناس ومخرب فى الارض ، حتى تسير حياة الناس على هذه الأرض بما أراد الحق تعالى ، وما أراد الله للناس إلا الخير والصلاح .

« وَأَنْزَلْنَا إِلَيكَ الْكتابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْـهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزلَ الله وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جاءكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاءَ الله لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِيَبْلُوَكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ فَـاسْتَبِقُوا الخَيْراتِ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ »(٣٣١) .

بل لقد جعل الحق تعالى ، بعلمه وحكمته ، من إقامة حدوده والاقتصاص من المجرمين أساساً لا غنى عنه لبقاء المجتمع الإنسانى واستمرار حياته على سطح هذه الأرض :

« وَلَكُم فِى الْقِصَاصِ حياةٌ يَاأُولِى ٱلألبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ »(٣٣٢) .

فعلى من بيده الأمْر والحُكم الاهتداء بما أنزل الله فى إقامة الحدود ، اقتصاصا من كل معتد على حق غيره ، ولينأ كل مؤمن عن أى غرض أو هوى ، فيطهر حكمه من أى عبث أو تأويل مغرض ، وأن يطبق حدود الله نصاً وروحاً ، وألا يتبع قول سوء فيما فرضه الله من هذه الحدود .

فأمر الحقّ أحقُّ بأن يُتَّبع ، فلا يجعل الحاكم أو القاضى من غير الحق سلطانا على ضميره ورأيه ، ولا موضعا فى حق من هوى أو سوء تأويل :

« أَفَحُكْمَ الجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ الله حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ »(٣٣٣) .

وعلى القاضى ، وهو أهل لكل نزاهة وإيمان وسلامةِ حكمٍ على الأمور ، أن يقيم الحق بميزان العدل الدقيق وبالقسط الذى لا يقبل طعنا ولا مجال فيه لمآخذ ، وليضع القاضى عمل المعتدى فى إحدى كفتى هذا الميزان ثم يعدِل الكفة الأخرى بما يناسبه من عقاب . وعلى القاضى أن يتذرع قبـل إصدار حكمـه بالصبـر والأناة والتقوى فى جمع الأدلة وإسقاط الواهى منها لتبين دوافع عدوان المعتدى حتى لا يبقى لديه مجال للشك فى ثبوت إثم المعتدى وإجرامه . وعلى القاضى ان يوسع صدره

لسماع كل كبيرة وصغيرة ذات صلة بما يفصل فيه من دعاوى ، حتى اذا ما اطمأن إلى صحة الأدلة والتصاقها بالمتهم اصدر حكمه على المعتدى بالعقوبة المناسبة :

« وَإِنْ عَاقَبتم فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ ما عُوقِبتمْ بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيرٌ لِلصَّابِرِينَ »[٣٣٤] .

ثم يبين الله أنواع الجرائم البشرية ، ويحدد لكل جريمة الجزاء العادل الذى يجب أن يؤخذ به مقترفها ، وقد شاءت حكمة الخالق وعدالته ، أن يكون نوع الجزاء من جنس العمل ، فحدد نوع العقوبة التى توقع على المجرم من جنس ما أتاه من إثم وعدوان .

ويبدأ سبحانه وتعالى بالتحذير من إتيان جريمة القتل العمْد فيجعلها أبشع الجرائم ، ويقرر عقوبتها قبض روح من أزهق روحا بغير حق ، بل صور بشاعة هذه الجريمة وأثرها الضار بالجنس البشرى ، فيجعلها جريمة لحقت بكل أفراده :

« مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبنَا عَلَى بَنِى إِسْرائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فى الأرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاس جَمِيعاً ، وَلَقدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ، ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِنهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِى الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ »[٣٣٥] .

« يَا أَيهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَليكُمُ الْقِصَاصُ فى الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنْثَى بالأنثى فَمَنْ عُفِىَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَن اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ »[٣٣٦] .

ثم يبين الله حدود الجروح أى العقوبة التى توقع على من يؤذى غيره فى بدنه من غير قتل ، وجعل هذه العقوبة من نوع مالحق المعتدَى عليهِ من أذى :

« وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بالنفسِ وَالْعَيْنَ بَالْعَين وَالأَنْفَ بِالأنْفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَ بِالسِّن وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بما أَنزَلَ الله فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ »[٣٣٧] .

ثم يحدد العليم الخبير عقوبة من يمد يده لأخْذِ مال الغير بغير حق وسرقته وسلبه من صاحب الحق فيه ، بالقضاء على الأداة التى يستخدمها السارق فى سلب مال الغير ، فأمر بقطع هذه الأداة ، وهى يد السارق .

ولا شك أن القتل والسرقة من أكبر عوامل إفساد المجتمع وقلقه واضطرابه . ولا أمان لمجتمع مهدد فى حياته وماله ، ولا أمان للمجتمع ولا استقرار له إلا بالقضاء على أدوات هذا الفساد قضاء مبرماً ، ولا يكون ذلك الا بالقضاء على حياة القاتل وقطع يد السارق وتشويه المعتدى بما شوّه به وجه غيره ، جزاءً وفاقا لقضائهم على حياة الناس وأموالهم وأذاهم لأبدانهم .

« وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاء بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللهِ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ »(٣٣٨) .

ومن بديع نواهى علام الغيوب ، نهيه عن الرشوة التى عرفت وتفشت بشكل مزعج بين الناس فى جميع أنحاءِ الأرض . والرشوة هى ذلك العطاء الذى يعطيه من لاحق له إلى من بيده الأمر من الحكام ليسلب حق صاحب الحق ، سواء كانت هذه الرشوة مادية فى شكل نقود أو هدايا ، أو معنوية فى شكل خدمات من أى نوع وفى ذلك قال الله سبحانه وتعالى :

« وَلاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَ تُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقاً مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ »(٣٣٩) .

ومن الحدود التى فرضها الله ، تلك التى أمر بتوقيعها على من يعتدى على أعراض الناس بالفعل أو بالقول ، فقد جعل الله من عقوبة الزانى والزانية ومن يكشف ما أمر الله بستره من أبدان الناس وأحوالهم الجلد العلنى عقابا لهم وعبرة لغيرهم ، حتى يرتدع كل من تسوّل له نفسه الاعتداء على كرامة الناس وأعراضهم :

« الزَّانِيَةُ والزَّانِى فَاجْلِدُوا كُلَّ واحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلاَ تَأْخُذكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فى دِينِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِين »(٣٤٠) .

كما حدد الحكيم العليم العقوبة المناسبة لمن يرمون المحصنات بالأقوال الكاذبة .

« والَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلاَ تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً وَأُولَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ »(٣٤١).

وقد جعل الله من مرتكبى الزنا نجسا لا يخالطهم المؤمنون الأطهار ، فيقول فى الزانى والزانية :

« الزَّانِى لاَ يَنْكِحُ إلاَّ زَانيةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيةُ لاَ يَنْكِحُهَا إلاَّ زَانٍ أوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ »(٣٤٢) .

هوامــش الفصــل الأول

(١) إبراهيم ٤
(٢) الروم ٤٧
(٣) آل عمران ٤٩
(٤) الاحقاف ٢
(٥) الشورى ٧
(٦) يوسف ٢
(٧) الزمر ٢٨
(٨) الزخرف ٤
(٩) العنكبوت ٤٨
(١٠) يس ٦٩
(١١) العنكبوت ٤٩
(١٢) البقرة ٢٣
(١٣) يونس ٣٨
(١٤) البقرة ٢٤
(١٥) الإسراء ٨٨
(١٦) يونس ٣٩
(١٧) الاحقاف ٢٩
(١٨) الاحقاف ٣٠
(١٩) النحل ١٠١
(٢٠) النحل ٩٨
(٢١) النحل ٩٩
(٢٢) النحل ١٠٠
(٢٣) النحل ١٠٢
(٢٤) النحل ١٠٦
(٢٥) آل عمران ١٩٩
(٢٦) البقرة ١٠٦
(٢٧) البقرة ١٠٧
(٢٨) البقرة ١٠٨
(٢٩) آل عمران ٦٩
(٣٠) البقرة ١٠٥
(٣١) يونس ٣٧
(٣٢) البقرة ١٠١
(٣٣) البقرة ١٠٩

(٣٤) آل عمران ٧
(٣٥) آل عمران ١٩
(٣٦) آل عمران ٨٥
(٣٧) البقرة ٢٦
(٣٨) إبراهيم ٤٥
(٣٩) آل عمران ١٨٩
(٤٠) آل عمران ١٠٩
(٤١) آل عمران ١٢٩
(٤٢) آل عمران ١٢٣
(٤٣) آل عمران ٢٩
(٤٤) آل عمران ٢٧
(٤٥) البقرة ٢٥٩
(٤٦) البقرة ٢٥٨
(٤٧) آل عمران ٤٠
(٤٨) البقرة ١٤٢
(٤٩) البقرة ١٤٣
(٥٠) البقرة ١٥٥-١٥٦
(٥١) آل عمران ١٨٦
(٥٢) آل عمران ١٧٨
(٥٣) البقرة ٤٩
(٥٤) البقرة ٥٠
(٥٥) آل عمران ١٣٥-١٣٦

(٥٦) البقرة ٨٢ .
(٥٧) البقرة ٢٦٢ .
(٥٨) آل عمران ٢١ .
(٥٩) البقرة ١٦ .
(٦٠) البقرة ١٧ .
(٦١) البقرة ١٨ .
(٦٢) البقرة ٢١٠ .
(٦٣) البقرة ٢١١ .
(٦٤) البقرة ٢١٢ .
(٦٥) آل عمران ٨٦ .
(٦٦) آل عمران ١٨١ .
(٦٧) آل عمران ١٨٨ .
(٦٨) آل عمران ١٩٦ .
(٦٩) آل عمران ١٩٧ .
(٧٠) آل عمران ٩٠ .
(٧١) آل عمران ٩١ .
(٧٢) الأعراف ١٧٨ .
(٧٣) القيامة ٦ .
(٧٤) الواقعة ١ ، ٢ .
(٧٥) الواقعة ٤ ، ٦ .
(٧٦) الزلزله ١ ، ٢ .
(٧٧) المعارج ٨ ، ٩ .
(٧٨) القيامة ٧ ، ٩ .
(٧٩) الزلزلة ٣ - ٥ .
(٨٠) القيامة ١٠ - ١١ .
(٨١) القيامة ١٢ - ١٣ .
(٨٢) المعارج ١٠ - ١٤ .
(٨٣) المعارج ١٥ - ١٨ .
(٨٤) الزلزله ٦ - ٨ .
(٨٥) الواقعة ٨ .
(٨٦) الواقعة ١٠ - ١٢ .
(٨٧) الواقعة ١٥ - ٢٦ .
(٨٨) الواقعة ٩ .
(٨٩) الواقعة ٤١ - ٤٤ .
(٩٠) النساء ٥٦ .
(٩١) الواقعة ٥١ - ٥٥ .
(٩٢) الحج ١٩ .
(٩٣) الحج ٢٠ - ٢١ .
(٩٤) الحج ٢٢ .
(٩٥) الأعراف ٤٤ - ٤٥ .

(٩٦) الأعراف ٥٠ - ٥١ .
(٩٧) البقرة ١٣٦ .
(٩٨) البقرة ٢٨٥ .
(٩٩) آل عمران ٢ .
(١٠٠) آل عمران ٣ .
(١٠١) النساء ١٦٣ .
(١٠٢) النساء ١٦٤ .
(١٠٣) النساء ١٦٥ .
(١٠٤) المائدة ٤٤ .
(١٠٥) المائدة ٤٦ .
(١٠٦) البقرة ٤ .
(١٠٧) البقرة ٥ .
(١٠٨) البقرة ٤٠ .
(١٠٩) البقرة ٤١ .
(١١٠) البقرة ٤٢ .
(١١١) الأنعام ٣٣ .
(١١٢) الأنعام ٣٤ .
(١١٣) الأنعام ١٥٤ .
(١١٤) البقرة ٨٣ .
(١١٥) البقرة ٨٩ .
(١١٦) الأنعام ١٥٥ .
(١١٧) الأعراف ١٥٧ .
(١١٨) البقرة ٩١ .
(١١٩) البقرة ٩٢ .
(١٢٠) البقرة ١٣٩ .
(١٢٢) النساء ٨٢ .
(١٢٣) البقرة ١٣٧ .
(١٢٤) آل عمران ١٩٩ .
(١٢٥) البقرة ٢٠٨ .
(١٢٦) يونس ٩٤ .
(١٢٧) المائدة ٤٣ .
(١٢٨) المائدة ٤٥ .
(١٢٩) البقرة ١٧٩ .
(١٣٠) آل عمران ١٨ .
(١٣١) البقرة ١٨٣ .
(١٣٢) البقرة ١١٠ .
(١٣٣) البقرة ١٤٠ .
(١٣٤) البقرة ١٢٨ .
(١٣٥) البقرة ١٣١ .
(١٣٦) البقرة ١٣٢ .

(١٣٧) البقرة ١٣٠ .
(١٣٨) البقرة ١١٣ .
(١٣٩) البقرة ١١١ .
(١٤٠) البقرة ٢٦٨ .
(١٤١) آل عمران ١٩ .
(١٤٢) المائدة ٤٨ .
(١٤٣) فصلت ٤١ .
(١٤٤) فصلت ٤٢ .
(١٤٥) فصلت ٤٣ .
(١٤٦) الصف ٦ .
(١٤٧) هود ٤٤ .
(١٤٨) هود ٤٨ .
(١٤٩) الانبياء ٥١ .
(١٥٠) الأنبياء ٥٢ .
(١٥١) الأنبياء ٥٨ .
(١٥٢) الأنبياء ٦٢ .
(١٥٣) الأنبياء ٦٣ .
(١٥٤) الأنبياء ٦٨ .
(١٥٥) الأنبياء ٦٩ .
(١٥٦) الأنبياء ٧١ .
(١٥٧) يوسف ٦ .
(١٥٨) يوسف ٧ .
(١٥٩) يوسف ٨ .
(١٦٠) يوسف ٩ .
(١٦١) يوسف ١٥ .
(١٦٢) يوسف ٢٤ .
(١٦٣) يوسف ٣٤ .
(١٦٤) يوسف ٥٦ .
(١٦٥) يوسف ١٠١ .
(١٦٦) يوسف ٣ .
(١٦٧) يوسف ١٠٢ .
(١٦٨) يوسف ١٠٥ .
(١٦٩) طه ٩ .
(١٧٠) طه ٢٤ .
(١٧١) هود ٥٠ .
(١٧٢) هود ٦١ .
(١٧٣) هود ٦٧ .
(١٧٤) هود ٤٩ .
(١٧٥) البقرة ١٢١ .
(١٧٦) يونس ٣٧ .

(١٧٧) ال عمران ٣٥
(١٧٨) آل عمران ٤٢
(١٧٩) آل عمران ٤٥ .
(١٨٠) آل عمران ٤٧ .
(١٨١) آل عمران ٥٩
(١٨٢) آل عمران ٥٠ .
(١٨٣) آل عمران ٥١ .
(١٨٤) آل عمران ٥٥
(١٨٥) النساء ١٥٧ .
(١٨٦) النساء ١٥٨ .
(١٨٧) النساء ١٧١ .
(١٨٨) النساء ١٧٢ .
(١٨٩) البقرة ٢٧٥ .
(١٩٠) الأنعام ١٤٦ .
(١٩١) الأنعام ١٤٧ .
(١٩٢) الأنعام ١٤٥ .
(١٩٣) البقرة ٢١٣ .
(١٩٤) البقرة ١٤٦ .
(١٩٥) البقرة ١٤٧ .
(١٩٦) البقرة ١٥٩ .
(١٩٧) البقرة ١٧٤ .
(١٩٨) آل عمران ٧٧ .
(١٩٩) البقرة ١٦٠ .
(٢٠٠) آل عمران ٧ .
(٢٠١) آل عمران ٧٨ .
(٢٠٢) آل عمران ٦٩ .
(٢٠٣) يونس ١٧ .
(٢٠٤) آل عمران ٧٥ .
(٢٠٥) التوبه ٣٤ .
(٢٠٦) المائدة ٦٩ .
(٢٠٧) آل عمران ١٠٠ .
(٢٠٨) آل عمران ١٠٤ .
(٢٠٩) آل عمران ٧٠ .
(٢١٠) آل عمران ٧١ .
(٢١١) آل عمران ١٠٥ .
(٢١٢) آل عمران ١١١ .
(٢١٣) النساء ٤٦ .
(٢١٤) آل عمران ١٨٧ .
(٢١٥) آل عمران ١١٢ .
(٢١٦) المائدة ١٤ .

(٢١٧) المائدة ١٥ .
(٢١٨) آل عمران ٦٤ .
(٢١٩) آل عمران ٦٥ .
(٢٢٠) آل عمران ٦٦ .
(٢٢١) آل عمران ٦٧ .
(٢٢) آل عمران ٦٨ .
(٢٢٣) النساء ١٥٥ .
(٢٢٤) النساء ١٥٦ .
(٢٢٥) النساء ١٦٠ .
(٢٢٦) النساء ١٦١ .
(٢٢٧) المائدة ١٣ .
(٢٢٨) المائدة ١١٦ .
(٢٢٩) المائدة ١١٧ .
(٣٣٠) التوبة ٣٠ .
(٢٣١) المائدة ٧٥ .
(٢٣٢) التوبة ٣١ .
(٢٣٣) المائدة ٧٨ .
(٢٣٤) المائدة ٨٠ .
(٢٣٥) المائدة ٨١ .
(٢٣٦) المائدة ١٨ .
(٢٣٧) المائدة ٦٨ .
(٢٣٨) الأنعام ٢١ .
(٢٣٩) الأنعام ٢٣ .
(٢٤٠) الأنعام ٢٤ .
(٢٤١) المائدة ٧٧ .
(٢٤٢) المائدة ١٩ .
(٢٤٢) المائدة ١٩ .
(٢٤٣) المائدة ٥٩ .
(٢٤٤) الأنعام ٧ .
(٢٤٥) الحجر ١٤ .
(٢٤٦) الحجر ١٥ .
(٢٤٧) الأنعام ٣٥ .
(٢٤٨) الأنعام ٤٦) .
(٢٤٩) يونس ٤٢ .
(٢٥٠) يونس ٤٣ .
(٢٥١) الروم ٥٢ . .
(٢٥٢) الأعراف ٤٠ .
(٢٥٣) الرعد ١٤ .
(٢٥٤) النور ٣٩ .
(٢٥٥) النور ٤٠ .

(٢٥٦) العنكبوت ٤١ .
(٢٥٧) العنكبوت ٤٣ .
(٢٥٨) الأعراف ٢٧٥ .
(٢٥٩) الأعراف ١٧٦ .
(٢٦٠) الأعراف ١٧٧ .
(٢٦١) الحج ٧٣ .
(٢٦٢) الأنعام ١٢٨ .
(٢٦٣) محمد ١٥ .
(٢٦٤) المائدة ٦٠ .
(٢٦٥) هود ٥ .
(٢٦٦) الأسراء ٩ .
(٢٦٧) الأنعام ١٥٣ .
(٢٦٨) الرحمن ٩ .
(٢٦٩) الأنعام ٨٢ .
(٢٧٠) العصر ٣ .
(٢٧١) الأسراء ٩ .
(٢٧٢) الأنعام ١٥٣ .
(٢٧٣) النساء ٦٥ .
(٢٧٤) النجم ١ - ٣ .
(٢٧٥) النجم ٤ ه ٥ .
(٢٧٦) الأنعام ٨٢ .
(٢٧٧) النساء ٥٩ .
(٢٧٨) البقرة ٢٢١ .
(٢٧٩) النور ٣ .
(٢٨٠) النساء ٢٢ .
(٢٨١) النساء ٢٣ .
(٢٨٢) النساء ٢٦ .
(٢٨٣) المائدة ٥ .
(٢٨٤) النساء ٢١ .
(٢٨٥) الروم ٢١ .
(٢٨٦) الأعراف ١٨٩ .
(٢٨٧) النساء ٤
(٢٨٨) النساء ٣٤ .
(٢٨٩) النساء ٣٥ .
(٢٩٠) النساء ١٢٨ .
(٢٩١) النساء ١٩ .
(١٩٢) النساء ٢٠ .
(٢٩٣) النساء ١٢٩ .
(٢٩٤) النساء ١٣٠ .
(٢٩٥) النساء ١٥ .

(٢٩٦) النساء ١٦ .
(٢٩٧) البقرة ٢٢٦ .
(٢٩٨) البقرة ٢٢٤ .
(٢٩٩) البقرة ٢٢٥ .
(٣٠٠) المجادلة ٢ .
(٣٠١) البقرة ٢٢٧ .
(٣٠٢) البقرة ٢٤١ .
(٣٠٣) البقرة ٢٢٩ .
(٣٠٤) البقرة ٢٣١ .
(٣٠٥) البقرة ٢٣٧ .
(٣٠٦) البقرة ٢٣٦ .
(٣٠٧) البقرة ٢٢٨ .
(٣٠٨) البقرة ٢٤٠ .
(٣٠٩) البقرة ٢٣٤ .
(٣١٠) النساء ٣٣ .
(٣١١) النساء ٧ .
(٣١٢ النساء ١١ .
(٣١٣) النساء ١٢ .
(٣١٤) النساء ١٧٦ .
(٣١٥) البقرة ١٨٠ .
(٣١٦) البقرة ١٨١ .
(٣١٧) النساء ٩ .
(٣١٨) البقرة ١٨٢ .
(٣١٩) المائدة ١٠٦ .
(٣٢٠) المائدة ١٠٧)
(٣٢١) المائدة ١٠٨ .
(٣٢٢) النساء ٢ .
(٣٢٣) النساء ٣ .
(٣٢٤) الأسراء ٣٤ .
(٣٢٥) النساء ٦ .
(٣٢٦) النساء ٥ .
(٣٢٧) البقرة ٢٨٢ .
(٣٢٨) البقرة ٢٨٣ .
(٣٢٩) الشمس ٧ - ١٠ .
(٣٣٠) النساء ٧٩ .
(٣٣١) المائدة ٤٨ .
(٣٣٢) البقرة ١٧٩ .
(٣٣٣) المائدة ٥٠ .
(٣٣٤) النحل ١٢٦ .
(٣٣٥) المائدة ٣٢ .

(٣٣٦) البقرة ١٧٨ .
(٣٣٧) المائدة ٤٥ .
(٣٣٨) المائدة ٣٨ .
(٣٣٩) البقرة ١٨٨ .
(٣٤٠) النور ٢ .
(٣٤١) النور ٤ .
(٣٤٢) النور ٣ .

الفصل الثانى

القصص القرآنى

جرى الناس على تعريف علم التاريخ ، بأنه ذلك العلم الذى يتناول دراسة أحوال البشر حسب تواريخ حدوثها أى حسب ترتيبها الزمنى .

وما الأحداث البشرية إلا حركة هذه الشعوب فى مكان معين وفى زمن محدد فعلم التاريخ بهذا المعنى هو ذلك العلم الذى سجل تطور الجماعات البشرية ممثلة فى تلك الشعوب التى عاشت فى أماكن معلومة من سطح الأرض ممثلة فى أوطانها .

هذا التطور يشمل التغيّرات التى انتابت الشعب فى أعماله وعاداته وتقاليده ونُظُمِه (الاجتماعية والسياسية والاقتصادية) كما يشمل تطوره الحضارى .

ولا يقتصر علم التاريخ على دراسة تطور كل شعب منفصلا عن بقية شعوب الأرض بل يتناول أيضا تسجيل العلاقات بينها ممثلة فيما نشب بينها من حروب أو ما وصل بينها عن طريق التبادل التجارى والثقافى والسياسى .

ولكى يحدد علم التاريخ ما يتناوله من هذه الدراسات تحديدا دقيقا ، لابد له من بيان اسم الشعب (أو الشخص) وأرضه وزمنه الذى تحرك فيها وعمل وفكر وتطور .

وكما أن تاريخ الشعب وتطوره يتأثران بأحوال ما جاوره من شعوب أخرى ، فهو يتأثر أيضا فى كثير من الأحيان بأشخاص كان لهم أكبر الأثر فيما حدث فى هذا الشعب

من تطور أو تغيير ، لذلك يتناول هذا العلم تاريخ حياة هؤلاء الأشخاص البارزين وهو ما يعرف بالسِّيَر .

ومن أبرز شخصيات التاريخ التى يجب أن يوليها العلم اهتماما أكبر ، الرُّسل والأنبياء ثم كبار المصلحين الاجتماعيين ثم المخترعين والمستكشفين ، وهم كلهم من أهم عوامل التطور البشرى لا داخل شعوبهم فحسب بل تطور البشر كافة وتدرجهم فى سلم الحضارة الإنسانية .

ويأتى الرسل والأنبياء فى المقام الأول بين هذه الشخصيات التاريخية فهم الذين اهتموا أول ما اهتموا ، وبما أوحى الله إليهم ، بجوهر الإنسان ، هذا الجوهر الذى يتناول روح الإنسان وضميره ، وبغير الروح والضمير لا يكون إنساناً ، ثم بينوا بما أُوحِى إليهم من ربهم ، نوع السلوك الذى يؤدى إلى تطهير الروح وتنقية الضمير وهو ذلك السلوك القويم القائم على سلامة الفكر وصدق القول وصالح العمل ، ومناط كل هذا ، الإيمان بالله وحده وتقواه وتنفيذ أوامره والانتهاء عن نواهيه . وهم بذلك لاتقتصر رسالتهم على شعب بعينه بل هم رسل الله للناس كافة .

ثم بعد ذلك يأتى دور المصلحين ، وهم هؤلاء الذين هداهم الله بنور الإيمان وكَشَفَ لبصائرهم عيوب مجتمعهم ونواحى الفساد والعوج الذى يسير عليه الناس ، فتناولوا الظواهر الاجتماعية والعادات والتقاليد بالإصلاح والتقويم وعملوا على الارتقاء بها إلى ما هو أصلح وأقوم .

أما جماعات المخترعين والمكتشفين فهم هؤلاء الذين اهتموا بالمادة فتناولوها بالدراسة وطوعوها لفائدة الناس ، وقد يكون فيما اخترعوا أو اكتشفوا فائدة حقيقية يسعد بها البشر أجمعون ، كما قد تكون من عوامل دمارهم وهلاكهم . ومناط هذا النفع أو الضرر صفاء روح الإنسان ونقاء ضميره أو فسادهما .

وقد اهتم القرآن الكريم ، من بين ما تناوله فى كافة شئون الكون ، بتاريخ الشعوب وسير الأشخاص .

تناول خاتم كتب الله هذا التاريخ وتلك السير ، بما تناول به الخالق المبدع المدبر كل كونه اللانهائى ، بأسلوب خاص يخالف ما جرى عليه البشر فى أساليبهم وأهدافهم فى عرضهم للتاريخ وللسير .

فهو سبحانه وتعالى ، بحكمته وعلمه إنما يرمى بما أوحى به من تواريخ وسير إلى أهداف غير تلك التى يرمى إليها البشر ، فيسير القرآن فى عرضه التاريخى بالأسلوب الذى يحقق هذه الأهداف ، ولذلك يخرج عن مسمَّيات البشر لعلم التاريخ ، إذْ أطلق عليه اسماً أشمل وأعم ألا وهو القصص فهو سبحانه وتعالى ، يقص علينا من علمه بأحوال الأمم والأشخاص ما يريد وبما يشاء وينتقى منها لعباده المؤمنين أحسنه وأنفعه :

« نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنْتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ »(1) .

« تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ(2) نَتْلُو عَلَيكَ مِن نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ »(3) .

أهداف القصص القرآنى :

إن أهداف سرد البشر لتاريخ الأمم وسِير الأشخاص تختلف اختلافاً بيّناً عما يقصه القرآن من ذلك التاريخ وتلك السير :

فالمؤرخ أو القصَّاص قد ينحرف بهما عن جادة الحق نتيجة لما يعتمل فى نفسَيْهما وضميرهما من عوامل ودوافع بشرية كالتحيز واتباع هوى النفس أو التفاخر أو نتيجة لشطط فى التفكير وسوء فى التدبير ، الأمر الذى يخرج بهما إلى الخطأ فى التقدير ، ومن ثم لا يسلم أى منهما من الزلل فيه ، ومن ثم تكون النتيجة تشويه التواريخ والسِّير أو تزييفهما .

أما أهداف القصص القرآنى فيحكمها القصد الإلهى فى ضرب الأمثال الواقعية والعظة والعبرة ، لمن يتعظ ويعتبر ، بأحوال من سبقنا من أمم وأفراد . كما أن هذه الأهداف تتَّسِمُ بالعمومية ، ومن ثم فقد تطهّرت من أى تحيز أو هوى ..

١ - العظة والعبرة : وهما الهدف القرانى الأول مما نزل فيه من آيات ، العظة للناس بالتى هى أحسن ، والعبرة لمن يعتبر بما جرى وبما نرى فى هذا الكون وبما فى أنفسنا بقدرته ، سبحانه وتعالى ، فنزداد منه خشية وبه إيماناً ، ونسلم لقدره ولأوامره

وفيها الخير كل الخير للبشر اجمعين ، وفى هذا القصص القرانى نلمس ونحسُّ سوء مَغَبَّةِ المسيء وثواب المحسن .

وإذْ أنْزَلَ اللهُ على الناس ، فى قرآنه الكريم ، الآية تِلْوَ الآية ، إنما يأمر فيها بالنظر والاعتبار من ألقى السمْعَ وهو شهيد :

« هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاس وَهُدًى وَموْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ »(٤) .

« قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرْوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ »(٥) .

ثم يخفف الرحمن عن المؤمنين ما قد يصيبهم أحياناً من أذى أو يلحقهم من شر وكرب ، وكلها من أعراض هذه الدنيا الزائلة ، وعلى المؤمن أن يقبلها بحلوها ومرها إيماناً منه بربه ، وإسلاماً لقَدَره فيما يبلو به المؤمنين من خلقه ليزدادوا إيماناً بربهم وثباتاً على دينهم ، فيزيدهم الله منه قُرباً ورحمة ، وينصرهم على أنفسهم وعلى أعدائهم وأعداءِ ربهم :

« وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إن كُنْتُم مُؤْمِنِينَ(٦) إن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُداوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ الله الذِيَن آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَداء والله لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ(٧) وَلِيُمَحِّصَ الله الَّذينَ آمنُوا وَيَمْحَقَ الكَافِرِينَ »(٨) .

ويقص الله على خاتم أنبيائه ورسله ، قصص أقرب الناس وأحبهم إليه وهم أنبياؤه ورسله ، ويخلع عليهم أحسن ما شاء لهم من صفات وألقاب ، فكلهم صادقون فيما بلَّغوا من وحى ربهم ، وكلهم مخلصون أمناء على الرسالة ، وكلهم إذا وعد صدق وعده ويأمر الله نبيه الأمين ، ﷺ ، بذكر هذه السِّيَرِ العاطرة للمؤمنين كمُثُلٍ عليا لعباد الله المخلصين :

« وَاذْكُرْ فِى الْكِتَابِ إبْراهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيًّا(٩) إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يَاأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَالاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ وَلاَ يُغْنِى عَنْكَ شَيْئاً »(١٠) .

« وَاذْكُرْ فِى الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصاً وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيّاً »(١١) .

« وَاذْكُرْ فِى الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيّاً »(١٢) .

« وَاذْكُرْ فِى الكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيّاً »(١٣) .

« ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الذّى فِيهِ يَمْتَرُونَ »(١٤) .

وأنبياءُ اللهِ ورسله هم أولئك البشر الذين مَنّ الله عليهم بنعمة الهداية والرضوان جزاء تقواهم وخشيتهم ربهم ، وهم الذين اصطفاهم من بين بنى آدم واختارهم ليبلغوا رسالاته :

« أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيّاً »(١٥) .

ويبين لنا فى محكم تنزيله ، فضله على من آتاه من نعمه ، فحمد ربه وشكر ، وزاد به إيماناً وتقوى :

« وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً وَقَالاَ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ »(١٦) .

« وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَاأَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ »(١٧) .

وشتان بين هذه القدوة الصالحة من أنبياء الله ورساه ، وبين أولئك الكفرة - الجاحدين لنعم الله وفضله عليهم ، الذين طغوا وتجبروا بما آتاهم الله بدلا من شكرهم وحمدهم له ،

فهذا قارون الذى آتاه الله ما لم يؤتَ أحدٌ من قبل فازداد كفراً وعتوا فأخذه الله أخذ عزيز مقتدر جزاء كفره وغروره واستعلائه :

« إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ ما إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لاَ تَفْرَحْ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الفَرِحِينَ »(١٨) .

« قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِى أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلاَ يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ »(١٩) .

« فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَه مِن دُونِ الله ، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ »(٢٠) .

وهو ، سبحانه وتعالى ، العزيز ذو الاقتدار ، يأخذ ممن يفسد فى الأرض شعوباً بأكملها بما ظلموا وعَاثُوا وأفْسَدوا ، وكم فى القرآن الكريم من قصص هذه الشعوب ساقها الله عبرة وعظة لعباده المؤمنين ، وهو برحمته وبرّه بالمؤمنين لقادر على نجاة الصالحين مما أصاب قومهم من غضبه ونقمته وعذابه :

«أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِى الأرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَاراً فِى الأرْضِ فَأَخَذَهُمُ الله بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لهم مِّنَ الله مِن وَاقٍ (٢١) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ الله إنَّه قَوىٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ »(٢٢) .

وها هو نوح عليه السلام ، قد نجاه ربه ومن تبعه من المؤمنين وأورثهم الأرض بعد أن أغرق الكافرين وطهر الأرض منهم ، جزاء تكذيبهم بما آتاهم هذا النبى من ربهّ من بيّنات

« فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِى الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلائِفَ وأَغْرَقْنَا الذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ »(٢٣) .

ومثل قوم نوح قوم فرعون الذين أخذهم الله بظلمهم ونجا موسى ومن تبعه ولم يقبل الله توبة فرعون ، لأنها توبة من لا حول له ولا قوة ، توبة الخائف من الموت :

« وَجَاوَزْنَا بِبَنِى اسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إلاَّ الَّذِى آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ »(٢٤) .

ولم يكن لفضل الله ونعمه ورحمته ببنى إسرائيل ما يملأ قلوبهم بتقوى الله والخشوع له ولا ما يزيدهم إيماناً به أو حمداً له بل ظلوا فى عتوهم وفسادهم وجبروتهم :

« ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِن بَعْدِ ذلِكَ فَهِى كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْه الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ »(٢٥) .

فباءوا بغضب الله وألبسهم من بعد العز ذلا ، وشتت شملهم بعد أن قطعوا صلتهم بالله وبالناس :

« وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ »(٢٦) .

وها هم قوم لوط الذين أتاهم نبيهم بآيات من ربهم مبينات سوء أفعالهم وأنذرهم بعاقبة ما كانوا يأتون من فاحشة ، فلم يرتدعوا ولم يتوبوا ، فأرسل الله عليهم ريحاً صرصرا محملة بالأتربة والحصى أعمت أبصارهم وردمتهم فدفنوا أحياءً ، ونَجَّى الله نبيه لوطاً ومن معه من الصالحين :

« كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ(٢٧) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلاَّ آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ»(٤) .

وقد كان أهل مَدْيَن أصحاب الأَيْكَةِ الذين أنعم الله عليهم وآتاهم المال والبساتين ذات الأشجار الملتفة الأغصان ، ولكنهم أكلوا أموال الناس بالباطل ودلسوا فى البيع والشراء ، فأرسل الله إليهم ومنهم نبيه شعيباً ، يأمرهم بتقوى الله وتجنب هذه الآثام والبُعْد عن ظلم الناس وأكل أموالهم بغير حق ، ولكنهم عصوا أمر ربهم فأخذهم برجفة جاءتهم بغتة فماتوا بكفرهم :

« وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الآخِرَ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ »(٢٩) .

« فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ »(٣٠) .

هذه بعض آيات الله البينات فى قرآنه الكريم ، أوردناها هنا على سبيل المثال لا الحصر ، يبين فيها العليم الخبير لعباده المؤمنين عاقبة الظلم والطغيان سواء أتاهما فرد أو شعب ، عظة وعبرة ليهتدى الناس إلى صراط الله المستقيم فى حياتهم الخاصة وفى علاقاتهم بالغير :

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللهِ قُضِيَ بِالحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ»(٣١) .

٢ - مساندة الرسول : كان بعض أهل الكتاب من اليهود والنصارى أكثر الناس معارضة للرسول ، وكانت كل من الطائفتين تدعى أن كتابها هو وحده الحق وأنه آخر كتب الله الذى لن ينزل من بعده من كتاب ، وبرغم أن القرآن الكريم قد جاء مصدقا لما بين أيديهم من كتب سماوية ، فقد كذبوا الرسول وجادلوه وتحدوه وهو ﷺ ، ذلك النبى الأمى الذى لا علم له سابق بما أوحى الله إليه فى كتابه الكريم .

ويمكننا أن نتصور موقف نبينا المخلص الأمين أمام عتاة الكهنة والأحبار من أهل الكتاب إذْ يطالبونه بأن ينبئهم بما ورد فى كتبهم من قصص أمم وسير أشخاص لم يسبق له بهم علم ، ولم يوح الله بها إليه بعد ، ولكن الرحمن لم يترك صفيه وحبيبه بلا حول ولا قوة أمام هؤلاء الجبابرة ، فكانت تلك الآيات البينات يسرد بها الرسول تاريخ البشر أفرادا وجماعات منذ آدم عليه السلام ، بل أنبأهُم رسولنا الكريم من هذا التاريخ ما أوحى به الله إليه منها بتفاصيل لم ترد فى كتبهم ولم يكن لهم بها علم من قبل ، بل كانت كلها من علم الله بخلقه يؤتيه من يشاء من عباده المخلصين الصابرين ، فكان من هذا القصص القرآنى ما ساند الله به رسوله وشد من أزره بما يرد كيد الكافرين والمكذبين :

« ويسألونك عن ذى القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكرا[٣٢] إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا »[٣٣] .

ويضرب لنا القرآن الكريم مثلا واقعيا بمدى حلم رسول الله وسعة صدره وما آتاه الله من القدرة على الصبر أمام المعاندين من المشركين وإصرارهم على التكذيب والاستهزاء به وبما جاءهم من الحق :

« يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ[٣٤] وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ »[٣٥] .

ومن أمثلة صبره ، ﷺ ، على محاولات أهل الكتاب المعاندين تعجيزه بطلب ما لا قبل لبشر أن يأتيه من معجزات إلا بإذن الله :

« يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا العِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا »(٣٦) .

ويؤيد الله رسوله* ويسانده ببعض من علمه بما يقرع به كل مكابر من أهل الكتاب ، وينبئهم بما يعملون ، ويكشف ما يخبئون :

« وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسقُونَ »(٣٧) .

ومع كل ما جاء به الرسول من وحى ربه من القصص الحق ، ومع علم أهل الكتاب بصدق ما يروى الرسول عن ربه ، عاندوا وكذبوا بالحق من بعد ما بينه لهم بإذن الله . ألاَ إنه الحسد والحقد المركب فى بعض النفوس المريضة التى تأبى الخير والهداية الربانية لغيرهم ، فتحاولُ إطفاء نور الحق ولكن الله يأبى إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ، ويأمر الله رسوله الأمين والمؤمنين المخلصين بالصبر والعفو ، وترك الأمر لله ليفعل ما يشاء :

وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُم كُفَّاراً حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِمَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ ، إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ »(٣٨) .

أسلوب القصص القرآنى :-

وكما حدد الله الهدف من قصصه القرآنى ، صاغها أيضا فى الأساليب الملائمة لتحقيق هذه الأهداف ، وعرضها بأساليب جديدة لم يألفها البشر فى عرضهم التواريخ والسير ، وهى مع غرابتها على الناس فإنها تقرع الآذان وتنفذ إلى القلوب وتهز الضمير هزاً عنيفا ، وهى ناحية أخرى من نواحى الإعجاز القرآنى التى أيد بها الله رسوله الأمين بالبلاغ المبين .

فمن أساليب القصص القرآنى :

١ - عدم التقيد بالتسلسل الزمنى : فلا نجد فى القرآن الكريم ذلك السرد

الرتيب لنشأة الأمم ومكانها وتطورها ونهوضها ثم سقوطها حسب الترتيب الزمنى المتعارف عليه ، بل يتناول القرآن من أطوار الأمة ما يناسب الهدف من السورة ، فقد يذكر فى القرآن طور الأمة عند انهيارها دون ذكر نشأتها وقد يذكر بعد ذلك دور نشأة الأمة وبدء تكوينها . وقد يذكر حال أمة لاحقة فى موضع من القرآن ثم يذكر بعد ذلك حال أمة سابقة . وقد يذكر مختصراً لتاريخ الأمة منذ نشأتها حتى بلوغها أقصى قوتها ثم يذكر انهيارها مبينا أسباب هذا الانهيار ومن بينها الكفر بنعمة الله أو الإفساد فى الأرض أو العدوان على بقية الناس :

فمن هذه الأمم قبيلة عاد التى عاشت فى الأحقاف بجنوب الجزيرة العربية وآتاها الله من القوة والمنعة ما جعلها أقوى القبائل وأشدها بطشا ، ثم أخذها الله بظلمها وطغيانها :

« أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ العِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي البِلَادِ »(٣٩) .

« الَّذِينَ طَغَوْا فِى البِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ »(٤٠) .

« كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍ * تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ »(٤١) .

وفى سِيَرَ الأشخاص كثيرا ما يتبع القرآن نفس الأسلوب الذى اتبعه فى تواريخ الأمم فلا يسير على الترتيب الزمنى المعروف منذ مولد صاحب السيرة ومكانه ثم نشأته ، والعوامل المؤثرة فى هذه النشأة ثم ما قام به من أعمال حتى وفاته ، بل يسير على أسلوبه المعروف فيبدأ بذكر صاحب السيرة فى عنفوان قوته وعظمته ، ثم يذكر مولده وقصة طفولته ، وهذا ما نراه فى ذكر موسى عليه السلام فى سورة طه :

« وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى » ، « اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى »(٤٢)

« إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى(٤٣) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي »(٤٤) .

٢ - التكرار : وهو الأسلوب القرآنى المتبع فى كافة المجالات ، لا فى القصص وحده . وهى تلك المجالات التى تبين عظمة الخالق وقدرته وحكمته وتدبيره لهذا الكون اللانهائى ، وهو ذلك التكرار المحبب الذى يخاطب به المولى جل وعلا قلوب الناس وضمائرهم ، تذكرة وتثبيتاً لإيمانهم وتأكيدا لهذه القدرة اللانهائية ، وهذا أيضا من الإعجاز القرآنى ، إذْ تجد نفس الآية لها وقع السحر مهما تكررت ومهما اختلفت مواقعها فى مختلف السور ، فهو سبحانه وتعالى ، يكرر ذكر تاريخ أمة بعينها أو سيرة نفس الشخص ، حيث يجب أن تُذكر ، وذلك تثبيتاً لمعنى معين أو تحقيقا لهدف مقصود .

فها هى سيرة نَبِىِّ الله داود قد تكررت فى سورتى النمل وص ، وسيرة إبراهيم عليه السلام فى سورتى الأنبياء والعنكبوت ، كما تكررت سيرة موسى عليه السلام فى سور البقرة وآل عمران ومريم وطه والشعراء وغيرها ، يرجع إليها القارىء جميعا فى مواضعها ليتبين حكمة الله ، سبحانه وتعالى ، من هذا التكرار البليغ .

وقس على ذلك تكرار تواريخ الأمم .

هوامش الفصل الثانى

(١) يوسف ٣ .
(٢) القصص ٢ .
(٣) القصص ٣ .
(٤) آل عمران ١٣٨ .
(٥) آل عمران ١٣٧ .
(٦) آل عمران ١٣٩ .
(٧) آل عمران ١٤٠ .
(٨) آل عمران ١٤١ .
(٩) مريم ٤١ .
(١٠) مريم ٤٢ .
(١١) مريم ٥١ .
(١٢) مريم ٥٤ .
(١٣) مريم ٥٦ .
(١٤) مريم ٣٤ .
(١٥) مريم ٥٨ .
(١٦) النمل ١٥ .
(١٧) النمل ١٦ .
(١٨) القصص ٧٦ .
(١٩) القصص ٧٨ .
(٢٠) القصص ٨١ .
(٢١) غافر ٢١ .
(٢٢) غافر ٢٢ .
(٢٣) يونس ٧٣ .
(٢٤) يونس ٩٠ .
(٢٥) البقرة ٧٤ .
(٢٦) البقرة ٦١ .
(٢٧) القمر ٣٣ .
(٢٨) القمر ٣٤ .
(٢٩) العنكبوت ٣٦ .
(٣٠) العنكبوت ٣٧ .
(٣١) غافر ٧٨ .
(٣٢) الكهف ٨٣ .
(٣٣) الكهف ٨٤ .

(٣٤) التوبه ٦٤ .
(٣٥) التوبه ٦٥ .
(٣٦) النساء ١٥٣ .
(٣٧) الأعراف ١٦٣ .
(٣٨) البقرة ١٠٩ .
(٣٩) الفجر ٦ - ٨ .
(٤٠) الفجر ١١ - ١٤ .
(٤١) الفجر ١٨ - ٢٠ .
(٤٢) طه ٩ ، ٢٤ .
(٤٣) طه ٣٨ .
(٤٤) طه ٣٩ .

الفصل الثالث

القرآن والخَلْق

الأسباب والمسببات :

إن القاعدة العلمية التى توصل إليها العقل البشرى هى أنه لكل نتيجة مقدمة ولكل ظاهرة سبب ، هذه حقيقة ثابتة وأزلية لا يختلف فيها اثنان .

فأية ظاهرة كونية ، مادية كانت هذه الظاهرة أو معنوية لا توجد بذاتها ، بل لابد من توافر شروط أو مقدمات أو أسباب حتى نرى الظاهرة أو نحس بها .

والظاهرة ، لكى توجد ، لابد لها من حدوث سلسلة من الأسباب المترابطة ، بحيث يكون كل سبب منها نتيجة لسابقه ومقدمة أو سببا للاحقه .

إذن لابد من بداية لهذه السلسلة السببية حتى تنتهى آخرتها بالنتيجة أو الظاهرة المتوقعة ، أى لابد من وجود سبب أول حتى تتتابع بقية الأسباب .

وهنا ينقسم العلماء فى تعريف السبب الأول أى سبب الأسباب لكل ظاهرة دنيوية :

فالماديون من هؤلاء العلماء يقولون إن العقل هو السبب الأول أى البداية ويقصدون بهذا العقل ، العقل البشرى أى أن العقل البشرى هو الموجد لهذه السلسلة من الأسباب أو بمعنى آخر أن هذا العقل هو الموجد والمبدع لهذه الظواهر

والمسببات ، بل تمادى هؤلاء الماديون فى السمو بهذا العقل والإعلاء من شأنه فجعلوا منه الخالق للموجودات والظواهر ، ولا يؤمنون إلا به ولا يصدقون إلا ما يوحى به ، والعياذ بالله .

انظر كيف قاد الغرور هذه الطائفة من العلماء إلى الكفر والجحود ، إذْ لا يؤمنون بالغيب ولا بيوم الحساب ولا بغير ذلك من أسس الإيمان التى حددها الخالق المبدع ، جل شأنه وعلا عما يأفكون . فهم ليسوا أولئك العلماء الذين وصفهم الله بخشيتهم له وحده .

أما الطائفة الثانية من العلماء فهم أصحاب العلم الحق الذين هداهم الله ورضى عنهم وألهمهم الحق ، فأرجعوا السبب الأول لجميع الأسباب وموجدها إلى إله واحد مفرد بذاته ، هو الواحد الأحد الذى لم يلد ولم يولد ولم يسبقه ، سبحانه وتعالى ، سبب ، وهو وحده الخالق المبدع القادر ، موجد الوجود كله وما فيه مما نرى ومما لا نرى ، هو وحده الخالق لكل شىء ، وبإرادته وبكلمته ، وهو سبحانه وتعالى ، الأزلى الأبدى الذى يغيّر ولا يتغيّر ولا يتبدّل .

وإلا فمن غيره ، سبحانه وتعالى الذى صنع ويصنع السبب الأول لكل الأسباب ؟ فهو سبحانه وحده الذى يهىء للبشر من الأسباب ما يمكنهم من الحصول على ما يرغبون :

وهو وحده ، جلت قدرته ، الذى يخلق ويبدع مالا يستطيع عمله العقل البشرى .

وهو وحده الذى يبعث الحياة بكلمته ويقبضها حين يشاء .

إذن هو الله وحده المبتدأ ، وهو المبدىء والمعيد ، وإليه وحده مصير كل شىء :

« إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِى ٱلْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَىْءٍ سَبَباً »(١)

« إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ »(٢)

« بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وإِذَا قَضَىٰ أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ »(٣) .

« وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ الاَّ بِإِذْنِ اللهِ كِتَاباً مُّؤَجَّلاً فَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِه مِنْهَا وَسَنَجْزِى الشَّاكِرِينَ »(٤) .

« سُنَّةَ اللهِ فى الَّذِينَ خَلَوْا مِن قبلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً »(٥) .

وهو سبحانه وحده المفرد بذاته ولا شريك له فيها يبدئ وفيها يعيد وفيها ينهى ، وهو الله وحده المحيط بكل شيء علما ما ظهر منه وما بطن

« هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ »(٦) .

« أَوَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِىءُ اللَّه الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ »(٧) .

« إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعْدَ اللهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِىَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِن حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ »(٨) .

الطريق إلى الإيمان برب العالمين :

إذا ما هدانا الله إلى الاقتناع والإيمان والتيقن بأن كل أسباب ومقدرات ما نرى من أشياء وما نحسّ به من مظاهر هذا الكون ، إنما مرجعها إلى سبب واحد هو موجد كل الوجود وسبب كل أسباب هذا الوجود ومظاهره ، ألا وهو الله جلت قدرته الذى لا إله غيره ، كان علينا نحن المؤمنين أن نلجأ إلى كتابه الكريم ، قرآنه المبين وخاتم كتبه أجمعين ، نلجأ إلى هذا الكتاب الذى أنزله الحق ، سبحانه وتعالى ، بالحق مبينا لنا فيه ما شاء لنا من معرفة بأصل هذا الوجود ومظاهره .

يسوق لنا المولى ، جل وعلا ، فى كتابه الكريم ، من الآيات ما يوضح بها للناس ما شاء لهم من علم ومعرفة بهذا الكون ، فيبين للناس كيف أنشأه بكلمته وقدرته وحكمته ، منذ بدايته ثم يفصّل للناس دقائقه وبعضا من أسراره .

وهذا نوع من التربية الإلهية والإيحاء الربّانى للناس بطلب العلم وأسلوب البحث العلمى ، وحثا لهم على الاستطلاع وتحصيل المعرفة ، يقودهم بذلك إلى التسليم بعظمة الخالق وكمال تدبيره ، وإسلام الأمر كله له والإيمان بوحدانيته وحكمته ، والاتجاه إليه وحده فى طلب العون ، والخضوع المطلق لقَدَرِه وأوامره .

فلنتبصر فى القرآن الكريم آيات الخالق المبيّنات ، نستبين منها هذا الكون بما فيه

من سماوات وأفلاك ، ولننظر فى هذه الأرض التى عليها نعيش ، ولنتدبر طبيعتها وما فيها من جامد وحيّ :

١ - الكون :

ولنبدأ بالكون ولنتناول أصله ولنستطلع نظامه وحركته وتطوره واستمراره لنرى ولنؤمن بقدرة العزيز ذى الاقتدار الذى خلقه وأمسك بزمامه بما فيه من حركة وحياة ثم رعاه بالحق فى ذلك النظام الدقيق الذى لا يعلم سره إلا هو ، سبحانه وتعالى .

إن هذا الكون الذى أمكننا إدراكه ، بما شاء الله لنا من إدراك ، ليس هو الكون الوحيد الذى خلقه الله ، بل إن قدرة الخالق العظيم لا حدود لها ، وهو سبحانه قادر على خلق غيره من أكوان :

« أَوَ لَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الخَلاَّقُ الْعَلِيمُ »(٩) .

لنتأمل هذه الآية الكريمة ولنتدبر ما توحى إلينا به عن أصل هذا الكون :

« ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ »(١٠) .

فالآية تبين وتقرر أن أصل الكون الذى خلقه الله لم يكن سوى دخان ، ثم بكلمته وأمره ، سبحانه وتعالى ، كوّن من هذا الدخان كل ما فى الكون من شموس وكواكب ، ما تكوّن منها وما لا يزال فى دور التكوين بإذن الله .

فهذا الدخان ما هو إلا مادة ، ولكن ما طبيعة هذه المادة ؟

هل هى نوع من البخار ؟

وإذا كان بخاراً ، فهل هو بخار ماء أم غازات تكثفت أم ذرات معدنية صلبة متناهية فى دقتها ؟

إذا كان هذا الدخان بخار ماء فحسب ، لما تحول إلى تلك الأجسام الصلبة التى تتكون منها الكواكب المعروفة ، والتى قوامها المعادن والصخور ، بل لتحول هذا

البخار إلى ماء سائل أو ثلج صلب طبقا للظروف التى يهيؤها الخالق لإحداث هذا التحول ، ولما بقيت الشموس أو النجوم ذات درجات الحرارة المتناهية الارتفاع .

وإذا كان هذا البخار مجرد غازات من ذلك النوع المعروف لنا ، لما تحولت هذه الغازات إلى تلك الصخور والمعادن التى تتكون منها الأرض وغيرها من الكواكب .

فالأصح إذن والأقرب إلى طبيعة الأشياء ، أن هذا الدخان كان يتركب من جميع هذه المواد مجتمعة ومختلطة ، ففيه ذرّات الماء وذرات الغازات وذرات المواد الصلبة .

وقد افترض علماء الفلك والطبيعيات أن الكون بغازاته وشموسه وكواكبه ، كان فى الأصل سديما مكونا من ذرات ، وأن هذا السديم كان أشبه بالدخان وعلى درجة عالية من الحرارة لا يتصورها العقل وتعجز عن قياسها أدق ما لدَى البشر من أجهزة القياس .

وقد افترض بعضهم أن هذا السديم (الذى يشبه الدخان شكلا وقواما وخفة) قد جاء نتيجة انفجار فى مركز المادة الكونية فى أول تكوينها فتناثرت على أثره جزئيات هذه المادة وتباعدت عن هذا المركز إلى مالا نهاية ، ثم تجمعت أجزاء منها فى تجمعات مستقلة حول مراكز ثانوية مكونة نجوماً وكواكب ، وأن من هذه النجوم مالا يزال يتباعد عن مركز الكون بسرعة ١٧٣ مليون ميل فى الثانية الواحدة أى قدر سرعة الضوء حوالى ١٠٠٠ مرة .

ولعل الحكمة الإلهية فى خلق هذا الدخان أو السديم هى ، بعد تأكيد قدرة الخالق ، تأكيد وحدة الكون الذى من أصل واحد ، وحدته الذرة ، أو الجوهر الفرد كما يحلو لبعض العلماء تسميتها بهذا الاسم

ثم بكلمة الحق تعالى وبأمْرِهِ خَلَقَ من هذا الدخان السموات والأرض ، هذه الأرض التى نعيش عليها وتلك السماء التى تقع تحت أبصارنا ، ولكن لا يزال الكثير من الشموس والكواكب فى دور التكوين من هذا السديم ، بل لا يزال من السدم ما هو فى دور الخلق .

ويبين لنا العليم الخبير خلق الكواكب والشموس من هذا السديم :

« أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ »(١١) .

فمن هذا السديم الذى كان مفككا وسائبا ، خلق الله الأرض واخواتها من الكـواكب الأخرى والشمـوس ومنها شمسنـا ، كما خلق الماء الذى يملأ البحار والمحيطات التى يتصاعد ماؤها بُخاراً ليسقط فى شكل مطر يحيى به ما على الأرض من نبات وحيوان .

أما تاريخ خَلْق تكوين الكواكب والشموس وزمنه ، ومدته ، فعلمه عند الخالق وحده ، وما تقريره ، سبحانه وتعالى بيوم أو يومين إلا تقريبا إلى أذهان البشر وبيانا لعظم القدرة الإلهية ، فاليوم عند الله غير يومنا الأرضى المتعارف عليه ، ولم يحدده الله تحديداً نهائياً ، فهو جلت حكمته ، قد قدَّره لنا بـألف سنة ممـا نحسب ونعُد حيناً ، ثم قدره بخمسين ألف سنة حيناً آخر ، وهو سبحانه وتعالى أعلم بما يقدر ، وهو القادر على أن يخلق الكون أو يغيره فيما بين طرفة عين وانتباهها .

« وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهَ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّون »(١٢) .

« تَعْرُجُ المَلاَئِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْه فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ »(١٣) .

فهو سبحانه وتعالى قادر على خلق الأرض وما حولها من سماوات ، ونجـوم وشموس فى يومين ، قدرته على خلق ما هو أكثر ، بلا قيد زمنى مما نحسب ونقيس :

« قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الأَرْضَ فِى يَوْمَيْنْ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً ذَلِكَ رَبُّ العَالَمِينَ »(١٤) .

« فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِى يَوْمَيْنْ وَأَوْحَى فى كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحفظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ »(١٥) .

وما هذه المصابيح التى تلمع فى السماء سـوى تلك النجوم والشمس الملتهبـة المضيئة التى نراها من فوقنـا ومن خلال السـماء التى تحيط بأرضنـا ، وهى إحدى السموات السبع المذكورة فى الآية ، فيا لعظمة الكون بعظمة خالقه !

هذا هو أصل الكون وما فيه من شموس وكواكب مما مكنتنا قدراتنا الضئيلة من رؤ يتها ولم نحط منها إلا بالنزر اليسير مما يشـاء الله لنا بـه علما . وسنقف موقف

العاجزين عن إدراك مدى قدرة الخالق وخلقه ، وستصغر نفوسنا ويتضاءل علمنا وقدرتنا أمام جلال الخالق ، وما علينا إلا الخشوع لعظمته وإسلام الأمر كله له والإيمان به وحده .

ثم بعد ذلك نتساءل ، كيف تماسك هذا الكون ذلك التماسك المتين الذى لا فكاك فيه ولا تشتت ، ما سر هذا التماسك بين أطراف الكون وأجزائه وجزئياته ؟ وما السر فى دقة هذه الحركة التى تدور بها شموسه وكواكبه ؟ وما الذى قدر لها جميعا السير فى أفلاك أو طرق محدودة التزمتها منذ خَلقِها بحيث لم تحِد عنها قيد أنملة ؟ ألا يثير فينا استمرار هذا التماسك ودوام هذه الحركة بتلك السرعة المنتظمة تساؤلات وتطلعات إلى تلك القوة الجبارة التى تمسك بها وتسيرها وتنظم حركاتها ؟ وهلا زاد عجزُنا حيال هذه القوة من إيماننا بوجود الخالق ووحدانيته ، بعد أن عجزت حواسنا عن إدراكه ؟

انظر أيها القارىء المؤمن وتأمل ثم تدبر هذا الوصف الربانى للقدرة الإلهية فى تدبير الخالق لكونه وضبطه وتسييره :

« اللَّهُ نُورُ السَّموَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِه كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ، المِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّها كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِى اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ »(١٦) .

فيا لقدرة الخالق التى لا يقف فى سبيلها شىء ! ويا لسعة علمه الذى لا حدود لها ! .

فهو الله الذى جلت قدرته ، وهو القادر الذى لا يدرك قدرته فيخشع له إلا من أضاء الله قلبه بنور الهدى والرشاد والإيمان به ، ولا يدرك من علمه إلا من أضاء عقله وأرهف حسه ، فيحس مظاهر قدرة الخالق فيما يرى ، ويتدبر ما يلهمه الله به من علم ومعرفة بالخلق .

وهو سبحانه وتعالى المحيط بنور علمه كل شىء ، وعلى هدى نوره يهتدى كل شىء هذا هو النور الربانى الذى ينفذ فى كل شىء فيكشف منه ما ظهر وما بطن ،

وهو النور الذى لا يخبو ولا يضعف ولا ينفد له وقود . فهو ليس نورا عاديا ، بل هو نور فوق نور ، هو النور الإلهى الذاتى الأبدى يمده بوقود لا ينفد ، أودعه الله فى شجرة بارك فيها فلا ينفد زيتها .

أفبعد هذا مثلٌ يُضرب لمن لا يزال فى شك من أمره فى قدرة الخالق وعلمه وحسن تدبيره ؟

أفبعد هذا مجال لمكابر أو معاند أو متردد فى الإيمان بالحق الذى خلق السموات والأرض وهى منه وبه وإليه :

« وَلله مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى الله الْمَصِيرُ »(١٧) .

وإذا ما نظرنا إلى ما فوقنا من سماوات ، وما يتحرك فى أفلاكها من كواكب وتدبرنا ما نرى ، تجلت لنا قدرة الخالق ومحكم تدبيره وصرفه لما خلق :

« وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ »(١٨) .

« خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يكوِّر اللَّيْلَ عَلَى النَّهَار ويكوِّر النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ ، وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلاَ هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ »(١٩) .

« وَالشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيم »(٢٠) .

فتعاقب الليل والنهار ، كما نراهما على سطح كوكبنا الأرضى ، هو نتيجة حتمية لدوران الأرض حول نفسها أمام الشمس مرة كل يوم . ومن إحكام تدبير الخالق ومن مظاهر قدرته ، أنه يخلق من محكم الأسباب ما يستتبع محتوم الغايات والنتائج :

فبقدرته وحده وبكلمته خلق الأرض ، وبمحكم تدبيره دارت الأرض حول نفسها أمام الشمس فى نظام ثابت ودقة لا تخطىء ، بحيث تتم دورة كاملة فى زمن محدد قدرناه ، بمقاييسنا الأرضية ، بأربع وعشرين ساعة ، وقدره الخالق ، جلت قدرته بالزمن بين مشرق الشمس فى فجر يوم إلى مشرقها فى فجر اليوم التالى ، وكانت هذه الدورة الكاملة للأرض حول نفسها منذ أن خلقها الله وكورها ، وستظل بإذنه وإلى ما شاء لها من حركة ودوران . وليست حركة الشمس التى نراها من الشرق

إلى الغرب إلا حركة ظاهرية ، لأن الشمس ثابتة ، وإنما الأرض هى التى تدور حول نفسها أمام الشمس من الغرب إلى الشرق وتستمد منها الضوء نهارا ويلفها الظلام ليلا ، ونصف الكرة الأرضية المواجه للشمس هو الذى يضىء بينما يكون النصف المقابل مظلما ، ثم بدوران الأرض حول نفسها يحل الظلام بالنصف الأول بينما يضىء النصف الثانى ، أما تكور الليل والنهار على سطح الأرض ، كما ذكرت الآية ، فهو نتيجة طبيعية لشكل الأرض الكروى .

وسنرى فيما يلى المزيد من آيات الله البيّنات التى يكشف فيها لنا العليم القدير الكثير من أسرار كونه العجيب :

فليست حركة الأرض حول نفسها هى حركتها الوحيدة ، بل إن هذا الكوكب يتحرك فى نفس الوقت حركة أخرى أكبر وأوسع مدى وأعظم أثرا ، فالأرض تتحرك أيضا فى مسار دائرى هو ما يسمى بفلك الأرض الذى حدده الخالق من حيث الشكل والطول وحدد للأرض سرعة ثابتة لسيرها فى هذا الفلك . وقد قدرنا طول دائرة هذا الفلك بمقاييسنا الأرضية بنحو . . . , . . . , ٥٦٣ كم ، وبُعد الأرض عن الشمس حوالى . . . , . . . , ١٧٩ كم وسرعة الأرض فى فلكها حول الشمس بنحو ٦٤٠٨٠ كم فى الساعة (وسرعة دورانها حول نفسها ١٦٤٠ كم فى الساعة) . وتتم الأرض دورة كاملة حول الشمس فى ٣٦٥ يوما وربع اليوم ، وهو ما يسمى بالسنة الشمسية التى قسمها الفلكيون إلى اثنى عشر شهرا .

وكما تسير الأرض بحركتيها ونظاميها اللذين أحكم تقديرهما الخالق جلت قدرته ، كذلك يسير القمر وتسير الكواكب الأخرى . فالقمر يسير حول الأرض فى فلك طوله . . . , ٧٤٧ ميل ويبعد عن الأرض بنحو . . . , ٢٣٩ ميل . ويتم القمر دورته حول الأرض فى شهر قمرى (وهو أقل فى عدد أيامه من الشهر الشمسى) ومن ثم قسمت السنة القمرية إلى اثنى عشر شهرا تسمى بالشهور العربية التى اتخذت أساسا للتقويم الهجرى الإسلامى .

أما بالنسبة للشمس فالأمر يختلف تماما عنه بالنسبة للأرض والقمر ، وما هذه الشمس إلا نجم من ملايين النجوم ، وإن من بين هذه النجوم ما يفوق شمسنا حجما وبعداً عن الأرض بملايين المرات .

ولكنها تظهر لنا أكبرها بسبب قربها النسبي من الأرض .

وإذا علمنا أن بعد الشمس عن الأرض هو ٩٣,٠٠٠,٠٠٠ ميل ، وأن حجمها قدر حجم الأرض ١,٣٠٠,٠٠٠ مرة وأن درجة حرارة الشمس تبلغ ٣ - ٦ مليون درجة مئوية عند سطحها و ٣٠ - ٦٠ مليون درجة عند مركزها ، لزاد إيماننا بوحدانية الخالق ولخشعت قلوبنا أمام قدرته التى لا حد لها ، فهو سبحانه وبحكمته قد وضع الأرض الوضع المناسب لها من الشمس وسيّرها حولها فى ذلك النظام الرتيب الدقيق لتبقى عليها أسباب حياة الناس ومعاشهم ، إذ لو قل هذا البعد عما هو عليه لانصهرت الأرض ولتحولت إلى ذرات تائهة فى الهواء ، ولو زاد هذا البعد لحرمت من حرارة الشمس وبالتالى لاستحالت عليها الحياة من أى نوع .

وغير الشمس والقمر وما نعرف ونرى من نجوم أو كواكب ، فإن هناك من الشموس والكواكب والأقمار ما يفوق كل هذا عددا ، ولا يعلم غير الله مكانها وطبيعتها وأحوالها .

فاذا حدثنا القرآن عن أسرار كون الله اللانهائى إنما يحدثنا بالقدْر الذى يرى الله فيه صالح الناس فى حياتهم الدنيا وبالقدر الذى يزيد المؤمن إيمانا بربه وباليوم الآخر . وهو سبحانه وتعالى ، فى معرض ضرب الأمثال لمن يعقل ويتدبر إنما يضرب منها ماهو أقرب إلى حس الناس وبصرهم وفهمهم ، فالشمس تعطينا الحرارة وهى مصدر الحياة ، وبالقمر نحدد أوقاتنا وحسابنا ، ثم يترك للإنسان مواصلة البحث والاستطلاع فى أسرار بقية الكون بما يعود عليه بالفائدة والنفع الدنيوى وبما يزوده بتقوى الله والخضوع لأوامره وأحكامه .

« هُوَ الذى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لَتعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللهُ ذَلِكَ إلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْم يَعْلَمُونَ »(٢١) .

ولما سأل الناس الرسول ، ﷺ ، عن ظاهرة تغير أوجه القمر أى عدم ثبات المساحة المضيئة منه ، ولعل كان من بينهم بعض المكابرينَ من أهل الكتاب الذين أرادوا إعناته وتعجيزه عن تفسير ما ليس له به علم ، وهو النبى الأمى الأمين الذى لا ينطق عن الهوى ، لما سئل النبى فى ذلك أنطقه الله بوحى من عنده بالإجابة فى آية

محكمة ليس فيها تفاصيل علمية لم تتهيأ لها أفهام الناس بعد ، إذْ اكتفى الوحى بما يفيد المسلمين فائدة عملية فى ذلك الوقت فنزلت الآية :

« يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن أَبْوَابِهَا واتَّقُوا الله لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ »(٢٢) .

وفى آية أخرى يبين قدرته سبحانه وتعالى على تغيير أوجه القمر ، ولكنه يوحى بالتفسير العلمى لأسباب هذا التغيير بأنه نتيجة لتغير أوضاع القمر فى مساره حول الأرض :

« وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ »(٢٣) .

ويسير الأسلوب العلمى القرآنى فى تبصير المؤمنين بما شاء الله من أسرار الكون فى شكل مبسط لا تعقيد فيه ، وبنى هذا الأسلوب على المشاهدة ثم التفسير .

فتنزل الآيات المجملة كمدخل لآيات أخرى مفصلة . مثال ذلك :

الآية التى تبين للناس فائدة خلق الله الليل والنهار :

« وجَعَلْنَا اللَّيْلَ والنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً من رَّبِكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالحِسَابَ وُكَلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً »(٢٤) .

والآية : « فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً ، والشَّمْسَ والقَمَرَ حُسْبَاناً ذَلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ »(٢٥) .

فهاتان آيتان تبينان الفائدة العملية للناس من خلق الليل والنهار ، وهى أن يكون النهار وقت عمل وسعى للارتزاق ، ويكون الليل للراحة والهدوء .

وهما فى نفس الوقت مدخل لحقيقة علمية تفسر أسباب تعاقب الليل والنهار فمن أراد الإلمام بطرف من أسرار تعاقب الليل والنهار فليرجع إلى الآية :

« وَتَرَى الجبالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّه الَّذى أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ إنه خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ »(٢٦) .

فهذه الجبال الشامخة الراسية فى الأرض وتبدو لنا ساكنة ، إنما هى فى حركة مستمرة وسريعة مع حركة الأرض اليومية حول نفسها وحركتها السنوية حول الشمس .

ومن الأساليب العلمية القرآنية التلميح للبشر ببعض أسرار الكون مع الاحتفاظ بالهدف المباشر من نزول آيات الله البينات ، وهو بيان معنى الإيمان بالله وفضل الإسلام ، وهذا ما تبينه الآية الكريمة :

« فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ »(٢٧) .

فهذه الآية تصف حالتين متناقضتين ، حالة المؤمن المسلم ، وما أدخل الله فى قلبه من أمن وطمأنينة وهدوء نفسى ، وحالة الكافر المكابر الذى صدته نفسه المريضة عن الإيمان بالله والإسلام له ، وما هو فيه من قلق نفسى وكرب وعذاب وضيق يعجزه عن التنفس . هذا هو الهدف المباشر للآية .

وبجانب هذا الهدف المباشر ، توحى نفس الآية بحقيقة علمية أثبتتها التجارب والأبحاث عن طبيعة الغلاف الهوائى المحيط بالأرض . فهذا الهواء مركب من غازات أهمها الاكسجين اللازم للحياة والذى يحصل عليه الانسان بتنفسه الهواء ثم استخلاص الأكسجين منه . وهذا الاكسجين تقل نسبته فى الهواء كلما ارتفع الإنسان عن سطح الأرض وصعد إلى طبقات الهواء العليا ، فتزداد حاجة هذا الصاعد إلى مزيد من الأكسجين فتزداد سرعة تنفسه ، وتتزايد هذه السرعة كلما زاد ارتفاعاً فى الهواء فيزداد صدره ضيقاً عن استيعاب ما يلزم من الأكسجين حتى يبلغ فى ارتفاعه إلى طبقة هوائية يندر فيها الأكسجين أو ينعدم فيصاب بالإغماء ثم الاختناق .

ثم يتناول القرآن الكونَ كله بما فيه من كواكب وشموس وغيرها من الأجرام السماوية فيبين لنا قدرة الخالق وحكمته إذْ يوحى لنا بذلك القانون الذى توصل إليه العلم أخيرا ، ألا وهو قانون الجذب العام ، ذلك القانون الذى يبين لنا السر فى بقاء هذه الأجرام على حالها من حيث الحجوم والأبعاد والحركات ، فلا ترتطم هذه الأجرام بعضها ببعض ولا يتساقط الواحد منها تلو الآخر هباء منثوراً .

وهى رغم هذا التنظيم المحكم لا يربط بينها رباط محسوس ولا ترتكز على أعمدة نراها ، والسر فى بقائها على الحال التى خلقها الله عليها يكمن فى قوة الجذب الكامنة التى أودعها الله فى كل جرم ، وانتظام سرعته وثبات أطوال المسافات بين كل هذه الأجرام ، إن هذا النظام الدقيق أوحت لنا بأسراره الآية المختصرة الآتية :

« اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّموَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ »(٢٨)

« وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ »(٢٩) .

٢ ــ الارض :

« قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ »(٣٠) .

تقرر الآية أن الله القوى القادر ، قد خلق الأرض فى يومين اثنين .

وقد سبق أن بينت لنا بعض الآيات القرآنية ، أن التقدير الإلهى للزمن غير ذلك المقياس الزمنى الذى وضعه البشر ، ففى التقدير الالهى قد يكون اليوم عند الله كألف سنة أو خمسين ألف سنة بحسابنا الأرضى او أكثر أو أقل ، ولا عجب فى ذلك ، فهو سبحانه وتعالى الخالق لكل شىء مما نعلم ومما لا نعلم ، هو الذى خلق المادة والزمان والمكان وبإذنه وبكلمته وحده تبدأ الحركة وتستمر وتتوقف ، وهذا كله من الأسرار الإلهية التى احتفظ الله بها فى علمه اللانهائى . فهو سبحانه وتعالى ، إذْ يقرر انه خلق الأرض فى يومين ، إنما يوحى إلينا بقدرته التى لا حدود لها على خلق ما يشاء بما يرى وكيف يريد دون التقيد بحدود الزمان أو المكان ، بل إنه بكلمته سبحانه وتعالى قد خلق ما هو أعظم وأكبر من أرضنا هذه فى أيام معدودات :

« هُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّموَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى الْأَرْضِ وما يخرج مِنهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وما يعرج فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ »(٣١) .

ولهذه الآية معنى سام آخر إذْ يشرّف الله الأرضَ بأن خلقها فى يومين بينما قد خلق الكون كله بنجومه وكواكبه وسماواته فى ستة أيام .

أَوَ لَيْسَ هذا فضل من الخـالق على بنى آدم ـ أهـل هذه الأرض ـ مـا بعده فضل ؟

أَوَ لَيْسَ فى هذا تكريم ربانى لهم ما بعده تكريم ؟ .

أما آن للبشر ، كل البشر ، بعد كل ما آتاهم الله من فضل وتكريم ، أن يقابلوا هذه النعم بالحمد والشكر لخالقهم الكريم ، أليس فى كل هذا ما يوعظ به البشر فيخشعون لجبروت الخالق وعظمته ويسلمون الأمر كله له وحده ؟

وما محاولات جهابذة العلم من البشر لتقدير عمر الأرض إلا ضربا من الخيال لا جدوى منه ولا غناء ، والدليل على ذلك هذا التناقض فى تقدير البشر هذا العمر فقد جعل البعض عمر الأرض ٣٠٠٠ مليون سنة بينما قدره البعض الآخر بنحـو ١٣٠٠ مليون سنة . ولا يزال عمر هذه الأرض منذ خلقها الله سراً من أسراره ، التى احتفظ بها لنفسه . ولم يأذن الله بعد بالكشف عنه للناس ، وربما يأذن الله بذلك مستقبلاً ، إذا أراد ، فيلهم به الناس عندما يرى فى ذلك جدوى لهم .

فعلى البشر تقصى ما يفيدهم من حقائق علمية عما يرون فى هذه الارض بما طوّع اللهُ لهم من وسائل عقلية أو مادية . وعليهم أن ينظروا إلى أرضهم ، يتقصون حقائق ما يـرون منها من حيث طبيعتهـا ومادتهـا وكائنـاتها وطـرائق العيش عليها والسلوك فيها بالحق والعدل ، فهذا أجـدى لهم وأنفع . فى الـوقت الحاضـر على الأقل ، من استطلاع مالا جدوى منه ولا فائدة .

وعليهم الاهتداء فى ذلك إلى السبيـل القويـم الـذى رسمه الله لهم فى محكم تنزيله .

فعليهم مثلا استطلاع موقع الأرض من الشمس ، مصدر الحياة ، وعلاقتها بها وأثرها عليها .

وعليهم مثلا استطلاع شكل الأرض وتحركاتها وأثر ذلك فى حياتهم العملية .

وعليهم ايضاً تقصّى أحوال الهواء المحيط بأرضهم وتركيبه وأثره عليها .

وعليهم مثلا البحث عما يكمن فى هذه الأرض من مواد نافعة ، وما ينمو عليها من نبات وما يدرج عليها من حيوان ، فيفيدون منها فى حياة رغدة كريمة وعليهم قبل ذلك كله ذكر الخالق المبدع ، ثم حمده وشكره على هذه النعم .

وليكن القرآن الكريم مرجعهم وملاذهم فى استطلاعهم وبحثهم وسعيهم وسيجدون فى آياته ما أوحى الله به للبشر بطرف من علمه الواسع وبالقدر الذى رأى فيه نفعاً لهم .

ففى قوله تعالى : « وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطاً »(٣٢).

إنما يذكر الناس برحمته بهم وعطفه عليهم بتذليله تلك الأرض وتمهيدها وبسطها ليسيروا فيها فى يسر ، سعيا وراء أرزاقهم ، ويفسر ذلك فى الآية :

« لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجاً » (أى طرقاً)(٣٣) .

فلا يضل الإنسان عن حقيقة شكل الأرض ولا يظن ، كما قال الأقدمون ان الأرض مسطحة ، فى حين أن الله سبحانه وتعالى خلقها وشكلها فى هيئة كرة مستديرة .

« خَلَقَ السَّموَاتِ والأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مسمًّى أَلا هُوَ العَزِيزُ الغَفَّارُ »(٣٤) .

فالليل أو النهار الذى يحل بهذه الأرض يتخذ شكلها الكروى .

بل يزيدنا الله علما وبيانا دقيقا بشكل الأرض ، فى قوله تعالى :

« وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا »(٣٥) والدَّحْىُ هو البيض .

أى أن الكرة الأرضية ليست تامة التكور ، وليست أبعاد سطحها عن مركزها متساوية ، بل إن شكل الأرض الحقيقى كالبيضة ، وهذا ما أثبته العلم الحديث . إذْ لوحظ أن الكرة الأرضية مبططة عند القطبين ومنبعجة أى منتفخة عند خط الاستواء وهذا هو الشكل الحتمى الذى يتخذه أى جسم لينّ يدور حول نفسه ، كما

كانت حالة الأرض فى أول تكوينها . وهى الفكرة التى تقوم على ما يسمى بقوة الطرد المركزى وما يتفرع عنها من نظريات وما يَسْتَتْبِعها من آثار ومظاهر ، هذه القوة تظهر إذا دار أى جسم حول نفسه بسرعة كبيرة وتعمل على إبعاد ذرات الجسم وجزيئاته عن مركزه . ومعنى ذلك أن الجسم يتفتت ويتحول إلى هباء متناثر ولكن الله سبحانه وتعالى قد خلق أيضاً قوة مضادة لقوة الطرد المركزية فى الأرض وهى قوة الجذب التى تعمل على جذب ذرات الجسم ، أثناء حركته هذه وجزئياته نحو مركزه وبذلك يلم شتاتها ويمنعها من التناثر ، وهذا ما حدث للأرض منذ نشأتها ولا يزال يحدث ، ولم تترك هاتان القوتان المتضادتان من أثر فى الأرض سوى ذلك الشكل البيضاوى المذكور .

وحين نزل الوحى بالقرآن على محمد ﷺ ، لم يكن من البشر من يعلم أو يدور بخلده أن الأرض تتحرك وتدور حول نفسها بينما يراها بناظريه ثابتة تحت قدميه . بل كان الناس فى الواقع يحكمون على ما يرون بظواهره . فقدّروا أن الحركة الظاهرة أمامهم هى حركة الشمس من الشرق إلى الغرب ولم يدر بخلدهم أن الشمس ثابتة فى الواقع وأن حركتها هذه إنما هى حركة ظاهرية ناشئة عن حركة الأرض حول نفسها من الغرب إلى الشرق ، ورغم أن القرآن قد ألمح إلى هذه الحقيقة العلمية فإن البشر لم يدركها إلا بعد ذلك بمئات السنين :

« وَتَرَى الجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللهِ الَّذِى أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ »(٣٦) .

فحركة الجبال ليست مستقلة عن حركة الأرض بل هى تدور معها فى حركتها حول نفسها وحول الشمس .

فالأرض كغيرها من الكواكب السيارة تدور حول نفسها بسرعة قدرها حوالى ١٠٠٠ ميل فى الساعة عند وسطها وتتناقص سرعتها كلما بعدنا عن وسطها حتى تنعدم هذه الحركة عند نقطتى القطبين .

وإذْ يوحى العليم الخبير فى قرآنه الكريم إلى الإنسان بأن يبحث بحثاً علمياً عن ظاهرة تعاقب الليل والنهار على سطح الأرض كل يوم ، فإنه جلت حكمته يوحى

إليه بالكثير من المعانى السامية والمواعظ والعبر :

« يُولِجُ الَّليْلَ فِى النَّهارِ وَيُولِجُ النهارَ فِى اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيم بِذَاتِ الصُّدُورِ »(٣٧) .

فالليل لا يخيم على الأرض فجأة ، والنهار لا ينتشر نوره على غير انتظار .

بل إن كلا من الليل والنهار يأتى تدريجياً ليجُبَّ كل منها الآخر ، فيزحف الليل على النهار ابتداء من غروب شمس كل يوم ويجثم على الأرض حتى مطلع فجر اليوم التالى فيبدد نوره ظلام الليل ويمحوه محواً .

وما أبلغ بيان الآية الآتية لهذه الظاهرة ، وما أروع تصويرها لكثير من المعانى الأخلاقية :

« إنَّ رَبَّكُمُ الله الذَّى خَلَقَ السَّموَاتِ والأرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الخَلْقُ وَالأمْرُ تَبَارَكَ الله رَبُّ العَالَمِينَ »(٣٨) .

فهو ، سبحانه وتعالى ، إذ يبين لنا بالدليل المحسوس ، قدرته ومحكم تدبيره لما خلق ، إنما يبين للناس ، عن طريق هذه الظاهرة الطبيعية وبجانب فائدتها العملية ، طبيعة الخير والشر .

فالشر يأبى إلا أن يطرد الخير من الوجود . فما أشبهه بالليل المظلم وما أشبه الخير بالنهار المضىء ، ويصور الله موقف الشر من الخير ودأبه على اقْتِفَاءِ أثره واسراعه الخُطى ليلحقه ويقضى عليه ، ولكن العزيز الرحيم يأبى إلا أن يتم نوره ، فلا يجمع النقيضين فى وقت واحد وفى مكان واحد ، فاذا حل الظلام بَعُدَ عنه النور بُعْدَ الخير عن الشر . وسيظل الصراع قائماً بين الخير والشر ما ظلت الأرض تدور وما ظل تعاقب الليل والنهار ، إلى أن يقضى الله أمره .

« يُقَلِّبُ الله اللَّيْلَ والنَّهارَ إنَّ فِى ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِى الأبْصَارِ »(٣٩) .

ثم يسير القرآن الكريم بنا على هذه الأرض هادياً لنا ومرشداً لنستطلع ونتعظ بديع صنع الخالق ومحكم تدبيره لما هو عليها وفيما هو فى باطنها من مواد وكائنات ، ما عظم منها وما دق .

« يَابُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللهُ إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ »(٤٠) .

ثم يتدرج القرآن الكريم معنا فى مراقى العلم والمعرفة بأسلوبه البليغ ، فيبصّرنا بالظاهر المحسوس وممهداً لنا التعرف على خفايا هذه الأرض وأسرارها .

فيبدأ ببيان أضخم ما على الأرض من موجودات إلى أدقها :

فيبصرنا بالجبال فى عظمتها وشموخها ، وما يشقه فيها وابل المطر وجارف السيول من وديان وطرق واضحة المعالم شكلاً ولوناً ، ليتخذ الناس من هذه الظاهرة العبرة فى اتباعهم صراط ربهم المستقيم الذى حدده الله للمؤمنين تحديد تلك الجبال الشامخة الراسخة للطرق والسبل التى يسير فيها الناس فى انتقالهم من مكان إلى مكان سعياً وراء رزقهم وتحصيل معاشهم ، فلا يضلون السبل ولا تفرق بينهم المسالك .

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ، فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَراتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا وَمِنَ الجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وحمر مُخْتَلِفٌ أَلْوانُها وَغَرابِيبُ سُودٌ »(٤١) .

والجُدَد هى الطُّرُق .

وإذْ يذكر لنا القرآن الكريم أثراً آخر للمطر ، فضلاً عن نحت الوديان والمسالك التى يسير فيها الناس لبلوغ مقصدهم ، إنما يذكّر بالتبصر والتمييز بين ما يفيد وما لايفيد .

« أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاء فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتَغاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الحَقَّ وَالبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاء وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمكُثُ فِي الأَرْضِ ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ »(٤٢) .

فالمطر يفتت الصخور المختلفة ويحملها سيله مختلطاً بعضها ببعض ، وبعد أن ينتهى المطر أو يجف السيل يلتقط الناس من بين هذه الصخور ما قد يكون فيها من معادن نافعة ويتركون غير النافع من الصخور ، تماماً كما يجب على الإنسان العاقل من تمييز الطيب والخبيث من قول أو فعل فيأخذ بالأول وينأى بنفسه عن الثانى .

ثم يوضح لنا وظيفة هامة ، خلق الله من أجلها الجبال وأرساها على هذه الأرض :

« وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبلاً لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ »(٤٣) .

« وأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ »(٤٤) . ثم يزيدنا بياناً بوظيفة الجبال :

« أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَاداً وَالجِبَالَ أَوْتَاداً »(٤٥) .

والوتد فى اللغة هو الشىء الذى يمسك شيئاً آخر ويثبته فى موضعه فيمنعه من السقوط أو الإفلات .

فالخيام ترتفع على أعمدة ثم تمتد بالحبال إلى أوتاد تغرس فى الأرض حتى لاتنهار ، والبهيمة تشد بحبل إلى وتد يدقه صاحبها فى الأرض حتى لاتفلت منه أو تهرب وهنا مثار العجب والبحث فى هذه الآية .

فكيف تكون الجبال الراسية على الأرض وتدور معها فى تحركاتها أوتاداً تشد هذه الأرض وتمنعها من السقوط ، وكيف يرتكز الوتد على نفس الشىء الذى يحرص الخالق ، سبحانه وتعالى ، على حفظه من الانهيار والإفلات ؟

إن التفسير العلمى لهذه الوظيفة التى ناطها الخالق بالجبال الراسية على الأرض يكمن فى تركيب الكرة الأرضية نفسها ، وطبيعة هذا التركيب :

فالمقطوع به علمياً وبالدليل المادى وبالمشاهدة هو :

أن الكرة الأرضية تتكون من ثلاثة أغلفة كروية متتالية وذات مركز واحد هو مركز هذه الكرة كلها .

وأعلى هذه الأغلفة هى القشرة الأرضية الباردة الصلبة وسطحها هو الظاهر لنا والذى نسير عليه . وسمك هذا الغلاف ضئيل جداً بالنسبة لسمك الطبقتين اللتين تحته ، إذ لايتجاوز ٥٪ من سمك الأرض من مركزها إلى سطحها ، ويتكون هذا الغلاف من معادن وصخور صلبة .

ويلى هذه القشرة ويقع أسفلها مباشرة ما يعرف بباطن الأرض ، ويقدر سمكه بنحو٧٠٪ من سمك الكرة الأرضية كلها ، ويلى باطن الأرض طبقة ثالثة متكوّرة على المركز ، ويبلغ سمكها حوالى ٢٥٪ من سمك الكرة الأرضية (من سطحها إلى مركزها) ، وتسمى لب الأرض .

وكانت الكرة الأرضية عند أول خلقها ملتهبة مكونة من معادن مصهورة وغازات ساخنة ، ثم بعدت عن أمها الشمس بمسافة شاسعة ودخلت فى أجواء أقل حرارة بكثير مما كانت عليه الأرض فبرد الجزء الخارجى إلى ذلك العمق النسبى الذى سبق ذكره وهو القشرة الأرضية . وبقى ما يلى هذه القشرة وأسفلها فى درجة حرارة عالية جداً جعلت من باطن الأرض مادة لينة من المعادن والصخور المصهورة كما ظلت معادن وصخور الطبقة الثالثة (اللب) فى حالة سيولة تامة .

وطبقاً لهذه النظرية ، كان من المتوقع أن تغوص القشرة الأرضية الصلبة فيما تحتها من طبقات لينة أو سائلة فلا يبقى لها من أثر .

ولكن الله القوى القادر قد هيأ لهذه القشرة من الوسائل والأسباب ما يحفظ للقشرة الأرضية توازنها وبقاءها فى مكانها وأمسكها من الغوص والاختفاء داخل هذه الكتلة الباطنية المصهورة .

فما أشبه هذه الجبال بالأوتاد ، لا من حيث الشكل والوضع بل من حيث الوظيفة فكلما أوشك جزء من سطح الأرض على الغوص بفعل الجاذبية الأرضية فى جانب ، أنقذها الله بخلق جبل فى الجانب المقابل فيثبتها فى مكانها ويعيد إليها تماسكها واتزانها .

ويبين لنا القرآن الكريم أيضاً تلك الظاهرة المعروفة باسم التعرية ، وهى تلك الظاهرة التى رتب لها الإنسان الأسباب واستنبط لها من العوامل التى تعمل على تفتيت أجزاء من سطح القشرة الأرضية الصلبة ، ومن هذه العوامل الأمطار والأنهار والرياح وغيرها من العوامل الطبيعية وما سببٌ هذه الأسباب وما هيأ تلك العوامل سوى السبب الأول للوجود كله ، وهو الله الخالق المبدع ، ونلمس نحن المؤمنون فى الآية الآتية معنى هذه القوة والمقدرة .

« أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللهُ يَحْكُمُ لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ »(٤٦) .

وهذه أيضا بجانب ما تبصرنا به من حقيقة علمية ، تقيم الدليل اليقينى بالله وقوته وعظمته وقدرته على كل شىء .

ثم يصف القرآن الكريم بأسلوبه العلمى المبسط ظاهرة سقوط المطر والثلج من السماء إلى الأرض ويوحى للمؤمنين من واقع ما يرون من هذه الظاهرة الطبيعية كيف يصرف الأمور وكيف ينذر ويبشر الناس ، إذْ جعل البرق نذيرا بصاعقة تنقض على الكافرين ، وبارقة أمل ورجاء للمؤمنين بالله وحده ، وهو سبحانه وحده القادر على أن يفعل ما يشاء :

« هُوَ الَّذِى يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنْشِىءُ السَّحَابَ الثِّقَالَ »(٤٧)

كما يبين لنا محكم التنزيل ظاهرة السحاب وتراكمه سحابة من فوق سحابة فى طبقات الجو العليا حيث يشتد البرد ويتكثّف ما فى هذا السحاب المتراكم من بخار الماء فينزل حيث يشاء وكما يريد سائلا ، فى شكل مطر منهمر أو صلباً فى شكل بَرَدٍ وثلج يتحول بدوره على الأرض إلى ماء يجرى بالخصب والنماء .

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِى سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّماءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَمَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ »(٤٨) .

٣ - الحياة :

ثم يبين ذلك التعاون الذى أوثقه الحكيم القدير بين الرياح والأمطار لإحياء ما خلق من نبات وحيوان وإنسان ، فالرياح تحمل حبوب لقاح من نبات ذكر فى مكان ما إلى نبات أنثى فى مكان آخر ، والمطر يسقى كل حى على الأرض ، وتواصل الرياح حمل حبوب اللقاح لتستمر حياة النبات ويتكاثر .

« وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَاأَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ »(٤٩)

« وَهُوَ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشراً بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمراتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ »(٥٠) .

ومن عجيب صنع الخالق ، سمت حكمته وجلت قدرته ، أن يسقى ما على الأرض من نبات بماء واحد ، ولكن ما أودع فى هذه النباتات من خصائص يجعلها تنبت ثماراً متباينة :

« وَهُوَ الَّذِى مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ وَأَنْهَاراً وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِى اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ(٥١) وفِى الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِى الأكُلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ »(٥٢) .

« وَشَجَرةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلآكِلِينَ »(٥٣) .

وكما سخر الله السحاب والمطر لسقيا الزرع والإنسان ، زاد الإنسان تكريماً وفضلاً لعله يحمد الله ويشكره ويتقيه ، فجعل من ماء البحر فوائد للإنسان لا تنكر ، فمن البحر يستخرج طعاما وحلية جميلة ، كما جعل من البحر وسيلة ميسرة لتنقل الإنسان من مكان إلى مكان .

« وَهُوَ الَّذِى سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ »(٥٤) .

ثم يجمع محكم التنزيل ، فى آية واحدة فضل الله على الإنسان بما خلقه من ماء عذب وماء ملح ، تذكرة له وعبرة .

« إنَّ فى خَلْقِ السماواتِ والأرْضِ واختلافِ الليلِ والنهارِ والفُلْكِ التى تجرى فى البحر بما ينفعُ الناسَ وما أنزلَ اللَّهُ من السماءِ من ماءٍ فأحيا به الأرضَ بعد موتِها وبثَّ فيها من كل دابةٍ وتصريفِ الرياحِ والسحابِ المسخرِ بين السماءِ والأرضِ لآياتٍ لقومٍ يعقِلونَ »(٥٥) .

بل ما أبلغ لغة القرآن فى الإيجاز العلمى ، إذ لخَّص فى آيةَ واحدة وفى ترتيب

زمنى واقعى ، خلق السموات ثم الأرض ، ثم ماء البحر ثم ماء المطر ثم النبات والحيوان .

وكما جرى القرآن الكريم فى أسلوبه العلمى ، إذْ يفصل فى آيات ما أجمل فى آية فانه قد تناول دورة حياة النبات فى بضع آيات ، بيّن فيها للناس ما كان خافياً ، كما بيّن قدرة الخالق فى إخراجه الحى من الميت والميت من الحى :

فالثابت علمياً أن النبات لا يثمر إلا إذا لُقِّح . ومن ثم جعل الله من كل صنف من النبات زوجين ، ذكر وأنثى لابد من تَزَاوُجِهما حتى تحدث عملية التلقيح التى تؤدى فى نهاية الأمر إلى إثمار أنثى النبات ثمراً يحتوى على بذور من نفس النوع . هذه البذور تظهر لنا وكأنها لا حياة فيها ، ولكن إذا ما سُقِيَتْ ماء يسوقه لها الخالق جلت قدرته ، نما فى داخلها الجنين وكبر حتى يبلغ حجماً تنشق بعده البذرة ، ثم يزداد الجنين نمواً حتى يبرز فوق سطح الأرض وفى نفس الوقت تخرج زوائد دقيقة من البذور تتحول فيما بعد إلى جذور ممتدة فى باطن الأرض يثبّت بها النبات إلى الأرض وعن طريقها يستمد غذاءه . ثم يزداد هذا النبات الصغير نمواً حتى يزهر أزهاراً تحمل أعضاء التأنيث عند أنثى النبات ، فاذا حملت الريح حبوب اللقاح الذكرية إلى هذه الأعضاء الأنثوية التصقت بها فتتحول الزهرة إلى ثمرة ناضجة صالحة لغذاء الإنسان أو الحيوان . وتحتوى هذه الثمار على بذور من نفس نوعها . فإذا ألقيت هذه البذور فى أرض صالحة وسقيت بالماء أنبتت نباتاً آخر من نفس النوع الذى جاءت منه ، وهكذا دواليك ، كل هذا فصّله القرآن الكريم فى بعض آياته :

« سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وِمِنْ أَنْفُسِهِم وِمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ »(٥٦) .

« أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الأَرْض كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ »(٥٧) .

« إِنَّ اللهَ فَالِقُ الْحَبِّ والنَّوَى يُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ المَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَىِّ ذَلِكُمْ اللَّهَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ »(٥٨) .

« وآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ المَيْتَةُ أَحْيَيْناهَا وَأَخرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْه يَأكُلُونَ »(٥٩) .

« وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وفَجَّرنَا فِيهَا مِن الْعُيُونِ »(٦٠) .

« لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وما عمِلَتْه أَيْدِيهِمْ أَفَلاَ يَشْكُرُونَ »(٦١) .

وكما صنع الله الحياة فى شكل نبـات ، خلق أيضاً الحيـوان بمختلف أنواعـه وأجناسه وسلالاته ، خلق الزواحف وذوات الرجلين وذوات الأربع ، كما خلق ما هو أرقى من ذلك وما هو أدنى ، وما لا يزال خافياً علينا ولا يعلمه إلا الخالق جلت قدرته :

« والله خَلَقَ كُلَّ دابة مِن مَّاء فمنُهْم مَن يَمْشى عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَن يَمْشِى عَلَى رِجْلَيْنِ وَمنْهُمْ مَن يَمْشى عَلَى أَرْبـع يَخْلُقُ اللَّهَ مـا يَشَـاءُ إنَّ اللَّهَ عَـلَى كُـلِّ شَىْءٍ قَدِيُرٌ »(٦٢) .

وكما خلق مبدع الخلق من كل نوع من النبات زوجين ، ولما كان حفظ كل نوع يتطلب تزاوج ذَكَرِه وأنثاه لإنجاب سلالة متشابهة ، كذلك يتزاوج الحيوان . إذْ ينزل الماء من الذكر إلى الأنثى حيث يحدث التلقيح ويتكون الجنين فى رحم الأنثى ويصوره الخالق ويشكله على مثال أبويه ، ويظل ينمو ويكبر إلى أن يكمل الله صورته فى مدة حددها ليخرج بعدها إلى هذه الدنيا .

وهذا ما يحدث أيضاً بين أزواج النوع البشرى .

وتصور لنا آيات الله البينات فى قرآنه الكريم ، طريقة هذا الخلق أبدع تصوير :

« هُوَ الَّذِى يصوركم فى الأَرْحَام كَيْفَ يشاءُ لاَ إِلَه إلاَّ هُوَ العزيز الْحَكِيمُ »(٦٣) .

« يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم مِن نَّفْس وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً ونسَاء واتَّقُواْ الله الَّذِى تَسَاءلُونَ بِهِ والأَرْحَامَ إنَّ الله كَانَ عَليكم رَقِيباً »(٦٤) .

« هُوَ الَّذى خَلَقكُم مِن نَّفسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْها زَوْجَهَا لَيَسْكُنَ إلَيْهَا فَلَمَّا تَغشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمرَّت بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنا صَالِحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ »(٦٥) .

ثم يصور لنا ويزيدنا من تفاصيل العلم ما يزيدنا إيمانا على إيمان بقدرته سبحانه

وتعالى وحكمته ، إذْ يبصرنا بحال الجنين ، وهو مازال فى بطن أمه :

« خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحدةٍ ثُمَّ جعَلَ مِنهْا زوجها وَأَنْزَلَ لَكُم مِّنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أزواج يخلقكم فى بطون أُمَّهَاتِكُمْ خَلقاً مِن بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَاتٍ ثلاثٍ ذَلِكُمُ الله رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْك لا إِلَهَ إلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ »(٦٦) .

فهو سبحانه وتعالى ، القادر على أن يقول لأى شىء كن فيكون ، يضرب لنا مثلا فى الأناة والتأنى فى العمل والإبداع والسير فى عملنا بخطوات ثابتة حتى نتقن ما نريد من عملنا ونجنى منه أحسن الثمرات ، فالجنين فى بطن أمه لايخلق بصورته النهائية دفعة واحدة بل يخلق جزءاً جزءاً ، وكل جزء يعد لتركيب الجزء التالى حتى تكتمل الصورة وينجز العمل على أكمل وجه . ثم بعد ذلك يبين لنا الخالق موضع الجنين فى بطن أمه فى مكان أمين يلفه بأغشية ثلاثة هى المشيمة يعلوها جدار الرحم ثم جدار البطن ، فإذا كمل خلق الجنين وأُعِدَّ بعد ذلك للحياة الدنيا خرج بإذن ربه من هذه الظلمات المتراكبة إلى نور الدنيا بشراً سوياً .

ويمنّ الله على عباده ، بما آتاهم من نعم وما سخر لهم من أنعام خلقها نفعا لهم فيفيدون منها فى شتى مطالبهم فى حياتهم الدنيا .

« والأنعامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ »(٦٧) .

« وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْها رَكُوبُهُمْ وَمِنْها يَأْكُلُونَ »(٦٨) .

ومن الأنعام ما يؤخذ منها لبن صاف غذاء للناس ولأطفالهم . يخلقه الله لهم فى بطون الحيوان ويصفيه ويعزله من بين الدم وما تهضم المعدة من طعام :

« وَإِنَّ لَكُمْ فِى الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسقيكُمْ مِمَّا فِى بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَناً خَالِصاً سائِغاً للشاربين »(٦٩) .

« ولَهُمْ فيها مَنَافعُ ومَشَاربُ أَفَلاَ يَشْكُرُونَ »(٧٠) .

ومن الحيوان ما سخره الرحمن لراحة الناس فى تنقلهم وحمل متاعهم ومتاجرهم من مكان لآخر ، فييسر لهم برحمته سبل العمل والارتزاق :

« وَتَحْمِل أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تكونوا بالِغِيهِ إلاَّ بِشقِّ الْأَنْفُسِ إنَّ رَبَّكُمْ لرءوفٌ رَّحيمٌ »(٧١) .

بل إن الله اللطيف بعباده قد زاد الإنسان من نعمه وفضله ، فهيأ له من أسباب الزينة ما يزيده لله شكرا وحمدا :

« وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَالاَ تَعْلَمُونَ »(٧٢) .

كما زود الرحمن مما خلق من حيوان بما يوفر به للإنسان ما يشتهى من حلو الطعام فقد سخر له النحل يمده بعسل شهى :

« ثُمَّ كُلِي مِن كُل الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتفَكَّرُونَ »(٧٣)

ثم بعد كل ما أتى الله الإنسان من نعمه وأفضاله ، يوحى إليه ، من خلال قرآنه الكريم ، بضرورة تمسكه بتقواه والبعد عن الغرور بما أتاه ، فكل هذا من متاع الدنيا الذى لا غنى فيه عن النهاية المحتومة لكل إنسان . ويبين لنا الخالق جلت حكمته ، كل هذا من خلال آية مختصرة وبليغة بين فيها مراحل عمر الإنسان وما يطرأ عليه من تغيير فى كل مرحلة منها :

« اللهُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ العَلِيمُ القَدِيرُ »(٧٤) .

تم بحمد الله

المؤلف

الفصل الثالـــث

(١) الكهف ٨٤ .
(٢) يس ٨٢ .
(٣) البقرة ١١٧ .
(٤) آل عمران ١٤٥
(٥) الأحزاب ٦٢ .
(٦) الحديد ٣ .
(٧) العنكبوت ١٩ .
(٨) يونس ٤ .
(٩) يس ٨١ .
(١٠) فصلت ١١ .
(١١) الأنبياء ٣٠ .
(١٢) الحج ٤٧ .
(١٣) المعارج ٤ .
(١٤) فصلت ٩ .
(١٥) فصلت ١٥ .
(١٦) النور ٣٥ .
(١٧) النور ٤٢ .
(١٨) الأنبياء ٣٣ .
(١٩) الزمر ٥ .
(٢٠) يس ٣٨ .
(٢١) يونس ٥ .
(٢٢) البقرة ١٨٩ .
(٢٣) يس ٣٩ .
(٢٤) الأسراء ١٢ .
(٢٥) الأنعام ٩٦ .
(٢٦) النمل ٨٨ .
(٢٧) الأنعام ١٢٥
(٢٨) الرعد ٢ .
(٢٩) الرحمن ٧ .
(٣٠) فصلت ٩ .
(٣١) الحديد ٤ .
(٣٢) نوح ١٩ .
(٣٣) نوح ٢٠ .

(٣٤) الزمر ٥ .
(٣٥) النازعات ٣٠ .
(٣٦) النمل ٨٨ .
(٣٧) الحديد ٦ .
(٣٨) الأعراف ٥٤ .
(٣٩) النور ٤٤ .
(٤٠) لقمان ١٦ .
(٤١) فاطر ٢٧ .
(٤٢) الرعد ١٧ .
(٤٣) الأنبياء ٣١ .
(٤٤) النحل ١٥ .
(٤٥) النبأ ٦ ، ٧
(٤٦) الرعد ٤١ .
(٤٧) الرعد ١٢ .
(٤٨) النور ٤٣ .
(٤٩) الحجر ٢٢ .
(٥٠) الأعراف ٥٧ .
(٥١) الرعد ٣ .
(٥٢) الرعد ٤ .
(٥٣) المؤمنون ٢٠ .
(٥٤) النحل ١٤ .
(٥٥) البقرة ١٦٤ .
(٥٦) يس ٣٦ .
(٥٧) الشعراء ٧ .
(٥٨) الأنعام ٩٥ .
(٥٩) يس ٣٣ .
(٦٠) يس ٣٤ .
(٦١) يس ٣٥ .
(٦٢) النور ٤٥ .
(٦٣) آل عمران ٦ .
(٦٤) النساء ١ .
(٦٥) الأعراف ١٨٩ .
(٦٦) الزمر ٦ .
(٦٧) النحل ٥ .
(٦٨) يس ٧٢ .
(٦٩) النحل ٦٦ .
(٧٠) يس ٧٣ .
(٧١) النحل ٧ .
(٧٢) النحل ٨ .
(٧٣) النحل ٦٩ .
(٧٤) الروم ٥٤ .



الفهـــرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٥٦٣/١٩٨٧

ISBN ٩٧٧ - ٠١ - ١٢٤٤ - ٥



يتناول هذا الكتاب نواحى السلوك الإنسانى الفردية والاجتماعية كما أمر الله سبحانه وتعالى فى قرآنه الكريم .. وقد توخينا فى هذا الكتاب نواحى السلوك البشرى سواء مع نفسه أو مع غيره من بنى جنسه كما بينها الله تعالى فى خاتم كتبه قرآنه الكريم . ذلك السلوك الذى هو الرباط الروحى والمادى الذى يصل الإنسان بأخيه الإنسان بدءا من سلوكه الشخصى إلى سلوكه الاجتماعى مع غيره من بنى آدم ، القريب منهم والغريب .. ولو سار الناس على هدى كتاب الله الكريم لاهتدوا إلى خير السبل والعلاقات الإنسانية الكريمة التى فيها سعادة الفرد والمجتمع فى هذه الحياة الدنيا ورضوان الله وخير جزائه فى الحياة الآخرة .

٥٠٠ قرش

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب